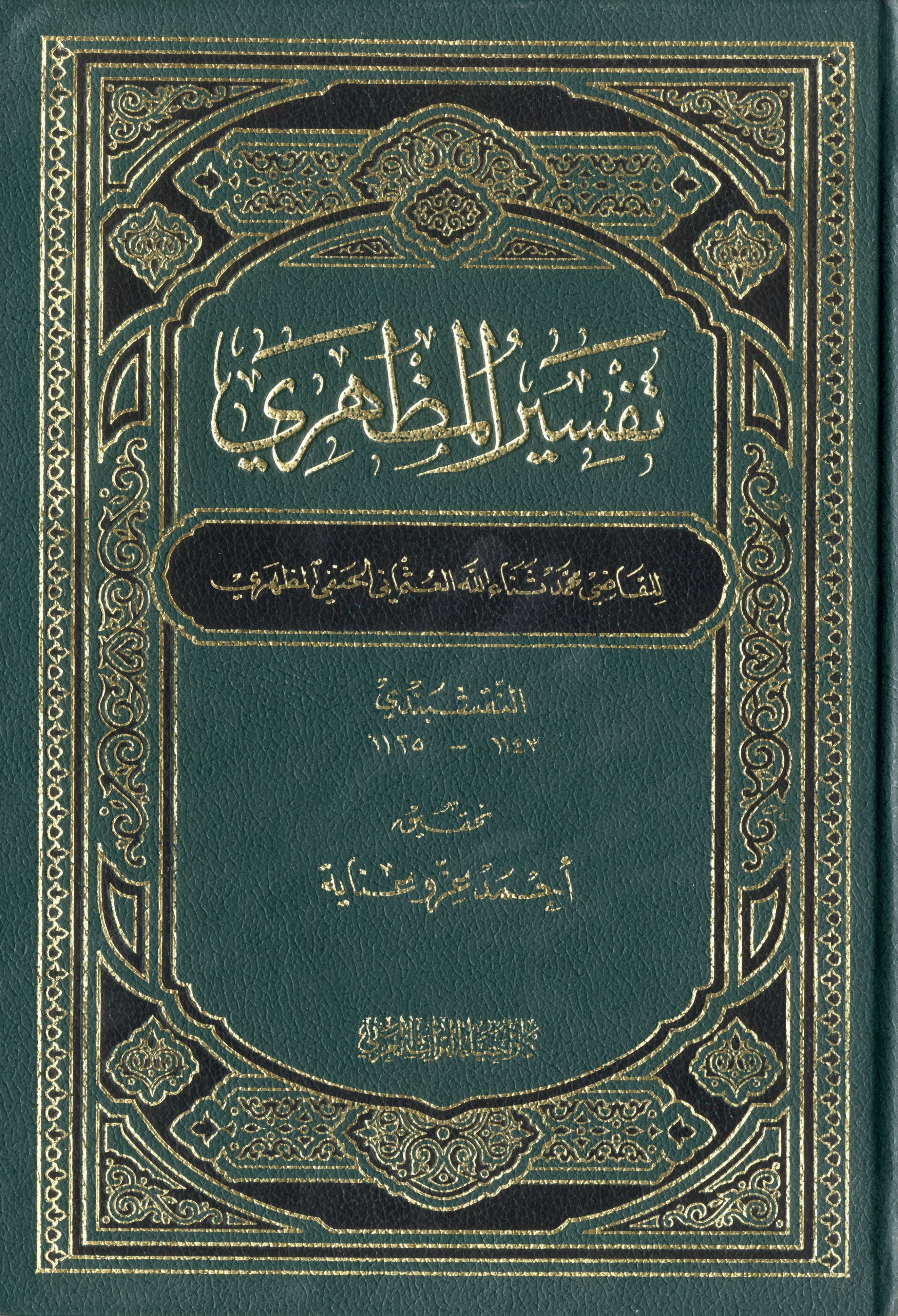

تفسير المظهري
للقاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري
النقشبندي
١١٤٣ - ١٢٢٥
تحقيق
أحمد عزو عناية
دار إحياء التراث العربي

تفسير المظهري



تأليف

القاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري
النقشبندي
١١٤٣ - ١١٢٥

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء العاشر



بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان

جلال الدين حقاني

بشاور بازار كتبخانه

تلفون: 091/220493 - موبيل: 0300/5902280 - باكستان

بيروت - لبنان - بناية كليوبترا - شارع دكاش

ص.ب: 11/7957 الرمز البريدي: 2250 1107

هاتف: 540000 - 544440 فاكس: 850717

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache

P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250

Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

سورة الحاقة

مكية وهي اثنام وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ أي القيامة لأنها حق وثابت وقوعها لا ريب فيه أو لأنها يحق فيها الأمور أي يعرف حقيقتها أو لأنها يحق الجزاء على الأعمال يقال: حق عليه الشيء إذا وجب قال الله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١) والإسناد مجازي مبتدأ وخبره ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ والرابط المظهر في مقام المضمر والاستفهام لتفخم شأنها والتهويل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ مبتدأ وأدراك خبره والاستفهام للإنكار ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ جملة الاستفهامية للتهويل مفعول لأدراك معنى الآية الحاقة ما هي أي شيء عظيم الهول إنك لا تعلم كنهها فإنها أعظم من أن يبلغها إدراك أحد ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام ﴿وَعَادٌۢ﴾ هود عليه السلام ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي بالساعة التي تقرع الناس بالإقراع والإحرام بالانفطار والانتثار وهي القيامة التي مر ذكرها بلفظ الحاقة فههنا وضع المظهر موضع المضمر بلفظ مرادف لما سبق مع زيادة فيوصف شدتها بياناً لذلك الزيادة والجملة خبر للحاقة الأولى بعد خبر، أو الجملتان السابقتان معترضتان للتهويل أو هذه الجملة مستأنفة مؤكدة بعنوان المبتدأ الأولى أي تحققها وثبوتها فإن مضمون هذه الجملة مع ما عطف عليها أن إنكارها وتكذيبها يوجب

(١) سورة الزمر، الآية: ٧١.

الهلاك والاستئصال ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ أما تفصيل لما أجمل والجملة معطوفة على كذبت الفاء للسببية تقديره كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأهلكوا بسبب تكذيبها أما ثمود فأهلكوا بالطاغية أي بالصيحة التي جاوزت مقادير الصياح فأهلكتهم كذا قال قتادة وهو الصحيح، وذلك أن جبرئيل عليه السلام صاح صيحة واحدة فهلكوا وقيل: أتتهم صيحة من السماء وفيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطفت قلوبهم في صدورهم وقيل الطاغية مصدر كالعافية بمعنى الطغيان أي أهلكوا لطغيانهم من التكذيب وقتل الناقة وغير ذلك، وقيل: المراد بالطاغية قدار بن سالف عاقر ناقة صالح والتاء للمبالغة أو الجماعة التي اتفقت على عقر الناقة وبعثت قذاراً لعقرها فإنها كانت سبب هلاكهم وذلك أن الله تعالى بعث صالحاً إلى ثمود فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا وطلبوا منه أن يخرج ناقة عشراء من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة آية حتى يؤمنوا به فدعا صالح ربه فخرجت منها ناقة عظمة مسافة ما بين جنبيها مائة وعشرون ذراعاً عشراء وولدت في الحال ولداً مثلها فلم يؤمنوا وقالوا هذا من سحره فجعل الله تعالى تلك الناقة نقمة لهم حيث كانوا قليل الماء فكانت الناقة تشرب ماءهم يوماً وتترك الماء لهم يوماً وكذا الكلاء فأجمع جماعة منهم على قتلها فبعثوا أشقى الناس وهو قدار بن سالف ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾[1] فقال صالح تمتعوا في داركم بعد قتلها ثلاثة أيام تصفر وجوهكم في اليوم الأول وتحمر في اليوم الثاني وتسود في الثالث ويصبحكم العذاب في الرابع فكان كذلك وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها لكن هذه التأويلات أي القول بأن المراد طاغة المصدر أو عاقر الناقة لا يصاعده العطف بأما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾ فإن فيه الباء للاستعانة فلا بد أن يكون فيما قبله أيضاً كذلك حتى يكون الجملتان تفصيلاً لمجمل ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديد البرد أو شديد الصوت كذا في القاموس ﴿عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا﴾ أي سلطها الله سبحانه بقدرته، استئناف أو صفة جيء به لنفي ما يتوهم من أنها كانت من اتصالات فلكية ونحو ذلك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على عاد ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ من صبيحة الأربعاء إلى غروب الشمس من الأربعاء الآخر قال وهب في الأيام التي تسميها العرب الأيام العجوز ذات برد ورياح شديد سميت عجوزاً لأنها عجز الشتاء إلى آخره، وقيل: سميت بذلك لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فتبعها الريح فقتلها في اليوم الثامن نزول العذاب وانقطع العذاب ﴿حُسُومًا﴾ حال من مفعول

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

سحر بمعنى متتابعات جمع حاسم من حسام الكي وهو أن يتتابع على موضع الداء بالمكواة حتى يبرأ كذا قال مجاهد وقتادة أو نحسات كما في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾[1] أي حسمت كل خير واستأصله من أصله كذا قال عطية أو قاطعات قطعن دابرهم كذا قال الزجاج والنضر بن شميل ويجوز أن يكون مصدراً منصوباً على العلية أو على المصدرية من فعل مقدر أي يحسمهم حسوماً ﴿فَتَرَى﴾ أي المخاطب الغير المعين حكاية عن الحال الماضية ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ أي عاداً ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الليالي والأيام أو في بينهما ﴿صَرۡعَىٰ﴾ جمع صريع بمعنى مصروع مفعول ثان لترى إن كان من رؤية القلب وإلا فهو حال من المفعول ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ﴾ أصول ﴿نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ متآكلة الأجواف جملة كأنهم حال بعد حال مفرد ولذلك وأيضاً لكونها مصدرة بكان ترك الواو ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ﴾ استفهام تقرير أي حمل المخاطب على الإقرار ﴿لَهُم﴾ أي لعاد ﴿مِّنۢ بَاقِيَةٖ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾ قرأ أبو عمر والكسائي بكسر القاف وفتح الباء بمعنى الجانب أي من معه من جنوده وأتباعه والباقون بفتح القاف وسكون الباء أي من تقدمه من الأمم الكافرة ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ أي قرى قوم لوط قلبت عليهم من إفك بمعنى قلب والمراد بها أهلها أو المعنى الأمم الذين أيتفكوا يعني قوم لوط ﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ والمعصية يعني الشرك أو بفعلة أو أفعال خاطئة ذات خطأ ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ يعني عصى فرعون موسى عليه السلام وكل أمته كافرة نبيها عطف تفسيري على جاء ﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾ معطوف على ما سبق والفاء للسببية ﴿أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾ زائدة في الشدة على كل أخذة مفعول مطلق لبيان النوع ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ أي جاوز حده حتى على كل شيء وارتفع فوقه في زمن نوح عليه السلام لما ظرف متعلق بما بعده ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾ أي حملنا آبائكم وأنتم في أصلابكم ﴿فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ في سفينة نوح عليه السلام جارية في الماء ﴿لِنَجۡعَلَهَا﴾ السفينة أوالفعلة وهي إنجاء المؤمنين الذين في السفينة مع طغيان الماء وتجاوزه عن حده ﴿لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾ عبرة وعظة لدلاتها على قدرة الصانع وحكمته وكما قهره ورحمته ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ أي تحفظها وتعقلها وتتفكر فيها قرأ الجمهور بكسر العين وفتح الياء وروي عن ابن كثير باختلاس العين قال صاحب التيسير لا يصح ذلك ﴿أُذُنٞ﴾ قرأ نافع أذن بالتخفيف والجمهور بالضمتين ﴿وَٰعِيَةٞ﴾ الوعي صفة القلب والنفس وإنما أسند إلى الأذن مجاز للتسبب أو المراد أصحاب أذن واع حذف المضاف وأجرى على المضاف إليه ما كان يجري على المضاف، والتنكير في واعية للدلالة على قلتها وإن من هذا شأنه فهو مع قلته سبب الإنجاء الجم الغفير وإدامة نسلهم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه

(١) سورة فصلت، الآية: ١٦.

القلوب أوعية فخيرها أوعاها[١]» رواه الطبراني لما بالغ في تهويل القيامة وذكر مآل المكذبين بها عاد إلى شرحها فقال:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ
ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ
يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ
هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «الصور قرن ينفخ فيه»[٢] رواه الترمذي وأبو داود والدارمي ﴿نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أحسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقييده حسن تذكيره للفصل والمراد بها نفخة الصعق. واختلفوا في عدد النفخات؟ فقيل: ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة البعث لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾[٣] ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾[٤] واختار هذا القول ابن العربي وكذا ورد صريحاً في حديث طويل عن أبي هريرة بلفظة «فينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين» رواه ابن جرير في تفسيره والطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وغيرهم. وقيل: بل نفختان فقط ونفخة الفزع نفخة الصعق لأن الأمرين متلازمان أي فزعوا فزعاً ماتوا عنه وهذا القول صححه القرطبي واستدل بأنه استثنى في نفخة الفزع كما استثنى في نفخة الصعق فدل على أنهما واحد في أكثر الأحاديث ذكر اثنتين فقط وما بينهما أربعون عاماً والحديث الطويل في إسناده من تكلم

---

(١) رواه الطبراني وفيه بشير بن ميمون الواسطي وهو مجمع على ضعفه.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأدعية، باب: «ادعوا وأنتم موقنون بالإجابة» (١٧٢٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: ذكر البعث والصور (٤٧٢٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الصور (٢٤٣٠).

(٣) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

فيه واختلف الناس في تصحيحه فصححه ابن العربي والقرطبي وضعفه البيهقي وعبد الحق ومدار هذا الحديث على إسماعيل بن رافع قاضي المدينة وقد تكلم فيه قال السيوطي في بعض سياقه نكارة وقد قيل إنه جمعه من طرق وأماكن متفرقة مسلمة سياقاً واحداً والله تعالى أعلم. والمراد بالظرف أعني قوله تعالى: إذا نفخ الزمان الطويل الذي سماه الله تعالى في كتابه بالحاقة والقارعة والقيامة والواقعة وغيرها من الأسماء الكثيرة وابتداء ذلك الزمان النفخة الأولى وانتهائه دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أخرج ابن عساكر عن زياد ابن مخراق قال: سأل الحجاج عكرمة مولى ابن عباس عن يوم القيامة أمن الدنيا هو أو من الآخرة قال صدر ذلك من الدنيا وآخرة من الآخرة فعلى هذا جاز إضافة ذلك الزمان إلى النفخ في الصور النفخة الأولى وإلى كل ما وقع في ذلك اليوم من الصعق والنشور والحسنات والشقاق السماوات وانتشار الكواكب ودخول الجنة والنار وغير ذلك فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ بيان لابتداء ذلك الوقت وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ إلى آخره وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾ إلى آخره كلاهما بيان للانتهاء به ﴿وَحُمِلَتِ﴾ أي رفعت ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ من أماكنها ﴿فَدُكَّتَا﴾ أي الأرض والجبال ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ الدك الدق والهدم كذا في القاموس وقال الجوهري أصله الكسر كذا ذكر البغوي، وقال الجوهري أيضاً الدك الأرض اللينة السهلة قوله تعالى: ﴿دكت الجبال دكا أي جعلت بمنزلة الأرض اللينة، والحاصل أن الأرض جعلتا مستوية دفعة واحدة لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً وأخرج البيهقي عن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ قال: يصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين وذلك وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة وجزاء الشرط محذوف أي إذا نفخ في الصور وحملت الأرض انقضت الدنيا وحقت الحاقة ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لما بعده بدل من إذا نفخ ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي الساعة المنتظرة التي وجب وقوعها بالكتاب والسنة أو المعنى وقعت الأمور الواقعة الواجبة الوقوع من الحسنات والجزاء ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ عطف على وقعت ﴿فَهِىَ﴾ أي السماء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لما بعده ﴿وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة مسترخية ليست على الشدة والقوة التي كانت عليها قال الفراء وهيها تشققها وفي القاموس الوهي الشق في الشيء يقال وهي إذا انشق واسترخى رباطها ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي الجنس المتعارف بالملك ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي جوانب السماء وأطرافها التي بقيت بعد الانشقاق ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ إضافة العرش إلى الله تعالى لتعظيمه ولاختصاصه بتجلي مخصوصة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ الضمير يعود إلى الثمانية لتقدمها في المرتبة أو إلى الملائكة الذين هم على أرجاء السماء ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي ثمانية أفلاك.

روى أبو داود والترمذي عن العباس بن عبد المطلب زعم أنه كان جالساً في البطحاء في عصابة ورسول الله ﷺ جالس فيهم فمرت سحابة فنظروا إليها فقال رسول الله ﷺ ما تسمون هذه؟ قالوا: السحاب، قال: والمزن؟ قالوا: والمزن، قال: والعنان؟ قالوا: والعنان، قال: هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري، قال: إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنان أو ثلاث وسبعون سنة والسماء التي فوقها كذلك حتى عد سبع سماوات ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء إلى السماء ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه ما بين سماء إلى سماء ثم الله فوق ذلك»[(١)] وروى البغوي هذا الحديث نحوه غير أنه ذكر «ما بين السماء والأرض وكذا ما بين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكذا ما بين أعلى البحر وأسفله» وإطلاق الأوعال وركبهن واختلاف المسافة باختلاف اعتبار السائرين والله تعالى أعلم، قال البغوي جاء في الحديث أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرون على صورة أوعال ما بين أظلافهم وركبهم كما بين سماء إلى سماء، وجاء في الحديث أن الواحد منهم وجه رجل والآخر وجه أسد والآخر وجه ثور والآخر وجه نسر وروي عن ابن عباس أنه قال: يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية أي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أيها الناس كافة على الله تعالى للحساب وهذا بعد نفخة البعث والجملة مستأنفة كأنها في جواب ما يفعل بنا ذلك اليوم ﴿لَا تَخْفَىٰ﴾ قرأ الجمهور بالتاء نظراً إلى تأنيث الفاعل وحمزة والكسائي بالياء للفصل ﴿مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي فعله سريرة وجملة لا يخفى إما بدل اشتمال من تعرضون أو حال من فاعله قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات أما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تتطاهر الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه بشماله»[(٢)] رواه الترمذي عن أبي هريرة وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري والبيهقي عن ابن مسعود، قال الحكيم الترمذي الجدال للأعداء يجادلون لأنهم لا يعرفون ربهم فيظنون أنهم إذا جادلوه نجوا وقامت حجتهم والمعاذير لله تعالى يعتذر إلى آدم وأنبيائه ويقيم حجة عندهم على الأعداء

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحاقة (٣٣٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: الجهمية (٤٧١٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في العرض (٢٤٢٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر البعث (٤١٧٧).

ثم يبعثهم إلى النار وأما العرضة الثالثة للمؤمنين وهو العرض إلا أن يخلو بهم فيعاتب مزيد عتابه في تلك الخلوة حتى يذوق الحياء والخجل ثم يغفر لهم ويرضى منهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وذلك هو المؤمن والجملة معطوفة على تعرضون تفصيل للعرض أي العرضة الثالثة ﴿فَيَقُولُ﴾ ذلك المؤمن تحجا بحجج خبر لمن ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم لخذ يقال هاء يا رجل ويا رجلان ويا امرأة ويا امرأتان وهاؤم يا رجال وهاؤن يا نساء ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ تنازع الفعلان هاؤم واقرأوا في مفعولية كتابيه فأعمل الثاني لقربه وحذف المفعول الأول ولو كان الأمر على العكس لقيل اقرأوه والهاء فيه وفي حسابيه وماليه وسلطانيه للسكت تثبت في الوقف وتسقط في الوصل واستحب الوقف لثباتها في الأيام الخالية ولذلك قرىء بإثباتها في الوصل أيضاً ﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾ أي علمت وأيقنت ولما كان اليقين بالحساب مستلزماً للإتيان بأعمال الصالحة كني به عنه كأنه قال إني عملت صالحاً وإنما لم يقل كذلك هضماً لنفسه ولأجل ذلك عبر عن العلم بالظن استحقاراً لنفسه عن دعوى العلم بحضرت ذي الجلال علام الغيوب، قال البيضاوي لعله عبر عنه بالظن إشعاراً بأنه لا يقدح في الاعتقاد الهجس في النفس من الخطرات التي لا ينفك عنها العلوم النظرية ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ مفعول لظننت قائم مقام المعفولين، أخرج ابن المبارك عن أبي عثمان النهدي قال: إن المؤمن ليعطى كتابه في ستر من الله تعالى فيقرأ سيئاته فيتغير لونه ثم يقرأ حسناته فرجع عليه لونه ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات فعند ذلك يقول هاؤم اقرأوا كتابيه ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ قال في القاموس أي مرضية يقال رضيت لعيشة بالبناء للمفعول ولا يقال رضيت بالفتح على البناء الفاعل قال البيضاوي أي ذات رضاء على النسبة بالصيغة أو جعل الفعل لها مجازاً ﴿فِى جَنَّةٍ﴾ متعلق بظرف مستقر قبله ﴿عَالِيَةٍ﴾ رفيعة الرتبة عند الله تعالى من حيث القرب الذي كيف له أو رفيعة المكان فإنها في السماء أو رفيعة الدرجات والأبنية والأشجار ولما كان رفعة الأشجار موهماً لبعد الثمار وكونها غير سهل للأخذ عقبة الله تعالى بصفة أخرى بعد صفة فقال ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثمارها جمع قطف ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة بحيث يدون منا تناولها قائماً وقاعداً وراقداً ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ أي أكلاً هنيئاً وشرباً هنيئاً والهنيء كل ما لا يلحق به مشقة ولا تعب أو المعنى يهنئهم هنيئاً وهذه الجملة بتقدير القول خبر بعد خبر بهو وجمع الضمير نظراً إلى المعنى أي هو في جنة وهم يقال لهم كلوا واشربوا أو مستأنفة في جواب ما يقال لهم فيها ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ متعلق بكلوا واشربوا على التنازع أي بما قدمتم من الأعمال الصالحة والسلف المتقدم من الشيء ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ الماضية من الأيام الدنيا فإن الخالي في الزمان والمكان ما لا يكون لهم شاغل

فهو من الزمان ما لم يبق أهله ويلزمه المضي والذهاب فيعبر عن الماضي بالخالي قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ وهو الكافر يجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه كذا أخرج البيهقي عن مجاهد، قال ابن السائب يلوي يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطي كتابه وقيل ينزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ﴿فَيَقُولُ﴾ لقبيح ما يرى فيه من الأعمال وسوء العاقبة ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ المنادى محذوف أي يا قوم ليتني ﴿لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ جملة استفهامية في محل المفعول للم أدر وجملة لم أوت مع ما عطف عليه خبر ليت ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ الضمير عائد إلى النفخة أو إلى غير مذكور أي يا قوم ليت الموتة التي في الدنيا أو الحالة التي كنت عليها من العدم بعد الوجود ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة للحياة مطلقاً بحيث لم أحيى بعدها، قال قتادة يتمنى الموت ولم يكن عذره في الدنيا شيء أكره من الموت ولما كانت جملة يا ليتني متمني عدم الحساب وإيتاء الكتاب وهو من حيث المعنى كناية عن تمني عدم البعث وجملة يا ليتها كانت القاضية تمني لعدم البعث صريحاً فلأجل كون الجملتين متحدي المعنى معنى لم يعطف إحداهما على الأخرى وجعلت الثانية تأكيداً للأولى ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى﴾ ما نافية أو استفهامية للإنكار مفعول لأغنى ﴿مَالِيَهْ ۜ﴾ أي مالي من المال والتبع ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ ملكي وتسلطي عن الناس أو حجة التي كنت

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

أحج بها في الدنيا، قرأ حمزة عني مالي وعني سلطاني بحذف الهائين في الوصل والباقون بإثباتهما في الحالين فيقول الله عز وجل لخزنة جهنم ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾ أي أجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ وكلمة ثم لتفاوت ما بينهما في الشدة وكذا فيما بعده وقدم المفعول للحصر أي لا تصلوه إلا الجحيم هي النار العظمى وكذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ الفاء في فاسلكوه زائدة لتحسين النظم وليست عاطفة حتى يلزم اجتماع العاطفتين ومعنى فاسلكوه أي أدخلوه فيها، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طريق العوفي عن ابن عباس قال يسلك في دبره حتى يخرج من منخربه حتى لا يقوم على رجليه، وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق ابن جرير عنه قال: السلسلة تدخل من أسته ثم يخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ثم يشوى، قال نوف البكائي الشامي سبعون ذراعاً كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة وكان في رحبة الكوفة أخرجه هناد وابن المبارك قال سفيان كل ذراع سبعون ذراعاً قال الحسن الله أعلم أي ذراع هو، قلت: لعله أراد ذراع الملك من خزنة النار أو ذراع الكافر في النار وقد ورد في الحديث: «ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث»[(١)] رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً، وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رضاضة هذه وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن يبلغ أصلها أو قعرها»[(٢)] وأخرج ابن المبارك عن كعب قال: إن حلقة من السلسلة مثل جميع حديد الدنيا وأخرج أبو نعيم عن محمد بن المنكدر قال: لو جمع حديد الدنيا كله ما خلى وما بقي ما عدل حلقة من حلق جهنم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ استئناف لبيان سبب ذلك العذاب وذكر العظيم للإشعار بأنه تعالى هو المستحق للعظمة فمن تعظم غيره استوجب العذاب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار»[(٣)] رواه مسلم ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ أي لا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤٠٨٥).
أما رواية مسلم فهي «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته» أخرجه في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر (٢٦٠٣).

يحث على إطعامه فضلاً أن يبذل من ماله ويجوز أن يكون ذكر الحض للإشعار بأن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف تارك الفعل، وفيه دليل على أن الكفار يعذبون على فروع الأعمال أيضاف، ولعل تخصيص الأمرين بالذكر لأن أقبح القبائح الكفر بالله وأشنع الشنائع البخل وقسوة القلب ﴿فَلَيْسَ لَهُ﴾ الفاء للسببية ﴿ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا﴾ ظرفان للظرف المستقر ﴿حَمِيمٌ﴾ قريب يحمه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ مستثنى مفرغ صفة للطعام ولا زائدة والقصر إضافي والغسلين غسالة أهل النار صديدهم فعلين من الغسل كذا أخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين صديد أهل النار وقال الضحاك والربيع شجر يأكله أهل النار وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن طريق مجاهد عن ابن عباس قال: ما أدري ما الغسلين ولكني أظنه الزقوم ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ مستثنى مفرغ في محل الفاعل والجملة صفة لغسلين أي أصحاب الخطايا من خطى الرجل إذا تعمد الذنب لا من الخطأ ضد الصواب ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم أو يقال لا زائدة ومعناه أقسم أو المعنى فلا أي فليس كما يقول الكفار من أن محمداً ﷺ تقول القرآن على الله تعالى من نفسه وهو شاعر أو كاهن ولا بعث ولا نشور أقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ بالبصر أو البصيرة من المظاهر والمعالي لصفات الله تعالى سبحانه ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ما لا يدركه الأبصار والبصائر من مراتب الصفات والشيونات وذات الله سبحانه، وقيل: ما تبصرون الدنيا وما لا تبصرون الآخرة، وقيل: ما تبصرون وما لا تبصرون الأجسام والأرواح أو الإنس والجن والملائكة أو النعم الظاهرة والباطنة وقيل: ما تبصرون ما أظهره الله من العلم على خلقه من الملائكة والجن والإنس وما لا تبصرون ما استأثر الله تعالى بعلمه فلم يطلع عليه أحد ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلغه من الله سبحانه لا يقول عن نفسه ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى وهو محمد ﷺ أو جبرئيل عليه السلام ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمونه تارة ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ منصوب على المصدرية أو الظرفية وما زائدة لتأكيد القلة متعلق بما بعده ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ أي تؤمنون إيماناً قليلاً أو زماناً قليلاً لما يظهر لكم صدقة وقلة إيمانهم المستدعي نفي الإيمان كثيراً مبني على العناد والتعنت فإنهم لا يؤمنون إيماناً كاملاً تعنتاً وعناداً لا غير، وقيل: أراد بالقليل نفي إيمانهم أصلاً كقولك لمن لا يزورك فلما تأتينا أصلاً والجملة معترضة لمذمة الكفار ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ لا زائدة وما بعده معطوف على خبر ما هو ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ذكر الإيمان مع نفي الشاعرية والتذكر مع عدم الكاهنية لأن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بيّن لا ينكرها إلا معاند وإما مباينته لكهانة فهو

يظهر عند تذكر أحوال الرسول ومعاني القرآن المنافية لأحوال الكهنة ومعاني أقوالهم، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يؤمنون ويذكرون بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ﴿تَنزِيلٌ﴾ مصدر يعني المفعول خبر مبتدى محذوف أي هو منزل ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على لسان جبرائيل جملة مستأنفة في جواب ما يقال فما هو ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ أي لو افترى وتكلف وتصنع في القول ﴿عَلَيْنَا﴾ من غير وحي منا ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ جمع أقولة من القول كالأضاحيك سمي بها الأقوال المفتراة ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ﴾ أي من المفتري ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ متعلق بأخذنا أي بيمينه لا ذلالة أو بيميناً وعلى التقدير الثاني من زائدة واليمين من المتشابهات وقد يأول بالقوة والقدرة لأن قوة كل شيء في يمينه قال ابن عباس لأخذناه بالقوة والقدرة ويحتمل أن يكون من في قوله تعالى: لأخذنا منه هو للسببية والضمير عائد إلى التقول أي لأخذنا من أجل التقول بيمينه أو يميناً ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وهو عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه ﴿فَمَا مِنكُم﴾ من بيانية لأخذ ظرف مستقر حال منه ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ اسم ما ومن زائدة ﴿عَنْهُ﴾ أي عن القتل أو المقتول المفتري متعلق لما بعده ﴿حَٰجِزِينَ﴾ جزءاً وحمله على أحد لعمومه معنى وجملة فما منكم معطوف على جزاء الشرط أي لأخذنا والشرطية معترضة بين المعطوف عليه وهو إنه لقول رسول كريم والمعطوف أعني ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم المنتفعون.

فائدة: ومقتضى هذه الآية قال المجدد إن تلاوة القرآن سبب للترقي بعد فناء النفس وزوال العين والأثر فإن التقوى لا يتصور إلا بعد الفناء وكون القرآن تذكرة مختص بالمتقي يدل عليه لام التخصيص وأما قبل الفناء فالتلاوة داخل في عملاً لأبرار دون المقربين المتقين عن رذائل النفس ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فنجازيهم على تكذيبهم وعدم تذكرهم به ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ﴾ أي سبب للحسرة ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حين يرون ثواب المؤمنين المتذكرين به ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ اليقين إزاحة الشك كذا في القاموس وفي الصحاح اليقين من صفة العلم فوق المعرفة وحمله على القرآن من قبيل زيد عدل أي متيقن كمال اليقين كأنه نفس اليقين يعني أن القرآن لوضوحه وسطوع برهان بحيث يتيقن به العاقل ولا يرتاب فيه والحق ضد الباطل، قال صاحب البحر يعني أنه اليقين الحق لا اليقين الباطل الذي هو الجهل لمركب فهو إضافة صفة إلى موصوفه بالتجريد على طريقة جرد قطيفة. فإن قيل المراد باليقين ها هنا ما يجب أن يكون متيقناً للعاقل لوضوح أمره وسطوع برهانه فاليقين بهذا المعنى هو الحق لا ما يعم اليقين الباطل الذي هو الجهل المركب فلا فائدة في إضافة

الحق إليه؟ قلنا: نعم لكن أضيف الحق إليه للتأكيد وزيادة التوضيح، وقال البغوي إلى نفسه لاختلاف اللفظين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقول عليه وعن كل ما لا يليق به وشكراً له على ما أوحي إليك قيل: معناه فصل بذكر ربك وأمره وقيل: الباء زائدة ولفظ الاسم مقحم ومعناه فسبح ربك العظيم، عن عقبة بن عامر الجهني قال لما نزلت على رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»(١) رواه أبو داود وابن ماجه والدارمي، وعن حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ كان يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربي الأعلى وما أتى آية رحمة إلا وقف وسأل وما أتى على آية العذاب إلا وقف وتعوذ(٢) رواه الترمذي وأبو داود والدارمي قال الترمذي حديث حسن صحيح ورواه النسائي وابن ماجه إلى قوله الأعلى، وعن عون بن عبد الله عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ركع أحدكم فقال في ركوعه سبحان ربي العظيم ثلاث مرات فقد تم ركوعه وذلك أدناه وإذا سجد فقال في سجوده سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات فقد تم سجوده وذلك أدناه»(٣) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وقال الترمذي ليس إسناده بمتصل لأن عوناً لم يلق ابن مسعود، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»(٤) متفق عليه وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة»(٥) رواه الترمذي.

مسألة:

تسبيحات الركوع والسجود سنة عند الجمهور وأدنى الكمال ثلاث تسبيحات وقال

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: التسبيح في الركوع والسجود (٨٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في التسبيح في الركوع والسجود (٢٥٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في التسبيح في الركوع والسجود (٢٥٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: مقدار الركوع والسجود (٨٨٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: التسبيح في اركوع والسجود (٨٩٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٤).

أحمد واجب وكذا الخلاف في تكبيرات انتقالات والتسميع والتحميد في القومة دون رب اغفر لي في الجلسة فلم يقل أحد بوجوبه احتج أحمد بقوله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» قال: الأمر للوجوب وفي حديث ابن مسعود علق تمام الركوع به والجمهور يحملون الأمر على الندب والله تعالى أعلم بالصواب.

تمت سورة الحاقة

سورة المعارج

مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾

﴿سَأَلَ﴾ قرأ نافع وابن عامر سال بالألف ساكنة بدلاً من الهمزة والباقون بهمزة وحمزة يجعلها في الوقف بين بين ﴿سَآئِلٌ﴾ أخرج النسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: هو النضر بن الحارث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذا أليم، وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: وكان عذابه يوم بدر فالمراد بالسؤال على هذا الدعاء وبدل على ذلك تعديته بالباء ويحتمل أن يكون سأل على قراءة نافع من السيلان والمعنى سأل واد بعذاب معنى الفعل لتحقق وقوعه إما في الدنيا وهو قتل بدر أو في الآخرة وهو عذاب النار قال البغوي سائل وأدٍ من أودية جهنم يروى ذلك عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، وأخرج بن المنذر عن الحسن قال: نزلت ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ فقال الناس على من يقع العذاب؟ فأنزل الله عز وجل ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ الخ يكون السؤال للاستفهام فالباء في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن أو يكون تعديته بالباء لتضمن سأل معنى أهم ﴿وَاقِعٍ﴾ صفة لعذاب ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة أخرى لعذاب أو صلة الواقع وإن كان السؤال عمن يقع به العذاب كان جواباً ليس له دافع صفة أخرى للعذاب أو هو في حيز الجواب أي واقع للكافرين ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من جهة الله لتعلق إرادته ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ صفة لله تعالى أي ذي المصاعد قال سعيد بن

جبير ذي الدرجات، قلت: وهي درجات القرب التي لا كيف لها التي تبلغ إليها الأنبياء والملائكة والأولياء ودرجات القبول يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح أو المصاعد في دار الثواب ودرجات الجنة، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتم الله تعالى فسألوه الفردوس»(١) رواه الترمذي، وعن أبي هريرة نحوه وفيه «ما بين الدرجتين مائة عام» وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من بينهم كما تراءون الكواكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله ﷺ «تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»(٢) متفق عليه، وقال ابن مسعود في السموات سماها معارج لأن الملائكة يعرج فيها وقال قتادة ذي الفواضل ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ قرأ الكسائي يعرج بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث والجملة صفة للمعارج على طريقة ولقد أمر على اللئيم يسبني والرابط محذوف أي تعرج فيها الملائكة والروح إليه والروح جبرائيل عليه السلام وأفرده لفضله أو أعظم خلق من الملائكة، قلت: ويحتمل أن يكون المراد بالروح روح البشر الذي هو من عالم الأمر فإن أرواح البشر من الأولياء والأنبياء تعرج من خفض البعد والغفلة إلى معارج القرب والحضرة ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله سبحانه أو إلى عرشه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الظرف متعلق بمحذوف دل عليه واقع أي يقع العذاب بهم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة يعني يوم القيامة كذا أخرج البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس وقال يمان يوم القيامة فيه خمسين موطناً كل موطن ألف سنة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاة الكنز إلا أحي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت تستن عليه لا يفقد منها فصيلاً واحداً يطأ بأخفافها وتعض بأفواهها كلما مرعليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة درجات الجنة (٢٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاءفي صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: ترائي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣١).

فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بطح له بقاع فرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولاغضباء تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها كما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حين يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[١] وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي بسند حسن عن أبي سعيد قال: سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا» قلت: فعلى هذا التأويل لا تصادم بين هذه الآية وبين قوله تعالى في تنزيل السجدة ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٢] إذ معناه يحكم الله تعالى بالأمر وينزل به جبرئيل من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه جبرئيل في يوم من أيام الدنيا وكان قدر سيره ألف سنة خمسمائة سنة نزوله وخمسمائة عروجه لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام يعنى لو سار تلك المسافة واحد من بني آدم لم يقطعه إلا في ألف سنة لكن الملائكة يقطعون في يوم واحد بل في أدنى زمان. أخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم كان مقداره ألف سنة وفي قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ قال: هذا يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، وقيل: المراد من الآيتين يوم القيامة يكون على بعضهم أقول وعلى بعضهم أقصر حتى يكون على المؤمنين أهون من الصلاة المكتوبة كما مر، وأخرج الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً يكون على المؤمنين كمقدار ما بين الظهر والعصر، ومعنى قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ مدة أيام الدنيا ثم يعرج أي يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الأمراء وحكم الحكام في يوم كان مقداره ألف سنة، وقيل: الظرف في هذه الآية أعني قوله تعالى في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة متعلق بيعرج كما هو متعلق في سورة التنزيل ووجه الجمع بين الآيتين أن المراد في آية سورة التنزيل أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه من الأرض إلى السماء في يوم وقدر مسيره ألف سنة لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام فصار نزوله وعروجه ألف سنة والمراد في هذه السورة مدة المسافة من منتهى الأرض السابعة إلى منتهى أعلى السموات فوق

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة (٩٨٧).

(٢) سورة السجدة، الآية: ٥.

السماء السابعة، قال البغوي روى ليث عن مجاهد أن مقدار هذا خمسين ألف سنة وقال محمد بن إسحاق لو سار ابن آدم من الدنيا إلى موض العرش سيراً طبيعياً له سار خمسين ألف سنة ومن ها هنا قالت الصوفية العلية: إن فناء القلب الذي يحصل للصوفي بالجذب من الله تعالى بتوسط النبي ﷺ والمشايخ لو أراد واحد أن يحصله بالعبادات والرياضات من غير جذب من الشيخ فإنما يحصل له في زمان كان مقداره خمسين ألف سنة وإذا لم يتصور بقاء أحد بل بقاء الدنيا إلى هذه المدة ظهر أن الوصول إلى الله تعالى من غير جذب منه تعالى بتوسط أحد من المشايخ كما هو المعتاد وبلا توسط روح رجل كما يكون لبعض الآيسين من الأفراد محال والله المستعان ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد على تكذيبهم ﴿صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ لا يشعر به استعجال واضطراب وجزع والفاء للسببية متعلق بسأل فإن السؤال عن تعنت واستهزاء وذلك مما نضجر به فالمعنى فاصبر ولا تضجر عن سؤالهم ولا تستعجل في عقوبتهم أو متعلق بسأل على قراءة نافع أو بمحذوف متعلق به في يوم على معنى فاصبر فقد سأل بهم العذاب وقرب وقوعه يقع ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي الكفار ﴿يَرَوۡنَهُۥ﴾ أي العذاب ﴿بَعِيدٗا﴾ من الإمكان أو مستبعداً في العقل محتملاً احتمالاً ضعيفاً ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ في الوقوع فإن كل ما هو آت قريب والقرب في الوقوع يستلزم على تقدير كونه متعلقاً بمحذوف وإن كان هو متعلقاً بيعرج فهذا متعلق بمضمر دل عليه واقع ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨﴾ المذاب من النحاس وغيره من الفلزات أو دردي الزيت، أخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: السماء يكون ألواناً تكون كالمهل وتكون ورداً كالدهان وتكون واهية تشقق فيكون حالاً بعد حال ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩﴾ أي كالصوف المصبوغ ألواناً لأن الجبال مختلفة الألوان فإذا بسطت وطيرت في الهواء اشتبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾ لا يسأل قريب لشدة ما يقع على نفسه معطوف على تكون أضيف إليه يوم بواسطة حرف العطف، قرأ البراء عن ابن كثير لا يسأل بضم الياء على بناء المفعول أي لا يطلب حميم من حميم أو لا يسأل منه حاله وهذا لاختلاف ليس في المشهور ولم يذكره في التيسير ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ أي يرونهم صفة لحميم أو استئناف يدل على أن المانع من السؤال ليس الخفاء بل إما تشاغل كل عن السؤال عن غيره لشدة على نفسه أو الغيبة عن السؤال بمشاهدة الحال كبياض الوجه وسواده ونحو ذلك وجمع الضميرين لعموم الحميم لوقوعه نكرة في حيز النفي، قال البغوي ليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس فيكون للرجل أباه وأخاه وقرابته ويبصر حميمه فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه، وقيل: معنى يبصرونهم يعترفونهم أما المؤمن فببياض

الوجه وأما الكافر فبسواد الوجه ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ﴿ٱلْمُجْرِمُ﴾ المشرك الجملة حال من فاعل يبصرونهم أو من مفعوله والعائد وضع المظهر موضع الضمير أو مستأنفة في جواب ما يصنع المجرم يعني أن المجرم يشتغل بنفسه عن غيره بحيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس وأحبهم إليه في الدنيا فضلاً أن يهتم بحاله ويسأله وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ مختص بالكفار وأما المؤمنون فيسألون أحمامهم ويشفعون لهم وقد تواتر في ذلك الأحاديث بالمعنى قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد منا شدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين لله تعالى يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا»(١) الحديث متفق عليه، وفي حديث طويل عن أبي سعيد الخدري ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ أي المجرم أو المتمني والجملة بيان للوداد ﴿مِنْ عَذَابِ﴾ متعلق بيفتدي مضاف إلى ﴿يَوْمِئِذٍۭ﴾ قرأه الجمهور مجروراً بالإضافة وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم لاكتسابه البناء من المضاف إليه ﴿بِبَنِيهِ﴾ مع ما عطف عليه متعلق بيفتدي ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته ﴿وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي عشيرته الذين فصل عنهم ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ عند الشدائد ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ذلك الافتداء معطوف على يفتدي عطف بثم للاستبعاد ﴿كَلَّآ﴾ لا ينجيه من عذاب الله شيء ردع المجرم عن الوداد ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير لغير مذكور وهي النار يدل عليه العذاب أو ضمير مبهم ﴿لَظَىٰ﴾ وهو خبر أو بدل أو الضمير للقصة ولظى مبتدأ وخبره ما بعده على تقدير كونه مرفوعاً واللظى اللهب الخالص، قال البغوي هو اسم من أسماء الجهنم، وقيل: هي الدركة الثانية سميت بذلك لأنها تتلظى أي تتلهب، أمال الهمزة والكسائي لظى وللشوى وتولى وفأوعى وورش وأبو عمر بين بين والباقون بالفتح ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي الأطراف اليدان والرجلان أو جمع شواة وهي لجلدة الرأس كذا قال مجاهد وروى إبراهيم بن مهاجر عنه اللحم دون العظام، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس العصب والعقب وقال الكلبي يأكل الدماغ ثم يعود كما كان، قرأ حفص عن عاصم نزاعة بالنصب على الاختصاص أو الحال المؤكدة مرادف أو المنتقلة على أن لظى بمعنى ملتظية والباقون بالرفع ﴿تَدْعُوا۟﴾ أي النار خبر بعد خبر لأن أو للظى ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة فيقول النار إلي يا مشرك إليّ يا منافق إل إلي، قال ابن عباس يدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح ثم يلتقطهم كما يلتقط الطير

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣)، وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (٧٤٣٩).

الحب ﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ أي جعله في وعاء وأمسكه ولم يؤد حق الله تعالى عنه:

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ حال مقدرة إن أريد اتصافه بالهلع بالفعل ومحققة إن أريد اشتماله على مبدأ تلك الصفة فإنها من أمور الجبلية التي هي من رذائل النفس المقتضى للاتصاف به بالقوة، وجملة إن الإنسان في محل التعليل لقوله أدبر الخ، والهلوع الحريص على ما لا يحل له رواه السدي عن أبي صالح عن ابن عباس وقال سعيد بن جبير الشحيح، وقال عكرمة الضجور وقال قتادة الجزوع، وقال مقاتل ضيق القلب والهلع شدة الحرص وقلة الصبر، وقال عطية عن ابن عباس تفسيره ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ لا يصبر ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ المال ﴿مَنُوعًا﴾ لا ينفق في سبيل الله ولا يشكر، عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[1] متفق عليه، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر»[2] متفق عليه ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي المؤمنين الكاملين عبر بالمصلي عن المؤمن أي المؤمن الكامل كما عبر بالإيمان عن الصلاة في قوله تعالى: »وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] فإن الصلاة أعلى مقامات المؤمن وهي معراج المؤمن وعماد الدين قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: مايتقى من فتنة المال (٦٤٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً (١٠٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٧).

(٣) الآية هي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

المجدد حقيقة الصلاة فوق سائر المقامات التي يمكن حصولها للبشر والاستثناء متصل إن كان اللام في الإنسان للجنس أو للاستغراق فهو مفرد في معنى الجمع أو المعنى أن المجرم أدبر وتولى الخ لأن جنس الإنسان أو كل فرد من خلق مقدراً منه الهلع إلا المؤمنين الكاملين الموصوفين بالصفات المذكورة الدالة على الاستغراق في طاعة الله تعالى والإشفاق على الخلق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وعدم إيثار العاجل على الآجل فإنهم لم يخلقوا هلوعاً بل خلقوا مقدراً منهم الصبر على الضراء والشرك على السراء الموجبين للإكرام في الجنات، روى مسلم عن حبيب قال قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن إن أصابته السراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً»(١) فعلى هذا التأويل وزان هذه الآية وزان قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٢) الخ ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً إن كان اللام في الإنسان للعهد والمعنى المجرم الذي أدبر وتولى الخ خلق هلوعاً لكن المؤمن الموصوف بتلك الصفات لم يخلق كذلك بل خلق مستعداً للإكرام في الجنات وعلى كلا التأويلين تدل هذه الآية على أن استعدادات الإنسان مختلفة في أصل الخلقة كما قال به المجدد أن مبادي تعينات المؤمن جزئيات للاسم الهادي ومباديء تعينات الكفار جزئيات لاسم المضل وقال رسول الله ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام»(٣) وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»(٤) رواه مسلم في الباب أحاديث كثيرة جداً ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ أي مقبلون في الصلاة بقلوبهم إلى الله تعالى وبأبصارهم إلى موضع السجود دائماً ما داموا في الصلاة فهل بمعنى أورد في سورة المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾(٥) فلا يلزم التكرار بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٢) سورة العصر، الآية: ٢ ـ ٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: قول الله تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾** (٣٤٩٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: خيار الناس (٢٥٢٦).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٦٢).

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٢١.

يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ إذ المراد بالدوام دوام الحضور بالمحافظة التحرز عن فواتها وفوات شرائطها وأركانها وآدابها روى البغوي بسنده عن أبي الخير أنه قال: سألنا عقبة بن عامر عن قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الذين يصلون أبداً؟ قال: لا ولكنه إذا صلى لا يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه، وروى أحمد وأبو داود والنسائي والدارمي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الله عز وجل مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه»[1] وروى البيهقي في السنن الكبير عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يا أنس اجعل بصرك حيث تسجد»، وروى الترمذي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الالتفات في الصلاة هلكة»[2].

فائدة: في جعل البصر حيث يسجد تأثير عظيم لدفع الخطرات وحضور القلب ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾ كالزكاة والصدقات الموظفة ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يسأل فيحرم عن العطاء غالباً قوله للسائل الخ صفة لحق بعد صفة ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ فإن التصديق بيوم الدين لوكان على حقيقة لا يكون الإنسان جزوعاً في الشربل صابراً تحسباً ولا منوعاً في الخير فتقف طالباً للثواب ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ خائفون على أنفسهم فإن متقضى التصديق والإيمان الخوف والرجاء ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ لا يقدر على منعه أحد ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ قدم المفعول لرعاية الفواصل وزيدت اللام لتقوية عمل المشتق والفرج اسم سوأة الرجلُ والمرأة وحفظ الفرج عدم استعماله فيما يشتهيه ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ استثناء مفرغ وءنما صح في الإثبات لتضمن الحفظ معنى النفي وعلى صلة للحافظين من قولك احفظ على عنان فرسي أي يحفظون فروجهم على النساء إلا على أزواجهم فهي حينئذ بمعنى من أو حال أي حفظوها في كافة الأحوال إلا في حال التزوج أو التسري، ويحتمل أن يكون الاستثناء من فعل منفي مقدر دل عليه الحفظ أي يحفظون فروجهم لا يبذلونها على امرأة إلا على أزواجهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي سرياتهم وإنما قال ما بإجراء المماليك مجرى غير العقلاء فإن الشرع ألحقهم بها عقاباً على كفرهم فأجاز بيعهم واستخدامهم، والمراد بما ملكت أيمانهم السرايا دون العبيد فإنه لا يجوز للرجال إتيان العبد في دبره لما بيّنا حرمته

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الالتفات في الصلاة (٩٠٨)، وأخرجه النسائي في كتاب: السهو» باب: التشديد في الالتفات في الصلاة (١١٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما ذكر في الالتفات في الصلاة (٥٨٥).

في سورة البقرة بالسنة والقياس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[1] فإن قيل: كيف يقدم السنة والقياس على نص الكتاب الوارد ها هنا لعموم قوله تعالى ما ملكت أيمانهم العبيد والإماء؟ قلنا: ليس على هذه إجماعاً فإنه لا يجوز وطىء امرأة في حالة الحيض والظهار ولا وطىء أمة محرمة عليه بالرضاع فيجوز تخصيص هذا النص بخبر الآحاد والقياس ولا يجوز للمرأة الاستمتاع بفرج عبده فإن كلمة على في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ وكلمة ما التي هي لغير العقلاء تدلان على جواز استعمال المماليك استعمال المفترش لا على عكس ذلك في وطىء الأمة دون تمكين العبد ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل لمضمون الاستثناء فإن عدم حفظ الفرج عن الزوجة والسرية وإتيانهن على وجه مشروع لا يلام عليه فإنه مباح ضرورة إبقاء النسل، وسياق الكلام يدل على أن الأصل في الجماع الحرمة كما ذكرنا في سورة البقرة وإنما صح بشرائط من النكاح أو ملك اليمين وعدم الجزئية والطهارة من الحيض والنفاس والإتيان في محل الولد دون الدبر ﴿فَمَنِ﴾ الفاء للسببية ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ أي طلب الإتيان ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي وراء الزوجات والسرايا ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ المبتغين وراء ذلك ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان حيث أتى بفعل حرام مع الكفاية بما أحل الله تعالى قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل رأى امرأة تعجبه فليقم إلى أهله فإن معها مثل الذي معها» رواه الدارمي عن ابن مسعود.

مسألة: وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز متعة النكاح فإن المرأة لا تدخل بالمتعة في الزوجات حتى أن القائلين بإباحتها لا يقولون بجريان التوارث بالمتعة، وقال البغوي وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام وهو قول العلماء، قال ابن جريج سألت عطاء عنه فقال مكروه سمعت أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى فأظن أنهم هؤلاء، وعن سعيد بن جبير قال عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم، قلت: وفي الباب حديث أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ملعون من نكح يده» رواه الأزدي في الضعفاء وابن الجوزي من طريق الحسن بن عرفة في جزئية المشهور بلفظ «سبعة لا ينظر الله إليهم فذكر الناكح يده» وإسناده ضعيف ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير لأماناتهم ها هنا وفي المؤمنين بغير ألف على التوحيد والباقون على الجمع ﴿وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ حافظون أي يحفظون الأمانات ويؤدونها إلى أهلها فمنها ما هي بينه وبين الله تعالى كالصلاة والصوم والغسل من الجنابة وغير ذلك والفرائض الواجبة حقاً لله تعالى، ومن هذا الباب إضافة الكمالات من الوجود وتوابعها

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

والنعماء الظاهرة والباطنة كله إلى الله تعالى فيجب العلم والإقرار بأنها كلها من عواري الله المستودعة حتى يجد نفسه فقراً خالياً عنها حين وجودها كلابس ثوب العارية عاري في الحقيقة فيعلم أن الكبرياء والعظمة رداء الله تعالى وإزاره لا يجوز لأحد التنازع فيه ويشكر عند وجود النعم ويصبر عند سلبها ولا يجزع، ومنها ما هي بين العباد كالودائع والبضائع والعواري فعلى العبد الوفاء لجميعها ويحفظون العهود التي عاهدوا الله تعالى يوم الميثاق وغير ذلك كما أن الله تعالى أخذ العهد من أهل الكتاب إن بينوا نعت النبي ﷺ ولا يكتمونه والعهود التي عاهدوا فيما بينهم في المعاملات والمعاشرات فإبقاء كلها واجب، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث - زاد مسلم - وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» ثم اتفقا «إذا حدث كذب وإذا وعد خلف وإذا ائتمن خان»[1] وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عهد غدر وإذا خاصم فجر» وروى أبو داود عن عبد الله بن أبي الحسماء قال: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت فذكرت بعد ثلاث فإذا هو في مكانه فقال: «لقد شققت علي أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك»[2] ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بشهادات على الجمع والباقون بالإفراد ﴿قَآئِمُونَ﴾ أي يقومون فيها بالحق فلا يكتمونها ولا يغيرونها ولا يخافون لومة لائم سواء كانت الشهادة قط خالصاً لله تعالى كالشهادة على التوحيد والرسالة وشهادة أهل الكتاب على ما في التوراة من نعت النبي ﷺ والشهادة بهلال رمضان وبالحدود ونحو ذلك أو كانت الشهادة حقاً للعباد بالمداينات ونحوها على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي يراعون أوقاتها وأركانها وسننها وآدابها ويحترزون عن فواتها وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخراً بوجيهن مختلفتين للدلالة على فضلها على غيرها من أركان الإسلام ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي أهل هذه الصفات ﴿فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ خبر لأولئك وفي جنات ظرف متعلق به قدم عليه لرعاية الفواصل.

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في العدة (٤٩٨٨).

﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الفاء للسببية وما استفهامية للتوبيخ مبتدأ خبره ما بعده، قال البغوي نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه ويستهزئون به ويكذبونه فقال الله تعالى توبيخاً ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك ولا ينتفعون بما يستمعون من ﴿قِبَلَكَ﴾ ظرف متعلق بما بعده ﴿مُهْطِعِينَ﴾ حال من الذين كفروا وعامله معنى الفعل أي ما يصنع الكافرون مهطعين قبلك أي مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم ومدِ النظر إليك متطلعين إليك كذا قال البغوي، وفي القاموس هطع كمنع هطؤها وهطعاً أسرع مقبلاً خائفاً وأقبل يبصره على الشيء لا يقلع عنه وأهطع مد عنقه وصوب رأسه ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ متعلق بمهطعين ﴿عِزِينَ﴾ جماعات في تفرقة واحدتها عزة كذا في الصحاح وفي القاموس عزة كعدة العصبة من الناس ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ بلا إيمان وعمل صالح استفهام إنكار رداً لقولهم مع زعمهم كون البعث مستحيلاً لو كان كما يقول محمد لنكون فيها أفضل حظاً منهم كما في الدنيا ﴿كَلَّا﴾ ردع من ذلك الطمع الباطل ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ استدلال بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الثانية وبطلان دعوى استحالة البعث وتعليل لبطلان طمعهم في دخول الجنة بلا إيمان والمعنى إنا خلقناهم من نطفة مستقذرة ثم من علقة كذلك ثم من مضغة لا يقتضي شيء منها للإكرام ولا يناسب عالم القدس فمن لم يستكمل نفسه بالإيمان والطاعة ولم يتخلق بالأخلاق المرضية لله سبحانه لم يستعد دخولها، روى البغوي بسنده عن بُسر بن جحاش قال: قال رسول الله ﷺ: وبصق يوماً في كفه ووضع عليها أصبعه فقال: «يقول الله ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا حتى إذا سويتك وعدلتك ومشيت بين بردين والأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت الصدق فإني أوان الصدق» أو المعنى إنا خلقناهم من أجل ما تعملون حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1] أي ليعرفون فمن لم يستكمل نفسه بالعلم والعمل كيف يطمع منازل الكاملين ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ يعني مشارق الكواكب ومغاربها ومشرق

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

الشمس والقمر كل يوم من أيام السنة ومغربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم أو نعطي محمداً ﷺ بدلكم من هو خير منكم وهم المؤمنون الأنصار لله ولرسوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بمغلوبين إن أردنا أن نهلكهم معطوف على إنا لقادرون وفي ذكره بوب المشارق والمغارب الاستدلال بقدرته تعالى على خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر والكواكب واختلاف مشارق كل منها كل يوم ومغاربها على قدرته تعالى وعدم عجزه من تبديلهم عمن هم خير منهم ﴿فَذَرْهُمْ﴾ الفاء للسببية يعني إذا علمت قدرتنا على إهلاكهم فلا تهتم بهم فإنما أردنا استدراجهم وتعذيبهم أشد العذاب ﴿يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم الفعلان مجزومان على جواب الأمر ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾ متعلق بقوله ذرهم يعني ذرهم كي يلاقوا ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ العذاب فيه ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور بدل من يومهم ﴿سِرَاعًا﴾ جمع سريع ككراماً جمع كريم حال بما أسند إليه يخرجون ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ متعلق بما بعده أي ﴿يُوفِضُونَ﴾ أي يسرعون حال بعد حال، قرأ ابن عامر وحفص بضم النون والباقون بفتح النون وءسكان الصاد، قال مقاتل والكسائي يعني إلى أوثانهم الذي كانوا يعبدونها من دون الله يعني أنهم كما كانوا يسرعون إلى أوثانهم أيهم يستلمها أولاً كذلك يسرعون من الأجداث إلى المحشر ليروا جزاء أعمالهم وقال الكلب إلى علم وإرادته يعني كما أن أهل العسكر يسرعون إلى أعلامهم ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال أيضاً ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ القليل للخشوع أو بيان له ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا وينكرونها تأكيد لما سبق أو استئناف والله أعلم.

سورة نوح

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى
لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا
وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ
ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّىٓ
أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا
تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥)
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ
فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا
(٢٠)﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ جيء بأن في ابتداء الكلام لإظهار الاهتمام وتقييد إرساله إلى قومه على أنه ﷺ لم يكن مبعوثاً إلى الناس كافة كما يدل عليه حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[١] متفق عليه، وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التيمم (٣٢٨)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١).

الأنبياء بست» فذكر نحوه غير أنه لم يذكر «وأعطيت الشفاعة» وذكر فيه «وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبوة» رواه مسلم ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أن مفسره لتضمن الإرسال معنى القول ويحتمل أن يكون مصدرية بمعنى بأن قلنا أنذر لا بمعنى بأن أنذر قومك فإنه يختبط الكلام بضمير الغيبة والخطاب ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة والطوفان إن لم يؤمنوا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ أنذركم وأبين لكم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ فلا تشركوا به شيئاً ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ مجزوم على جواب الأمر فإن الإيمان والطاعة سبب للمغفرة، عن عمرو بن العاص قال: أتيت النبي ﷺ فقلت ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه فقبضت يديه فقال: مالك يا عمر؟ قلت: أردت أن أشترط، قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي، قال: أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله»[١] رواه مسلم، وعن ومعاذ قال كنت ردف رسول الله ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا»[٢] متفق عليه، وعن أنس هذه القصة نحوه وفيه فأخبر بها معاذ عند موته تاثماً متفق عليه ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ من زائدة أو للتعبيض أي بعض ذنوبكم يعني ما هو حق الله تعالى ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ أي يعافيكم فلا يعاقبكم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو أقصى ما قدر لكم بشرط الإيمان والطاعة.

مسألة:

اعلم أن القضاء على نوعين قضاء مبرم ومعلق فالمعلق ما كتب في اللوح المحفوظ أن فلاناً إن أطاع الله تعالى عوفي إلى مدة كذا مثلاً وإن عصى الله يرسل عليه الطوفان مثلاً أو غير ذلك وهذا النوع من القضاء يجوز تبديله بفقدان الشرط وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾[٣] وعن سلمان الفارسي قال: قال

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٣٠).

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

رسول الله ﷺ: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»[١] رواه الترمذي، والمبرم وهو المراد بقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾[٢]. ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي الأجل الذي قدره الله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ﴾ على الوجه المقدر به ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فأما المبرم فلا يؤخر قط أما المعلق فلا يؤخر إن جاء على ما علق به فبادروا بالطاعات في أوقات الإمهال والتأخير قبل الأجل المبرم ولا ترتكبوا المعاصي الموجبة للتعذيب المفضية إلى الأجل المعلق. فإن قيل مذهب أهل السنة أن الأجل واحد لا يزيد ولا ينقص حتى قالوا المقتول ميت بأجله وما ورد في الحديث «لا يزيد في العمر إلا البر» تأويله عندهم أن البر يزيد بركات العمر بكثرة الثواب وما ذكرت يشبه مذهب المعتزلة؟ قلنا: ليس كذلك بل المعتزلة ينكرون القدر ويجعلون القاتلون خالقاً لموت المقتول ما ذكرت هو مذهب أهل السنة فإن معنى قولهم الأجل واحد لا يزيد ولا ينقص هو الأجل الثابت بالقضاء المبرم لا تبديل فيه لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون والمقتول ميت بأجله المبرم وإن كان التعليق في اللوح المحفوظ أنه إن قتله فلان مات وإلا لم يمت لكنه المبرم في القضاء أنه يقتله فلان البتة وأنه يموت في ذلك الوقت بقتله البتة ولا يوجد شرط بقاءه بعد ذلك الوقت البتة لا حاجة إلى تأويل الحديث، عن أبي خزامة عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله ﷺ أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»[٣] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه يعني أن الله تعالى قدر أنه يتداوى فيحصل له الشفاء بالدواء ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني لو كنتم من أهل العلم والنظر لمصلحتهم وفيه أنهم لانهماكهم في الشهوات كأنهم كانوا شاكين في الموت، قال ابن عباس بعث نوح وهو ابن أربعين وعاش بعد الطوفان ستين سنة، وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة وقيل: ابن خمسين سنة وقيل: مائتين وخمسين سنة وكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة ولا شك في أنه لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وروى الضحاك عن ابن عباس أن قوم نوح كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط فيلقونه في بلد ويلقونه في بيت أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، وحكى محمد بن إسحاق عن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٢١٣٩).

(٢) سورة يونس، الآية: ٦٤.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الطب، باب: ما جاء في الرقى والأدوية (٢٠٦٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٧).

عبيد بن عمر الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون بنوح عليه السلام فيخنقونه حتى تغشى عليه فإذا أفاق قال رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. حتى إذا عادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء انتظر النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذين قبلهم حتى كان الآخرون منهم ليقولن قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً فشكى إلى الله عز وجل ﴿وَقَالَ﴾ وفي الكلام حذف اختصاراً تقديره قال نوح كذا فكذبوه فلم يزل نوح على دعوتهم والقوم على إنكاره حتى قال نوح ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دائماً ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ﴾ قرأ الكوفيون دعائي بإسكان الياء والباقون بالفتح ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ عن الإيمان والطاعة وإسناد الزيادة إلى الدعاء على السببية كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[1] ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾[2] ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسبب الإيمان ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ يغطوا بها لئلا يرو ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ على الكفر والمعاصي ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ عظيماً ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨﴾ منصوب على المصدرية لأنه أحد نوعي الدعاء أو صفة مصدر محذوف أي دعاء جهاراً أي مجاهراً به أو عن الحال بمعنى مجاهراً ﴿ثُمَّ إِنِّي﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بإسكان الياء والباقون بالفتح ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ وكلمة ثم لتفاوت الوجوه فإن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بينهما أغلظ من الإفراد والتراخي بعضها عن بعض ﴿فَقُلْتُ﴾ بيان لقوله دعوتهم، وقال البغوي إن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أولادهم وأموالهم ومواشيهم فحينئذ قال لهم نوح عليه السلام ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر والندم عن المعاصي وتركها فيما يستقبل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين تعليل لقوله استغفروا ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي المطر تسمية الحال باسم المحل ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ حال من السماء أي كثير دره ويستوي في هذا البيان المذكر والمؤنث ويرسل مع ما عطف عليه مجزوم في جواب الأمر بالاستغفار فدل على أن الاستغفار سبب للمطر وغير ذلك من النعم الدنيوية ودفع البلاء إما عموماً أو في مادة مخصوصة حيث كان نزول البلاء نقمة الشؤم المعاصي كما كان في قوم نوح عليه السلام وكمايدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[3] أما إذا كان ذلك نعمة لرفع الدرجات فلا كما كان بأيوب عليه السلام وغيره من

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٤،

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الأنبياء، وعن سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاؤه الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلباً اشتد بلائه وإن كان في دينه دقة ابتلي حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[١] رواه أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه، ورواه البخاري في التاريخ عن بعض أزواج النبي ﷺ بلفظ «أشد الناس بلاء في الدنيا نبي أو صفي» روى الحاكم في المستدرك وابن ماجه وعبد الرزاق عن أبي سعيد نحوه وفيه «ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء» ويمكن أن يقال: قحط المطر بلاء عام لا يتصور إلا بشؤم المعاصي من العوام فالاستغفار سبب للمطر عموماً ومن ثم شرع الاستغفار في الاستسقاء، روى مطرف عن الشعبي أن عمر خرج يستسقي بالناس فلم يزد على الاستغفار حتى رجع فقيل له سمعناك استسقيت فقال: طلبت الغيث مجاري السماء الذي يستنزل بها القطر ثم قرأ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ قال عطاء يكثر أموالكم وأولادكم ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ يعني كما كانت قبل تكذيب نوح عليه السلام ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ ما استفهامية مبتدأ ولكم خبره وجملة لا ترجون حال من ضمير المخاطب والعامل معنى الفعل أي ما تصنعون لا ترجون لله حال من وقاراً قدم على ذي الحال لنكارته والوقار بمعنى العظمة اسم من التوقير بمعنى التعظيم، قال ابن عباس ومجاهد لا ترون لله عظمة في الرجاء بمعنى الاعتقاد عَبّر عن الاعتقاد بالرجاء الذي يتبع أدنى الظن مبالغة، وقال الكلبي معناه لا تخافون لله عظمة فالرجاء على هذا بمعنى الخوف وقال الحسن لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة، وقال ابن كيسان ما لكم لا ترجون في عبادة أن يثيبكم على توقيركم إياه جزاء ويحتمل أن يكون المعنى ما لكم لا ترجون في عبادة الله تعظيم إياكم ولله بيان للموقر ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ أي تارات حالاً بعد حال خلقكم عناصر ثم مركبات أغذية للإنسان ثم أخلاطاً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأكم خلقاً آخر أي خلقاً إنساناً بنفخ الروح فتبارك الله أحسن الخالقين ثم يميتكم ويقبركم ثم يعيدكم أحياء تارة أخرى فيعظم المطيع منكم بالثواب ويعاقب العاصي، والجملة حال من فاعل ترجون أو من الله ثم أتبع ذكر آيات في الأنفس بآيات في الآفاق فقال ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾ مجاز عن التعجيب ﴿كَيْفَ﴾ استفهام للاستعظام حال عن الفاعل أو المفعول من الجملة التالية قدم لاقتضاء

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء (٤٠٢٣).

صدر الكلام ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ بعضهن فوق بعض وبين كل من السافل والعالي مسيرة خمسمائة سنة كما دل عليه الأحاديث وذكر فيما قبل ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ أي في بعضهن وهي السماء الدنيا كما ياقل نزل رسول الله ﷺ في دور بني النجار، قال البغوي قال عبد الله بن عمرو إن الشمس والقمر وجوههما إلى السموات وضوء الشمس والقمر فيهن يعني كليهن وأشعتهما إلى الأرض ويروى هذا عن ابن عباس ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ مثلها به لأنها تزيل الظلمة عما تقابله كما يريلها السراج عما حوله وإنما مثل الشمس بالسراج مع كون السراج أدنى منها ضياءً لظهور أمر السراج في أذهان السامعين وفقد ما يمثل به غيره ولعله في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾﴾ إشعار بأن نور القمر مستفاد من الشمس فإن النور إنما يستفاد من السراج ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم﴾ كرر اسم الله تعالى ولم يكتف بالضمير التذاذاً باسم المحبوب وإظهاراً لمقصوده أي أنشأكم فاستعير الإنبات للإنشاء لأنه أدل على الحدوث ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بأن خلق أباكم آدم منها أو بأنه خلقكم من النطف والنطف من الغذاء المنبت من الأرض ﴿نَبَاتٗا﴾ مصدر من غير ما به نحو ﴿تبتل إليه﴾[1] وقيل اسم جعل موضع المصدر أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره والله أنبتكم فنبتم نباتاً فاقتصر اكتفاء بالدلالة الالتزامية ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ مقبورين بعد الموت ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ﴾ بالحشر ﴿إِخۡرَاجٗا﴾ أكده بالمصدر كما أكد به الأول للدلالة على تحقيق البعث كالبدأ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾﴾ تنقلبون عليها ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾﴾ واسعة جمع فج ومن لتضمن الفعل معنى الاتخاذ.

﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴿٢٨﴾﴾

﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾ فيما أمرتهم وهذه الجملة بمنزلة التأكيد لما سبق من قوله

(١) سورة المزمل، الآية: ٨٠.

تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾[1] الخ قال مآل الجملتين واحد إذ الفرار عن الدعاء وسد المسامع وتغطية الأبصار هو عين العصيان أو من موجباته ولذا لم يذكر العاطف بين قال وقال وإنما كرر القول بالعصيان مع ذكره فيما سبق لأن سوق الكلام الأول لبيان أدائه فريضة التبليغ على أبلغ الوجوه وسوق هذا الكلام ليكون تمهيداً للدعاء عليهم ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي السفلة منهم ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي رؤساؤهم البطرين بأموالهم المغترين بأولادهم بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة، قرأ نافع وعاصم وابن عامر ولده بفتح الواو واللام والباقون بضم الواو وسكون اللام على أنه لغة كالحزن أو جمع كالأسد ﴿وَمَكَرُوا﴾ عطف على من لم يزده والضمير لمن وجمعه المعنى أو على اتبعوا ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ هو أشد مبالغة في الكبر من الكبار بلا تشديد وهو من الكبير يعني مكروا مكراً كبيراً في غاية الكبر وذلك احتيالهم في الدين، والمكر من الرؤساء تحريش الناس على أذى نوح والكفر بالله ومن السفلة القيام على أنواع إيذائه ﴿وَقَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض عطف على مكروا على الوجهين ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ قرأ نافع وداً بضم الواو والباقون بفتحها ﴿وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ تخصيص بعد التعمم لزيادة الاهتمام، قال البغوي قال محمد بن كعب هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون لهم ويأخذون بعدهم مأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ففعلوه ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم فابتدأ عبادة الأوثان كان من ذلك وسميت تلك الصور بهذه الأسماء. وقال عطاء عن ابن عباس صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب بعد أما وُد فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمرو ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع فهذه أسماء رجال صالحين من إسلام قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك عبدت، وروي عن ابن عباس أن تلك الأوثان رفنها الطوفان وطمها التراب فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي مكة ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾

(١) سورة نوح، الآية: ٦٠٥.

أي الأوثان أو رؤساء قوم نوح ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس والإسناد إلى الأوثان مجاز كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[١] حيث أضلهم الشيطان بسببها والجملة إما حال من فاعل قالوا أو من مفعول لا تذرن وإما معترضة ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي هلاكاً وضياعاً كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾[٢] أو المراد بالضلال عدم اهتدائهم إلى ما أرادوا بمكرهم أو إلى مصالح دنياهم والجملة معطوفة على مقولة ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ يعني قال نوح هذا القول فهو في المعنى من قبيل عطف المفرد على المفرد لا عطف إلا نشاء على الخير ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ على قراءة الجمهور وقرأ أبو عمر وخطاياهم ما مزيدة للتأكيد والتفخيم ومن للسببية متعلق بأغرقوا أي من أجل خطاياهم ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ في عالم البرزخ المسمى بالقبر فإنه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفرات النيران فهذه الآية دليل على إثبات عذاب القبر لأن الفاء للتعقيب وصيغة أدخلوا للماضي خلافاً للمعتزلة وغيرهم من أهل الهواء قالوا في تأويل هذه الآية أنه أورد بفاء التعقيب لعدم اعتداد لما بين الإغراق والإدخال أو لأن المسبب كالمتعقب للسبب وصيغة الماضي لأن المتيقن كالواقع، قلنا: الأصل في الكلام الحقيقة وهذه التأويلات على المجاز فلا يجوز بلا دليل كيف وقد دلت من الأحاديث ما لا يحصى على عذاب القبر وانعقد عليه إجماع السلف. عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النارقدأبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً، وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال: لادريت ولا تليت ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»[٣] متفق عليه، وعن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ إلا تعوذ بالله من عذاب القبر متفق عليه، وعن عثمان أنه كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له تذكر الجنة فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال إن

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر (١٣٧٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧٠).

رسول الله ﷺ قال: «إن القبر أول منزلة من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه» وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه»[١] رواه الترمذي وابن ماجه، وعن أبي سعيد قال قال: رسول الله ﷺ: «يسلط على الكافر في قبره تسع وتسعين تنيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تنيناً منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضراء» رواه الدارمي، وروى الترمذي نحوه وقال: «سبعون» بدل تسعة وتسعون، وتنكير ناراً للتعظيم أو لأن المراد نوع من النيران غير نار جهنم وجملة أغرقوا مع ما عطف عليه استئناف كأنه في جواب ما فعل لهم إذ اشتكى نوح إلى الله عصيانهم ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لا يجد أحد منهم أحداً ينصرهم فإن مقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الآحاد على الآحاد واحد نكرة في حيز النفي يعم والجملة تعريض لهم باتخاذ آلهة من دون الله لا يقدر على نصرهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ عطف على قال نوح رب إنهم عصوني ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض قومه واللام للعهد ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أحداً يسكن داراً وهو نكرة في حيز النفي فيعم فيقال أصله ديوار أدغم الياء بالواو بعد قلبه ياء على طريقة سيد لإفعال وإلا فكان دواراً ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ تعليل للدعاء عليهم ﴿يُضِلُّواْ﴾ أي يريدوا إضلال ﴿عِبَادَكَ﴾ المؤمنين ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قال محمد بن كعب ومقاتل والربيع إنما قال نوح هذا الدعاء على قومه حين أخرج كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم ويأس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة وقيل: تسعين سنة فأخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً ولم يكن فيهم صبر وقت العذاب لأن الله تعالى قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[٢] ولا يوجد التكذيب من الأطفال وبهذا يستدل على أن الطوفان لم يستغرق الأرض كلها بل قومه فقط كيلا يلزم التعذيب من غير تكذيب ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ كان اسم أبيه ملك بن متوشخ واسم أمه سمجار بنت أتوش وكانا مؤمنين ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ قرأ بفتح الياء حفص وهشام والباقون بالإسكان أي منزلي وقال الضحاك مسجدي وقيل: سفينتي ﴿مُؤْمِنًا﴾ قبل خرج بهذا إبليس فإنه كان دخل في سفينة ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يوم القيامة ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ أي هلاكاً واستجاب الله تعالى دعاءه.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٣٠٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٧.

سورة الجن

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ
فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ
كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾
وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن
يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا
نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ
بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ النفر من الثلاثة إلى العشرة فقيل: كانوا تسعة من جن نصيبين وقيل: كانوا سبعة، والجن أجسام ذات أرواح كالحيوان عاقلة كالإنسان خفية عن أعين الناس ولذا سميت جناً خلقت من النار كما خلق آدم من طين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[1] تتصف بالذكورة والأنوثة، ووجود الجن والشياطين والملائكة ثابت بالشرع وأنكره الفلاسفة وليست العقول العشرة التي اخترعها الفلاسفة من الملائكة من شيء حيث يزعمونها مجردات بخلاف الملائكة فإنها أجسام ذات أرواح والله تعالى أعلم. وسوق هذا الكلام يقتضي أن النبي ﷺ لم ير الجن وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فاستمعوها فقص الله ذلك على رسوله فيما أوحي إليه. أخرج الشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ولكنه انطلق مع طائفة من أصحابه عائدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فقالوا ما هذا إلا بشيء قد حدث

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا هذا الذي حدث فانطلقوا فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن اسمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً الخ فأنزل الله تعالى على نبيه قل أوحي[١] إلى قول الجن. وقال أكثر المفسرين لما مات أبو طالب خرج رسول الله ﷺ وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد القرظي أنه قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف وهم يومئذ سادات ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة عبد يا ليل ومسعود وحبيب بنو عمير وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة إن كان أرسلك الله وقال الآخر أما وجد الله أحداً يرسله غيرك وقال الثالث والله ما أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله فلا ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ وقد يئس من خير ثقيف وقال لهم إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه فيزيد ذلك في تجرئهم عليه فلم يفعلوا وأغروا به سفهائهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه فرجع عنه سفهاء ثقيف ومن كان تبعه فعمدا إلى ظل جنة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف وقد لقي رسول الله ﷺ تلك المرأة من بني جمح فقال لها ماذا لقينا من أحمائك فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس وأنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين فأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك» فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس فقالا له خذ قطفاً من هذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الجهر بالقراءة صلاة الفجر (٧٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (٤٤٩)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الجن (٣٣٢٣).

العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ فلما وضع ومد رسول الله ﷺ يده قال: باسم الله ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه فقال: والله إن هذا الكلام ما يقول أهل هذه البلدة قال: رسول الله ﷺ من أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال: وما يدريك يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ فقبل رأسه ويديه وقدميه قال: فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما على الأرض خير من هذا الرجل فقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا بني، فقال: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خبر ثقيف حتى إذا قام بنخلة قام من جوف الليل يصلي فمر به نفر من جن نصيبين اليمن فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا فقصّ الله سبحانه وتعالى خبرهم عليه. وأخرج ابن الجوزي في كتاب الصفوة بسنده عن سهل بن عبد الله قال: كنت في ناحية وزاعا وإذا رأيت مدينة من حجر منقور في وسطها قصر من حجارة تأويه الجن فدخلت فإذا شيخ عظيم الخلق يصلي إلى الكعبة وعليه جبة صوف فيها طراوة فلم أتعجب من عظم خلقته كتعجبي من طراوة جبته فسلمت عليه فرد علي السلام وقال: يا سهل إن الأبدان لا يخلق الثياب وإنما يخلقها روائح الذنوب ومطاعم السحت وإن هذه الجبة عليّ منذ سبع مائة سنة لقيت بها عيسى ومحمداً ﷺ فآمنت بهما فقلت له ومن أنت؟ قال: من الذين نزلت فيهم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ﴾ نفر من الجن وقال جماعة بل أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله يقرأ عليهم القرآن فصرفوا إليه نفر من الجن من نينون وجمعهم له فقال رسول الله ﷺ: «إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فأيكم يتبعني» فأطرقوا ثم استتبعهم فاتبعه عبد الله بن مسعود قال عبد الله ولم يحضر معنا غيري فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل نبي الله ﷺ شعباً يقال له شعب الحجون وخط لي خطاً ثم أمرني أن أجلس فيه قال: لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن فجعلت أرى مثل النسور تهوي وسمعت لفطاً شديداً حتى خفت على نبي الله ﷺ وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم طفقوا ينقطعون مثل قطع السحاب الذاهبين ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر فانطلق إلي فقال: أنمت؟ قلت: لا والله

يا رسول الله ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرع بعصاك تقول اجلسوا، قال: لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم، ثم قال: رأيت شيئاً؟ قلت: نعم رأيت رجلاً أسود مشتفري ثياب بيض قال: أولئك جن نصيبين سألوني المتاع ـ والمتاع الزاد ـ فمنعهم لكل عظم عابل وروث وبعرة، فقال: يا رسول الله يقذرها الناس فنهى رسول الله ﷺ أن يستنجي بالعظم والروث قال: فقلت: يا رسول الله وما يغني ذلك عنهم؟ قال: إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم يؤكل ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فقلت: يا رسول الله سمعت لغطاً شديداً، فقال: إن الجن تدارت في قتيل قتل منهم فتحاكموا إلي فقضيت بينهم بالحق قال: ثم تبرز رسول الله ﷺ ثم أتاني فقال: هل معك ماء؟ قلت: يا رسول الله معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر فاستدعاه فصببت على يديه فتوضأ فقال: تمرة طيبة وماء طهور» وروى مسلم عن علي بن محمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن داود عن عامر قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود عنه فقلت هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة تفقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا استطير أو اغتيل، قال بشر ليلة بات بها قوم فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليه القرآن، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال الشعبي وسألوه الزاد وكانوا من جن جزيرة، فقال رسول الله ﷺ لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أو ما يكون فيه لحم وذلك بعرة علف دوابكم فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم من الجن»(١) وروى عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من الزط فقال: هؤلاء أشبه ما رأيت من الجن ليلة الجن، قلت: والظاهر عندي أن استماع الجن القرآن من النبي ﷺ عامداً إلى سوق عكاظ وقافلاً من الطائف كان أولاً وهو المحكي عنه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ﴾ وأما ليلة الجن التي رواها ابن مسعود فكانت بعد ذلك، قال البغوي في تفسير سورة الأحقاف أنه قال ابن عباس فاستجاب لهم أي نفر من الجن بعد ما استمعوا القرآن من النبي ﷺ بنخلة ورجعوا إلى قومهم منذرين من قومهم سبعين رجلاً من الجن فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافقوه في البطحاء فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم، وذكر الخفاجي أنه قد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ستة مرات وهذا يدل على أنه ﷺكان مبعوثاً إلى الجن والإنس جميعاً، وقال مقاتل لم يبعث قبله نبي إلى الإنس والجن والله تعالى أعلم. ﴿فَقَالُوٓاْ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (٤٥٠).

هؤلاء النفر من الجن حين رجعوا إلى قومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ بديعاً مبايناً لكلام المخلوق مصدر وصف به للمبالغة ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ إلى الحق والصواب من التوحيد والإحسان الذي يقتضيه العقل والبرهان صفة أخرى للقرآن ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿وَلَن نُّشْرِكَ﴾ في العبادة ﴿بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ من خلقه حيث نهى الله سبحانه عنه ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ الضمير عائد إلى ربنا أو للشأن قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بكسر الهمزة عطفاً على مقولة قالوا يعني إنا سمعنا وهكذا في أحد عشر موضعاً غيره إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ وهذا ظاهر غير أن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية التفات من المتكلم إلى الغيبة وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأ أبو جعفر وأنه وأنهم في ثلاث مواضع بالفتح على أنه استمع نفر بمعنى أوحي إلى أنه تعالى جد ربنا وأوحي إلي أنه كان وأوحي إلي أنهم كانوا وفي تسعة مواضع الباقية بالكسر ولما ذكرنا وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بفتح الهمزة في المواضع كلها، قال المفسرون في توجيه هذه القراءات أنه معطوف على أنه استمع يعني أوحي إلي أنه تعالى جد ربنا وهذا لا يستقيم إلا إلى الثلاثة الذي قرأها أبو جعفر بالفتح دون البواقي وقيل: إنه معطوف على حمل الجار والمجرور في آمنا به يعني صدقنا أنه تعالى جد ربنا وهذا أيضاً لا يستقيم إلا في بعض المواضع كما هو الظاهر ولولا هذه القراءة في المتواترات لما احتجنا إلى تكلفات في توجيهها لكنها من المتواترات فوجب ارتكاب التكلفات والله تعالى أعلم ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ الجملة خبر لأن والعائد وضع المظهر موضع المضمر على تقدير كون الضمير عائداً إلى تقديره أنه تعالى جده فوضع المظهر موضع الضمير للتصريح على الربوبية فإن الربوبية تقتضي أن يكون عظمته وشأنه أعلى وأرفع عن شأن المربوبين، ومعنى جد ربنا جلاله وعظمته كذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة ومنه قول أنس كان الرجل إذا قرأ بقرة وآل عمران جد فينا أي عظم قدره، وقال السدي جد ربنا أمر ربنا، وقال الحسن غنا ربنا وقال ابن عباس قدرة ربنا، وقال الضحاك فعل، وقال القرطبي آلاؤه ونعمائه على خلقه وقال الأخفش ملك ربنا ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ خبر بعد خبر لأن كأنه تأكيد وبيان للجزاء الأول يعني تعالى جلاله عن اتخاذ الصاحبة والولد كما هو شأن المربوبين كأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك في العبادة ونسبة الصاحبة والولد إليه تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا، قال قتادة ومجاهد هو إبليس وقيل: المراد به مردة الجن ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي قولاً ذا شطط وهو أبعد أي قولاً بعيداً عن شأنه والجور في الحكم أو التجاوز عن الحد، في القاموس

شط عليه في حكم جار في سلعته جاوز القدر والحد وتباعد عن الحق أي كان يقول على الله تعالى ويحكم بالجور والتباعد عن الحق وهو نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ اعتذار عن اتباع بعضهم السفيه في ذلك بظنهم أنه لا يكذب على الله أحد وكذباً منصوب على المصدرية لأنه نوع من القول أو على المفعولية على أنه مقولة تقول أو على أنه وصف لمحذوف أي قولاً مكذوباً، وقرأ أبو جعفر تقول بفتح الواو والتشديد وعلى هذا المصدر البتة لأن التقول لا يكون إلا كذباً وأن بعد الظن مصدرية أو مخففة، ومعنى الآيتان على تقدير فتح همزة أن وكونها معطوفة على به في آمنا به أنه تيقنا أنه كان قول سفيهنا بعيداً عن الحق جوراً في الحكم وإن زعمنا بعدم كذب الجن كان باطلاً. فإن قيل: كان الجن قبل مبعث النبي ﷺ يقعدون من السماء مقاعد السمع فيستمعون كلام الملائكة من التسبيح وغير ذلك فما الوجه في اتباعهم سيفههم وظنهم أنهم لا يقولون كذباً وعدم إيمانهم مع استماعهم كلام الملائكة كثيراً وإيمانهم لما سمعوا القرآن من النبي ﷺ واحدة؟ قلت: الإيمان أمر وهبي لا يتصور وجوده فهذه تلقى الهداية من الله الهادي على الإطلاق وذلك التلقي لا يكون إلا بواسطة يأخذ الفيض من الله تعالى لمناسبة المعنوية به تعالى بعلو استعداده ويفيض على العالمين لمناسبة بهم صورية وذلك بالواسطة هي من الأنبياء عليهم السلام فإن لهم مع الله مناسبة معنوية لأجل كون مبادي تعيناتهم ومربياتهم الصفات العاليات ولهم على قدر كما لهم في مراتب النزول مناسبة صورية بالأسفلين وأما الملأ الأعلى من الملائكة فلهم مناسبة مع الله كهيئة الأنبياء ولا مناسبة لهم بالأسفلين لكونهم متصاعدين مراتب غير محصلين كمالات النزول وكذلك لم يتأثر الجن منهم هداية ولا إيماناً وإن سمعوا منهم كلمات الهداية وتأثروا من سفهاء الجن والشياطين لكمال المناسبة وكذا لم يتأثر من المكلفين من نوح عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين لم يبلغوا في مراتب النزول غاية وتأثروا عن سيد الأنبياء فإنه كان هادياً لكمالات الفروع والأصول محدد الدرجات العروج والنزول لأجل ذلك بعثه الله تعالى إلى الناس كافة بل إلى الجن والإنس عامة فاستنار بنور هداية العالمين واستضاء بضوء إرشاده جماهير المكلفين إلا من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله حيث لم يخلق فيه استعداد قبول الحق والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وهذا معنى قول الشيخ الأكبر أنكروا دعوة نوح لما كان من الفرقان وأجابوا دعوة محمد لما كان من القرآن ﷺ وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين وبارك وسلم ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ الضمير الشأن ﴿كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم

وابن أبي الشيخ عن كروم بن السائب الأنصاري قال خرجت مع أبي المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ فأوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك فنادى منادي لا نراه يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم ولم تصبه كدمته فأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ الآية، وأخرج ابن سعد عن أبي رجاء العطاردي قال: بعث رسول الله ﷺ وقد رعيت على أهلي وكفيت فبهتهم فلما بعث النبي ﷺ خرجنا هراباً فأتينا على فلاة من الأرض وكنا إذا أمسينا بمثلها قال شيخنا إنا نعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة فقال ذلك فقيل لنا: إنما السبيل لهذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله من أقربها أمن على دمه وماله فرجعنا في الإسلام، قال أبو رجاء إني لأرى هذه الآية نزلت في أصحابي ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ الآية، وأخرج الجزائفي في كتاب هواتف الجن بسنده عن سعيد بن جبير أن رجلاً من بني تميم يقال له رافع بن عمير يحدث عن بدأ إسلامه قال: إني لأسير برمل عالج ذات ليلة إذ غلبني النوم فنزلت على راحلتي وأنختها ونمت وقد تعوذت قبل نومي فقلت: أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن فرأيت في منامي رجلاً بيده حربة يريد أن يضعها في نحرنا فانتبهت فزعاً فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً، فقلت: هذا حلمهم ثم عدت، فغفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فدرت حول ناقتي فلم أر شيئاً فإذا ناقتي ترعد ثم غفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب والتفت فإذا أنا برجل شاب رأيت في المنام بيده حربة ورجل شيخ ممسك بيده يرد عنها فبينما هما يتنازعان إذا طلعت ثلاثة أثوار من الوحش فقال الشيخ للفتى قم فخذ أيها شئت فداء ناقة الإنسي، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً عظيماً وانصرف ثم التفت إلى الشيخ فقال: يا هذا إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل: أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها، قال: فقلت له من محمد هذا؟ قال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي بعث يوم الإثنين قلت: فأين مسكنه؟ قال: يثرب ذات النخل، فركبت راحلتي حين برق الصبح وجددت السير حتى أتيت المدينة فرآني رسول الله ﷺ فحدثني بحديثي قبل أن أذكر له شيئاً ودعاني إلى الإسلام فأسلمت، قال سعيد بن جبير وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ ﴿فَزَادُوهُمۡ﴾ أي زاد الإنس الجن باستعاذتهم بقادتهم ﴿رَهَقًا﴾ قال ابن عباس إثماً وقال المجاهد طغياناً وقال مقاتل غياً وقال الحسن شراً وقال إبراهيم عظمة، وذلك أن الجن كانوا يقولون سدنا الجن والإنس أو المعنى فزاد الجن الإنس غيابان

أضلوهم حتى استعاذوا بهم والرهق غشيان الشيء والمراد ها هنا غشيان المحارم والإثم وفي هذه الجملة أيضاً اعتراف بسوء عقيدتهم فيما قيل ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي الإنس ﴿ظَنُّوا﴾ ظناً ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ يا معشر الجن ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد موته أن لن يبعث قائم مقام المفعولين يعني نزل القرآن آمنوا بالغيب بعد فساد ظنهم فأنتم أيضاً أيها الجن آمنوا بالبعث كإيمانهم قال ذلك بعضهم لبعض هذا على قراءة كسر إن، وأما على تقدير فتحها فهذه الجملة وما قبلها أعني كان رجال الخ معترضات من كلام الله تعالى معطوفتان على أنه استمع يعني أوحي إلى هذين الأمرين وتأويل الآية على هذا التقدير أنهم أي الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكافر من قريش مكة عدم البعث فلما نزل القرآن واستمع الجن آمنوا بالبعث فعليكم أيها الكفار أن تؤمنوا كما آمنوا ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا﴾ أردنا المس ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بعد مبعث النبي ﷺ والظاهر أن المراد بالسماء السحاب فإن السماء يطلق على ما هو فوقك، ويدل على هذا التأويل حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر الذي قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتتوجه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[(١)] رواه البخاري. فإن قيل: قد وقع في بعض الأخبار بلفظ يدل على حقيقة السماء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فرغ عن قولهم قالوا: ماذا قال ربكم: قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فسمعها مسترقوا السمع هكذا بعضه فوق بعض ووضع سفيان بكفه ليستمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقاها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقاها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معه مائة كذبة»[(٢)] الحديث رواه البخاري وفي حديث ابن عباس «ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يحملون العرش ماذا قال ربكم: فيخبرونهم ما قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ هذا السماء الدنيا فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يغرقون فيه ويزيدون»[(٣)] رواه مسلم، قلنا: ليس في هذين الحديثين وما في معناهما أن الجن يخطف

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: **﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾** (٤٧٠١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٩).

من السماء الدنيا ولعل معناه حتى يبلغ الخبر هذا السماء الدنيا ثم أهل السماء الدنيا ينزلون إلى العنان فتذكر الأمر الذي قضى في السماء فيخطف الجن مسترقوا السمع وهم بعض فوق بعض إلى العنان فحينئذ يدركه الشهاب الثاقب من نجوم السماء والله تعالى أعلم ﴿فَوَجَدْنَٰهَا﴾ أي السماء ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ حراساً اسم الجمع كالخدم ﴿شَدِيدًا﴾ أقوياء من الملائكة الذين يمنعون هم عنها ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب وهو شعلة نار انتشرت من النجوم ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ قبل ذلك ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي من السماء أي من السحاب حال من ﴿مَقَٰعِدَ﴾ خالية عن الحرس والشهب صالحة للترصد والاستماع ظرف لتقعد ﴿لِلسَّمْعِ﴾ متعلق بنقعد أو صفة لمقاعد ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ يعني بعد مبعث النبي ﷺ ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي رصداً له ولأجله يمنعه من الاستماع بالرجم أو ذوي شهاب راصدين على أنه جمع للراصد فصار هذا معجزة للنبي ﷺ لأجل الجن آمنوا به ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾ يعني أنا كنا لا ندري قبل ذلك ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فأما الآن إذا سمعنا القرآن أن الذي حال بينكم وبين خلو السماء هو بعث هذا النبي حتى يكون معجزة له يعجزه الكهنة عن إتيان خبر السماء مثله فظهر أن الله سبحانه وتعالى إنما أراد للعالمين هداية ورشداً، ففي هذه الجمل الثلاث احتجاج على حقيقة القرآن ورسول الله ﷺ والشر والخير وإن كانا جميعاً بخلقه تعالى وإرادته لكنهم أسندوا إرادة الخير إليه تعالى صريحاً وإرادة الشر كناية بذكره على صيغة المجهول رعاية الأدب.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ
بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا
﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا
﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ عنوا بهم الذين كانوا منهم مؤمنين بالتوراة وغيره من الكتب السماوية والأنبياء السابقين عليهم السلام ﴿وَمِنَّا﴾ قوم ﴿دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ﴾ أي ذوي طرائق أي مذاهب أو مثل طرائق في اختلاف الأحوال أو كانت طرائق ﴿قِدَدًا﴾ متفرقة مختلفة وهذه الجملة أعني قولهم كنا طرائق قدداً تأكيد لمضمون ما سبق من قولهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الخ وقدداً جمع قدة بمعنى القطعة من الشيء، قال الحسن والسدي الجن أمثالكم فمنهم

قدرية ومرجئة ورافضية وغير ذلك وقولهم فيما بينهم أنا منا الصالحون الخ تمهيد لما سيأتي من قولهم ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ الآية، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الآية يعني أن الإيمان والتصديق ليس أمراً مبدعاً منا بل كان الجن قبل ذلك طرائق قدداً بعضهم كانوا صالحين وبعضهم دون ذلك وأنا إن اتبعنا السفيه في القول في الشطط لكنا لما سمعنا قرآناً ظننا أن لن نعجز الله وسمعنا الهدى وآمنا به كما كان بعض أسلافنا مؤمنين ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي علمنا وتيقنا بتعليم الله تعالى في القرآن وهدايته والمعنى كنا نظن ذلك قبل هذا أو المعنى كنا نتيقن ذلك بعلمنا ما في التوراة ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ أي لن تفوته إن أراد بنا سوءاً كائناً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي هاربين من الأرض إلى السماء إن طلبنا مهرباً وهذا على كونه حالاً من فاعل نعجز ويحتمل أن يكون مفعولاً مطلقاً بمعنى تهرب هرباً ومفعولاً له أي نعجزه للهرب أو ظرفاً أي نعجزه في المهرب أو تميزاً من نسبة الفاعل أي نعجزه هربها ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي القرآن فإنه موجب للهدى ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فآمنوا به أنتم أيضاً يا قومنا شر الجن ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ شرط والفاء للنسببية والجزاء ما بعده ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي فهو لا يخاف ﴿بَخْسًا﴾ نقصاً في الثواب ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي ولا أن ترهقه تغشاه ذلة أو المعنى لا يخاف جزاء نقص في الطاعات ولا جزاء له رهوق ظلم أي غشيان ظلم لأن من حق الإيمان بالقرآن أن يحبب ذلك ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ الأبرار ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي الجائرون عن الحق يقال أقسط الرجل إذا عدل وقسط إذا جار فهو قاسط، إنما ذكر هذه الجمل ومع ذكر مضمون فيما سبق بقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ليكون تمهيداً لتفصيل حال الفريقين والمقصود ها هنا تفصيل الحال وفيما سبق التفرق فحسب لدفع كون الإسلام أمراً مبدعاً ويحتمل أن يكون الذين يستمعون القرآن بعضهم أسلموا وبعضهم لم يسلموا وهذا مقولة المسلمين منهم لما رجعوا إلى قومهم ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ بالله ورسله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ قصدوا طريقاً موصلاً إلى الفلاح ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ توقد بهم جهنم كما توقد النار بالحطب وهذه الجمل السبعة من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ الخ لاشك أنها من كلام الجن فلا غبار على قراءة إنا بالكسر وأما على قراءة الفتح فلا بد ارتكاب تكلف بأن يقال إنها معطوفة بهاء به في آمنا به والمعنى آمنا بالقرآن ويتبعنا بمعجزاته في الآفاق من أن لمسنا السماء الآية وأنا كنا نقعد منها مقاعد الآية وأنا لا ندري ما أراد الله بالشهب حتى سمعناه وبمعجزاته تأثيراته في الأنفس وأنا كنا منا الصالحون ومنادون ذلك ولأن تيقنا أن لن نعجز الله وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به وتيقنا

أن المسلمين منا تحروا رشداً وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً والله تعالى أعلم بمراده ولا يتصور عطف هذه الجمل السبعة على أنه استمع نفر من الجن كما لا يخفى.

مسألة: اتفقت الأئمة على أن الكفار من الجن يعذبون بالنار كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ واختلفوا في ثواب المؤمنين منهم؟ فقال قوم: ليس لهم ثواب إلا نجاتهم من النار وتأولوا قوله تعالى: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾[١] قال البغوي وإليه ذهب أبو حنيفة وحكى سفيان عن ليث قال: الجن ثوابهم أن يجاروا من النار ثم يقال لهم كونوا تراباً مثل بهائم، وعن أبي الزياد قال: إذا قضى بين الناس قيل لمؤمنين الجن عودوا تراباً فيعودون تراباً وعند ذلك يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً وقيل: مذهب أبي حنيفة فيه التوقف لقوله ﷺ: «أبهموا ما أبهم الله»[٢] وقد ذكر الله تعالى عذاب الكفار منهم ولم يذكر ثواب المطيعين منهم إلا المقر والجوار من النار، وقال الآخرون يكون لهم ثواب في الإحسان كما يكون لهم عذا في الإساءة كالإنس وإليه ذهب مالك وابن أبي ليلى وقال جرير عن الضحاك الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، أخرج أبو الشيخ وذكر النقاش في تفسيره حديثاً أنهم يدخلون الجنة فقيل له هل يصيبون من نعمها؟ قال: يلهمهم الله تسبيحه وذكره فيصيبون من لذته ما يصيبون بنو آدم من نعيم الجنة، قلت: كأنه ألحق المؤمنين من الجن بالملائكة وقال الطاعة ابن المنذر سألت حمزة بن حبيب هل للجن ثواب قال نعم وقرأ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[٣] قال: فالأنسيات للإنس والجنيات للجن، أخرجه أبو الشيخ من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: الخلق باركة فخلق في الجنة كلهم وهم الملائكة وخلق في النار كلهم وهم الشيطان وخلقان في الجنة والنار وهم الجن والإنس لهم العذاب والثواب، وأخرجه عن ابن وهب أنه سئل هل للجن ثواب وعقاب؟ قال: نعم قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[٤] وقال عمرو بن عبد العزيز إن مؤمن الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها. احتج القائلون

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.
(٢) ذكر ابن الأثير أنه قول لابن عباس.
انظر: النهاية في غريب الحديث حرف الباء/ باب الباء مع الهاء.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٥٦.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ١٨ ـ ١٩.

بثواب الجن بالعمومات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾[١] ونحو ذلك بالخطابات الواردة في سورة الرحمن حيث قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾[٢] ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾[٣] قالت الحنفية في الجواب إن العمومات محولة على الإنس بدلالة العرف فإن أهل العرف لا يفهمون منه إلا الإنس وأما الخطابات في سورة الرحمن بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ توبيخ للجن وللإنس على مطلق التكذيب بآلاء الله سبحانه لإيما ذكر قبل تلك الآية خاصة كيف وذلك لا يتصور في مثل قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾[٤] ونحو ذلك وقد ذكر من الآلاء ما هي مختصة بالإنس دون الجن حيث قال: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾[٥] فيحتمل أن يكون نعيم الجنة مختصة بالإنس خوطب الثقلين بها توبيخاً على تكذيب الطائفتين مطلق الآلاء، والصحيح عندي ما قاله الجمهور وبه قال أبو يوسف محمد رحمهما الله تعالى قال: من أثبت الثواب فقوله مبني على دليل وشهادة على الإثبات فيقبل بخلاف قول أبي حنيفة فإنه متوقف بناء على عدم بدليل فلا شك أن قول ابن عباس وأقوال عمر بن عبد العزيز ونحوه من ثقات الصحابة والتابعين لها حكم الرفع، وقد أخرج البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ مرفوعاً «إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألنا عن ثوابهم وعن مؤمنهم فقال: على الأعراف وليسوا في الجنة فسألنا وما الأعراف؟ قال: خارج الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيها الأشجار والأثمار» والله تعالى أعلم ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أن مفتوحة بإجماع القراء مخففة من المثقلة واسمها ضمير الشأن محذوف وجملة الشرطية خبرها والجملة معطوفة على أنه استمع نفر من الجن والمعنى أنه أوحي إلي أنه لو استقاموا أي الجن والإنس ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ المرضية لله تعالى وهي دين الإسلام والفطرة التي فطرالناس عليها ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي كثيراً، قال مقاتل نزلت هذه الآية بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين، وقيل المراد من الماء الغدق الرزق الواسع على

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦ ـ ٤٧.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٧٢ ـ ٧٥.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٤١ ـ ٤٢.

(٥) سورة الرحمن، الآية: ٢٤ ـ ٢٥.

التجوز لأن الماء سبب للرزق كما أريد من الرزق المطر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[١] والمعنى لأعطيناهم مالاً كثيراً وعيشاً رغداً وهذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٣] ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ متعلق بأسقيناهم أي لنختبرهم كيف شكرهم وهذا التأويل قول سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والضحاك وقتادة ومقاتل والحسن، وقيل: معناه أن لو استقاموا على طريقة الكفر لأعطيناهم مالاً كثيراً لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراجاً حتى يفتنوا بها فتذهب بهم نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٤] وهذا قول الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان وهذا القول ليس بسديد وإلا يلزم أن يكون الكفر موجباً لسعة الرزق وحسن المعيشة ويأبى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[٥] الآية وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟﴾[٦] الآية وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾[٧] الآية فإن كلمة لولا لامتناع الثاني لا لأجل امتناع الأولى وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾[٨] واقعة حال ماضي لا يدل على العموم وإلا يلزم التعارض فيما لا يحتمل النسخ وأيضاً وقائع أهل مكة حالة على صحة التأويل الأول دون الثاني فإن أبا جهل وغيره من كفار مكة الذين لم يؤمنوا ابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا الروث لم قتلوا ببدر في أقبح حال والذين آمنوا مع النبي ﷺ واستقاموا على الطريق أعطاهم الله ملك كسرى وقيصر وغيرهما وأيضاً يدل على صحة التأويل الأول مقابلته بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ حيث حكم بلزوم العذاب بالإعراض عن الذكر وذلك يقتضي الحكم بضد ذلك أي بحسن العيش على هذا

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٦.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٧) سورة الزخرف، الآية: ٣٣.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

الإعراض وهو المراد بالاستقامة على الشريعة كما هو عادة الله سبحانه في كتابه والله تعالى أعلم ﴿يَسْلُكْهُ﴾ قرأ أهل كوفة ويعقوب بالياء على الغيبة أي يدخله ربه وآخرون بالنون على التكلم ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً يعلو المعذب ويغلبه صعد وصف به والمراد بالعذاب منها إما عذاب الدنيا أو عذاب القبر أو عذاب الآخرة وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[1] والظاهر أن المراد ها هنا عذاب الدنيا بدليل المقابلة وكذلك من ضنك المعيشة هنالك لعطف قوله ونحشره كما أن المراد بالحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] روي عن ابن عباس أنه قال: كل مال قل أو كثر فلم معايشهم فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة وإن قوماً أعرضوا عن الحق وكانوا أول سعة من الدنيا مكثرين فكانت معيشتهم ضنكاً وذلك أنهم يرون أن الله ليس بمخلف عليهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله، وقال سعيد بن جبير تسلبه القناعة حتى لا يشبع، قلت: وهذا الأمر ظاهر فإن أهل الدنيا لما سلب منهم القناعة فهم دائمون في جد واجتهاد لأجل اكتساب المال وحفظ خائفون على فواته متحاسدون متباغضون فيما بينهم لأجله غير آمنين على أنفسهم لكثرة الأعداء والحساد ولا شك أن هذا عذاب صعد ومعيشة ضنك ولو يعلمون ما للصوفية من الحياة الطيبة وطمأنينة القلب بذكر الله وشرح الصدور ورفع الحاجة بالقليل والاستغناء عن الخلق والشفقة على خلق الله تعالى كلهم أجمعين والشكر والسرور في الضراء رجاء لكفارة المعاصي وحسن الجزاء فضلاً عن الرخاء والسراء ليتحاسدوهم على ذلك والله يؤتي من يشاء من الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ عطف على أن لو استقاموا على الوحي به قيل: المراد بالمساجد المواضع التي بنيت للصلاة ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ قال قتادة كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا بيتهم وكنائسهم أشركوا بالله فأمر الله تعالى المؤمنين أن يخلصوا لله الدعوات إذا دخلوا المساجد وأراد به المساجد كلها وأمر بتطهيرها فقال: ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾[١] الآية، وأمر رسول الله ﷺ فقال: «جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم وشركائكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع»[٢] رواه ابن ماجه عن واصلة مرفوعاً، ونهى عن تناشد الأشعار في المسجد وعن البيع والشراء فيه وأن يتحلق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة في المسجد[٣] رواه أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وقال: «البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»[٤] متفق عليه عن أنس قال: «عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد»[٥] رواه أبو داود والترمذي عنه، وقال: «من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا»[٦] رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ، وروى الترمذي والدارمي وزاد «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك» والله تعالى أعلم. وقال الحسن أراد بها البقاع

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المساجد والجماعات، باب: ما يكره في المساجد (٧٥٠).
في الزوائد: إسناده ضعيف فإن الحارث بن نبهان متفق على تضعيفه.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في كراهية البيع والشراء وإنشاء الضالة والشعر في المسجد (٣١٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: كفارة البزاق في المسجد (٤٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن البصاق في المسجد (٥٥٢).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كنس المساجد (٤٦٠).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد (٥٦٨).

كلها لأن الأرض جعلت كلها سجداً لهذه الأمة يعني لا تدعوا مع الله أحداً في شيء من البقاع، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي صالح عن ابن عباس قال: قالت الجن أتأذن لنا فنشهد معك الصلاة في مسجدك فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ وأخرج ابن جرير عن جبير قال: قالت الجن للنبي ﷺ كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن عنك أو كيف نشهد الصلاة ونحن ما دون عنك فنزلت، وقيل: المراد بالمسجد أعضاء السجود يعني أنها مخلوقة لله تعالى فلا تسجدوا عليها غيره، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا يكفت الثياب ولا الشعر»(١) ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بالفتح عطفاً على الموحى به ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ محمد ﷺ إن ذكر لفظ العبد دون الرسول أو النبي أو غير ذلك للتواضع فإنه واقع موقع كلامه عن نفسه والإشعار بما هو المقتضى لقيامه، وقال المجدد العبودية أقصى مراتب الكمال ﴿يَدْعُوهُ﴾ حال من عبد الله أي يعبده ويذكره ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قرأ هشام لبد بضم اللام والباقون بالكسر وهو جمع لبدة وأصل اللبد الجماعات بعضها فوق بعض ومعناه على ما قال الحسن وقتادة وابن زيد أنه لما قام عبد الله بالدعوة إلى التوحيد كاد الجن والإنس يكونوا مجتمعين لإبطال أمره يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره وينصره على من عاداه، ويحتمل أن يكون معناه أنه لما قام عبد الله يدعوه ويقرأ القرآن بنخلة كان الجن يكون عليه لبداً متراكبي من ازدحامهم عليه شوقاً لا سقماً عن القرآن ﴿قُلْ﴾ كذا قرأ عاصم وحمزة وأبو جعفر بصيغة الأمر موافقاً لما بعده والباقون بصيغة الماضي أي قال عبد الله ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ فما لكم تجتمعون على إبطال أمري أو المعنى قال عبد الله حين اشتاق الجن إلى كلامه إنما أدعوا ربي فادعوا أنتم أيضاً كدعائي ولا تشركوا به أحداً، وقال مقاتل قال كفار مكة للنبي ﷺ لقد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن بخيرك فنزلت هذه الآية وما بعدها ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ يعني ضراً ولا نفعاً أو غياً ولا رشداً عبر عن أحدهما باسم وعن الآخر باسم سببه أو مسببه إشعاراً بالمعنيين ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ متلجأ أميل إليه إن أراد في سوء وهذين الجملتين المستأنفتين كأنهما في جواب ما أقول حين يقول الكفار الذين اجتمعوا لإبطال أمري إنك إن كنت نبياً فائتنا بعذاب من عند

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب وعقص الرأس في الصلاة (٤٩٠).

الله أويقول الكفار ارجع عن دينك فنحن بخيرك، ويحتمل أن يكون الجملة الأولى في جواب ما أقول في وقت اشتياق الجن إلى رؤيتي ولقائي فإن ازدحامهم علي دل على زعمهم بأن النبي ﷺ يملك لهم ضراً ورشداً أو الجملة الثانية تأكيد لمضمون السابقة على عجز النبي ﷺ، وأخرج ابن جرير عن حضرمي أنه ذكر له أن جنياً من الجن من أشرافهم إذ اتبع قال: إنما يريد محمد أن نجيره وأنا أجيره فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾ الآية ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ كائناً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عطف على بلاغاً والاستثناء إما من قوله لا أملك فإن التبليغ إرشاد وإنفاع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة فلا يلزم الفصل بأجنبي يعني لا أملك لكم من رفع الضر أو إيصال الرشد إلا التبليغ والرسالة فإن أملكه وإما من قوله أحداً وملتحداً على سبيل التنازع وإعمال الثاني يعنيلا يجيرني من الله أحد من دونه ملتحداً إلا التبليغ والرسالة فإن التبليغ والرسالة فريضة من الله تعالى يجيرني من عذاب الله ويعذبني الله إن لم أفعل كذلك، قال الحسن ومقاتل قيل المعنى لا أملك لكم خيراً ولا شراً ولا رشداً ولكن بلاغاً من الله ورسالة ثابت وقيل: إلا مركب من أن الشرطية ولا النافية وجزاء الشرط المحذوف اكتفاء بما مضى يعني أن لا أبلغكم بلاغاً كائناً من الله ورسالاته لن يجيرني من الله أحد ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالتوحيد ولم يؤمن به ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أفرد ضمير يعص الله وضمير له نظراً إلى لفظة من وجمع ضمير خالدين نظراً إلى معناه وجملة ومن يعص الله معطوفة على مقدر يعني أبلغ لك بلاغاً من الله ورسالاته فمن يطع الله ورسوله فأولئك تحروا رشداً ومن يعص الله ورسوله الآية حتى إذا رأوا أي الكفار غاية لقوله تعالى: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ إن كان المراد به اجتماع الكفار لإبطال أمر النبي ﷺ وإلا فهو غاية لحذوف دل عليه الحال من استضعاف الكفار له وعصيانهم له كأنه قيل لا يزالون يعصونه ويستعضفونه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا﴾ إما العذاب في الدنيا كوقعة بدر وإما الساعة ساعة الموت فإن من مات فقد قامت له القيامة المشتملة على جهنم والساعة أدهى وأمر ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حين حلوله بهم ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم النبي ﷺ جملة استفهامية قائمة مقام المفعولين لقوله تعالى فسيعلمون قال بعض الكفار متى هذا الوعد فنزل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ أَدْرِىٓ﴾ لا أدري ﴿أَقَرِيبٌ﴾ خبر مبتدأ بعده أو مبتدأ من القسم الثاني وما بعده فاعله ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب أو الساعة ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون ﴿أَمَدًا﴾ غاية وأجلاً لتطول مدتها لا يعلمه إلا الله والجملة الاستفهامية قائم مقام مفعولي إن أدري ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾صفة ربي أو خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم الغيب لا

غيره فكأنه تعليل لقوله لا أدري، والمراد بالغيب ما لم يوجد بعد كأخبار المعاد أو انعدام بعد الوجود كأخبار المبدأ والقصص الماضية التي انقطعت الرواية عنها وإما ما غاب عن العباد من أسماء الله تعالى وصفاته التوقيفية التي لا يدل عليه البرهان، وأما ما قام عليه الدليل والبرهان كوجوده تعالى وجوبه وتوحده وكونه متصفاً بصفات الكمال منزهاً عن سمات النقص والزوال فليس من الغيب من الشهادة لشهود ما يدل عليه من العالم وكذا مسألة حدوث العالم مثلاً ليس من الغيب بل من الشهادة لمشاهدة قابلية التغير الدال على الحدوث وهذه الأقسام من الغيب لا يمكن العلم بها إلا بتوفيق من الله تعالى، ومن الغيب ما هو غيب بالنسبة إلى بعض دون بعض كأحوال الجن وأحوال بعض أشياء البعيدة غيب بالنسبة إلى الإنس دون الجن ومن ثم زعم الإنس أن الجن يعلمون الغيب وهم لا يعلمون إلا ما يشهدونه قال الله تعالى في قصة سليمان ﷺ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾(١) وكأحوال السماوات بالنسبة إلى أهل الأرض دون أهل السماء وأحوال المشرق بالنسبة إلى أهل المغرب وهذا القسم من علم الغيب قد يحصل بالوحي والإلهام وقد يحصل برفع الحجب وجعلها مثل الحجب الزجاجة، روى مسلم عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «لقد رأيتني في الحجر وقريش سألتني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله فرفعه الله إلي لأنظر إليه ما يسألني عن شيء إلا أنبأتهم»(٢) وروى البيهقي عن عمر أن عمر بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً يدعى سارية فبينما عمر يخطب فجعل يصيح يا سارية الجبل، وروى أبو داود عن عائشة قالت: لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور(٣)، وعند رفع الحجب لا يكون هذا من علم الغيب بل من علم الشهادة وإن كان من قبيل المعجزة أو الكرامة ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من الخلق ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ العائد إلى الموصول محذوف فإنه يطلع من ارتضاه أحياناً ليكون معجزة ويبشر المطيعين ومنذر العاصين ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ أعم من البشر والملائكة ويشتمل لفظة الرسول الأنبياء أيضاً قال الله تعالى أرسلهم إلى الناس لتبليغ الأحكام وتخصيص لفظ الرسول بمن أرسله الله بشريعة جديدة وكتاب اصطلاح وقيل: بل يشتمل الأولياء أيضاً بعموم المجاز، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النور يرى عند قبر الشهيد (٢٥٢١).

«العلماء ورثة الأنبياء»[١] رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي في حديث عن كثير بن قيس وابن البخاري عن أنس وابن عدي عن علي بلفظ «العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء أو ورثتي وورثة الأنبياء» وابن عقيل عن أنس بلفظ «العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان ويداخلوا الدنيا» الحديث وقال أهل السنة والجماعة كرامات الأولياء معجزة لنبيهم قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[٢] وقد بعث الله تعالى خاتم النبيين إلى كافة فاعتبر أهل السنة أتباعه ﷺ من العلماء والأولياء لساناً له ﷺ حتى يستقيم الحصر واستغراق الإضافة في لسان قومه فعلى تقدير شمول لفظ الرسول للأولياء لا يلزم نقص بحصول علم الغيب لهم على وجه الكرامة وعلى تقدير عدم شموله نقول المراد بالعلم العلم القطعي والعلم الحاصل للأولياء بالإلهام وغيره ظني ليس بقطع، ومن ثم قالت الصوفية العلية إنه لا بد من عرض العلوم الحاصلة للصوفية على الكتاب والسنة فإن طابقت قبلت إذ المطابق للقطع قطعي وإن خالفت ردت قالوا: كل حقيقة ردته الشرع فهو زندقة وإن كانت الشريعة عنها ساكتة قبلت مع احتمال الخطأ فاندفع ما قال صاحب الكشاف بناء على اعتزاله إن في هذه الآية إبطال لكرامات لأن الذين يضاف إليهم الكرامات وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا الرسل الخ، وكفى التكذيب أهل الهواء قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾[٥] فإن أم موسى وأم عيسى والحواريين لم يكونوا أنبياء واعلم أن ما ذكرت لك أن العلم الحاصل للأولياء ظني، المراد به العلم الحاصل علماً حصولياً وذلك قد يكون بالإلهام

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٣).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١١١.

(٥) سورة مريم، الآية: ٢٦.

بتوسط الملك وبغير توسطه وقد يكون بكشف الحجب كما ذكرنا في حديث عمر يا سارية الجبل ومن هذا القبيل ما قيل: إنه قد ينكشف على بعض الأولياء في بعض الأحيان اللوح المحفوظ فينظرون فيه القضاء المبرم والمعلق وقد يكون بمطالعة عالم المثال في المنام أو المعاملة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة»[١] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال قال: رسول الله ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة» رواه البخاري، وهذه الأنواع من العلم قد يقع فيه الخطأ بغير الأنبياء لوقوع الغلط وتخليط الشيطان في الإلهام فإن في قلب بني آدم بيتان في أحدهما الملك وفي الآخر الشيطان فأحياناً يلتبس لمة الملك بلمة الشيطان وقوع تخليط الوهم وتلبيس الشيطان في الكشف ورؤية عالم المثال، عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان»[٢] متفق عليه، وقال محمد بن سيرين قال: «الرؤيا ثلاث حديث النفس وتخويف الشيطان وبشرى من الله» متفق عليه ووقوع الغلط في تأويل الرؤيا لكن ووقع الخطايا في علوم الأولياء نادر لتشبههم بالأنبياء فالأنبياء معصومون والأولياء محفوظون غالباً وأما العلم الحاصل للأولياء علماً حضورياً بل فوق الحضوري وهو العلم المتعلق بذات الله تعالى وصفاته المسمى بالعلم اللدني فهو لا يحتمل الخطأ وهو قطع وجداني بل فوق القطعي لأن علم المرء بنفسه علم حضوري وجداني فإنه بحضور نفس المعلوم عند العالم من غير حصول صورة فيه وعلم الصوفي بالله فوق هذا العلم لأن الله تعالى قرب من نفسه بنفسه قال الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[٣] أيها العوام ويبصره من أبصره الله تعالى وهذا العلم اللدني يحصل للأولياء بتوسط الرسول ﷺ ولو بوسائط. فإن قيل: نحن أقرب إليكم منكم خطاب لسائر الناس ويلزم منه أن يكون لسائر الناس علماً بالله تعالى حضورياً فوق علمه بنفسه؟ قلنا: نعم لكن العلم تابع للحياة لا يتصور بدونها وقد ذكر في تفسير سورة الملك أن الحياة على أربعة أقسام منها ما يستتبع المعرفة وتلك الحياة بالتجليات الذاتية والصفاتية ولأجل حصول هذه الحياة الاكتساب والتصوف. فإن قيل لو

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٦٩٨٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرؤيا (٢٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا من الله (٦٩٨٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرؤيا (٢٢٦١).

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٨٥.

كان هذا العلم الثاني قطعياً لما أخطأه فيه ولما تعارض أقوالهم وقد يخطئون كما يدل عليه تعارض أقوالهم المقتضى خطأ أحد المتنافيين فإنه يقول بعضهم بالتوحيد الوجودي وبعضهم بالتوحيد الشهودي ونحو ذلك؟ قلت: هذا الخطأ إنما يقع في علم العلم الذي من قبيل العلم الحصولي دون نفسه وقد يقع في بيانه وتصويره حيث لم يوضع لهذه المعاني ألفاظ في اللغات قال الشاعر:

المراد بالكفر في هذا الشعر كفر الطريقة المسمى بالتوحيد الوجودي وبالدين الشريعة، وفذلكة الكلام في هذا المقام أن بين الخالق والخلق نسبة ليست بين أي الشيئين فرضتا من الأشياء إذ لا خالق إلا هو فلا يمكن أن يشتبه تلك النسبة بما عداها من النسب لا يقال: ليس نسبة الخالق مع المخلوق كنسبة النقش مع النقاش أو نسبة القدح مع الفجار لأنه ليس كذلك فإن القدح مادته الخشب والنقش مادته اللون ونحو ذلك مخلوقة لله تعالى والصورة الخاصة بعد فعل النجار أيضاً مخلوقة لله تعالى وفعل النجار أيضاً مخلوق لله تعالى رغم أنف المعتزلة، والنجار إنما هو كاسب لبعض من المعاملات فما لكم لا تعقلون ولما كانت النسب التي تدرك في العقل بين أي الشيئين الموجودين في الخارج أو الذهن من العينية والغيرية والظلية وغيرها مسلوبة من تلك النسبة وهي وراء النسب ولم يوضع لها لفظ يدل عليها فقد يعبر عنها بأنه تعالى ليس عين خلقه فيوهم أنه غيره أو أن الخلق ظله وقد يعبر بأنه ليس غير الخلق وليس هناك نسبة الظلية فيوهم أنه عين الأشياء ثم قد يطلق بالمجاز باعتبار الملازمة بين العينية وسلب الغيرية في الأذهان بأنه تعالى عين الأشياء كلها كذا قد يقال بأنه غيرها، وقد يقال إنها ظل وليس ذلك الاختلاف والتعارض إلا في مراتب العلم الحضوري في تعبيراتهم لضيق العبارات وأحسن التعبيرات في هذا المقام قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١) والمقصود من التصورات هو هذا العلم اللدني دون العلوم الحاصلة في الظنون فإنه لا اعتداد بها وأن الظن لا يغفي من الحق شيئاً والله تعالى أعلم. فإن قيل: سلمنا أن علوم الأولياء داخلة في المستثنى أو خارجة من المستثنى منه لكونها ظنية فما قولكم في علوم الكهنة والمنجمين وعلم الأطباء بالأمراض وبما فيه شفاء المريض وبخواص النباتات ونحوها فإن الأخبار والتجربة تشهد على صدق بعض أخبارهم. روى البخاري عن ابن الناطور حديث صاحب إيليا وقد أسلم يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوماً خبيث

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

النفس فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك، وقال ابن الناطور وكان هرقل ينظر في النجوم فقال لهم حين سألوه إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر الحديث[١]، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برؤيته وكان نظيره في العلم فأتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي وقد صح أن الكهنة والمنجمون أخبروه الخروج بموسى لفرعون وبزوال ملكه على يد غلام من بني إسرائيل حتى كان فرعون يذبح أبنائهم ويستحي نساءهم قلنا: أما علم الكهنة فما كان منها مطابقاً للواقع فذلك استراق السمع من الملائكة والملائكة رسل الله لكن الكهنة والشياطين يختلطون فيه أكاذيب ولذلك نهى الشرع عن تصديقهم ثم قد منع الجن بعد مبعث النبي ﷺ عن الاستراق إما مطلقاً أو غالباً فبطل الكهانة، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الكهان وقيل: إنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة»[٢] متفق عليه، وأما علم الطب والنجوم فمبناهما إما التجارب وذلك من علم الشهادة دون الغيب والأظهر أن ذينك العلمين أعني العلم بخواص الأدوية والطبائع وكذا بخواص النجوم من السعادة والنحوسة وغيرها مقتبسان من علوم الأنبياء فبقي العلمان في الكتب ونسجت عناكب النسيان على سلاسل المرواة واكتفوا بشهادة التجارب في معرفتها قال الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾[٣] أي ساقم، وذكر البغوي في تفسير سورة سبأ أن سليمان عليه السلام ما يأتي عليه يوم إلا تثبت في محراب بيت المقدس شجرة فيسألها من اسمك؟ فتقول: اسمي كذا فيقول: لأي شيء أنت؟ فيقول: لكذا وكذا فأمر بها فينقطع فإن كانت بنت الغرس غرس لها: وإن كانت الدواء كتب حتى تنبت الخروبة فقال لها ما أنت؟ قالت: الخروبة، قال: لأي شيء أنبتت؟ قالت: لخراب مسجدك، كذا ذكر الإمام حجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله في رسالة المنقذ من الضلال ثم إن علم الطب والنجوم ليسا بوجبان للقطع فإن التأثيرات المودعة في الأدوية والكواكب أمر عادي جرت العادة الإلهية على خلق تلك الآثاربعد استعمال تلك الأدوية وبعد طلوع تلك النجوم ويتخلف تلك الآثار عنها كثيراً إن شاء الله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: قول الرجل للشيء ليس بشيء وهو ينوي أنه ليس بحق (٦٢١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٨).

(٣) سورة الصافات، الآية: ٨٨.

ومن ههنا يعلم أن من استدل بالنجوم على شيء وزعم أن الله تعالى يفعل كذلك بعد طلوع ذلك النجم جرياً على عادته فلا يكفر كمن زعم أن الله تعالى يخلق الشفاء بعد شرب الدواء ويخلق الموت بعد شرب السم وأما من زعم أن حدوث ذلك الشيء بذلك النجم فيكفر كما زعم أن الدواء علة تامة على الشفاء. عن زيد بن خالد الجهني قال صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قد أصبح قوم من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي والكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافرين ومؤمن بالكواكب»[(١)] متفق عليه، فهذا الحديث إنما يدل على كفر الثاني دون الأول غير أن الاشتغال بالنجوم مطلقاً مكروه لكونه مما لا يعنيه قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد وما زاد»[(٢)] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس، وكذلك علم النقاط والخطوط الذين يسمونها إملاء فهو أيضاً مقتبس من الأنبياء ويفيد ظناً لا قطعاً وأما الطيرة فليس بشيء، عن معاوية بن الحكم قال قلت يا رسول الله أمور كما نصنعه في الجاهلية كنا نأتي الكهان، قال فلا تأتوا الكهان، قال قلت كنا نتطير قال ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم، قال قلت ومنا يخطون قال: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن كان وافق خطه فذاك»[(٣)] رواه مسلم، وكذلك علم السحرمنزل من السماء لكنه كفر قال الله تعالى: ﴿ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا﴾[(٤)] وقد مر في سورة البقرة. فإن قيل قد يظهر علم الغيب على أهل الجوع والرياضة من الكفار استدراجاً؟ قلنا: منشأ ذلك العلم الكشف أو مطالعة عالم المثال والكشف ومطالعة عالم المثال يكون إذا تجلى للوصفي مشارعة الظاهرة والباطنة إما باتباع الريعة ونور السن ويسمى بفراسة المؤمن وإما بالجوع والرياضة ومخالفة النفس فحينئذ تنكشف الحجب عن بعض المغيبات في بعض الأحيان أو عن الصور المثالية فيرى ذلك عياناً فهو من العلم بالشهادة وليس من الغيب في شيء على أنه لما كان

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الكهانة والتطير، باب: في النجوم (٣٩٠٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: تعلم النجوم (٣٧٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

العلم الحاصل لأولياء الله تعالى بالكشف والمثال كشفاً ظنياً محتملاً للخطأ فكيف العلوم الحاصلة للكفار فإنهم تلامذة للشياطين ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾(١) ولكن الله يفعل ما يريد ومما يدل على أن المراد بظهور الغيب في تلك الآية هو العلم القطعي الذي لا يكون للشيطان إليه سبيل قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ الفاس للسببية لأن الله تعالى ﴿يَسْلُكُ﴾ أي يجعل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ي الرسول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ذكر بعض الجهات وأراد جميعها ﴿رَصَدًا﴾ جمع راصد أي حفظة من الملائكة يحفظونه من الشيطان أن يسترق السمع ويخلطوا في الوحي بما ليس منه، قال مقاتل وغيره كان إذا بعث الله رسولاً أتاه إبليس في صورة ملك يخبره فبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة يحرسونه ويطردوا الشياطين فإذا جاء الشيطان في صورة ملك أخبروه بأنه شيطان فاحذره وإذا جاء ملك قال له هذا رسول ربك ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾(٢) ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ الله، أي ليتعلق علمه به موجوداً نظيره قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾(٣) متعلق بقوله تعالى يسلك علة للحفظ من الشياطين ﴿أَن﴾ مخففة من المثقلة اسمها ضمير الشأن محذوف ﴿قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾ أي الرسل ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كما هي والمعنى ليوجد من الرسل تبليغ رسالات بهم بلا تغيير وتخليط، وقيل: ضمير ليعلم عائد إلى الرسول أي ليعلم الرسول قطعاً ولا شك أنه قد أبلغ هو وإخوانه من الرسل رسالات ربهم ولم يقع فيه تغيير وتخليط من الشيطان أو ليعلم الرسول أنه قد أبلغ الملائكة رسالات ربهم ولم يتطرق فيه شيطان، وقرأ يعقوب ليعلم بضم الياء على البناء للمجهول أي ليعلم الناس قطعاً أن الرسل قد بلغوا ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي ما علم الله عند الرسل لا يخفي عليه شيء ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ عدد مثاقيل الجبال ومكائيل البحار وعدد قطرات الأمطار وعدد ورق الأشجار وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليها النهار ونصب عدداً على الحال أو على المصدر أي عدد عدداً أو التميز أي أحصى عدد كل شيء والله أعلم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) الآية هي: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ سورة الحديد، الآية: ٢٥.
وربما كان يقصد الآية في سورة المائدة ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ رقم ٩٤.

سورة المزمل

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ
وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ
قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ التزمل من تزمل ثيابه إذا تلفف بها فأدغم التاء في الزاء ومثله المدثر تدثر بثوبه إما القطع كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في أول الوحي قبل تبليغ الرسالة ثم خوطب بعده بالنبي والرسول وقد تزمل رسول الله ﷺ ثيابه في بد، والوحي خوفاً منه لهيبته، عن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي «فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً فرفعت السماء بصري فإذا الملك الذي جاء في حراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فخشيت منه رعباً حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلي فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إلى قوله ﴿فَٱهْجُرْ﴾ ثم حمي الوحي وتتابع»[1] متفق عليه، وفي حديث عائشة في الصحيحين في حديث طويل أنه ﷺ دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع وسنذكر هذا الحديث إن شاء الله تعالى في سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وأخرج البزار والطبراني بسند ضعيف عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت: سموا هذا الرجل اسماً يصدر الناس عنه، قالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس مجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فبلغ النبي ﷺ فتزمل ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبرائيل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ (٤٩٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦١).

﴿قُمِ﴾ أي صلّ، عبر عنها بالقيام تسمية بالشيء باسم جزئه وركنه وهذا يقتضي كون القيام ركناً للصلاة وعليه انعقد الإجماع ﴿الَّيْلَ﴾ ظرف زمنا وحذف حرف الجر يدل على الاستيعاب كما يقال: صمت شهر الخلاف صمت في الشهر ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بهذا الاستثناء بقي الحكم بقيام بعض الليل ولما كان الاستثناء مبهماً طرق الإبهام في المستثنى منه فصار المحكوم به محمداً لا بد من بيان نبيه الله تعالى بقوله ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ فهو بدل من الليل المستثنى منه القليل بدل الكل فإن الاستثناء تكلم بالباقي بعد الثنيا فتقدير الكلام قم بعض الليل أي نصفه، وقيل: هو بدل من القليل وبيان له وببيان المستثنى تبين الباقي ويزول الإبهام وحينئذ تقدير الكلام قم الليل إلا نصفه والمعنى واحد وإطلاق القليل على النصف بالنسبة إلى الكل ولأن عدم القيام أي النوم في نصف الليل قليل من النوم المعتاد فإن الله تعالى جعل الليل لتسكنوا فيه ولأنه إذا قام نصف الليل للتهجد بقي نصف الآخر وفيه صلاة المغرب والعشاء وحوائج البشر من الأكل والشرب والخلاء فلم يبق لأجل النوم إلا قليل من النصف، وقيل: نصفه بدل من الليل والاستثناء منه أي من النصف وتقديره قم نصف الليل إلا قليلاً فحينئذ يلزم الاستثناء من النصف قبل ذكره مع أن كلمة نصفه حينئذ بدل البعض من الليل وحكم بدل البعض في القصر حكم الاستثناء فمقتضى الكلام تقديم القصر بالاستثناء على القصر بالبدل وأيضاً يلزم حينئذ كون الكلام مجملاً بعد البيان ﴿أَوِ انقُصْ﴾ عطف على قم الليل ﴿مِنْهُ﴾ أي من النصف الباقي بعد الاستثناء ﴿قَلِيلًا﴾ أي زماناً قليلاً أو نقصاناً قليلاً وذلك أن يكون القيام أكثر من نصف النصف أي الربع ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي على النصف ما شئت فالمأمور به في هذه الآية القيام أكثر من الربع لو ساعة والظاهر أن الأمر بالقيام في هذه الآية للوجوب كما هو مقتضى الأمر في الأصل فمقتضى الكلام البغوي وهو المستفاد من قول عائشة وغيرها أن قيام الليل بهذه الآية كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته ثم نسخ، قال البغوي كان النبي ﷺ وأصحابه يقومون على هذه المقادير فكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى النصف ومتى الثلثان فكان يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله تعالى وخفف عنهم ونسخها بقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾[1] وكان بين أول السورة وآخرها سنة. عن سعيد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خُلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قالت: فإن خلق نبي الله كان القرآن، قلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين قالت: ألست تقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ قلت: بلى قالت: فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله تعالى فأتمتها اثني عشر شهراً في السماء ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة[1] رواه أبو داود والنسائي والبغوي وكذا أخرج الحاكم وأخرج ابن جرير مثله عن ابن عباس وغيره قال مقاتل وابن كيسان كان هذا بمكة قبل أن يفرض الصلوات الخمس ثم نسخ ذلك بالصلاة والخمس والظاهر عندي أن الوجوب كان مختصاً بالنبي ﷺ بدليل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾[2] فإن كلمة من للتبعيض صريح في أن الصحابة بعضهم كانوا يقومون دون بعض. فإن قيل: لو كان وجوبه مختصاً بالنبي ﷺ فكيف يصح تعليل التخفيف لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3] فإن هذه الآية يقتضي رعاية حال الأمة وضعفهم؟ قلنا: خفف الله سبحانه عن النبي ﷺ لرعاية ضعف الأمة وأعذارهم لأن الناس بما واظب عليه النبي ﷺ مسنون للأمة مطلوب الإتيان منهم من غير إيجاب بحيث يلام تاركه قال الله تعالى: ﴿لَّكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[4] وما قيل: إن المسنون ما واظب عليه النبي ﷺ على سبيل التطوع احترازاً عن صوم الوصال ونحوه فليس بشيء لأن الأصل التأسي والاقتداء مطلقاً فلا يترك إلا إذا كان ذلك الأمر ممنوعاً محرماً أو مكروهاً في حق الأمة كصوم الوصال ووصل النكاح فوق الأربعة وغير ذلك ولا وجه لتخصيص التأسي بما واظب النبي ﷺ على سبيل التطوع ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ عطف على قم الليل وما قيل الترتيل مندوب إجماعاً فعطفه على القيام يقتضي كون الأمر بالقيام أيضاً للندب فليس بشيء. عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[5] رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي، والترتيل عبارة عن إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة كذا في الصراح وفي القاموس نحوه، وعن

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في صلاة الليل (١٣٤٠).

(٢) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٣) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيل في القراءة (١٤٦٣).

ابن عباس معناه بينه بياناً وعن الحسن نحوه، وقال مجاهد ترتيل فيه ترسلاً عن قتادة قال: سئل عن أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد ببسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم[١] رواه البخاري، قلت: معنى قوله يمد ببسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم أنه يظهر فيه الألف من الله بعد اللام ومن الرحمن بعد الميم بقدر حركة وأما مد الرحيم فيجوز فيه المد بقدر الحركتين وأربع وست عند الوقف وفي الوصل لا يجوز إلا بقدر حركة أجمع عليه القراء. وعن أم سلمة أنها سئل عن قراءة النبي ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً[٢] رواه الترمذي وأبو داود والنسائي، وعنهما قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته يقول الحمد لله رب العالمين ثم يقول الرحمن الرحيم ثم يقف رواه الترمذي، قلت: ويتضمن الترتيل تحسين الصوت بالقرآن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»[٣] متفق عليه، وفي رواية عنه «ما أذن الله ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به» متفق عليه وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» رواه البخاري، وليس المراد إلا تحسين الصوت كما خرج به في بعض الروايات دون إخراجه على وجه الغناء فإنه حرام ممنوع عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يتجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» رواه البيهقي في شعب الإيمان.

فائدة:

والحكمة في الترتيل التدبر في معاني القرآن والألفاظ بموعظة والخوف عند آية الوعيد والرجاء عند آية الوعد ونحو ذلك، روى البغوي عن ابن مسعود قال: لا تنتثروه نثر الدقل ولا تهزوه هز الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة، وعن حذيفة قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الليل فما مر بآية فيها ذكر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: مد القراءة (٥٠٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء كيف كان قراءة النبي ﷺ (٢٩٢٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيل في القراءة (١٤٦٥)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت (١٠١٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن (٥٠٢٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٢).

الجنة إلا وقف وسأل الله الجنة وما مر بآية فيها ذكر النار إلا وقف وتعوذ من النار، وعن عبيد المليكي ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن لا تتوسدوا القرآن واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار وافشوه وتغنوه وتدبروا ما فيه لعلكم تفلحون ولا تعجلوا هرابه فإن له ثواباً» رواه البيهقي في الشعب، وعن سهل بن سعد الساعدي قال: بينا نحن نقرأ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله كتاب الله واحد وفيكم الأخيار وفيكم الأحمر والأسود والأبيض اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي أقوام يقرأونه يقيمون حروفه كما يقام السهم ولا يجاوز تراقيهم يتعجلون أجره ولا يتأجلونه»[1] ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ قيل: المراد بالقول الثقيل الأمر بقيام الليل فإنه ثقيل شاق على النفس فهذه الجملة على هذا التأويل تذييل وتأكيد لما سبق والسين حينئذ للتأكيد دون الاستقبال وقيل: المراد به القرآن قال محمد بن كعب القرآن ثقيل على المنافقين، قلت: فهو نظير قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ﴾[2] وقال الحسن بن الفضل ثقيل في الميزان قلت: نظير قوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحانه الله وبحمده سبحان الله العظيم»[3] متفق عليه عن أبي هريرة، وقال مقاتل ثقيل لما فيه من الأمر والنهي والحدود كذا قال قتادة وقال أبو العالية ثقيل بالوعد والوعيد وحاصل هذه الأقوال أنه لما فيه من التكاليف الشاقة والوعد والوعيد وذكر القيامة ثقيل على المكلفين لاسيما على الرسول الله ﷺ إذ كان عليه أن يتحملها ويحملها أمته ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «شيبتني سورة هود وأخواتها» رواه الطبراني عن عقبة بن عامر وعن أبي جحيفة، يعني لما فيه من قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[4] أو لما فيه من ذكر القيامة وعذاب الأمم الماضية يدل عليه ما رواه الحاكم عن أبي بكر بلفظ «شيبتني سورة هود والواقعة والمرسلات وعم يساءلون وإذا الشمس كورت»[5] رواه الترمذي عن ابن عباس والحاكم عن أبي بكر وابن مردويه عن سعد ونحوه عن أنس رواه عبد الله بن أحمد بلفظ «شيبتني هود وأخواتها» لما فيها ذكر يوم القيامة وقصص الأمم، وقيل: ثقيل

---

(١) رواه أحمد والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان. انظر: كنز العمال (٢٩٠٨١).

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤).

(٤) سورة هود، الآية: ١١٢.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (٣٢٩٧).

على التأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفيته للسر وتجريد للنظر لرزانته ومتانة معناه وهذا أوفق لما سبق وما لحق فإن الترتيل لأجل التدبر والتفهم وناشئة الليل أشد لمواطأة القلب اللسان، وقيل: ثقيل على باطن الصوفي وعظيمة فإن الخالق العظيم المتعالي يتجلى على قلب المخلوق يحقر السافل كذا قال الفراء حيث قال: ثقيل ليس بالخفيف ولا بالسفساف لأنه كلام ربنا، قال الشيخ الأجل الأكرم الهادي سبيل اليقين محبوب رب العالمين سيف الملة والدين أبد الآبدين إن علامة انكشاف حقيقة القرآن وورود ثقل عظيم على باطن السالك ومن ثم قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1] قلت: ويؤيده هذا المعرفة قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[2] وهذا معنى ما قيل ثقيل تلقيه رواه مسلم عن عبادة بن الصامت قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه[3] وفي رواية نكس رأسه وكس أصحابه رؤوسهم فلما أتلى عنه رفع رأسه، وفي الصحيحين عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً تأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[4] متفق عليه. ويحتمل أن يقال: إنه ثقيل لما فيه من الأمر بالتوجه إلى الخلق لأجل الدعوة والتبليغ والإرشاد والتكميل بقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[5] وقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[6] بعدما كان متوجهاً إلى الله تعالى مشتغلاً به تعالى حيث كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو تعبد الليالي ذوات العدد وقبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها كذا في الصحيحين في حديث عائشة، ودرجة الإرشاد والتكميل وإن كان أفضل من درجة الاستكمال والخلوة لكنه قد

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٥.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٣) أخرجه مسلمٌ في كتاب: الحدود، باب حد الزنى (١٦٩٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: طيب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٣).

(٥) سورة المدثر، الآية: ٢.

(٦) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

يكون عند الصوفي على خلاف الطبع فيثقل عليه ويزعمها الصوفي في بادىء الرأي أن هذا أحط مرتبة من التوجه إلى الله تعالى والخلوة به ولهذا قيل: الولاية به أفضل من النبوة يعني ولاية النبي أفضل من نبوة ذلك النبي زعماً من القائل أن في الولاية التوجه إلى الله سبحانه وفي النبوة التوجه إلى الخلق، وقال المجدد ألف ثاني ﷺ ليس هذا القول مبنياً على التحقيق بل النبوة مطلقاً أفضل من الولاية وهي عبارة عند الصوفية عن السير في الذات والولاية عن السير في الصفات وشتان ما بينهما والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى يسمى في الاصطلاح بالعروج وإلى الخلق يسمى بالنزول وكلاهما يعترضان للصوفي في كلا السيرين غير أن النازل في مقام الولاية وإن كان له توجهاً إلى الخلق لكنه لم يبلغ في العروج غاية فهو ملتفت إلى الأعالي طمعاً لغاية الكمال والنازل في مقام النبوة لا يكون نازلاً إلا بعد ما يبلغ الكتاب في الكمال أجله فهو بكلية يتوجهه إلى الخلق للتكميل على مراد الله سبحانه وتعالى وإن كانت على خلاف مراده وطبعه فهو أفضل وأكمل وهذا الجهاد باق ما دامت هذه النشأة الثانية الباقية وبعد فراغ منها يتأدى بأملهم إلى الرفيق الأعلى فحينئذ يتوجه بكليته إلى الدرجات العلى وأجر من اهتدى به على سبيل الأكمل وبالأوفى والله تعالى أعلم. وجملة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي﴾ إما تذييل وتأكيد لماسبق كما ذكرنا أو معترضة لبيان الحكمة في الأمر بقيام الليل فإن في القيام تمرين النفس على المشقة ومشق مخالفات الطبع أو لأن الصلاة كانت قرة للنبي ﷺ حيث قال: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[1] رواه أحمد والنسائي والبيهقي عن أنس، وقال: «أقم الصلاة يا بلال أرحنا بها»[2] رواه أبو داود عن رجل صحابي من خزاعة فحينئذ يكون في التهجد تحصيل ما يعالج به ثقل التوجه إلى الخلق أو لأن لقيام الليل تأثير التأثر نفسه لشريعة في نفوس الأمة كي يجيبوا دعوته حين يستمعوا قوله كما أجاب الجن دعوته حين يستمعوا القرآن أو لأن لقيام الليل مدخل في قيامه مقام الشفاعة لأنه حيث قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾[3] ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي مقام الليل مصدر جاء على فاعلة كعافية بمعنى العفو كذا قال الأزهري وقالت عائشة الناشئة قيام الليل بعد النوم فهو بمعنى التهجد، وقال ابن كيسان هي القيام من آخر الليل، وقال سعيد بن جبير وابن زيد أي ساعة قام من الليل فقد نشأ وهو بلسان الحبش نشأ فلان أي قام، وقال

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في صلاة العتمة (٤٩٧٧).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

عكرمة هي القيام من أول الليل، قال البغوي روي عن علي بن الحسين ﷺ أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء الآخرة يقول: هذا ناشئة الليل والظاهر أن هذين القولين لا يلائمان هذا المقام فإنه ﷺ كان مأمور القيام آخر الليل، وقال الحسن كل الصلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة وقيل: صفة الفاعل بمعناه والمراد النفس التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض ساعات الليل كلها وكل ساعة منه ناشئة لأنها منشيء أي مبتدأ ومن نشأت السحابة وأبدت فكل ما حدث بالليل وبدأ فقد نشأ وهو ناشيء والجمع ناشئة، وقال ابن أبي ملكية سألت عن ابن عباس وابن الزبير عنها فقالا: الليل كلهما ناشئة فالإضافة حينئذ بيانية ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ قرأ ابن عامر وأبو عمر وبكسر الواو وفتح الطاء والمد بمعنى الموافقة أي هي أشد موافقة للقلب مع اللسان فإن ذلك يكون بالليل أكث منه بالنهار وقرأ الجمهور بفتح الواو وسكون الطاء أي أشد ثقلاً من صلاة النهار لأن الليل للنوم والراحة منه قوله ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مضر»[1] وإذا اعتاد المرء بأشد العبادات ثقلاً هان عليه مشقة سائر التكاليف وكلما هو أشد وأثقل على النفس مع مراعاة السنة كان أكثر ثواباً وأثقل في الميزان وأشد تأثيراً في النفوس، وقال ابن عباس كانت صلواتهم أول الليل هي أشد وطأ بمعنى أجدر أن يحصوا ما فرض الله عليكم من القيام لأن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ، وقال قتادة أثبت في الخير وأحفظ للقراءة، وقال الفراء أثبت وطأ للقيام وأسهل للمضي من ساعات النهار لأن النهار خلق لتصرف العباد والليل للخلوة والعبادة، وقيل: أشد نشاطاً فإن من كان أشد على النفس ثقلاً كان ألذ للصوفي وقال ابن زيد أفرغ له قلباً من النهار لأنه لا تعرض له بالليل حوائج وموانع وقال الحسن أشد وطأ في الخير وأمنع من الشيطان ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أثبت قراءة وأصح قولاً لهدأة وسكون الأصوات ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑦﴾ والسبح سرعة الذهاب ومنه السباحة في الماء يعني إن لك بالنهار ذهاباً في مهامك ولدعوة الخلق وتبليغ الأحكام واشتغالاً بها فعليك بالتهجد فإن الليل أفرغ لها فهذا بمنزلة التعليل لما سبق.

فصل في فضائل صلاة الليل

عن أبي هريرة قال: رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (٨٠٤).

له»[١] متفق عليه، وفي رواية لمسلم «ثم يبسط يديه ويقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم» وعن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله فيها خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ذلك كل ليلة»[٢] رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الصلاة إلى صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثة وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً»[٣] متفق عليه، وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة لكم إلى ربكم ومكفر للسيئات ومنهيات للإثم»[٤] رواه الترمذي، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة يضحك الله إليهم الرجل إذا قام بالليل يصلي والقوم إذا صفوا في الصلاة وإذا صفوا في قتال العدو»[٥] رواه البغوي في شرح السنة، وعن عمرو بن عيينة قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون الرب إلى العبد في جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»[٦] رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أشرف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل» رواه البغوي في الشعب ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ عطف على قم الليل والمراد به دوام الذكر ليلاً ونهاراً بحيث يطرق إليه الفتور ولا يلحقه الذهول وذا لا يتصور بالسلان فإن كل ما كان باللسان والجوارح من التسبيح والتحميد والصلاة والقراءة ونحو ذلك يتطرق إليه فتور النية فليس هو إلا ذكر القلب وهو حقيقة الذكر فإن الذكر عبارة عن طرد الغفلة كما يقتضيه المقابلة في قوله ﷺ: «ذاكر الله في الغافلين بمنزلة الصابر في الغازين»[٧] فكل صلاة وتسبيح وقراءة كان عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب والذكر في آخر الليل (٧٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: من نام عند السحر (١١٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً (١١٥٩).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٤٩).

(٥) رواه أحمد وأبو يعلى، وقال عنه السيوطي. صحيح انظر الجامع الصغير (٣٥٥٥).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٧٩).

(٧) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار ورجال الأوسط وثقوا.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: ذكر الله تعالى في الغافلين (١٦٧٩٣).

قلب لاه فلا يعتد به ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾(١) وإنما قلنا إن المراد عوام الذكر لأن العطف يتقضي المغايرة ومطلق الذكر يتضمنه قيام الليل وترتيل القرآن وحمل الكلام عليه أولى منه على التأكيد وقيل: معناه أن قل بسم الله الرحمن الرحيم عند ابتداء تلاوة القرآن.

مسألة:

أجمعوا على قراءة البسملة في أول الفاتحة وأول كل سورة ابتداء القارىء القراءة بها ولم يصلها بما قبلها سنة، واختلفوا في التسمية بين السورتين فكان ابن كثير وقالون وعاصم يبسملون بين كل سورتين في جميع القرآن ما خلا الأنفال وبراءة فإنه لا خلاف في ترك البسملة هناك والباقون لا يبسملون بين السور فأصحاب حمزة يصلون آخر كل سورة بأول الأخرى والمختار من مذهب ورش وعن أبي عمرو وابن عامر السكتة من غير قطع، وأما عند الابتداء بما بين السورة فالقارىء فيه مخير بين التسمية وتركها في مذهب الجميع هذا في القراءة خارج الصلاة وأما إذا قرأه في الصلاة فقال الشافعي هي آية من الفاتحة ومن كل سورة فيجب قراءتها مع الفاتحة ويسن قراءتها مع غيرها ويبسمل جهراً وقال الأئمة الثلاثة ليست هي جزءاً من شيء من السور، قال أبو حنيفة هي آية من القرآن نزلت للفصل فلا يقرأ البسملة وعند مالك في الصلاة أصلاً ولا مع الفاتحة ولا مع غيرها، وعند أبي حنيفة وأحمد يسن قراءتها مع الفاتحة سراً ولا يقرأ مع غيرها من السور وفي رواية عن محمد يستحب أن يقرأ سراً مع كل سورة وقد ذكرنا في تفسير سورة الفاتحة الحجة على أنها ليست ليست من الفاتحة ولا من شيء من السور وأن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين لم يجهروا بها في الصلاة، وقد ذكر الشافعية في الجهر بالتسمية تسعة أحاديث رواه دارقطني والخطيب أورد كلها ابن الجوزي، وقال ابن الجوزي قال الدارقطني كل ما روي عن النبي ﷺ في الجهر بالتسمية فليس بصحيح فأما عن الصحابة فمنه صحيح ومنه ضعيف، وقد روى أبو داود أن النبي ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم وكان مسيلمة يدعى رحمن اليمامة فقال أهل مكة إنما يدعوا محمد الله يمامة فأمر الله رسوله فأخفاها حتى مات. وهذا يدل على أن يجهر بها، وقدم الجهر بالبسملة مروي عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وعمار بن ياسر وعبد الله بن مغفل وابن الزبير وابن عباس ومن كبار التابعين منهم الحسن والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وعمر وبن عبد العزيز والأعمش والثوري وإنما يرون خلاف هذا عن معاوية وعطاء وطاوس ومجاهد

(١) سورة الماعون، الآية: ٤ ـ ٥.

كذا قال ابن الجوزي ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ أي انقطع عما سواه ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى ﴿تَبْتِيلًا﴾ مصدر من غير بابه وضع موضع تبتلاً لرعاية الفواصل والإشارة إلى أن التبتل في الغالب أمر كسبي يحتاج إلى تعمق واجتهاد فالتبتيل مقدم على التبتل ومن ثم قال الحسن في تفسيرها اجتهد، وقال ابن زيد التبتل رخص الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله فكأنه قال: تبتل قلبك عما سوى ربك تبتيلاً فتبتل لله تعالى وليس المراد بالتبتل ترك الملاقاة بالناس أو التقصير في أداء حقوق العباد أو قطع نحوذلك مما أمر الله به أن يوصل إذ لا رهبانية في الدين وإن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ولضيفك عليك حقاً بل المراد به قطع العلاقة الحسية والعلمية عن القلب وهو معنى القلب، قالت الصوفية العلية الطريق الذي نحن بصدده قطعه خطوتان الخطوة الأولى الانقطاع عن الخلق والثانية الوصول إلى الحق وأحدهما لازم للآخر ومن ثم ذكر الله سبحانه كلا الخطوتين بالعطف بالواو الذي هي للجمع وقدم قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ الذي هو عبارة عن الوصول إلى الحق على التبتل لأنه هو المقصود بالتبتل وإنما قلنا إنه عبارة عن الوصول لأن الذكر الذي لا يتطرق إليه الفتور ولا يستعقبه الذهول هو العلم الحضوري إذ لا يتصور ذلك في العلم الحصولي بداهة والعلم الحضوري عبارة عن حضور نفس المعلوم عند العالم وذلك يعبر بدوام الحضور والوصول والاتصال والاتحاد واالبقاء ونحو ذلك بألفاظ شتى وكانت الأوائل يعبرون عنها بالإخلاص قال ابن عباس وغيره في تفسير هذه الآية أخلص الله إخلاصاً وإنما قال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ولم يقل واذكر ربك لأن الملازم للتبتل الذي هو المعبر بالفناء وإنما هو علم الأسماء والصفات دون العلم المتعلق بالذات فإنه بعد وراء الوراء، ويحتمل أن يكون المراد بالذكر الذكر باللسان بموافقة القلب وبدوام الذكر الدوام العرفي بمعنى الإكثار بقدر الطاقة البشرية وذلك يفضي إلى التبتل ووسيلة إليه بشرط الاجتباء عن الله تعالى كما يكون للأنبياء والأفراد من الأولياء أو جذب من الشيخ وعلى هذا وجه التقديم على التبتل أظهر تقدم طبعاً، واعلم أن على هذا التأويل في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى تكرير اسم الذات وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على قراءة الجر إشارة إلى التصور إحاطته تعالى بالممكنات ذكر النفي والإثبات وكلا التكريرين أساسان بطريقة أرباب كمالات الولايات وعلى هذا التأويل يثبت المغايرة بين المعطوف عليه أعني قم الليل ورتل القرآن واذكر اسم ربك ويظهر أن كلاً من الأمور الأربعة الصلاة وتلاوة القرآن وذكر اسم الذات والنفي والإثبات مدار لحصول مراتب القرب والدرجات غير أن الأولين لأهل الانتهاء والآخرين لأهل الابتداء وإنما قدم الأولين على الآخرين لأن المخاطب أولاً هو النبي ﷺ وهو أكمل أهل الانتهاء والله تعالى أعلم ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو رب المشرق

والمغرب أو مبتدأ وخبره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقرأ الباقون بالجر على البدل من ربك وقيل بإضمار حرف القسم وجوابه لا إله إلا هو ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ الفاء للسببية فإن كونه رباً لجميع المخلوقات وتوحده بالألوهية يقتضي أن يوكل إليه الأمور كلها، وفي هذه الآية دفع توهم أن التبتل عن الخلق يوشك أن يخل في أموره المعايشة فإن الإنسان مدني الطبع لا يستغني بعضهم عن بعض فأبطل هذا الوهم بأنه تعالى رب المشرق والمغرب وما بينهما من العباد والبلاد وأفعالهم ومنافعهم والقلوب كلها بيده يصرفها كيف يشاء لا إله إلا هو لا يتصور النفع ولا الضرر من أحد إلا بإذنه وإرادته فاتخذه وكيلاً حسبك عن غيره ونعم الوكيل. عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[1] رواه الترمذي وابن ماجه، وقال: قال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لم تمت حتى تستكمل رزقها ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» رواه البغوي في شرح السنة والبيهقي في الشعب، وعن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليس بتحريم الحلال وإضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا يكون بما في يديك أوثق مما في يد الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك»[2] رواه الترمذي، قال الشيخ الأجل إمامنا وقبلتنا يعقوب الكرخي إن من أول السورة إلى هذه الآية إشارة إلى مقامات السلوك من الخلوة بالليل والاشغال بالقرآن وذكر الرحمن ونفي ما سواه والتوكل به ثم أشار إلى أعلى مقامات السلوك وهو أبصر على جفاء الأعداء فقال:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي الكفار من الخرافات فإنهم كانوا يقولون كاهن شاعر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين (٤١٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الزهادة في الدنيا (٢٣٤٠).

مجنون ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ بأن تجانبهم ولا تكافئهم وتكل أمرهم إلى الله هذه الآية نسختها آية القتال ﴿وَذَرۡنِي﴾ أي دعني ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ أي مع المكذبين فإن الواو بمعنى مع ولا يجوز أن يكون للعطف والمعنى كِل أمرهم إلى فإن لي غنية عنك في مجازاتهم ولا يحزنك أقوالهم ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أرباب النعمة يريد صناديد قريش ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً أو إمهالاً قليلاً إلى أن يموتوا أو يأتي أمر الله بالقتال فيعذبهم بالله بأيديكم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم، قال مقاتل بن حبان: نزلت فيمن هلكوا ببدر فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى قتلوا ببدر ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ﴾ تعليل للأمر ﴿أَنكَالٗا﴾ النكل القيد الثقيل، أخرج البيهقي عن الحسن قال: الأنكال قيود من النار ﴿وَجَحِيمٗا وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ غير مبالغة تأخذ بالحلق لا تنزل ولا تخرج، أخرج ابن جرير وابن أبي الدنيا في صفة النار والحاكم والبيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ قال: شجرة الزقوم، وأخرج عبد الله بن أحمد عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الضريع شيء يكون في النار شبه الشوك أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حراً من النار إذا أطعم صاحبه لا يدخل البطن ولا يرفع إلى الفم فيبقى بين ذلك لا يسمن ولا يغني من جوع» ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أخرج ابن أبي الدنيا عن حذيفة مرفوعاً «إنها لتسقط عليهم أي على أهل النار وحيات من النار وعقارب من نار ولو أن حية منها نفخت بالمشرق أحرق من في المغرب ولو أن عقرباً منها ضربت أهل الدنيا أحرقوا من آخرهم وإنها لتسقط عليهم فيكون بين لحومهم وجلودهم» وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب هو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه»[1] وأخرج مسلم عن النعمان بن بشير: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كغلي المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً» وأخرج الحاكم عن أبي هريرة نحوه ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ ظرف لما في لدينا أنكالاً من معنى الفعل والظاهر أن رجفة الأرض والجبال يكون قبل النفخة الأولى وعذاب الكفار بالأنكال والجحيم بعد البعث فوجه الظرفية أن يوم القيامة زمان ممتد مما قبل النفخة الأولى أن يدخل أهل الجنة وأهل النار النار ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ عطف على ترجف، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أي رملاً سائلاً قال الكلبي هو الرمل الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ يا أهل مكة ﴿رَسُولٗا﴾ في الكلام التفات فإن فيما سبق من الكلام كان الخطاب مع النبي ﷺ وذكر الكفار في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الخ إلى الغيبة وهذا خطاب مع الكفار وذكر

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أهون أهل النار عذاباً (٢١٢).

النبي ﷺ على الغيبة وفي هذا الكلام تأكيد لما سبق قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ ومضمون هذه الآية إنا أرسلناك فمضمون الآيتين واحد.

﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ بالإجابة أو الامتناع ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ صفة لمصدر محذوف أي إرسالاً كإرسالنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعن موسى عليه السلام ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ موسى عليه السلام ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ شديداً ثقيلاً بعد طعام وبيل أي ثقيل لا يستمرىء ومنه الوابل المطر العظيم أغرقه الله تعالى في البحر ثم أدخله في النار فكذا يفعل بكم إن تعصوا رسولكم ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾ يا أهل مكة برسولكم ﴿يَوْمًا﴾ أي عذاب يوم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وأعرب بإعرابه وظرف متعلق بتتقون أي كيف تتقون العذاب في يوم ويحتمل أن يكون مفعولاً لكفرتم أي كيف تتقون العذاب إن كفرتم يوماً أي بيوم ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ من شدة هوله وطول زمانه فإنه هذا على الغرض أو التمثيل وأصله إن بالهموم يضعف القوي يسرع الشيب وشيباً جمع أشيب كما أن بيضاً جمع أبيض عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، قال: «يقول الله تعالى يا آدم فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك قال: أخرج بعث النار قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف، ثم قال: والذي نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[1] متفق عليه، وهذه الجملة صفة ليوم والعائد ضمير الفاعل على المجاز كما في قولهم صام نهاره والعائد محذوف لقديره يوماً يجعل الله فيه الولدان شيباً ﴿السَّمَاءُ﴾ عظمتها وإحكامها ﴿مُنفَطِرٌ﴾ منشق والتذكير على تأويل الشفق أو إضمار كلمة شيءأي شيء منفطر ﴿بِهِ﴾ أي بذلك اليوم أي بشدته فكيف غير السماء الجملة صفة ثاينة ليوماً ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ هذه الجملة صفة ثالثة ليوماً والوعد مصدر مضاف إلى ضمير المفعول العائد لى اليوم أو العائد محذوف والمصدر مضاف إلى الفاعل أي كان وعد الله بالعذاب فيه مفعولاً أو رد الجملتين معطوفتين بغير العطف على طريقة: ﴿الرَّحْمَٰنُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون هذه الأة نصف أهل الجة (٢٢١).

﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ﴾ الآيات نلقيه عليك ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ تذكر العباد المبدأ والمعاد وتوضيح السبيل الموصل إلى الله تعالى إلى جوده وإلى إنعامه ورضوانه والرشاد ﴿فَمَن شَآءَ﴾ التذكر وسلوك السبيل إلى ربه ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ الفاء للسببية أي ليس السبيل إلى الله تعالى إلا التذكرة فإنه سبحانه أقرب إلينا من أنفسنا وليس الحجاب بيننا إلا حجاب الغفلة وحجاب العظمة والكبرياء منه تعالى، وإلى تلك الحجب أشار النبي ﷺ: «إن الله تعالى سبعون ألف حجاباً من نور» وظلمة فحجب العظمة والكبرياء حجب نورانية قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»[(١)] وحجب الغفلة العباد حجب ظلمانية لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه وكشف تلك الحجب يتيسر بالتذكير فإن التذكير يذيل الغفلة ويستوجب المحبة للمعية كما قال رسول الله ﷺ «المرء مع من أحب»[(٢)] فالمحبة يفضي المحب إلى المحبوب بحيث الأقنعة سرادقات العظمة والكبرياء وإحراق سبحات الوجه كناية عن الفناء والبقاء وإن كان ذلك في مرتبة العلم، قيل: الجملة مضمونها التحير وهو مجاز عن التهديد.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أي أقرب ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ قرأ هشام بسكون اللام والباقون بضمها ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ قرأ ابن كثير والكوفيون بنصبهما عطفاً على أدنى يعني تقوم أقرب من الثلثين وتقوم النصف وتقوم الثلث والباقون بجرهما يعني أقرب من النصف ومن الثلث وهذه القراءة تدل على القيام أقل من الثلث فوق الربع وإنما قلنا فوق الربع لما ذكرنا فيما قبل إن قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾[(٣)] يقتضي أن يكون القيام فوق الربع ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ عطف على فاعل تقوم ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي جماعة أصحابك يقومون على ذلك

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤٠٨٥).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨).
(٣) سورة المزمل، الآية: ٣.

المقدار اقتداء لسنتك كذا قال البيضاوي، قال البغوي في تفسيره يعني المؤمنين كانوا يقومون معه وهذا التأويل بعيد جداً فإن الذين معه هم المؤمنون دون الكفار وكما في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾(١) فكلمة من للتبعيض يدل على أن القائمين كانوا بعض الصحابة دون كلهم ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ عطف على أن ربك فيه وضع المظهر موضع المضمر تقديره وهو مقدر الليل والنهار أي يعلم مقاديرهما كما هي وأنتم لا تعلمون كما هي، قال البيضاوي تقديم اسم الله مبتدأ مبنياً عليه يقدر يشعر بالاختصاص وهي مذهب عبد القاهر والزمخشري دون السكاكي ﴿عَلِمَ أَن﴾ مخففة واسمها ضمير الشأن محذوف ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ومن ثم ربط وجوب الصلاة الخمس بأمور ظاهرة كطلوع الصبح والشمس وزوالها وغروبها وقدر الظل وغروب الشفق ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي رجع عليكم من التشديد إلى التخفيف فأسقط عنك ذلك القدر كيلا يشق على أمتك التأسي به ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ الفاء للسببية ومعناه صلوا ما تيسر من الصلاة بالليل عبر الصلاة بالقرآن ها هنا كما عبر بالقيام فيما سبق تسمية الكل باسم الجزء، فهذه الآية يقتضي كون القراءة ركناً للصلاة كما يقتضي تلك الآية بركنية القيام وعلى هذا العقد الإجماع أيضاً فهذه الآية نسخ قيام الليل ذلك المقدار وبقي مطلق القيام بالليل واجباً ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس فصار تطوعاً بعد فريضة يدل على ذلك ما ذكر من قول عائشة وابن عباس ومقاتل وابن كيسان قلت: على تقدير كون القيام بالليل واجباً في الابتداء على النبي ﷺ وعلى أمته فكون ذلك منسوخاً في حق أمته أمر مجمع عليه، وأما كونه منسوخاً في حق النبي ﷺ سواء كان في الابتداء واجباً عليه خاصة أو عليه وعلى أمته عامة فقد اختلف فيه فقيل لم ينسخ في حق النبي ﷺ بل كان قيام الليل واجباً عليه ﷺ خاصة إلى آخر عمره وقيل: بل نسخ عنه ﷺ أيضاً وكان عليه الصلاة نافلة وهو الصحيح المختار عندي ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾(٢) فإنه صريح في كونه نافلة. فإن قيل: معنى النافلة الزائدة يعني زائدة في الوجوب عليك لا على أمتك؟ قلت: لو كان كذلك يقال عليك فإن صلة الوجوب تكون على دون اللام.

فإن قيل: في وجه تخصيصه به عليه الصلاة والسلام فإنها نافلة لجميع الناس غير ممنوعة عن أحد؟ قلنا: وجه التخصيص على ما روي عن مجاهد والحسن وأبي أمامة أن تسميتها نافلة في حقه ﷺ خاصة باعتبار كونها عامة في رفع الدرجات بخلاف غيره فإنها في حق

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩. (٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

غيره نافلة في تكفير السيئات غالباً ويدل أيضاً على كون قيام الليل تطوعاً في حق النبي ﷺ حديث المغيرة قال قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه فقيل له لم تصنع هذا وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[١] ولم يقل إنها فريضة علي خاصة وحديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يصلي في السفر على راحلته حيث توجهت به يومىء إيماءً صلاة الليل إلا الفرائض ويوتر على راحلته متفق عليه.

مسألة:

اختلفوا في أن صلاة الليل في حق الأمة من سنن الهدى المؤكدات أو من المستحبات؟ فقيل: هي مندوب في حقنا وهذا قول من قال هي كانت فريضة على النبي ﷺ حتى مات قالوا: الأدلة القولية تفيد الندب والمواظبة الفعلية لم يكن على سبيل التطوع والسنة ما واظب عليه النبي ﷺ من التطوع والمختار عندي أنها من سنن الهدى كما ذكرنا أن مواظبته ﷺ كان على وجه التطوع وعلى تقدير تسليم كون المواظبة على سبيل الوجوب فمواظبته ﷺ أي وجه كان يقتضي كون الفعل مسنوناً ما لم يكن ممنوعاً في حق غيره كصوم الوصال مثلاً، ومما دل على كونه سنة مؤكدة حديث ابن مسعود قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل فقيل له ما زال نائماً حتى أصبح ما قام إلى الصلاة قال: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه أو قال: في أذنيه»[٢] متفق عليه، فإن ترك المندوب لا يستحق عليه اللوم والعتاب والله تعالى أعلم. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ القرآن في الصلوات الخمس، وقال الحسن يعني في صلاة المغرب والعشاء، قال البغوي قال قيس بن حازم صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ في أول ركعة بالحمد وأول آية من البقرة ثم قام في الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة ثم ركع فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال: «إن الله عز وجل يقول فاقرؤوا ما تيسر منه» ويحتمل أن يكون المراد منه فاقرؤوا القرآن بعينه كيف ما تيسر لكم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (٤٨٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه (١١٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (٧٧٤).

مسألة:

اختلفوا في مقدار القراءة التي لا يجوز الصلاة إلا بها ومقدار الواجب منها في الصلاة؟ فقال أبو حنيفة في إحدى الروايات عنه إن ما هو ركن للصلاة ولا يصح الصلاة إلا به هو أدنى ما يطلق عليه اسم القرآن ولم يشبه قصد الخطاب واحداً ونحوه وتقتضي هذه الروايات الجواز بدون الآية وبه جزم القدوري وفي رواية عنه وعن أحمد هو آية تامة لا يجوز الصلاة بما دون ذلك واختاره صاحب الهداية وفي رواية عنه وبه قال أبو يوسف ومحمد أنه ثلاث آيات قصار مثل سورة الكوثر أوية طويلة تساوي الثلاث لكن يجب عند أبي حنيفة وصاحبيه قراءة الفاتحة وقدر سورة معه فإن ترك شيئاً منها يجب سجدة السهو إن كان ترك سهواً فإن لم يسجد وترك عمداً يأثم ويجب عليه الإعادة من غير افتراض، وقال مالك والشافعي وأحمد لا تصح الصلاة إلا بفاتحة الكتاب وسن عندهم ضم السورة ولا يجب احتجوا بقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[1] متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت ورواه الدارقطني بلفظ «لا تجوز صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب» وقال: إسناده صحيح رواه ابن خزيمة وابن حبان بهذه اللفظ من حديث أبي هريرة وفيه قال الراوي قلت: إن كنت خلف الإمام؟ قال: فأخذ بيدي وقال: اقرأ بها في نفسك، وروى مسلم وأحمد عن أبي هريرة بلفظ «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج هي خداج غير تمام» فقلت: يا أبا هريرة أحياناً أكون وراء الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك يا فارسي، وروى الحاكم من طريق أشهب عن أبي عتبة عن أبي هريرة عن محمد بن الربيع عن عبادة مرفوعاً «أم القرآن عوض عن غيرها وليس غيرها عوضاً عنها» وبما ذكرنا من اختلاف ألفاظ الحديث ظهر لك اندفاع ما قيل إن معنى قوله: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» صلاة كاملة كما في قوله ﷺ: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[2] لأن هذا التأويل لا يجري في أكثر ما ذكرنا من الألفاظ على أن متعلق الجار والمجرور الواقع خبراً لا يقدر إلا عاماً أي لا صلاة كائنة وعدم الوجود شرعاً هو عدم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (٧٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤).

(٢) رواه الدارقطني والحاكم والطبراني بأسانيد ضعيفة. وقال الصنعاني: موضوع، ورواه الشافعي وابن أبي شيبة موقوفاً.
انظر: كشف الخفاء (٣٠٧٣).

الصحة غير أن في حديث لا صلاة إلا في المسجد لما قام الدليل عليه وهو الإجماع، قلنا: المراد هناك كون خاص أي كاملة فهو من باب حذف الخبر لا من باب وقوع الجار والمجرور خبراً وما مرفي تفسير سورة الفاتحة حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»[١] الحديث يدل على أن الصلاة لا يكون إلا بفاتحة الكتاب وأبو حنيفة أخذ بهذا الحديث قال: بوجوب الفاتحة في الصلاة ووجوب ضم السورة أيضاً لما روي في بعض الروايات «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب فصاعداً»[٢] رواه مسلم وأبو داود وابن حبان وروى ابن ماجة عن أبي سعيد بلفظ «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها» وإسناده ضعيف ولأبي داود من طريق همام عن قتادة عن أبي بصر عن أبي سعيد قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر[٣] وإسناده صحيح ولم يقل أبو حنيفة بكون الفاتحة ركناً للصلاة بحيث لا يجوز الصلاة إلا بها عملاً بهذه الآية: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ قال صاحب الهداية الزيادة على الكتاب القطعي غير الواحد لا يجوز لكنه يوجب العمل فقلنا بوجوبها والصحيح عندي أن الفاتحة وكذا ضم السورة ركن للصلاة لا يجوز الصلاة إلا بهما الاستدلال بهذه الآية على نفي الركنية لا يصح لأن الظاهر في تأويل الآية كما ذكرنا أن المراد بالقراءة نفس الصلاة بالليل ومعنى قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ﴾ أنه خفف عنكم في قيام الليل فصلوا ما تيسر لكم الصلاة فلا دلالة بهذه الآية على قدر القراءة وما لا بد منه، وما قيل في تأويله أنه ما تيسر من القرآن في الصلوات الخمس فتأويل بعيد واحتمال ضعيف والاحتمال لا يتصور كونه حجة للوجوب فكيف يحكم عليه بكونه قطعياً لا يجوز الزيادة عليه بخبر الواحد كيف والحديث تلقته الأمة بالقبول وانعقد الإجماع على العمل به وتوارث النقل وتواتر المعنى أن النبي ﷺ واحد من السلف والخلف لم يصل بغير الفاتحة وبمثل هذا الخبر والنقل المتوارث يزاد على الكتاب إجماعاً على أن الصلاة مجمل وأحاديث الآحاد يحتمل أن يكون بياناً للمجمل ويبين أركاناً لها ولقد قالت الحنفية القعدة الآخرة واستدلوا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في تحريم الصلاة وتحليلها (٢٣٦).
أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب (٨١٦).

عليه بحديث ابن مسعود رضي الله عنه في التشهد «إذا قلت هذا أو فعلت هذا فقد تمت صلاتك إن شئت أن تقوم فقم وإن شئت أن تقعد فاقعد»[١] قالوا: علق التمام بأحد الأمرين فهو فرض مع أن الحديث من الآحاد أيضاً والله تعالى أعلم. وقد يستدل الحنفية على عدم ركنية الفاتحة بحديث أبي هريرة في قصة المسيء صلاته أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر من القرآن»[٢] الحديث متفق عليه، والجواب أن هذا الحديث وجوب القراءة مطلقاً وما مر من قوله ﷺ: «إلا بفاتحة الكتاب» يدل التعيين فالعمل بالحديثين بحمل المطلق على المقيد قلنا بركنية الفاتحة وقد ورد في بعض طرق حديث المسيء صلاته بلفظ «فكبر ثم اقرأ بأم القرآن ثم اقرأ بما شئت به» الحديث رواه أحمد من حديث رفاعة بن رافع ورواه الدارقطني من حديثه بلفظ «ثم يكبر الله ويثني عليه ثم يقرأ بأم القرآن وما أذن له فيه وما تيسر» الحديث.

مسألة:

هل يجب القراءة على المقتدي أم لا؟ فقال الشافعي يجب عليه قراءة الفاتحة كالإمام والمنفرد قال كذا روي عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس ومعاذ وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد لا يجب، ثم اختلفوا فقال أبو حنيفة يكره مطلقاً وقال مالك وأحمد يكره في الجهرية فقط وقال أحمد يستحب في السرية وكذا في الجهرية عند سكتات الإمام إن سكت لا مع قراءته وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك ويروى ذلك عن ابن عمر وعروة بن الزبير وأبو القاسم بن محمد، وجه القول بسقوط القراءة عن المقتدي حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام قراءة له» رواه أحمد والدارقطني من طريق جابر الجعفي وضعفه الدارقطني وقال ابن الجوزي وثقه الثوري وشعبة ورواه الدارقطني من طريق آخر وفيه ليث وقال: ضعفه ابن علية وقال أحمد حدث عن الناس ومن طريق آخر يحيى بن سلام بلفظة «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج إلا أن يكون وراء الإمام» قال الدارقطني يحيى بن سلام ضعيف وقال ابن الجوزي لم تر أحداً ضعفه قال الدارقطني والبيهقي وابن عدي الصحيح أنه مرسل فإن الحفاظ كسفيانين وأبي الأحوص وشعبة وإسرائيل وشريك وابن خلد الدالاني وجرير وعبد الحميد وزائدة وزهير

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود (٨٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة (٧٦٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٧).

رووه عن موسى عن عائشة عن عبد الله بن شداد عن النبي ﷺ مرسلاً، قلنا: المرسل عندنا حجة وما ذكر في الطرق المتصلة قد سمعت أن ابن الجوزي أنكر تضعيفه على أنه قد رواه أبو حنيفة بسند صحيح على شرط الشيخين روى محمد في موطأه أنا أبو حنيفة ثنا أبو الحسن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر عن النبي ﷺ وروى أحمد بن منيع في مسنده بسند صحيح على شرط مسلم قال: أنا إسحاق الأرزق ثنا سفيان وشريك عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر وفي الباب أحاديث أخر ضعيفة لم نذكرها كراهة الإطناب. فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ عام في المصلين فلا يجوز تخصيصه بخبر الآحاد على أصل أبي حنيفة؟ قلنا: هي عام خص منه البعض وهو المدرك في الركوع إجماعاً فجاز تخصيصها بعده في المقتدي ووجه القول بالاستحباب في السرية حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ؛ «لا يقرأن أحد منكم شيئاً من القرآن إذا جهرت بالقراءة إلا أم القرآن» رواه الدارقطني وقال: رجاله كلهم ثقات فتخصيص المنع بالجهرية يقتضي الاستحباب في السرية واستثناء أم القرآن يقتضي قراءتها عند السكتات جمعاً بين الأحاديث وعملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾(١) والله تعالى أعلم. وروي عن جماعة من الصحابة ترك القرآن خلف الإمام رواه مالك في الموطأ عن نافع عن ابن عمر أنه كان لا يقرأ خلف الإمام وروى الطحاوي عن زيد بن ثابت وجابر قالوا: لا تقرأ خلف الإمام في شيء من الصلاة، وروى محمد في الموطأ أنه سئل ابن مسعود عن القراءة خلف الإمام قال أنصت فإن في الصلاة شغلاً ويكفيك الإمام، وروى محمد بن سعد قال: وددت الذي يقرأ خلف الإمام في فيه جمرة وروى نحو عبد الرزاق إلا أنه قال: في فيه حجر، وروى محمد عن داود بن قيس عن عجلان أن عمر بن الخطاب قال: ليت في فم الذي يقرأ خلف الإمام حجراً وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن جابر قال: لا يقرأ خلف الإمام إن جهر ولا إن خفت وهذه الأقوال وجه الكراهة في الجهرية بل في السرية أيضاً بإطلاقها وأيضاً ترك القراءة في الجهرية مقتضى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾(٢) وقوله ﷺ: «إذا قرأ فانصتوا»(٣) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وسنذكر تفسير تلك الآية إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤. (٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: التشهد (٩٧٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تأويل قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ﴾ (٩١٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٦).

مسألة:

هل يجب القراءة في كل ركعة من فرض ونفل؟ فقال الشافعي وأحمد ومالك يجب في كل ركعة مطلقاً لأن الأمر بالقراءة كالأمر بالركوع والسجود وغير أنه في رواية عن مالك إن ترك القراءة في ركعة واحدة من الفرض الثلاثي والرباعي ينجبر بسجود السهو، وقال أبو حنيفة في الوتر والنقل يجب في كل ركعة ولا يجبر بالسجود فإن كل شفعة من صلاة وأما في الفرض فلا يجب إلا في الركعتين وكان القياس وجوبها في ركعة واحدة لأن الأمر لا يقتضي التكرار ولكن قلنا القراءة وقدرها فلا يلتحقان بهما وهذا الكلام يتوقف على كون المراد بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ في القراءة في الصلاة وذلك ممنوع. وللجمهور حديث أبي هريرة قال: دخل رجل المسجد فصلى والنبي ﷺ في المسجد ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه فرد عليه السلام وقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» ففعل ذلك ثلاث مرات فقال: والذي بعثك بالحق نبياً ما أحسن غير هذا فعلمني، فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تطمئن جالساً» وفي رواية «ثم ارفع حتى تستوي قائماً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»[1] متفق عليه، حديث رفاعة نحوه رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وحديث أبي قتادة أن النبي ﷺ كان يصلي فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين وفي الركعتان الآخريين بأم القرآن وكان يطيل أول ركعة من صلاة الفجر وأول ركعة من صلاة الظهر متفق عليه، وهذا الحديث مع قوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[2] التحق بياناً بمجمل الكتاب وحديث أبي الدرداء أن رجلاً قال: يا رسول الله أفي كل صلاة قرآن؟ قال: نعم، فقال رجل من الأنصار وجبت هذه[3] فإن قيل: هذه الأحاديث من الآحاد ولا يجوز به الزيادة على الكتاب؟ أجيب: بأنه على تقدير تسليم هذه المسألة الأصولية نقول بأن هذا الحكم إنما هو إذا كان الكتاب قطعي الدلالة وقوله تعالى فاقرؤوا ليس بل يحتمل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة (٧٩٣)، باب: حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة (٧٦٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة (٦٠٥).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: اكتفاء المأموم بقراءة الإمام (٩١٧).

وجوه التأويل وإن القراءة المأمور بها في الصلاة مجمل يجوز أن يلتحق أحاديث الآحاد بها بياناً والله تعالى أعلم ﴿عَلِمَ﴾ الله ﴿أَن﴾ مخففة من المثقلة وضمير الشأن محذوف ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ وتكرار فاقرؤوا للتأكيد وقيل: استئناف لبيان حكمة أخرى مقتضية للتخفيف ولذلك كرر الحكم مرتباً عليه ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على اسم يكون ﴿يَضْرِبُونَ﴾ أي يسافرون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتجارة أو لتحصيل العلم والحج ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال من ضمير يضربون ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الربح في التجارة أو العلم والثواب ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلا يطيقون هؤلاء الأصناف سنة قيام الليل، ذكر البغوي عن إبراهيم عن ابن مسعود قال: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله بمنزلة الشهداء ثم قرأ عبد الله ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي من القرآن. فإن قيل: كلمة ما عام شامل يشتمل جميع ما تيسر فيلزم أن يكون المأمور به ذلك؟ قلنا: سوق الكلام يقتضي تخير المكلفين في جميع أفراد ما تيسر فأي فرد منها أتى به فقد أتى بالمأمور به.

مسألة:

ويستحب القصد في العمل والتوسط دون الإفراط والتفريط ويستحب المواظبة على المتوسط دون الإفراط تارة وترك أخرى وأدنى المتوسط يقرأ خمسين آية ومائة وأكثره ألف آية حتى يكون الختم في الأسبوع أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ فاقرؤوا ما تيسر منه قال: مائة آية قال ابن كثير غريب جداً، وروى البغوي بسنده عن أنس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ خمسين آية في يوم وليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين ومن قرأ مائتي آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر»(١) وروى الدارمي عن الحسن مرسلاً أن النبي ﷺ قال: «من قرأ في ليلة مائة آية لم يحاجه القرآن تلك الليلة ومن قرأ في ليلة مائتي آية كتب له قنوت ليلة من قرأ خمسمائة آية إلى ألف له صحيح فله قنطار من الأجر، قالوا: وما القنطار؟ قال: اثني عشر ألف درجة» وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في كل شهر قال: قلت إني أجد قوة قال فاقرأه في عشرين ليلة قال: قلت: إني

(١) رواه محمد بن نصر وابن السني في عمل اليوم والليلة. انظر كنز العمال (٢١٤٦٥).

أجد قوة قال: فاقرأ في سبع ولا تزد على ذلك»[١] وفي الصحيحن عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[٢] وفيهما عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا» وفيهما عن أنس قال رسول الله ﷺ: «ليصل أحدكم نشاطه وإذا فتر فليقعد» وفيهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه»[٣] ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة الجملة مع ما عطف عليه معطوفة على فاقرؤوا وكلمة الواو للجمعية فهذا العطف يقتضي أن قيام الليل بما تيسر من القرآن لم ينسخ بالصلوات الخمس كما قيل فثبت أن الأمر كان للندب دون الوجوب والله تعالى أعلم ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾قال ابن عباس المراد به الإنفاق سوى الزكاة من صلة الرحم وقرى الضيف، قلت: ويحتمل أن يكون المراد به مطلق الطاعات لله تعالى وأن يكون المراد به الزكاة على أحسن الوجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَرْضًا﴾ مفعول مطلق من قبيل أنبته الله نباتاً ﴿حَسَنًا﴾ صفة للصمدر وفيه ترغيب لوعد العوض ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ عبادة بدنية أو ما فيه شرط جزاءه ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت ومن متاع الدنيا وخيراً ثاني مفعولي تجدوه وهو الضمير الفصل لا محل له من الإعراب لأن أفعل من حكمه حكم المعرفة فلذلك يمتنع من حرف التعريف، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟ قالوا: ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال: اعلموا ما تقولون قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله قال: ما منكم رجل إلا مال وارثه أحب إليه من ماله قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر[٤] رواه البغوي ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لذنوبكم، الجملة معطوفة على أقيموا الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً (١١٥٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في كم يقرأ القرآن (١٣٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (٧٨٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً (٢٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك (٧٨٦).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: الوصايا، باب: الكراهة في تأخير الوصية (٣٦٠٥).

الخ، وفيه إشارة إلى أن الإنسان لا يعتبر بأعمال البر ولا يتكل عليه بل لا بد مع ذلك من الاستغفار فإن ما صدر منه من الطاعات قلما يخلو من التقصيرات، ثم كلها صدر من العبد وإن جل فهو بالنسبة إلى جناب قدسه وجلالته وعظمته لا يليق به تعالى ما لم ينضم معه الاعتراف بالعجز والقصور والذل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ عن تقصيراتكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل.

سورة المدثر

مكية وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

روى الشيخان في الصحيحين عن يحيى بن كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحم عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ قلت يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ قال أبو سلمة سألت جابراً عن ذلك وقلت: له مثل الذي قلت لي، فقال لي: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء شهراً فلما قضيت هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت عن خلف فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني وصبوا علي ماءً بارداً فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ وذلك قبل أن تفرض الصلاة[1]. قلت: والمرفوع من الحديث لا يدل على نزول هذه السورة قبل اقرأ والصحيح أن نزول اقرأ قبل ذلك كما سنذكر في شأن نزوله في تلك السورة إن شاء الله تعالى، ويدل على هذا ما رواه الشيخان عن جابر أيضاً أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي نبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاء في بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئت فيه رعباً حتى هويت الأرض فجئت أهلي فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ ثم حمي الوحي وتتابع. فإن هذه الرواية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المدثر (٤٩٢٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦١).

صريحة في أن نزول سورة المدثر بعد فترة الوحي وكان رؤية الملك بحراء قبل ذلك، وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا قالوا: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم ساحر وقال بعضهم ليس بساحر وقال بعضهم كاهن وقال بعضهم ليس بكاهن وقال بضهم شاعر وقال بعضهم ليس بشاعر وقال بعضهم سحر يوثر فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن ورفع رأسه وتدثر فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ﴾ من مضجعك أو قم قيام عزم وجد ﴿فَأَنذِرْ﴾ حذف المفعول ليدل على التعميم يعني أنذر الناس أجمعين بعذاب العالمين لمن أشرك به ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ الفاء فيه وفيما بعده لإفادة معنى الشرط تقديره أما ربك فكبر يعني مهما يمكن من شيء وكنت على أي حال فكبر ربك، قلت: ويحتمل أن يكون تقديره وكبر ربك فكبره والغرض بالتكرار استمرار نفسه عليه ومعنى كبر عظمه عن الحديث وعن سمات النقص والزوال وعن التشريك في وجوب الوجود والألوهية والتشريك في العبادة والتشبيه بشيء من الممكنات في شيء من الذات والصفات والأفعال وصفه بأوصاف الكمال ما لا يتصف به غيره وهذا أول ما يجب على الإنسان وأهم من جميع الواجبات ولا يختص العفو والسقوط ويحكم به العقل قبل النقل لكن العقل غير كاف في دركه كما ينبغي.

مسألة:

احتج الفقهاء لهذه الآية على فرضية التكبير لتحريمة الصلاة لكن قال أبو حنيفة ومحمد إنها تنعقد بكل لفظ يوجب التعظيم نحو الله أجل والله أعظم ولا إله إلا الله والرحمن أكبر وغير ذلك لا بلفظة الله أكبر وحدها لأن المأمور به التكبير وهو التعظيم، وقال أبو يوسف إن كان يحسن أن يقول الله أكبر فلا يجزئه إلا ذاك أو الله الأكبر أو الله الكبير لأن الألف واللام أبلغ في الثناء وأفعل وفعيل في أوصافه سواء، وقال الشافعي لا يجوز إلا الله أكبر والله الأكبر وقال مالك وأحمد لا يجوز إلا الله أكبر فقط، والصحيح أن هذه الآية ليست في تكبير التحريم كما في الصحيحين أن أول القرآن نزولاً وذلك قبل أن تفرض الصلاة والقول بأن التكبير لم يجب خارج الصلاة وأصل الأمر للوجوب بالثابت بهذه الآية وجوبها في الصلاة ممنوع بل التحقيق أن التبكير هو التوحيد أول ما يجب على الإنسان ولا يحتمل السقوط والتحقيق في باب التحريمة أن الصلاة مجمل الحق بها فعل النبي ﷺ بياناً وقد تواتر صيغة الله أكبر للتحريم ولم ينقل عنه ﷺ ولا عن أحد من الصحابة شروع الصلاة بغير ذلك ولو كان الشروع بغير ذلك جائزاً لفعل ذلك للجواز فظهر

أنه بعينه هو الفريضة لا غير وقد ورد في بعض طرق حديث رفاعة عن النبي ﷺ قال: «لا يقبل الله صلاة أمرىء حتى يسبغ الوضوء ثم يستقبل ويقول الله أكبر» ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قال قتادة ومجاهد نفسك فطهرها من الذنب كنى عن النفس بالثوب وهو قول إبراهيم والضحاك والشعبي والزهري وقال عكرمة سأل عن ابن عباس عن قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قال: لا تلبسها على معصية وعلى عذرة ثم قال: سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من عذرة أتقنع وكذا قال أبي بن كعب، وروي عن الضحاك معناه عملك فأصلح، وقال السدي يقال للرجل إذا كان صالحاً إنه طاهر الثياب وإذا كان فاجراً إنه لخبيث الثياب، وقال سعيد بن جبير وقلبك وبيتك فطهر، وقال الحسن وخلقك فحسن، وقال ابن سيرين وابن زيد أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا يجوز الصلاة معها وذلك أن المشركين لا يتطهرون ثيابهم، وقال طاووس وثيابك فقصر لأن تقصير الثوب طهارة لها، قلت: والظاهر عندي أنه أمر بتطير الثياب فالواجب بالمنطوق وعبارة النص إنما هو تطهير الثوب وبدلالة النص يجب تطهير البدن بالطريق الأولى فإن الله سبحانه القدوس المطهر الطاهر لما لم يرض بنجاسة الثوب فكيف يرضى بنجاسة البدن وهو فوق ذلك وأقرب منه وبنجاسة النفس أو القلب فإنه أقرب من البدن إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

مسألة:

احتج الفقهاء بهذه الآية لاشتراط طهارة الثوب والمكان والبدن عن النجاسة الحقيقية للصلاة والصحيح عندي أنه لا دلالة على اشتراطها للصلاة بل على وجوب الطهارة الثلاث في جميع الأحوال لكن انعقد الإجماع على اشتراطها للصلاة، والسند للإجماع أنه ثبت بحكم التنزيل الطهارة من الأحداث فيجب الطهارة عن الأخباث بالطريق الأولى قال الله تعالى في آية الوضوء ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾(١) وقال الله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(٢) والله تعالى أعلم، عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: «إنما يعذبان وما يعذبان في كبيرة أما أحدهما فكان لا يستتر من البول» وفي رواية لمسلم «لا يستنزه من البول وأما

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

الآخر فكان يمشي بالنميمة»[1] الحديث متفق عليه ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ قرأ أبو جعفر وحفص عن عاصم ويعقوب الرجز بضم الراء والباقون بكسرها وهما لغتان ومعناهما واحد، قال مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد وأبو سلمة المراد بالرجز الأوثان قال فاهجرها ولا تقربها، وروي عن ابن عباس أن معناه اترك إلاثم، وقال أبو العالية والربيع الرجز بضم الراء الصنم وبالكسر النجاسة والمعصية، وقال الضحاك يعني الشرك، وقال الكلبي يعني العذاب يعني اهجر ما يوجب العذاب من العقائد والأعمال ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾ أي لا تعط مالك لتعطي أكثر منه هذا قول أكثر المفسرين قال قتادة لا تعط شيئاً طمعاً لمجازاة الدنيا بل لوجه الله خالصاً وجملة تستكثر حال من فاعل لا تمنن قيل هذا نهي تنزيهي، وقال الضحاك ومجاهد كان هذا الحكم في حق النبي ﷺ عليه خاصة قال الضحاك بهما ربوان حلال وحرام أما الحلال فالهدايا أما الحرام فالربا، وقال الحسن معناه لا تمنن على الله بعملك فتستكثريني مستكثراً عملك وقال لا تستكثرون عملك في عينك فإنه فيما أنعم الله عليك قليل، وروى خصيف عن مجاهد ولا تضعف أن تستكثر من الخير عن قولهم جهل منين أي ضعيف، وقال ابن زيد معناه لا تمنن بالنبوة على الناس فتأخذ عليها عوضاً وأجراً من الدنيا وقيل: معناه لا تمنن على الفقير إذا أعطيته مستكثراً إعطائك ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ تقديره وأما لربك فاصبر على طاعاته وأوامره ونواهيه والمصائب لأجل ثواب الله تعالى وابتغاء مرضاته والتقدير واصبر لربك فاصبر كرر للتأكيد أو لتنوع أنواع الصبر، وقال مجاهد فاصبر إليه على ما أوذيت، وقال ابن زيد معناه حملت أمراً عظيماً محاربة العرب والعجم فاصبر عليه لله عز وجل وقيل فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ أي نفخ ﴿فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ في الصور فاعول من النقر بمعنى التصويت وأصله قرع الشيء المفضي إلى النقب ومنه المنقار للطائر كذا في الصحاح، قال أبو الشيخ بن حيان في كتاب العظيمة عن وهب بن منبه قال: خلق الله الصور من اللؤلؤ البيضاء في صفاء الزجاجة ثم قال للعرش خذ الصور فتعلق به ثم قال: كن فكان إسرافيل فأمره أن يأخذ الصور فأخذه وبه نقب بعد وكل روح مخلوقة ونفس منفوسة لا يخرج روحان من نقب واحد وفي وسط الصور كوة كاستدارة السماء والأرض وإسرافيل واضع فيه على تلك الكوة ثم قال له الرب تبارك وتعالى قد وكلتك فأنت بالنفخة والصيحة فدخل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: ما جاء في غسل البول (٢١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

في مقدم العرش أدخل رجله اليمنى تحت العرش وقدم اليسرى ولم يطرف قد خلقه الله ينتظر متى يوم يؤمر أخرج أحمد والترمذي والطبراني بسند جيد عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغى بالسمع متى يؤمر فشق ذلك على الصحابة فقال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل»(١) وأخرج أحمد والحاكم عن ابن عباس نحوه بزيادة على الله توكلنا، والفاء في فإذا نقر لسببية كأنه قال اصبر على أذاهم فبين أيديهم زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك وإذا ظرف لما دل عليه قوله ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معناه يعسر الأمر على الكافرين يومئذ لتضمن إذا معنى الشرط دخل الفاء في قوله فذلك وذلك إشارة إلى وقت النقر مبتدأ وخبره يوم عسير ويومئذ بدله فهو في محل الرفع مبني الإضافة إلى غير متمكن ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ تأكيد بمنع أن يكون عسيراً من وجه ويسيراً من وجه وفيه إشارة إلى كونه يسيراً على المؤمنين، ذكر البغوي أن الله تعالى أنزل على النبي ﷺ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ قام النبي ﷺ بالمسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه قراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا هو من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش صبأ والله الوليد والله ليصبأن قريش كلهم، وكان يقال للوليد ريحانة قريش فقال أبو جهل أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنبه حزيناً فقال: مالي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال: ما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك بقية يعينونك على كبر سنك يزعمون أنك زينت كلام محمد وتدخل على ابن كثير وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم فغضب الوليد فقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه ينطق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط يكهن؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا: اللهم لا وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة من صدقه فقالت قريش للوليد فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلا ساحر من رأيتموه تفرق بين الرجل

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر (٣٢٤٣).

وأهله وولده ومواليه فهو ساحر بقوله سحر يؤثر، وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس نحوه وقال: فحينئذ نزلت:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق آخر نحوه والواو بمعنى مع كما مر في قوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾[1] أي ذرني معه ﴿وَحِيدًا﴾ حال من مفعول ذرني يعني لا تهتم به وذرني وحدي معه فإني أكفيكم أو من فاعل خلقت أي خلقته وحيداً لم يشاركني في خلقه غيره رد من ضمير مفعول العائد المحذوف أي من خلقته وحيداً فريداً لا مال ولا ولداً والمعنى خلقته وحيداً في الشرارة ووحيداً غير منسوب إلى أب لأنه كان زنيماً، قال البغوي إنه كان يسمى في قومه وحيداً فسماه الله به تهكماً واستهزاء وما على تسمية نفسه وحيداً ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ مبسوطاً كثيراً أي ممدوداً بالنماء كالزرع والضرع والتجارة، قال مجاهد وسعيد بن جبير ألف دينار، وقال قتادة أربعة آلاف دينار، وقال سفيان ألف ألف، وقال ابن عباس تسعة آلاف مثقال فضة، وقال مقاتل كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره شتاء وصيفاً، وقال عطاء عن ابن عباس كان له بين مكة والطائف إبل وخيل وغنم وكان له عين كثيرة وعبيد وجواري ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ حضوراً بمكة بلقائهم لا يحتاجون إلى السفر بطلب المعاش وكاوا عشرة، وقال مقاتل كانوا سبعة وهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد الشمس أسلم منهم خالد وهشام وعمارة ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ﴾ أي بسطت له الرياسة والجاه العريض حتى يقال ريحانة قريش والتوحد باستحقاق الرياسة والتقدم أو مهدت له في طوال العمر ﴿تَمْهِيدًا﴾ بسطاً ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ يرجو ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ له مالاً وولداً وتمهيداً ﴿كَلَّا﴾ ردع أي لا أفعل ذلك لكفرانه قال البغوي قالوا فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله وولده حتى هلك

(١) سورة المزمل، الآية: ١١.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ معانداً حيث أنكر وقال سحر يؤثر تعليل للردع فإن الكفران ومعاندة آيات النعم زوال النعمة ويمنع الزيادة ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ سأغشيه ﴿صَعُودًا﴾ عذاباً شاقاً يغلبه ويعلو كل عذاب عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ قال: «هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت فإذا رفعها عادت فإذا وضع رجليه ذابت فإذا رفعها عادت» رواه البغوي عنه، وعن عمر بن الخطاب ورواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «إنه جبل في النار يتصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي وهو كذلك فيه أبداً»[1] وقال الكلبي الصعود صخرة ملساء في النار يكلف أن يصعدها لا يترك نفس في صعوده بجذب سلاسل الحديد ويضرب من خلفه بمقامع من حديد فيصعدها في أربعين عاماً فإذا بلغ ذروتها أحد إلى أسفلها ثم يكلف أن يصعدها يجذب من أمامه ويضرب من خلفه فذلك دأبه أبداً ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ فيما تخيل طعناً في القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ في تفسير ما يقول هذه الجملة بيان لعناده وتعليل لما يستحقه من العذاب ﴿فَقُتِلَ﴾ لعن وقال الزهري عذب ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب من تقدير استهزاء به وفيه إنكار وتوبيخ وكيف حال من فاعل قدر والجملة تعليل لقوله قتل وجملة فقتل معترضة دعائية والفاء فيه للاعتراض ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ كرر للتأكيد وكلمة ثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ عطف فكر وقدرأي فكر وقدر ثم نظر في أم القرآن متراخياً مرة بعد أخرى ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ وجهه لما لم يجد فيه طعناً ولم يدر ما يقول أو نظر إلى رسول الله ﷺ وعبس وجهه عداوة ﴿وَبَسَرَ﴾ بمعنى عبس وقهر تأكيد له ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق والإيمان به أو الرسول ﷺ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عن اتباعه ﴿فَقَالَ﴾ الفاء للدلالة على أنه لما خطرت هذه الكلمة بباله تقولها من غير تلبث وتفكر ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يروي عن غيره ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ تأكيد للجملة الأولى ولذا لم يعطف ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ بدل اشتمال من سأرهقه صعوداً وسقر اسم من أسماء جهنم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ تفخيم لشأنها وجملة ما سقر بتأويل المفرد مفول لأدراك ﴿لَا تُبْقِي﴾ شيئاً يلقى فيها ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تدع حتى تهلكه، قال مجاهد معناه لا تبقي حياً ولا تذر من فيها ميتاً كلما احترقوا جددوا، قال الضحاك لكل شيء ملال وفترة إلا سقر، هذه الجملة والجملتين بعدها مستأنفات لبيان تفخيم شأن سقر وأحوال من سقر ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ أي هي لواحة ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ جمع بشرة مغيرة للجلد من البياض إلى السواد فقال ابن عباس وزيد بن أسلم محترقة للجلد وقيل: معناه لائحة للناس قال الحسن وابن كيسان يلوح لهم حتى يردها

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاءفي صفة قعر جهنم (٢٥٧٦).

عياناً نظيره ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾[١] ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على النار ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة وهم خزنتها مالك مع ثمانية عشر، أخرج ابن المبارك والبيهقي أحدهم عن أبي العوام قال: هم تسعة عشر ملكاً بين منكبي كل منهم مسيرة كذا وكذا وأخرج ابن وهب عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة نزعت عنهم الرحمة يرفع أحد منهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم» قال البغوي قال ابن عباس وقتادة والضحاك وكذا أخرج البيهقي عن ابن إسحاق أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم الشجعان أفيعجز كل عشر منكم أن تبطشوا الواحد من خزنة جهنم؟ قال أبو الأسد بن كلده الجهني أنا أكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهري وسبعة على بطني واكفوني أنتم اثنين، وأخرج البيهقي عن السدي لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال رجل من قريش يدعى أبا الأسدين يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ يعني خزنتها ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ لا رجالاً آدميين حتى يمكن من الكفار تدافعهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي عددهم في القلة ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ عدد الذي اقتضى فتنتهم أي ضلالتهم وكفرهم لاستقلالهم والاستهزاء بهم واستبعادهم أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب جميع الكفار ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حتى قالوا ما قالوا ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ متعلق بفعل محذوف دل عليه السياق أي نبأناك بعددهم ليستيقن ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ نبوتك وصدق القرآن حين يوافق ذلك في التوراة والإنجيل ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالإيمان أو بتصديق أهل الكتاب له ﴿إِيمَٰنًا﴾ مصدراً وتميز من النسبة ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في عددهم تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان فعطف لا يرتاب عطف تفسير، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في

(١) سورة الشعراء، الآية: ٩١.

البعث عن البراء بن عازب أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم فجاؤوا النبي ﷺ فنزلت عليه ساعتئذ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ فصار هذا سبباً لاستيقان الذين أوتوا الكتاب وازدياد المؤمنين إيماناً ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك أو نفاق عطف على ليستيقن وهذا إخبار بمكة بما سيكون في المدينة بعد الهجرة من المنافقين ولم يكن بمكة منافق ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ المستغرب استغراب المثل وقيل لما استبعدوه حسوا أنه مثل مضروب فكلمة مثلاً إما حال من هذا وعامل فيه معنى الإشارة أو تنبيه أو تميز وهذا اسم تام بتنوين مقدر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلق بما بعده أي كما أضل الله تعالى إضلاله ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ الله هدايته ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ يعني كنههم وكيفية قوتهم وأما عددهم فقد ذكر أنهم تسعة عشر لا يحتمل الزيادة والنقصان ﴿إِلَّا هُوَ﴾ قال مقاتل هذا جواب أبي جهل حين قال ما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر، قال عطاء وما يعلم جنود ربك إلا هو يعني الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدتهم إلا الله يعني أن تسعة عشر خزنة النار ولهم من الأعوان والجنود ما لايعلم إلا الله، أخرج هناد عن كعب قال يؤمر بالرجل إلى النار فيبتدر مائة ألف ملك قال القرطبي المراد بقوله تسعة عشر رؤوسائهم أما جملة خزنة فلا يعلم عددهم إلا الله ﴿وَمَا هِيَ﴾ وما سقرأ وعدة الخزية أو السورة ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ أي تذكرة ﴿لِلْبَشَرِ كَلَّا﴾ ردع لمن أنكرها أو إنكار لأن يتذكر بها وإن كان في نفسه ذكرى ﴿وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ قرأ نافع وحفص وحمزة ويعقوب بإسكان الذال وأدبر على وزن أفعل والباقون إذا بالألف بعد الذال دبر على وزن فعل ومعنى دبر وأدبر واحد كقبل بمعنى أقبل يقال دبر الليل وأدبر ءذا ولى ذاهباً، وقال أبو عمر وبلغة قريش وقال قطرب دبر بمعنى أقبل تقول العرب دبرني فلان أي جاء خلفي والليل يأتي خلف النهار ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ أي أضاء ﴿إِنَّهَا﴾ أي سقر ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي أحدالبلايا الكبرى فإنها كثيرة والسقر واحد منها أو المعنى أنها أي إحدى البلايا الكبر جهنم وجهنم ولظى والحطمة والسعير والجحيم والهاوية وإنما جمع كبرى على كبر إلحاقاً لها بفعله تنزيلاً للألف منزلة التاء كما ألحقت قاصعاً بقاصعة فجمعت على قواصع والجملة جواب القسم أو تعليل لكلا والقسم معترض للتأكيد ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ تميز عن إحدى الكبر إنذاراً أو حال عما دلت عليها الجملة أي كبرت منذرة، قال الحسن والله ما أنذر بشيء أدهى منها، وقال الخليل النذير مصدر كالنكير والمذكر وصف به المؤنث يعني جعل حالاً للمؤنث، وقيل: نذيراً حال من فاعل وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة منذراً للبشر وقيل: معناه يا أيها المدثر قم نذير البشر فأنذر ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾ بدل من قوله للبشرى أي

نذيراً للفريقين وحينئذ قوله ﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ مفعول لشاء أي من شاء أن يتقدم في الخير والطاعة ومن شاء أن يتأخر في الشعر والمعصية ويحتمل أن يتقدم أو يتأخر مبتدأ ومن شاء منكم خبراً مقدماً عليه والمعنى لأن يتقدم من شاء منكم ويتأخر من شاء نظيره قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] فهو توبيخ وإنذار.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من السيئات ﴿رَهِينَةٌ﴾ مصدر كالشتيمة بمعنى رهن لا بمعنى المفعول أي مرهون ولو كان صفة لقيل رهين لأن الفعيل بمعنى المفعول يستوي فيه المؤنث والمذكور والمعنى كل نفس بما كسبت من السيئات بكفرها محبوسة في النار أبداً ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ أي الذين يعطون كتبهم بأيمانهم كذا روي عن ابن عباس، أخرج ابن المبارك عن رجل من بني أسد قال: قال عمر لكعب قل من حديث الآخرة قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا كان يوم القيامة وضع اللوح المخطوط فلم يبق أحد من الخلائق إلا هو ينظر إلى عمله ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد فتنشر من حول العرش ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه، وقال مقاتل هم أهل الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق قال لهم الله هؤلاء للجنة ولا أبالي، وعن ابن عباس أنهم الذين كانوا ميامين على أنفسهم ومآل هؤلاء الأقوال واحد يعني إلا المؤمنين فإنهم غير محبوسين في النار أبداً بل ينجون إما بالمغفرة بعد العذاب بقدر ذنوبهم أو بلا تعذيب بالشفاعة أو بمحض الفضل، وقال الحسن هم المسلمون المخلصون، وقال القاسم كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر إلا من اعتمد على الفضل فإن كل من اعتمد على

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

الكسب رهين ومن اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ وعلى هذين القولين معنى الآية كل نفس مرهونة أي مأخوذة بأعمالها وأوفي الجملة إلا المسلمين الكاملين فإنهم غير مأخوذين أصلاً لكن إطلاق أصحاب اليمين على هؤلاء المخلصين لا دليل عليه، وكذا روى سعد بن منصور وابن أبي حاتم والحكيم في نوادر الأصول عن علي أنهم أطفال المسلمين وزاد الحكيم لم يكسبوا فيرتهنوا بكسبهم وما روى أبو ظبيان عن ابن عباس أنهم الملائكة فما لم يصح الأثر به لا يمكن حمل أصحاب اليمين عليه ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هم في جنات والجملة في مقام التعليل للاستثناء ويحتمل أن يكون حالاً من أصحاب اليمين أو من ضميرهم في قوله ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً أي يسأل غيرهم والتفاعل لأجل تشاركهم في السؤال ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي عن حال المجرمين الكفار ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ هذا الاستفهام مع جوابه حكاية لما جرى بين المسؤولين والمجرمين وما أجاب المجرمون به السائلين المسؤولين، وأيضاً إن في الكلام حذف للاختصار تقديره يتساءلون عن المجرمين فيقولون المسؤولون ما سلككم في سقر الخ، وقيل كلمة عن زائدة تقديره يتساءلون المجرمين بقولهم ما سلككم في سقر ﴿قَالُوا۟﴾ أي المجرمين في جوابهم ﴿لَمْ نَكُ﴾ سقطت النون بالجزم لمشابهته بحرف العلة في امتداد الصوت فإن النون غنة في الخيشوم كما أن حرف العلة مدة في الحلق ﴿مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ الصلاة الواجبة ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ما يجب إعطائهم فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الأعمال لأجل المؤاخذة في الآخرة وإنما سقط عنهم الخطاب في الدنيا لفقد شرط أدائه وهو الإيمان ولا وجه بسقوط التكليف فإن الكفر موجب للتشديد دون التخفيف لكن حقوق الله تعالى من العبادات والعقوبات تسقط بالإسلام فلا يؤخذ من أسلم على ما فات عنه في حالته الكفر قال رسول الله ﷺ: «الإسلام يهدم ما كان قبله»[1] وقد مر هذا الحديث فيما قبل ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ في اللهو والباطل ما نهى الله تعالى عنه ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ فيه ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ آخرة لتعظيمه أي وكنا بعد ذلك كله مكذبين يوم الجزاء ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ يعني الموت ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ولو شفعوا جميعاً، هذه الجملة إما متصلة بقوله كل نفس رهينة أو بقوله قالوا لم نك من المصلين، ومفهوم هذه الآية تقتضي أن المؤمنين وإن كانوا فساقاً تنفعهم شفاعة الشافعين. أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده عن أم حبيبة أو أم سلمة قالت كنا فيبيت عائشة فدخل رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد أطفال لم يبلغوا الحلم إلا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

جيء بهم حتى يوقفوا على باب الجنة فيقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون إن دخل أبونا فيقال في الثانية والثالثة ادخلوا الجنة وآباءكم فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وقال ابن مسعود ويشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلى ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وقال عمر أن بن حصين الشفاعة نافعة دون هؤلاء الذين تسمعون فقول ابن مسعود وعمران هذا مشعر بأن الشفاعة لا تنال لتاركي الصلاة وما نعي الزكاة والخائضين في اللهو والباطل وإن كانوا مؤمنين ومبنى قولهما هذه الآية فإن تعقبها بالفاء للسببية وترتبها على الأربعة المذكورة يدل على كونها سبباً لعدم نيل الشفاعة والصحيح أنها معقب على مجموع الأمور الأربعة فيها التكذيب بيوم الدين لا على كل واحد منها فلا تمنع الشفاعة إلا المجموع دون كل واحد منها وقد انعقد الإجماع على جواز الشفاعة لكل مؤمن فبعض من يستحق النار من المؤمنين لا يدخلها بالشفاعة وبعض من يدخلها يخرج منها بالشفاعة، وأنكر الشفاعة أهل الهواء من المعتزلة والخوارج وغيرهم قبحهم الله تعالى وقد تواترت في ذلك الأحاديث تواتراً معنوياً ولو ذكرنا الأحاديث كلها لطال الكلام ولنذكر منها طائفة عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «أشفع لأمتي حتى ينادي ربي أرضيت يا محمد؟ فأقول: أي ربي رضيت» رواه البزار والطبراني وأبو نعيم، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[1] رواه الترمذي وابن حبان والحاكم وأحمد وأبو داود وعن جابر نحوه رواه الترمذي وابن حبان والحاكم وابن ماجه وعن ابن عباس نحوه رواه الطبراني، وعن ابن عمر وكعب بن عجرة نحوه رواه الخطيب. عن عثمان بن عفان عن النبي ﷺ: «يجاء بالعالم والعائد فيقال للعائد أدخل الجنة ويقال للعالم قف حتى تشفع» رواه الأصبهاني، وعنه عن النبي ﷺ: «نعم الرجل الأشرار أمتي قيل: كيف يا رسول الله؟ قال: أما أشرار أمتي فيدخلهم الله الجنة بشفاعتي وأما خيارهم فيدخلهم الله الجنة بأعمالهم» رواه الطبراني وأبو نعيم وعن ابن عمر موقوفاً يقال للعالم اشفع في تلامذتك ولو بلغت عدد النجوم السماء رواه الديلمي وعن أبي الدرداء مرفوعاً «الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته»[2] رواه أبو داود، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يصف الناس يوم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: ذكر الشفاعة (٤٧٢٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: الشهيد يشفع (٢٥٢٠).

القيامة صفوفاً ثم يمر الرجل من أهل الجنة على الرجل من أهل النار فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استسقيتني فأسقيتك شربة فيشفع له فيمر الرجل على الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتك طهوراً فيشفع له ويمر الرجل على الرجل فيقول يا فلان أما تذكر يوم يمشي لحاجة كذا وكذا فذهبت لك فيشفع له»[١].

مسألة: لا تنال الشفاعة لحديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذب بالشفاعة فلا نصيب له ومن كذب بالحوض فليس له فيه نصيب» رواه سعيد بن منصور وعن زيد بن أرقم وبضعة عشر من الصحابة قوله ﷺ: «شفاعتي يوم القيامة حق فمن لم يؤمن بها لم يكن من أهلها» رواه ابن منيع وعن عبد الرحمن قوله ﷺ: «شفاعتي مباحة إلا لمن سب أصحاب» رواه أبو نعيم في الحلية، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة المرجئة والقدرية» رواه أبو نعيم.

مسألة: وقد ورد في بعض المعاصي أنها مانعة للشفاعة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من غش العرب لم ينله شفاعتي» رواه البيهقي بسند جيد، وعن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: «رجلان لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة إما ظلوم غشوم عسوف وآخر غال في الدنيا مارق منه» رواه البيهقي والطبراني بسند جيد، وعن الدرداء وغيره قال رسول الله ﷺ: «ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة» رواه الطبراني ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ يعني عن القرآن أو ما يعمه من المذكرات ﴿مُعْرِضِينَ﴾ الفاء للسببية وما استفهامية مبتدأ ولهم خبره وعن التذكرة استفهام للإنكار عن شفاعة حالهم في الدنيا المفضي إلى العذاب في الآخرة فإن عذاب الآخرة سبب للإنكار ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء والباقون بكسرها فمن قرأ بالكسر فمعناها نفرة يقال نفروا استنفر كما يقال عجب واستعجب ومن قرأ بالفتح فمعناها منفرة مذعورة ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ الجملة صفة لحمر وجملة كأنهم بعد حال وضمير لهم في مالهم وكلمة كأنهم أغنى عن واو الحال شبههم في إعراضهم ونفورهم عن استماع الذكر بحمر نافرة من قسورة فعولة من القمر بمعنى القهر، قال أبو هريرة هي الأسود وهو قول العطاء والكلبي، وقال مجاهد وقتادة والضحاك القسورة الرماة ولا واحد لها من لفظها وهي رواية عن عطاء عن ابن عباس، وقال زيد بن أسلم عن رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسورة وعن أبي المتوكل لغط القوم وأصواتهم، وروى عكرمة عن ابن عباس

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: فضل صدقة الماء (٣٦٨٥).

قال: هي حبال الصيادين قال سعيد بن جبير هي القناص يعني الصياد، أخرج ابن المنذر عن السدي قال: قالوا: لئن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار فنزلت ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ بل ابتدائية وليست للإعراض عن التوبيخ بل هو انتقال من شيء أي أمر أهم منه، وقال المفسرون إن كفار قريش قالا لرسول الله ﷺ ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من أنك لرسوله تؤمر فيه باتباعك والمنتشرة جمع منشورة ﴿كَلَّا﴾ ردع عن اقتراح الآيات بعد وضوح الأمر ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة واقترحوا الآيات قيل ابتدائية كما سبق وليس إضراباً عن الردع ويحتمل أن يكون إضراباً دل عليه السياق وتقديره أنه لو أوتوا صحفاً منشرة لايؤمنون فإن طلبهم ذلك ليس لأن يتضح الأمر عندهم بل الأمر عندهم واضح وليس إلا ذلك الاقتراح إلا لأنهم لا يخافون الآخرة ووضوح الأمر لا يستلزم الخوف والخشية بل هو أمر وهبي ﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار على عدم الخوف وتأكيد للردع السابق أو هو بمعنى حقاً ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى بصفاته الجمالية والجلالية والرحمة والعذاب ﴿فَمَن شَآءَ﴾ التذكر ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ الفاء للسببية وتعليق الذكر بالمشيئة تخيير لفظاً وتوبيخ معنى ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ قرأ نافع بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة في وقت من الأوقات ﴿إِلَّآ﴾ وقت ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ مشيئتهم وذكرهم فيه تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله وإرادته ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ حقيق بأن يتقي عقابه بالتقوى عما نهى عنه ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حقيق بأن يغفر عباده المؤمنين عن أنس أن رسول الله قال في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال ربكم عز وجل أنا أهل أن أتقى الشرك ولا يشرك بي غيري وأنا أهل لمن اتقى ولا يشرك بي أن أغفر له»[1] رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم نحوه. والله تعالى أعلم تمت سورة المدثر.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المدثر (٣٣٢٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٩).

سورة القيامة

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ قرأ قنبل لأقسم بغير الألف بعد اللام تأكيد القسم وكذا روى النقاش عن أبي ربيعة عن البزي والباقون بالألف بما بعد اللام فقيل لا زائدة كما في قوله ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ والمعنى فيهما القسم وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده أي لتبعثن ولتحاسبن وليجزين كل نفس بما كسبت إن خير فخير وإن شر فشر، وقال أبو بكر بن عياش هو تأكيد للقسم، قال البيضاوي إدخال لا النافية على فعل القسم للتأكيد شائع في كلام العرب، قلت: وفيه إشعار بأن هذا الأمر ظاهر مستغن عن التأكيد بالقسم وذلك لأن من له عقل وفهم لو تأمل بعد ما يرى من الناس من هو كافر للنعم ظالم على الخلق قاطع للرحم مرتكب الأمور بجزم العقل بقبحها وهو في نعمة ورغد من العيش ومن هو شاكر لله تعالى راض عنه الخلق في محبته وبلاء يحكم أن للجزاء داراً غير هذه الدار وإلا يلزم من الله تعالى ترجيح الشنيع على المليح وذلك شنيع يستحيل إنصاف الصانع به تعالى عن ذلك علواً كبيراً. والنفس اللوامة المراد بها إما الجنس قال الفراء ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها يعني في الآخرة إن كانت عملت خيراً قالت هلا زدت وإن عملت سوءاً قالت ليتني لم أفعل، وقال الحسن هي النفس المؤمنة قال إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه يعني في الدنيا ما أردت بكلامي وما أردت بأكلي وإن الفاجر لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها، وقال مقاتل النفس الكافرة تلوم نفسها في

الآخرة على ما فرط في أمر الله تعالى في الدنيا وقيل: المراد به الذي يقول لو فعلت كذا ولو لم أفعل كذا لكان كذا ولا يرضى بالقضاء قائلاً ما شاء الله ويقدر الله، وقالت الصوفية النفس أمارة بالسوء ثم إذا اجتهد في الذكر وتداركه الجذب من الله تعالى يظهر له قبائح نفسه ويرى مشتغلاً لغير الله سبحانه ولا يقدر على القطع عنه بالكلية فحينئذ تلوم نفسها ويقال لها النفس اللوامة ثم إذا حصل له الفناء والبقاء وانخلع عما سوى الله واطمئن بذكره فحينئذ يقال له النفس المطمئنة ﴿أَيَحْسَبُ﴾ استفهام إنكار على التوبيخ ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ المراد به الجنس لأن فيهم من يحسب والمراد الذي نزل فيه واللام للعهد، قال البغوي نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة ختن الأخنس بن شريق الثقفي وكان النبي ﷺ فقال: يا محمد حدثني عن القيامة متى تكون وكيف أمرها وحالها فأخبره النبي ﷺ لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك لم أؤمن بك أو يجمع الله العظام فأنزل الله تعالى أيحسب الإنسان ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعد التفريق والبلى ونكر جمع العظام والغرض منه إنكار البعث فإن العظام قلب الروح وإعادة الروح متفرع على جمعها وأن مخففة أو مصدرية مفعول يحسب قائم مقام مفعوليه ﴿بَلَىٰ﴾ يجمعها فينجيه ﴿قَـٰدِرِينَ﴾ حال من فاعل الفاعل المقدر ذكرها للترقي على ما أنكر كما يقال أيحسب أن لن نقدر عليك بلى نقدر عليك قادرين على أقوى منك والمعنى بل نجمعها ونقدر على جمعها قادرين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أي أنامله أو أطراف أنامله لجمع سلامياته وضم بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بكبار العظام ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ عطف على يحسب فيجوز أن يكون استفهاماً وأن يكون إيجاباً بالجواز أن يكون الإضراب عن المستفهم أو عن الاستفهام ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ يفجر منصوب بأن مقدرة واللام زائدة، قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدي معناه لا يجهل ابن آدم أن ربه قادر على جمع عظامه لكنه يزيد أن يفجر أن يكفر أمامه أي ما يأتي عليه من الزمان المستقبل فيدوم على الكفر لا ينزع عنه ولا يتوب، وقال سعيد بن جبير معناه يقدم الذنب ويؤخر التوبة ويقول سوف أتقرب سوف أعمل حتى يأتيه الموت على شر حاله، وقال الضحاك هو الأمل يقول أعيش فأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت، وقال ابن عباس وابن زيد يكذب بما أمامه من القيامة والبعث والحساب والفجور الميل سمي فاجراً لميله عن الحق ﴿يَسْـَٔلُ﴾ حال من فاعل يفجر أي سائلاً واستبعاداً واستهزاءً ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي لا يكون ذلك ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ قرأ نافع بَرَقَ بفتح الراء والباقون بكسرها وهما لغتان قال في القاموس برق كفرح ونصر برقاً وبروقاً تحير حتى لا يطرف أو دهش فلم يبصر، وقال الفراء والخليل برق بالكسر أي

تحير وفزع لا يرى من العجائب التي كان يكذبها في الدنيا قيل ذلك عند الموت والصحيح أنه يوم القيامة بقرينة ما عطف عليه ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑧﴾ أي أظلم وذهب ضوءه ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ⑨﴾ أسودين مكورين قيل: معناه إنهما يطلعان معاً من المغرب آية للقيامة والخسوف مستعار للمحاق، وقال عطاء بن يسار يجمعان يوم اليامة ثم يقذفان في البحر فتكون ناراً له الكبرى وقيل: يجمع بينهما في ذهاب الضوء وعن جمل برق البصر الخ على ما قيل الموت لقسر الخسوف بذهاب ضوء البصر والجميع باستتباع الروح الخاصة في الذهاب أو لوصوله إلى مكان يقتبس منه نور العقل من سكان القدس وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف وإذا مضاف إلى البرق والخسف والجمع ظرف لقوله ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ﴾ والجملة الكاملة معطوفة على مضمون قوله بلى قادرين أي بلى نجمع العظام فيقول الإنسان الكافر أين المفر يقول ذلك إذا برق البصر الخ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا برق الخ ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ مقول ليقول ﴿كَلَّا﴾ ردع من طلب المفر بيانه ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي لا مجلأ ولا حصن مستعار من الجبل فإنهم كانوا يلجؤون بالجبل واستقامة من أنوار بمعنى الثقل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ⑫﴾ المصير والمرجع وإلى مشيئته وحكمه موضع قرارهم ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⑬﴾ قال ابن مسعود وابن عباس بما قدم قبل موته من عمل صالح أو شيء وما أخر بعد موته من سنته حسنة أو سيئة بعمل، وقال قتادة بما قدم من طاعة الله وما أخر منه فضيعه، وقال مجاهد بأول عمله وآخره، وقال زيد بن أسلم بما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته وقيل: بما قدم وأخر بمعنى بل قدم أمور الدنيا على أمور الآخرة أو بالعكس ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ⑭﴾ أي يبصر بتذكير ما عمل في الدنيا لا يحتاج إلى الأنباء والهاء للمبالغة نظيره قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1] كذا قال أبو العالية وعطاء ورواه البغوي عن ابن عباس، ويحتمل أن يكون بصيرة صفة لمحذوف تقديره بل الإنسان عين بصيرة على نفسه وعلى التقديرين على نفسه متعلق ببصيرة وهو خبر الإنسان، والبصيرة بمعنى الحجة كما قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾[2] أي الإنسان هو حجة بينة على نفسه شاهد عليها وحينئذ على نفسه ظرف مستقر خبره بصيرة والجملة خبر للإنسان ويحتمل أن يراد بالبصيرة ذا الحجة الملك الموكل، وقال مقاتل والكلبي معناه بل الإنسان على نفسه بصيرة رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله وهو سمعه وبصره وجوارحه وحينئذ دخول الهاء في البصيرة لأن المراد الإنسان جوارحه ويحتمل أن يكون معناه بل

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

الإنسان على نفسه بصيرة يعني جوارحه فحذف حرف الجر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾[1] أي لأولادكم ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ﴾ الإنسان ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ قال الضحاك والسدي معناه ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب عند فعل المعصية ليخفي ما يعمل فلا ينفع فإن نفسه عليه شاهد وكذا الموكل به والله على كل شيء شهيدوأهل اليمن يسمون الستر معذاراً وجمعه معاذيره، وقال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير معناه يشهد عليه الشاهد من الجوارح والملائكة ولو اعتذر وجادل عن نفسه كما قال لا ينفع الظالمين معذرتهم قال: الفراء ولو اعتذر فعليه من نفسه من يكذبه ومعنى القاء القول كما قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[2] وعلى هذا معاذير جمع معذار بمعنى العذر وجمع معذرة على غير قياس كمناكير في المنكر، والظاهر أنه اسم جمع وجمعها معاذر وكذا المناكير والله تعالى أعلم.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبرائيل بالوحي يحرك لسانه وشفتيه فيشتد عليه وكان يعرف عنه يريد أن يحفظ ما أنزل الله فأنزل الله تعالى[3] ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ يا محمد ﴿بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ قبل أن يتم وحيه ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي لتأخذه على عجلة، في الصحيحين عن ابن عباس كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه إذا نزل يخشى أن ينفلت ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ إثبات قراءته على لسانك تعليل للنهي ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي القرآن بلسان جبرائيل أضاف قراءة جبريل إلى نفسه مجازاً لأنه بأمره ورسالته ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قراءته يعني فاقرأ بعد قراءة جبريل حتى يرسخ في ذهنك كذلك لا بد للتلميذ أن يقرأ بعد قراءة الشيخ ولا يقرأ معه كيلا يقع المزاحمة والتشويش في القراءة والحفظ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي القرآن أي إظهار المراد منه إذا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الاستماع للقراءة (٨٤٤٨

أشكل شيء من معانيه، قلت: الآية على أن بيان القرآن محكمه ومتشابهه من الله تعالى للنبي ﷺ لا يجوز أن يكون شيء منها غير مبين له عليه الصلاة والسلام وإلا يخلو الخطاب من الفائدة ويلزم الخلف في الوعد كما ذكرنا هذه المسألة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[(١)] وكلمة ثم تدل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب لكن لا يجوز عن وقت الحاجة، وجملة لا تحرك به لسانك معترضة على طريقة من يتكلم فطفق المخاطب يتكلم ويقعط كلامه فقال اسكت ولا تقطع الحديث إنما لك حق التكلم بعد تمام الاستماع ثم عاد إلى ما كان يتكلم فيه فقال ﴿كَلَّا﴾ ردع على إنكار البعث أو الفجور أماهم أو على إلغاء المعاذير الباطلة ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ الضمير راجع إلى الإنسان المذكور سابقاً وجمع الضمير نظراً إلى المعنى لأن المراد به الجنس أو الذي الكلام فيه ومن في معناه ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدنيا وشهواتها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي الإنسان على ما مر هذا على قراءة ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالياء للغيبة فيهما وقرأ الكوفيون ونافع بالتاء على الخطاب فيهما على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ وتعميها يعني أنهم لا يعلمون أن الله تعالى لا يقدر على البعث والإعادة أو أن معاذيره ينفعهم بل يحبون العاجلة ويتبعون الشهوات الدنيا فأعمى الشهوات بأبصارهم وأعمه قلوبهم ويذرون الآخرة ثم ذكر أحوال الآخرة فقال ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ إما معترضة بتقدير الإضافة أي وجوه المؤمنين المقربين وإما نكرة مخصصة بصفة مقدرة أي وجوه كثيراً وجوه منهم أي من جنس الإنسان الذي مر ذكره ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لما بعده يعني يوم إذا كان ما سبق من برق البصر وغيره أو يوم إذا كانت الآخرة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ خبر ناعمة حسنة متهللة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ متعلق بما بعده ﴿نَاظِرَةٌ﴾ برؤية البصر بلا كيف ولا جهة ولا ثبوت مسافة ولا بقياس الغائب على الشاهد خبر ثان لوجوه، وأخرج الآجري والبيهقي في كتاب الرؤية من طريقين عن ابن عباس قال وجوه يومئذ ناضرة قال: حسنة إلى ربها ناظرة نظرة إلى الخالق وأخرجوا عن الحسن نحوه، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجه غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[(٢)] رواه أحمد والترمذي والدارقطني واللالكائي والآجري نحوه وفي لفظ الآجري «أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام يرى أقصاه» كما يرى أدناه وفي الباب حديث أنس رواه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى (٢٥٥٣).

البزار والطبراني والبيهقي وأبو يعلى بطوله وفيه «يوم الجمعة يزداد فيها نظراً إلى وجهه تعالى ولذلك دعي يوم المزيد» رواه البزار والأصفهاني عن نحوه، وأخرج الآجري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يرون ربهم كل جمعة» وعن الحسن مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ينظرون إلى ربهم كل جمعة» الحديث أخرجه يحيى بن سلام وعن أنس مرفوعاً «قال الله تعالى من سلبت كريمتيه جزائه الحلول في داري والنظر إلى وجهي» رواه الطبراني وغيره، وحديث جرير البجلي قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيتة فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»(١) متفق عليه وكذا روى اللالكائي عن حذيفة وفي الصحيحين عن أبي هريرة نحوه، وعن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يدعو «اللهم إني أسئلك برد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضرار مضرة ولا فتنة مضلة» رواه اللالكائي، وعن عبادة بن صامت «لن تروا ربكم حتى تموتوا». رواه الدارقطني وكذا رواه اللالكائي عن أبي هريرة وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ قال: قال الله تعالى يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تغرق وإنما يراني أهل الجنة لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم» وعن علي في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ قال: من أراد أن ينظر إلى خالقه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك به أحداً رواه البيهقي. وبالجملة صح تفسير هذه الآية وتفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾(٣) وغيره من الآيات برؤية الله تعالى مسنده عن النبي ﷺ وأصحابه التابعين بحيث بلغت مبلغ التواتر عند أهل الحديث كذا ذكر السيوطي وغيره وبما ذكرنا في هذا المقام كفاية ونذكر في تفسير كل رية منها ما يتعلق به إن شاء الله تعالى، وعلى رؤية الله تعالى انعقد إجماع أهل السنة والجماعة وخالفهم أهل الهواء من المعتزلة والخوارج وغيرهم بامتناعها زعماً منهم بأنها تتوقف على كون المرئي حسماً كثيفاً بلا حجاب وكون المسافة بين الرائي والمرئي متوسطة لا في غاية القرب ولا في غاية البعد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر (٥٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر (٦٣٣).

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٥.

وخروج شعاع البصر من الرائي ووصوله إلى المرئي المقتضى ثبوت الجهة له تعالى، واستدلوا على امتناع الرؤية من المنقول بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1] وقالوا: تأويل هذه الآية أن ناظرة بمعنى منتظرة أمر ربها وإنعامه ويأبى عنه العربية فإن الانتظار يتعدى باللام دون إلى والنظر بالبصر يعدى بإلى، وقال أهل السنة الرؤية لا تتوقف إلا على كون المرئي موجوداً وكذلك في جانب الرائي لا يشترط إلا الوجود والحياة والعلم والإبصار وأما توقف الرؤية على غير ذلك من الشرائط فأمر عادي في خصوص المادة ولا يجوز قياس الغائب على الشاهد ولا شك أن الله سبحانه وتعالى يرى خلقه من الماديات والمجردات من غير مسافة بينهما ولا خروج شعاع وهو السميع البصير كيف ينكر كونه مرئياً بعدما نطق به البشير النذير وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وإنما ينفي الدرك وهو يقتضي الإحاطة وحصول العلم بكنهه وذلك محال وأما العلم الحضوري بالكنه بمعنى حضوركنه المعلوم عنه العالم فليس بمحال لكنه متعال عن درك الأبصار والله تعالى أعلم.

فائدة: هذه الآية تدل على أنهم يرون الله تعالى دائماً مستمراً لا ينقطع رؤيتهم كما يدل على دوام النضرة لهم أبداً فإن الجملة الاسمية للدوام والاستمرار ولا منافاة بينها وبين ما ثبت بالأحاديث أن من الناس من يرى الله تعالى كل جمعة منهم من يرى الله تعالى في كل جمعة أي أسبوع مرتين كذا أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة، ومنهم من يرى ربه في مقدار كل عيد لهم في الدنيا يعني في كل سنة مرتين كذا روى يحيى بن سلام عن أبي بكر بن عبد الله المزني، ومنهم من يرى في كل يوم مرتين غدوة وعشية كما مر من حديث ابن عمر لأن ثبوت دوام الرؤية إنما هو لجمع منكر وهي لا تدل على العموم أو بقدر ما هو خص من المؤمنين فيقدر المقربين فتقديره وجوه المقربين يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة دائماً أبداً، أخرج أبو نعيم عن أبي يزيد البسطامي قال: إن الله تعالى خواص من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤية لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار فظهر أن الناس في الرؤية على درجات لا تكاد تجمع، وليس المقصود من الأحاديث استيفاء رجائهم ومعنى قوله ﷺ: «أكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية» أنهم من أكرمهم وهذا لا يقتضي أن لا يكون أحد أكرم منهم وإذا تقرر هذا فاعلم أن الذين يدومون النظر إلى الله تعالى أعلم بهم هم الأنبياء والمقربون من العباد الواصلين إلى الذات المجرد عن الشيون

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

والاعتبارات الذين كان حظهم في دار الدنيا من الذات التجلي الدائمي لا كالبرق الخاطف لأن من كان حظه في دار الدنيا دوام التجلي ولم يكن له الرؤية في الدنيا لعدم صلاحيته تعين هذه النشأة الرؤية كما أشير إليه في حديث ابن عباس عند أبي نعيم في الحلية فإذا زال المانع فلا جرم ينظر ذلك الرجل إلى الله دائماً وإلا لزم انعكاس الأمور ورجوعه القهقرى ومن لم يكن في الدنيا دوام التجلي والحضوري فيكون الرؤية لهم على تفاوت الدرجات فمن كان حظه تجلياً برقياً يرى في كل يوم مرتين أو مراراً من لم يكن كذلك ففي كل جمعة أو شهر أو سنة على ما شاء الله.

فائدة: قال المجدد رضي الله عنه في المكتوب المائة من المجلد الثالث في تحقيق سر اشتغال قلب يعقوب عليه السلام بمحبة يوسف عليه السلام: مع أن قلوب الخواص من الناس تكون فارغة عن حب غير الله تعالى أن جنة كل رجل عبارة عن ظهور اسم من أسماء الله تعالى الذي هو مبدأ التعين ذلك الرجل وأن ذلك الاسم يتجلى بصورة الأشجار والأنهار والقصور والحور والغلمان واستحكم هذا المكشوف بقوله ﷺ: «إن الجنة طيبة التربة عذبة ـ أي أنهارها ـ قيعان وإن غراسها هذه يعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[1] ثم قال المجدد رضي الله عنه إن تلك الأشجار والأنهار قد تصير في حين من الأحيان على هيئة الأجرام الزجاجة فتصير وسيلة إلى رؤية الله سبحانه غير متكيفة ثم تعود إلى حالها الذي كانت عليه فيشتغل المؤمن بنفسها وهكذا إلى أبد الآبدين، وقال: كما أن التجلي الذاتي للصوفي في الدار الدنيا تكون من وراء حجب الأسماء أو الصفات وقد يرتفع تلك الحجب فيحصل له التجلي الذاتي كالبرق الخاطف كذلك حال الرؤية في الآخرة لكل رجل يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى باعتبار اسم هو مبدأ الجنة وتجلى وتمثل لجنة وتلك الرؤية تكون كالبرق الخاطف في زمان يسير ثم تحجب عنه ويبقى نوره وبركته من واء نعيم الجنة وأشجارها، قلت: هذا تحقيق رؤية العوام من أهل الجنة وأما الخواص منهم فلما كان التجلي لهم في الدنيا دائماً فكذلك الؤية تكون لهم دائماً. فإن قيل: قال المفسرون تقديم الجار المجرور في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ يقتضي الحضر ويفيد أنهم إذا أراد ربهم يستغرقون في رؤيته تعالى لا ينظرون حينئذ إلى غيره ويؤيده حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قوله

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٢).

تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ قال: «فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم وما داموا ينظرون إليه حتى يحجب عنهم ويبقى نوره وبركته في ديارهم»(١) رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني فحينئذ لو كان لبعض الناس دوام الرؤية فكيف يتصور الحصر وعدم الالتفات إلى النعيم دائماً؟ قلنا: إفادة الحصر ممنوع وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل ولعل الالتفات إلى النعيم في حق ذلك البعض لا يزاحم الرؤية بل تكون نعيم الجنة في حقه مثل الأجرام الزجاجية أبداً مؤبدة للرؤية وذلك الصوفي يجمع له الرؤيتان رؤية حجاب ورؤية بتوسط النعيم ومع ذلك يرى النعيم ويلتذ به أيضاً وإن من هذا شأنه فلن يشغله شأن عن شأن وأما غيره من أهل الجنة فالالتفات إلى نعيم الجنة يشغلهم عن الرؤية وبالعكس لضيق استعدادهم، أو نقول معنى الحصر في حق من له الرؤية وأما ما روي من حديث جابر فهو حكاية عن حال عامة أهل الجنة، لا يقال: سلمنا أن التفاتهم النعيم لا يشغله عن الرؤية فكيف يجوز له التوجه إلى النعيم مع حصول شرف الرؤية لما ذكرنا أن نعيم الجنة أسماء الله تعالى فلا محذور في الالتفات إليها مع الرؤية.

فائدة: وقع في بعض كلام الأئمة أن رؤية الله خاصة لمؤمن البشر وأن الملائكة لا يرونه ونص البيهقي على خلافه محتجاً بحديث عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: خلق الله تعالى الملائكة بعبادته أصنافاً وإن منهم الملائكة قياماً صافين من يوم خلقهم إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة تجلى لها تبارك وتعالى فنظروا إلى وجه الكريم وقالوا: ما عبدناك حق عبادتك، وأخرج نحوه من وجه آخر عن عدي بن أرطان عن رجل من الصحابة وبما ذكرنا رؤية كل رجل على حسب مبدأ تعينه يظهر فضل الملائكة على عوام مؤمني البشر لكون مبادي تعيناتهم فوق مبادي تعينات البشر كما حققه المجدد رضي الله عنه وبما ذكرنا أن رؤية الخواص لبشر دائمة غير منقطعة يظهر فقيل: خواص البشر أفضل على خواص الملائكة كما بين في كتب العقائد ﴿وَوُجُوهٌ﴾ أي وجوه الكافرين أو وجوه كثيرة ﴿يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ كالحة عابسة شديد العبوس ﴿تَظُنُّ﴾ تستيقن أربابها خبر ثاني ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ واهية عظيمة فقار الظهر، قال ابن زيد هي دخول النار، وقال الكلبي هي أن يحجب عن رؤية الرب عز وجل.

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٤)، وفيه رجل يغلب عليه الوهم.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة كأنه قيل ارتدعوا عن ذلك واذكروا الموت الذي عنده ينقطع الدنيا وتقبل الآخرة مخلدة ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس كناية عن غير مذكور دل عليه الكلام وإذا شرطية جزاءه إلى ربك يومئذ المساق أو ظرف متعلق بفعل دل عليه المساق أي يساقون إلى ربكم إذا بلغت ﴿ٱلتَّرَاقِىَ﴾ العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ يسكت حفص على من ويدغم غيره أي قال حاضر والمحتضر من يرقيه مما به من الترقية كذا قال قتادة، أو قالت الملائكة الموت أيكم يرقي بورجه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب من الرق كذا قال سليمان التيمي ومقاتل بن سليمان ﴿وَظَنَّ﴾ المحتضر ﴿أَنَّهُ﴾ أي الذي نزل به ﴿ٱلْفِرَاقُ﴾ أي سبب للفراق من الدنيا ومما يحبه ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي إلتوت ساقه بساقه فلا يقدر تحريكهما كذا قال الشعبي والحسن ونحوه، وقال ابن عباس التوت أمر الدنيا بأمر الآخرة فكان آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فيجتمع عليه شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، وقال الضحاك معناه أن الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لا إلى غيره ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي سوق ومرجعه يحكم فيه ما يشاء ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ الرسول والقرآن أو لا صدق ماله أي لم يزك ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ لله ما فرض عليه قوله فلا صدق عطف على مضمون أيحسب الإنسان فإن التوبيخ يستلزم الوقوع تقديره حسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ولا نبعثه فلا صدق ولا صلى والضمير فيهما راجع إلى الإنسان فالسياق يقتضي أن يكون ذلك حكاية عن عدي بن ربيعة المذكور، وقال البغوي المراد أبو جهل ولو حمل الإنسان على الجنس لكان شاملاً لهما ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ النبي ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان به ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ أي يسرع في سيره، في القاموس مطى جد في السير والسرع، في الصحاح معناه يمد مطاه أي ظهره ومنه يقال لا يركب ظهره مطيه كالبعير، وقيل: أصله يتمطط أبدلت الطاء ياء اجتماع ثلاثة أحرف مماثلة والطاءء هو المد، وحاصل المعنى يتبختر لأن المتبختر يمد عنقه ويمد

خطاياه ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ جملة دعائية بمعنى ويل لك أو تهديد ووعيد وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ كرره للتأكيد ويحتمل أن يراد به ويل لك في الدنيا بالقتل واللعن وذكر السوء والتعذيب وويل لك يوم الموت وويل لك إذ بعثت ويل لك إذا دخلت النار فهو نقيض ما قيل في يحيى عليه السلام ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾[١] فهو أفعل من الويل بعد القلب كأدنى من دون وقيل: أصله أولاك الله ما تكرهه واللام مزيدة كما في قوله ﴿رَدِفَ لَكُم﴾[٢] أي ردفكم وقيل: أصله أولى لك الهلاك وقيل هو فعل من آل يؤل أمرك إلى الشرك، وقيل هو اسم فعل بمعنى وليك ما تكرهه في القاموس أولى لك تهدد ووعيد أي قاربك الهلاك فهو من الولي بمعنى القرب، قال قتادة ذكر لنا أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى فقال أبو جهل أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت وربك أن تفعلا بي شيئاً وإني أعز من مشى بين جبلها فلما كان يوم بدر صرعه الله أشد مصرع وقتله سوء قتل، وقال النبي ﷺ «إن لكل أمة فرعوناً وإن فرعون هذه أبو جهل»[٣] وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال أبو جهل لقريش ثلكتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى الله تعالى إلى رسوله أن يأتي أبا جهل فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ قاله رسول الله ﷺ من قبل نفسه أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزل الله ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ أمال حمزة والكسائي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ولا يجازي حيث ينكر البعث فإن إنكار البعث يقتضي كونه مهملاً مع أن الحكمة في خلقه ليس إلا التكليف قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٤] وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[٥] وكيف ينكر الإنسان البعث ويستحيله ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ يصب في الرحم قرأ حفص بالياء على التذكير راجعاً إلى المني والباقون بالتاء رداً إلى النطفة ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ الإنسان بعد كونه نطفة ﴿عَلَقَةً﴾ بعد أربعين يوماً ثم مضغة كذلك ثم عظاماً

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٧٢.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

فكسيت لحماً ﴿فَخَلَقَ﴾ الله تعالى إياه وإيانا بنفخ روحه فيه ﴿فَسَوَّىٰ﴾ وعدل خلقه بلا نقصان ﴿فَجَعَلَ﴾ الله سبحانه ﴿مِنْهُ﴾ أي من المني الذي صار علقة ثم مضغة ثم عظاماً ولحماً ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين يجتمعان في الرحم تارة وينفرد كل منهما عن الآخر أخرى ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الله الذي يفعل ذلك ويوجد بلا سبق وجود ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إنكار جواز البعث مع مشاهدة ما هو أعجب منه يقتضي كمال الحمق أو العناد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ومن قرأ والمرسلات فبلغ فبأي حديث بعده يؤمنون فليقل: آمنا بالله»[١] وعن موسى بن عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى قال: سبحانك بلى فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ روى الحديثين أبو داود.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: مقدار الركوع والسجود (٨٨٥).

سورة الدهر

مكية وهي إحدى وثلاثون آية

قال قتادة ومجاهد مدينة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ استفهام تقرير ومعناه قد أتى ومضى ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ المراد به الجنس أو آدم عليه السلام ﴿حِينٌ﴾ قال البيضاوي أي طائفة محدودة من الزمان، وفي القاموس الحين وقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر وقيل يختص بأربعين سنة أو ستين سنة أو شهر أو شهرين ﴿مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ أي من الممتد الغير المحدود، وفي القاموس الدهر الزمان الطويل أو ألف سنة، قلت: هو مدة عمر آدم عليه السلام وفي الصحاح الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبتدأ وجوده إلى انقضائه وعلى ذلك قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ الآية ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة دهر فلان مدة حياته ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ حال من الإنسان أي حال كونه لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد أو صفة لحين والعائد محذوف أي لم يكن فيه شيئاً مذكوراً أو هذا الكلام يقتضي كونه شيئاً وإلا لم يوصف بأنه قد أتى عليه ويقتضي كونه غير مذكور بل منسياً فيه فقال المفسرون وذلك إن أريد به آدم عليه السلام فذلك الحين حين صوره الله تعالى من الطين فكان ملقى بين مكة والطائف أربعين سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، وقال ابن عباس ثم خلقه الله تعالى بعد عشرين ومائة سنة وإن أريد به الجنس فذلك الحين أربعة أشهر حين كان نطفة أو علقة أو

مضغة إلى نفخ الروح وستة أشهر أقل مدة الحمل وسنتين أكثرها وقيل: أكثر مدة الحمل سبع سنين، وعلى التقديرين لا يخلو الكلام عن التسامح لأن ذلك الحين لم يأت على الإنسان بل على الطين المصور النطفة ونحوها والظاهر أن الكلام يقتضي كونه إنساناً لأن عقد الوضع قبل عقد الحمل فالأولى أن يحتمل ذلك الكون على كونه في مرتبة الأعيان الثابتة التي اهتدى إليها الصوفية ويدل على هذا التأويل تنكير حين فإنه للتكثير روي عن ابن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ فقال: ليتها تمت يريد ليته بقي ـ على ما كان غير مذكور أبداً وهذا القول أولى بالتأويل الأخير دون ما سبق، وللصوفية ههنا تأويل آخر هل أتى على الإنسان أي على الصوفي حين من الدهر لم يكن لا شيئاً مذكوراً بعدما كان مذكوراً بالإنسانية وغيرها من الصفات وذلك حين الاستهلاك والفناء الأتم بحيث لا يبقى في علمه شيئاً مذكوراً، قال المجدد نعم ربّ قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً لا عيناً ولا أثراً ولا شهوداً ولا وجوداً ثم يصير بعد ذلك إن شئت حياً بحياتك وباقياً ببقائك ومتخلقاً بأخلاقك بل صار باقياً بك وبفضلك في عين الفناء وما ينافيك في عين البقاء، قلت: وقول المجدد ثم يصير بعدذلك الخ كأنه تفسير لقوله تعالى، فمن ابتدائية والدهر يعد من أسماء الله تعالى الحسنى كذا في القاموس، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»[1] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي ذريته إن كان المراد بالإنسان الأول آدم عليه السلام وإلا فالمراد فيهما الجنس ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ جمع شيئج أو شيج من الشجب الشيء إذا خلطته وصف النطفة بالجمع لأن المراد به مجموع مني الرجل والمرأة وكل منها مختلفة الأجزاء والأوصاف في الرقة والقوام والخواص، وقيل: أمشاج مفرد بمعنى مختلطة يختلط فيه مني الرجل والمرأة فهو حينئذ على وزن أعشار يقال برمة أعشار بمعنى يحمله عشرة، يقال يمان كل يومين اختلطا فهو أمشاج وقال قتادة معناه أطوار أي ذات أطوار فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة أي تمام الخلق ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حال من الإنسان ذكر الابتلاء وأراد به نقله من حال إلى حال مجازاً أو حال مقدرة أي مقدرين ابتلائه ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ لتمكن من استماع الدلائل ومشاهدة الآيات فهو كالمسبب للابتلاء ولذا عطف على ما قيد به ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ﴾ أي بيناه أي الإنسان ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ إلى الله وإلى مرضياته وجنته بنصب الدلائل وبعث الرسل وإنزال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (٤٨٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

الكتب والمراد بالهداية ههنا إراءة الطريق دون إيصال بخلاف قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ⁦(٦)⁩﴾ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان من الهاء أي هديناه السبيل مقدرين منه أحد الأمرين أمر الشكر على الهداية وقبولها أو الكفر والإنكار، وقيل حال من السبيل يعني هديناه السبيل حال كون السبيل سبيل الشكر أو الكفران وصف السبيل بالشكر والكفر مجازاً، والترديد إنما هو حالتي السبيل من الشكر والكفران دون الإراءة تعلقت بقسمي السبيل وحاليته معاً فلا يجوز يقال إن هذا التأويل غير مستحسن فإن إراءة طريق الحق حقاً وطريق الباطل باطلاً مستلزم أحدهما الآخر فلا يتصور هناك الترديد فالترديد يقتضي أن يكون معناه أريناه أحد الطريقين دون الآخر أرينه الحق أو الباطل حقاً فسلك تلك الطريق وحنيئذ يلزم كون الإنسان مقدوراً على سلوك طريق الباطل وقيل معنى الكلام الشرط والجزاء فإما مركباً أن الشرطية وما الزائدة فمعناه إن كان شاكراً أو كفوراً فقد هديناه السبيل ولم نترك عذراً. وقال كفوراً ولم يقل كافراً حتى طابقت قسميه لرعاية الفواصل ولأن الشاكر قلما يخلو عن نوع من الكفران فقسمه هو المبالغ في الكفران، وجملة إنا هديناه السبيل مستأنفة فكأنه في جواب من قال فما فعل بالإنسان وما فعل هو بعد ما خلق وجعل له السمع والبصر ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ في جهنم ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ قرأ نافع والكسائي وأبو بكر وهشام سلاسلاً بالتنوين للمناسبة وصلاً وقفوا بالألف عوضاً منه وقرأ الباقون بغير تنوين وصلاً وقف حمزة وقنبل وحفص بغير ألف وكذا روى عن البزي وابن ذكوان وقف الباقون بالألف صلة للفتحة ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ في أيديهم تغل إلى عنقهم ﴿وَسَعِيرًا﴾ وقوداً شديد أو هذه الجملة والتي بعدها مستأنفين كأنهما في جواب ما نصيب الشاكرين وما نصيب الكافرين وقدم وعيد الكافرين مع تأخر ذكرهم لأن إنذارهم أنفع وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع بر بفتح الباء كأرباب أو بار كالشهادة يعني المؤمنين الصادقين في إيمانهم والمطيعين لربهم ومصدره البر كسر الباء بمعنى الصلة والخير والاتساع في الإحسان والصدق في الطاعة كذا في القاموس وكل ذلك صفات المؤمنين ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ قال في الصحاح الكاس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً يقال كأس خال ويقال شربت كأساً وكاساً طيبة، وفي القاموس الكأس الإناء يشرب فيه أو ما دام الشراب فيه ولا تخصيص في الشراب بخمر أو لبن أو عسل أو ماء وههنا يحتمل أن يكون الإنار أو من للابتداء والمعنى يشربون مشروباً خمراً ولبناً وماء وعسلاً من كأس أي من ظرفه، ويحتمل أن يكون بمعنى المشروب إما حقيقة أو مجازاً تسمية الحال باسم المحل نحو جرى النهر

ومن حينئذ إما زائدة أو للتبعيض أو للبيان ويحتمل أن يكون الإناء بما فيه ويكون من للابتداء ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما تمزج الضمير عائد إلى كأس حقيقة إن كان بمعنى الشرب ومجازاً على طريقة إذا نزل السماء بأرض قوم وعيناً إن كان بمعنى الإناء يعني كان مزاج ما فيها ﴿كَافُورًا﴾ قال قتادة يمزج بهم بالكافور ويختم بالمسك، وقال عكرمة مزاجها طعمها كافوراً ككافور في طيب الطعم والريح كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾[(١)] أي كنار، وقال عطاء والكلبي الكافور اسم لعين الماء في الجنة ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾[(٢)] ﴿عَيْنًا﴾ بدل من كافور إن جعل اسم ماء أو بدل من محل من كأس على تقدير مضاف أي ماء عين أو منصوب على الاختصاص أو المدح أو بفعل يفسره ما بعده ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء زائدة أي يشربها أو صلة على تضمين يعني ملتذاً بها أو ممزوجاً بها أو بمعنى من الابتداء ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ الذين عبدوا الله وحده مخلصين له الدين ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يقودون تلك العين ويجرونها إجراء سهلاً حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم، أخرج عبد الله بن أحمد في رواية الزهد عن ابن شوذب قال فهم قضيان من ذهب يفجرونها بها بتبع قضائها ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ جملة مستأنفة في جواب ما بالهم يثابون كذلك أو في جواب الأبرار ما هم فهو تعريف للأبرار بأنهم يؤدون الواجبات ويخافون الله فيجتنبون المكروهات ويرحمون العباد ويفعلون الحسنات خالصاً لله تعالى ابتغاء مرضاته هذا شأن الأبرار ويحصل ذلك المراتب بعد فناء النفس وزوال رذائله وأما المقربون فشأنهم أرفع من ذلك أو تعليل لما سبق يعني أن الأبرار يشربون الخ لأنهم يوفون النذر في الدنيا والنذر في اللغة أن توجب على نفسك ما ليس بواجب كذا في الصحاح وإيفائهم ما يوجبوا على أنفسهم ما ليس بواجب عليه يدل بالطريق الأولى على إيفائهم ما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد وغيرها، فلعله هو المراد بما قال قتادة يوفون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وغيرها من الواجبات للإيجاب.

فصل: ولما كان النذر عبارة عن إيجابه على نفس ما ليس بواجب ظهر أنه لا بد لانعقاده من شرطين أحدهما أن يكون طاعة فإن ما ليس بطاعة لا يصلح للإيجاب قال رسول الله ﷺ: «إنما النذر ما ابتغي به وجه الله»[(٣)] رواه أحمد من حديث عبد الله بن

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٧.

(٣) رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد ضعفه بعضهم ووثقه آخرون. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأيمان والنذور، باب: لا نذر في معصية الله إنما النذر ما ابتغي به وجه الله (٦٩٥٣).

عمرو بن العاص والثاني أن لا يكون واجباً بإيجاب الله تعالى وقال أبو حنيفة ولا بد أيضاً أن يكون العبادة مقصودة بنفسها وأن يكون من جنسها واجب بإيجاب الله وعند الجمهور لا يشترط ذينك الشرطين والإجماع على وجوب الاعتكاف بالنذر يقتضي انتفاء هذين الشرطين فإنه عبادة لأجل انتظار الصلاة لا بنفسه وليس منه عينه واجب ومن ثم قال الشافعي يجب بالنذر كل قربة لا تجب ابتداء كعيادة المريض وتشييع الجنازة والسلام ويدل على التعميم حديث عائشة «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[١] رواه البخاري، وزاد الطحاوي وفي هذه الوجه وليكفر عنه عن يمينه قال ابن العطاء عند الشك في رفع هذه الزيادة.

مسألة:

من نذر بطاعة وقيده بقيود للطاعة فيها يلغو تلك القيود وينعقد النذر بالطاعة كمن نذر بالصلاة في مكان معين وبالصوم قائماً ونحو ذلك فيجب الصلاة والصوم ويتأدى بكل مكان وعلى كل حال إجماعاً، إلا أن أبا يوسف والشافعي وغيرهما قالوا لو نذر أن يصلي في المسجد الحرام لم يجزه في غيره ولو نذر في المسجد الأقصى أو مسجد النبي ﷺ يجوز له الأداء في المسجد الحرام ولم يجزه فيما هو أقل منه فضلاً وقال أبو حنيفة في جميع الصور يجوز الأداء في كل مكان، وفي حديث جابر أن رجلاً قال يوم الفتح يا رسول الله ﷺ إني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في البيت المقدس فقال له رسول الله ﷺ: «صل ههنا» فأعادها على النبي ﷺ مرتين أو ثلاثاً فقال النبي ﷺ: «شأنك إذاً»[٢] رواه أبو داود والدارمي فبهذا الحديث ألغى أبو حنيفة تقييده بالمسجد الأقصى، قال أبو يوسف والشافعي تقييده الصلاة بمسجد من هذا المساجد الثلاثة كثرة الثواب والمعنى الطاعة فلا يلغى عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيها سواه إلا المسجد الحرام»[٣] متفق عليه، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمسمائة صلاة وصلاته في المسجد الأقصى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأيمان والنذور، باب: النذر في الطاعة (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: من نذر أن يصلي في بيت المقدس (٣٢٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: فضل الصلاة، بمسجدي مكة والمدينة (١٣٩٤).

بألف صلاة وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة وصلاته في المسجد الحرام مائة ألف صلاة»[١] رواه ابن ماجه، وقال: إنما ذلك على الصلاة المكتوبات لا على النوافل عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة»[٢] رواه أبو داود والترمذي، وما يدل على إلغاءقيود لا طاعة وفيها حديث ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس فسأل عنه فقال: أبو إسرائيل نذر أن يكون ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ولا يصوم فقال: مروه فليتكم وليستظل وليقعد وليتم صومه»[٣] رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان ورواه البخاري وليس فيه في الشمس ورواه مالك في الموطأ مرسلاً وفيه فأمره بإتمام ما كان لله طاعة وتترك ما كان معصية قال مالك ولم يبلغني أنه أمر بكفارة وأخرجه الشافعي وفي آخره ولم يأمره بكفارة ورواه البيهقي من حديث محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس وفيه الأمر بالكفارة، ومحمد بن كريب ضعيف.

مسألة: من فاته ما وجب عليه بالنذر يجب قضاءه بمثله حقيقة أو حكماً فيقتضي الصلاة بالصلاة والصوم بالصوم والشيخ الفاني يطعم بكل صوم مسكيناً ومن نذر الحج ماشياً فركب بعذر يهدي هدياً وبه، قال الجمهور وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة وفي رواية الأصل عن أبي حنيفة لا يجب عليه المشي في الحج بالنذر فلا يجب عليه الهدي لحديث عقبة بن عامر الجهني قال: نذرت أختي أن تمشي إلى الكعبة حافية حاسرة فأتى عليها رسول الله ﷺ فقال: ما بال هذه؟ قالوا: نذرت أن تمشي إلى الكعبة حافية حاسرة قال «مروها فلتركب ولتخمر» متفق عليه، وحديث أنس أن رسول الله ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنين له فسأل عنه فقال: نذر أن يمشي فقال إن الله لغني عن تعذيب هذا وأمره بأن يركب»[٤] متفق عليه، قلنا: أما حديث عقبة بن عامر فقد رواه أبو داود بسند جيد نذرت

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الصلاة في المسجد الجامع (٤١٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الصلاة، باب: ما جاءفي فضل صلاة التطوع في البيت (٤٤٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الرجل المتطوع في بيته (١٠٤٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: النذر في المعصية (٣٢٨٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الكفارات، باب: من خلط في نذره طاعة بمعصية (٢١٣٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: جزاء الصيد، باب: من نذر المشي إلى الكعبة (١٨٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٢).

أختي أن تمش إلى البيت فأمر النبي ﷺ أن تركب وتهدي هدياً وروى داود من حديث زيد بن عباس بلفظ أن أخت عقبة بن عامر نذرت إن تحج ماشية وأن لا تطيق ذلك فقال النبي ﷺ: «إن الله غني عن مشي أختك فلتركب ولتهد بدنة»، وروى الطحاوي من حديث عقبة بن عامر نحوه بسند حسن فظهر أن ما في الصحيحين فيه اختصار على ذكر بعض المروي وما ذكرنا من الروايات يقتضي تخصيص البدنة بالهدي وروى عبد الرزاق عن علي بسند صحيح فيمن نذر أن يمشي إلى البيت قال: يمشي فإن عيي ركب وأهدى جزوراً وأخرج نحوه عن ابن عمر وابن عباس وقتادة والحسن.

مسألة:

ومن نذر بمعصية أو بأمر مباح لا يصلح للطاعة لا يجب ولا ينعقد النذر إجماعاً فيلغو عند أبي حنيفة وعند الجمهور يتعقد يميناً للتحرز عن إلغاء كلام العاقل وصيغته أكيد يصلح لكونه يميناً لفظاً لاشتماله على ذكر اسم الله تعالى ومعنى لأن فيه تحريم ضد المنذور فعندهم يجب أن يحنث ويكفر في المعصية وفي المباح يخير بين أن يفعل أو يكفر والحجة لهم أحاديث، حديث عقبة بن عامر «كفارة النذر كفارة اليمين»[١] رواه مسلم وحديث عمران بن حصين مرفوعاً «لا نذر في معصية الله وكفارة اليمين»[٢] رواه النسائي والحاكم والبيهقي ومداره على محمد بن زبير الحنظلي، وهو ليس بالقوي وقال الحافظ ابن حجر له طريق أخر إسنادها صحيح إلا أنه معلول ورواه أحمد وأصحاب السنن والبيهقي من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة وهو منقطع لم يسمع أبو سلمة عن أبي هريرة ورواه أصحاب السنن عن عائشة وفيه سليمان بن أرقم متروك، ورواه الدارقطني عن عائشة مرفوعاً: «من جعل عليه نذراً في معصية الله فكفارته كفارة اليمين» وفيه غالب بن عبد الله متروك وروى أبو داود من حديث كريب عن ابن عباس وإسناده حسن قال النووي حديث لا نذر في معصية الله فكفارته كفارة يمين ضعيف باتفاق المحدثين، وقال الحافظ قد صححه الطحاوث وأبو علي بن السكن وحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً أطاقه فليف به»[٣] رواه أبو داود وابن ماجه،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٥).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الأيمان والنذور، باب: كفارة النذر (٣٨٤٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: من نذر نذراً لا يطيقه (٣٣٢٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الكفارات، باب: من نذر نذراً ولم يسمه (٢١٢٨).

وحديث ثابت بن الضحاك أن رجلاً نذر أن ينحر إبلاً في موضع وفي رواية ببوانة فقال له رسول الله ﷺ هل كان فيه وثن من الأوثان الجاهلية تعبد؟ قالوا: لا، قال: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك»[1] رواه أبو داود وسنده صحيح وروى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ونحوه روى ابن ماجه عن ابن عباس، وهذا الحديث يدل على جواز وفاء النذر بما ليس بطاعة ولا معصية وكذا حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة قالت يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف تعني عند قدومك قال: أوفي بنذرك رواه أبو داود، ولعل ذلك قبل تحريم الضرب بالدف والنذر المعلق عند وجود الشرط حكمه حكم المنجز مطلقاً عند أبي حنيفة في ظاهر الرواية وعند أبي يوسف وهي رواية عن الشافعي، وبه قال مالك غير أنه قال في صدقة جميع المال يلزمه التصدق بالثلث وفيما سوى ذلك فعنده يجب عليه الوفاء بما أوجب لا غير وروي عن أبي حنيفة أنه رجع عن هذا القول وقال: أجزأه عن المعلق كفارة يمين ويخرج عن العهدة بفعله وبه قال محمد واختار صاحب الهداية والمحققون عن علماء الحنفية أن المراد بالشرط الذي يجزء عنه الكفارة عند أبي حنيفة الشرط الذي لا يريد وجوده نحو إن دخلت الدار وكلمت فلاناً أو فعلت كذا فعلي حج أو صوم سنة ويسمى هذا النذر الحاج وأما الشرط الذي يريد وجوده نحو إن شعبت أو قدم غائبي أو مات عدوي أو ولدت امرأتي ابناً فعلي كذا، قالوا وجب عليه الوفاء لا غير ويسمى هذا النذر نذر تبرر ولهذا التفصيل قال أحمد وهي الأظهر من الروايات عن الشافعي والرواية الثالث عن الشافعي أن الواجب في النذر الحاج الكفارة لا غير وهي رواية عن أحمد عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحب القسمة، فقال: إن عدت بشأنهما القسمة فكل ما لي في رباح الكعبة فقال له عمر إن الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخاك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب ولا في قطعة الرحم ولا فيما لا يملك» رواه أبو داود.

مسألة:

ومن نذر بعبادة لا يطيقها جاز له أن يكفر عنه وقال أبو حنيفة يستغفر الله ولا كفارة عليه لنا ما مر من حديث ابن عباس «من نذر نذر لا يطيقه فكفارته كفارة يمين» وحديث

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما يؤمر به من وفاء النذر (٣٣٠٣).

في قصة أخت عقبة قال النبي ﷺ: «إن الله لا يصنع بشقاء أختك مشياً فلتركب ولتحج راكبة وتكفر يمينها» رواه أبو داود، وعن عبد الله بن مالك عن عقبة بن عامر قال: نذرت أختي أن أحج لله ماشية غير مختمرة فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ قال: قل لأختك فلتخمر ولتركب ولتصم ثلاثة»[١] رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وروى الطحاوي نحوه، ووجه الجمع أن النبي ﷺ لعله أمره الكفارة بعد ما علم عجزها عن هذا والله تعالى أعلم ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ أي مكروه في الصحاح الشر الذي يرغب عنه ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ تنتشر غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر، قال مقاتل كان شره فاشياً في السموات فانشقت وتناثر كواكبها وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة وفي الأرض فنسفت الجبال وغار المياه فكسر كل شيء على الأرض من جبال وبناء فيه إشعار إلى حسن عقيدتهم واجتابهم بهم عن المعاصي كما أن في يوفون بالنذر دلالة على إتيانهم الواجبات وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ إلى آخره إشارة إلى ترحمهم على عباد الله وإتيانهم الحسنات النافلات خالصاً لله تعالى ابتغاء مرضاته ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي على حب الله تعالى أو على حبهم الإطعام وحاجتهم إليه ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: لم يكن النبي ﷺ يأسر أهل الإسلام ولكنها نزلت في أهل الشرك كانوا يأسرونهم في الله فنزلت فيهم فكان النبي ﷺ يأمر بالإحسان إليهم كذا قال قتادة وقال مجاهد وسعيد بن جبير هو المسجون من أهل القبلة والأول أظهر، وقيل: الأسير المملوك وقيل: المرأة قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله سبحانه في الضعيفين المملوك والمرأة»، رواه ابن عساكر عن أبي عمر وعن أم سلمة «اتقوا الله في الصلاة وما ملكت» رواه الخطيب وروى البخاري في الأدب عن علي مرفوعاً «اتقوا الله في ما ملكت إيمانكم» وروى البغوي «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان» قال البغوي اختلفوا في سبب نزول هذه الآية؟ قال مقاتل نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً، وروى مجاهد وعطاء عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب وذلك أنه عمل لليهودي بشيء من شعير فقبض الشعير فطحن منه ثلاثة، فأصلحوا منه شيئاً ليأكلوه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما جاء في كراهية الحلف بغير ملة الإسلام (١٥٤٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية (٣٢٨٤)، وأخرجه النسائي في كتاب: الأيمان والنذور، باب: إذا حلفت المرأة لتمشي حافرة غيرْ مختمرة (٣٨١٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الكفارات، باب: من نذر أن يحج ماشياً (٢١٣٤).

فلما تم انضاجه أتى مسكين فسأله فأخرجوا إليه الطعام ثم عمل الثلث الثاني فلما تم إنضاجه أتى يتيم فسأل فأطعموه ثم عمل الثلث الباقي فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه وطووا ليومهم ذلك وروى الثعلبي عن ابن عباس أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك فنذر علي وفاطمة وقضة جاريته لهما أن يصوموا ثلاثة أيام إن برأ فشفيا وما معهم طعام فاستقرض على من سمعون الخيبري ثلاث أصوع من الشعير فطحنت فاطمة رضي الله عنها صاعاً وخبزت خمسة أقراص فوضعوا بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم مسكين فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم فوقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك، فنزل جبرائيل بهذه السورة وقال: خذها يا محمد هنأك الله في أهل بيتك. قال: الحكيم الترمذي هذا حديث معضل لايروح إلا على أحمق وجاهل وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وقال هذا لا يشك في وضعه قال السيوطي لأن السورة مكية ودخول علي على فاطمة بعد الهجرة بسنتين، قلت: وهذا الاعتراض ملحق بما قال مقاتل وما قال مجاهد وعطاء أيضاً فإن نزول الآية في رجل من الأنصار يقتضي كون الآية مدنية وكذا عمل علي لليهودي بشيء من الشعير أيضاً لا يتصور إلا في المدينة لأن اليهود لم يكونوا بمكة بل نفس الآية يقتضي كونها مدنية لأن الأسارى لم تكن إلا بالمدينة لم يكن بمكة جهاد ولا أسر فالظاهر أن بعض هذه السورة مدنية وإن كانت بعضها مكية وعلى كون كلها مكية ففي الآية إخبار بالغيب عن حال المسلمين بعد الهجرة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ حال من يطعمون بتقدير القول أي قائلين نطعم لهم هذا القول إما تحقيقاً أو تقدير القول بلسان الحال، قال مجاهد وسعيد بن جبير أنهم لم يتكلموا به ولكن علم الله ذلك من قلوبهم فأثنى عليهم ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ لفظ الوجه مقحم أي لله وطلب مرضاته ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ عوضاً بدنيا ولا مالياً ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ مصدر كالدخول والجروح والقبول روى عن عائشة أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل المبعوث، قالوا فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى صواب الصدقة لها خالصاً عند الله ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ تعليل للإطعام بعد تعليل كأنه معطوف على لوجه الله بحذف العاطفة وحذف حرف الجر يعني نطعمكم طمعاً وخوفاً من الله المطلوب مرضاته وثوابه للخوف من غضبه وعذابه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة لتطفىء غضب الرب وتدفع عنه السوء»[1] رواه الترمذي ﴿يَوْمًا﴾ ظرف لمقدر أي نخاف من عذاب ربنا ﴿عَبُوسًا﴾ العبوس الذي يجمع ما بين عينيه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في فضل الصدقة (٦٥٧).

حزناً وصف اليوم به مجازاً على طريقة نهارك صايم ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾ شديد العبوس كذا قال الكلبي وقال أخفش قمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في بلاء وفي القاموس القمطرير الشديد وأقمطر اشتد نفسه ترقي من الأدنى إلى الأعلى.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾
مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا
تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾
وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ
سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ
جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ذكر المستقبل بلفظ الماضي إشعاراً لقطع وقوعه الفاء للسببية أي لأجل خوفهم واجتناباً بموجب العذاب في ذلك اليوم وقاهم الله ﴿شَرَّ﴾ أي مكاره ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ أعطاهم بدل العبوسة ﴿نَضۡرَةٗ﴾ حسناً في الوجه ﴿وَسُرُورٗا﴾ في القلب ﴿وَجَزَىٰهُم﴾ الله حيث لم يطلب الجزاء عن غيره ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على طاعات الله عن معاصية وعلى الجوع عند الطعام المسكين، وعلى القتل في الجهاد وعلى المعصية عند الصدقة ﴿جَنَّةٗ﴾ دخولها ﴿وَحَرِيرٗا﴾ ألبسوه ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير المنصوب في جزاء أو من المرفوع في أدخلوا المقدر ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ﴾ أي السرر في الحجال، أخرج البيهقي عن ابن عباس قال: لا يكون الأرائك حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان سرير بغير حجلة لا يكون أرائكة وإن كان حجلته بغير سرير لا يكون أرائكة فإذا اجتمعا كان أرائكة ﴿لَا يَرَوۡنَ﴾ حال من فاعل متكئين أو من ذي حاله ﴿فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ قال في القاموس الزمهرير شدة البرد القمر وازمهرت الكواكب أي لمعت فالمراد بالزمهرير إما شدة البرد وبالشمس لازمه أي الحر فالمعنى لا حر فيها ولا برد ليدوم فيها هواء معتدل، أخرج ابن المبارك وعبد الله بن أحمد في زوائده وابن مسعود قال: الجنة سجيح لا حر فيها ولا قرأو المراد بالزمهرير القمر أو لامع من الكواكب فالمعنى الجنة مضيئة بنفسها ومشرقة بنور ربها لا يحتاج إلى شمس ولا إلى قمر أخرج البيهقي عن شعيب بن الجيحان قال: خرجت أنا وأبو عالية الرباحي قبل طلوع الشمس فقال: ينسب أن الجنة هكذا ثم تلا ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ

﴿٣٠﴾ قلت: ليس معنى قول أبي العالية الجنة هكذا تشبيه بنور الصبح فإنه نور ضعيف متلط بالظلمة كما لا يخفى بل تشبيه في انبساط نوره بل انقطاع ﴿وَدَانِيَةً﴾ أي قريبة عطف على متكئين أو على محل لا يرون ويرون دانية أو على جنة بتقدير الموصوف أي وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها فيكون نظيراً لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[1] لكن لهذا التأويل ضعف لاقتضائه أن لا يكون الجنة الأولى دانية الظلال إذا القسمة تنافي الشركة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي منهم ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ فاعل دانية ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ حال من ظلالها بتقدير قد أو عطف على دانية على طريقة ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[2] أو حال من ذي حال دانية والعائد محذوف أي ذللت لهم ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثماراً ﴿تَذْلِيلًا﴾ أي جعلت سهل التناول لا يمتنع على قطوفها كيف شاؤوا، أخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن البراء بن عازب أن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً مضطجعين على أي حال شاؤوا ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي أباريق بلا عرى، كذا أخرج هناد عن مجاهد ﴿كَانَتْ﴾ أي الكواكب الجملة صفة بها ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ حال من فاعل كانت على تقدير كونها تامة أي تكونت أكواب حال كونها قوارير أي مثل قوارير وخبرها على تقدير كونها ناقصة أي تكون مثلها في الصفاء، أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: آنية من فضة صفائها كصفاء القوارير وأخرج سعيد بن مسعود بن عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عباس لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذباب لم يرى الماء من ورائها لكن من أواني الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير ﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ بدل من الأول، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبه القوارير من فضة قال الكلبي إن الله جعل قواير كل قوم من تراب أرضهم وإن أرض الجنة من فضة فعل منها قوارير يشربون فيها قرأ ابن كثير قوارير الأول بالتنوين لتناسب رؤوس الآي والثاني بلا تنوين بعدم الانصراف، وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر كلاهما بالألف تبعاً للخط لا حمراة فيغير الألف من نون الثاني أيضاً بالألف عوضاً من التنوين ومن لم ينون وقف بغير ألف على القياس إلا هشام فبالألف صلة للفتحة على الرواية ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة ثانية لأكواب أو حال بتقدير قد والمعنى قدرها لهم لاسقاة والخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ربهم لا يزيد ولا ينقص، كذا أخرج الفريابي في نفسه عن ابن عباس قال: الشيخ الأجل يعقوب الكرخي رضي الله عنه: لعل هذا إشارة إلى أن مقادير الأكواب يكون

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

على حسب مقادير استعدادات الأرواح في المعارف الإلهية وأخرج هنا عن مجاهد تقديرها أنها ليست بالملآن التي تفيضه لا ناقصة بقدر أو المعنى قدرها أهل الجنة في أنفسهم فجاءت مقاديرها وأشكالها لما تمنوه أو قدروه بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ معطوف على يطاف عليهم ﴿كَأْسًا﴾ المراد بالكأس ههنا المشروب إما حقيقة أو على طريق جرى النهر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ صفة لكأس كانت العرب يستلذون الشراب الممزوج بالزنجبيل فواعد الله بذلك قال ابن عباس ما ذكر الله في القرآن بما في الجنة وسماه ليس له في الدنيا مثل، وقيل عين في الجنة يوجد منها طعم الزنجبيل وقال قتادة: يشربها المقربون صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة قلت ذكر الله تعالى في الجنة كأساً كان مزاجها كافوراً وكأساً مزاجها زنجبيلاً ذلك على اختلاف رغبة الشاربين فإن محرور الطبيعة يعجبه التبريد فيرغب إلى كأس كان مزاجها كافوراً والمبرود يعجبه التسخين فيرغب إلى كأس كان مزاجها زنجبيلاً ولكل يرغب فيه ﴿عَيْنًا﴾ بدل من زنجبيلاً إن كان الزنجبيل اسماً لعين وإلا فهو بدل من كأس على حذف المضاف أي كأس عين ﴿فِيهَا تُسَمَّىٰ﴾ تلك العين ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ أخرج سعيد بن منصور وهناد والبيهقي عن مجاهد قال: هي حديدة الحربة انتهى، ويقال شراب سهل الانحدار في الحلق والمساغ سلسل سلسالاً وسلسبيلاً فقيل الباء زائدة، وقال الزجاج سميت بذلك لأنها منقادة لهم يصرفونها حيث شاؤوا، وقال مقاتل وأبو العالية سميت به لأنها تسيل عليهم في الطريق.... وفي منازلهم ينبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنان وشراب الجنة على برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على الجملة السابقة ﴿وِلْدَانٌ﴾ ينشئهم الله لخدمة المؤمنين وولدان الكفرة يجعلهم الله خدماً لأهل الجنة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي لا يموتون ولا يهرمون ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لا يموتون ولا يهرمون إذا رأيتهم لانتثارهم في الخدمة ولو كانوا صفاً شبهوا بالمنظوم والجملة الشرطية صفة ثانية للولدان.

أخرج ابن المبارك وهناد والبيهقي عن ابن عمر قال: إن أدنى أهل الجنة من يسعى عليه ألف خادم على عمل ليس معه صاحبه وتلى هذه الآية وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم» وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة إن أدنى أهل الجنة منزلاً من يغدوا ويروح عليه خمسة آلاف خادم ليس منهم خادم إلا ومعه ظرف ليس مع صاحبه والله تعالى أعلم. أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو راقد على حصير من جريد فأثر في جنبه فبكى عمر فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت كسرى

وملكه وهرمز وملكه وصاحب الحبشة وملكه وأنت رسول الله على حصير من جريد فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة» فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ حذف مفعوله ونزل منزلة اللازم ﴿ثَمَّ﴾ ظرف لرأيت أي في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ كثيراً ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ الجملة الشرطية معترضة في الجنة وقد مر فيما سبق عن ابن عمر مرفوعاً «أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة» وفي رواية «مسيرة ألفي عام يرى أقصاه كما يرى أدناه» وقيل: ملك لا يزول ويسلم عليهم الملائكة ويستأذنهم في الدخول ولهم فيها ما يشاؤون ويرون الرب الجليل ﴿عَلِيَهُمْ﴾ قرأ نافع وحمزة بإسكان الياء على أنه مبتدأ وما بعده خبره من جملته حال من ضمير عليهم في يطوف عليهم أو من المنصوب في حسبتهم أو من ملكاً كبيراً بحذف المضاف أي أهل ملك كبير والباقون بالنصب على أنه ظرف مستقر بمعنى فوقهم خبر لما بعده أو حال مما ذكرنا وما بعده فاعل الظرف ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ بالإضافة مبتدأ أو خبر أو فاعل لما قبله والسندس معرب ضرب من رقيق الديباج كذا في القاموس ﴿خُضْرٌ﴾ أخضر قرأ نافع وحفص وأبو عمر وابن عامر بالرفع على أنه صفة ثياب والباقون بالجر على أنه صفة سندس ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي الديباج الغلظ معرب استبره أو ديباج يعمل بالذهب أو ثياب حرير صفاق نحو الديباج كذا في القاموس قرأ نافع وابن كثير وعاصم بالرفع عطفاً على ثياب والباقون بالجر عطفاً على سندس. عن ابن عمر قال: قال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق يخلق أم نسج ينسج؟ فقال: «بل ينشق عنها ثمر الجنة» رواه النسائي والبزار والبيهقي بسند جيد وعن جابر قال «في الجنة شجرة ينبت السندس يكون ثياب أهل الجنة» رواه البزار والطبراني وأبو يعلى بسند صحيح وعن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[1] متفق عليه وروى النسائي والحاكم وعن أبي هريرة نحوه وزاد «ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة ومن شرب من آنية الذهب والفضة في الدنيا لم يشرب بهما في الآخرة» وفي الصحيحين عن أنس والزبير نحو حديث عمر وعن أبي سعيد الخدري أيضاً نحو حديث عمر وزاد «وإن دخل الجنة لم يلبسه» رواه الطيالسي بسند صحيح والنسائي وابن حبان والحاكم ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ عطف على

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: لبس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه (٥٨٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم استعمال إناء الذهب على الرجال والنساء وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء (٢٠٦٦)، وأخرجه النسائي في كتاب الزينة، باب: التشديد في لبس الحرير وأن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة (٥٣٠٢).

ويطوف عليهم أو حال من الضمير في عاليهم بإضمار قد ﴿أَسَاوِرَ﴾ منصوب بنزع الخافض ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ من بيانية وهذا لا يخالف قوله تعالى: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[١] لإمكان الجمع والعاقبة والتبعيض وعلى تقدير كون الجملة حالاً من ضمير للخدم فيجوز أن يكون أساور من فضة للخدم ومن ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن كعب الأحبار قال: إن الله تعالى ملكاً يصوغ على أهل الجنة من أول خلقه إلى أن تقوم الساعة ولو أن حلياً يخرج من حلي أهل الجنة لذهب بضوء الشمس وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[٢] وأخرج النسائي والحاكم عن عقبة بن عامر قوله ﷺ: «إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا» ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ معطوف على الجمل السابقة ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ من الأقذار لم تمسه الأيدي كخمر الدنيا، قال أبو قلابة وإبراهيم: إنه لا يصير بولا نجساً ولكن يصير رشحاً في أبدانهم كريح المسك وذلك أنهم يؤتون بالطعام وإذا كان آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور فيشربون فيطهر بذلك بطونهم ويصير ما أكلوا رشحاً يخرج من جلودهم أطيب من المسك الأذفر تعود شهوتهم، وقال مقاتل هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل أو حسد، قال البيضاوي ولنعم ما قال هو أن الله سبحانه يريد نوعاً آخر من الشراب يفوق على النوعين المتقدمين ولذلك أسند إلى نفسه ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن الميل إلى الذات الحسنة والركون إلى ما سوى الحق فتجرد لمعاينة جماله متلذذاً بلقائه وهي منتهى درجة الصديقين ذلك ختم به ثواب الأبرار وختم ثوابهم ومبدأ ثواب الصدقين وأدنى درجتهم، قال في المدارك: قيل إن الملائكة تعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منه ويقولون لقد طال أخذنا من الوسائط فإذا هم بكأسات تلاقي أفواههم بغير أكف من غيب إلى عبد ويؤيد هذا القول ما أخرج ابن أبي الدنيا بسند جيد عن أبي أمامة قال: إن الرجل من أهل الجنة يشتهي الشراب من شراب الجنة فيقع في يده فيشرب ثم يعود إلى مكانه، قال الشيخ الأجل يعقوب الكرخي إن السابقين المقربين يعطون الكاسات من تحت العرش بلا واسطة والمقتصدين يعني الأبرار يعطيهم الملائكة وغيرهم من أهل الجنة يعني الذين دخلوها بعد المغفرة أو العذاب يعطيهم الولدان انتهى، قلت: وهذه الآيات إخبار عن شأن الأبرار فلعلهم يعطون الكاسات تارة بتوسط الولدان وتارة بتوسط الملائكة وتارة بلا توسط وأما

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥٠).

المقربون لعلهم يعطون بلا توسط غالباً ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ النعيم ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ محموداً مقبولاً مرضياً عندنا مجازاً فقال: فهذا قول لهم من الله تعالى كأنهم شكر لهم من الله تعالى حيث لم يريدوا مشكوراً من غيره تعالى من المسكين واليتيم، قلت: جعل الله سبحانه نعيم الجنة جزاء لأعمالهم تفضلاً لهم وإلا فأي عمل يتصور أن يكون جزاءه كذلك ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن عباس يعني متفرقاً آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة وتأكيد الجملة بتقديم المسند إليه على الجزاء الفعلي وتصديرها بأن وتكرير الضمير لإشعار بأن الحكمة والصواب منحصرفي هذا النوع من التنزيل كأنه كرر الإسناد إلى نفسه وجعله مختصاً به والحكيم لا يفعل إلا ما هو حكمته ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الفاء للسببية، يعني إذا عرفت حال الأبرار والفجار وتأخير جزاء الفريقين أي دار القرار فاصبر على أذى الكفار ولا تعجل في عقوبتهم ولا تحزن بتأخير نصرك عليهم وإذا علمت أن تنزيل القرآن مختص به تعالى فاصبر نفسك على ما أمر به وعما نهى عنه ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي من الكفار للضجر من تأخيرالظفر ﴿ءَاثِمًا﴾ أي مرتكباً لإثم داعياً لك إليه وإن لم يكن ذلك كفراً ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ مرتكباً للكفر داعياً لك إن الكفر فأولاً حد الأمرين منكر وقعت في حيز النفي فأفادت العموم أي لا تطع أحداً دعاك إلى إثم أو دعاك إلى كفر أو إليهما جميعاً فإنه داع إلى كل واحد منهما ولو وقعت هناك الواو لكان المعنى لا تطع من دعاك إلى الكفر والإثم جميعاً ولا يستفاد منه عدم إطاعة الداعي إلى الإثم فقط، ومقتضى هذه الآية أنه لا بأس في إطاعة كافر فيما ليس بإثم ولا كفر وقيل: أو ها هنا بمعنى الواو والمراد بالآثم الكفور أبو جهل لعنه الله تعالى وذلك أنه لما فرضت الصلاة نهى أبو جهل النبي ﷺ عنها، وقال لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه فأنزل الله هذه الآية كذا روى عبد الرزاق وابن المنذر وابن جرير عن قتادة، وقال مقاتل أراد بالآثم عتبة بن ربيعة وبالكفور وليد بن المغيرة قالا للنبي ﷺ: إن صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فارجع عن هذه الأمر وقال عتبة فأنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد أنا أعطيك من المال ما ترضى فأرجع من هذه الأمر فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي صلّ شبه عن الصلاة بذكر اسم الله تعالى تسمية الشيء باسم جزئه فإن التحريمة ركن من أركان الصلاة أو يقال أفعال الصلاة وأقوالها كلها ذكر قال رسول الله ﷺ: «إن هذه الصلاة ليس فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[1] رواه المسلم من حديث معاوية بن حكم ﴿بُكْرَةً﴾ أي أول النهار

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

عني به صلاة الفجر منصوب على الظرفية وكذا ﴿وَأَصِيلًا﴾ أي آخر النهار عنى به صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ عبر ههنا عن الصلاة بالسجود وأراد به صلاة المغرب والعشاء ولما كان في صلاة الليل زيادة كلفة أكده بتقديم الظرف وزيادة الفاء في فاسجد على تقدير أما أي وأما من الليل فاسجد ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا﴾ عبر ها هنا عن صلاة بالتسبيح والمراد به قيام الليل ﴿طَوِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف أي تسبيحاً طويلاً نصف الليل أو أقل أو أكثر منه ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الكفار مكة ﴿يُحِبُّونَ﴾ الدار ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ في الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أي قدامهم وخلف ظهورهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً مستعار من الشغل البالغ في المشقة على الحال وجمله إن هؤلاء تعليل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ يعني أنهم آثمون لا يعملون ما يعلمون في الدنيا ولا يعبأون بالآخرة فلا تطعهم ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أحكمنا أسرهم خلقهم وأرحالهم وربط مفاصلهم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ في الخلق وشدة الأسر ﴿تَبْدِيلًا﴾ مصدر للتأكيد وجملة الشرطية معطوفة على شددنا، وجملة نحن خلقناهم مع ما عطف عليه لبيان تشنيع الكفار على كفرهم في مقابلة النعم وذكر نعمة إيجادهم وتمكينهم لأنها أصل النعمة كلها وفي جملة إذا شئنا تسلية للنبي ﷺ في احتمال الأذية منهم ووعد لهم بإهلاكهم وتبديلهم بقوم مطيع في الخلق وقد أهلكهم يوم بدر وقيل إذا هاهنا بمعنى أن يعني أن يشاء الله لكن لم يشاء إ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ السورة أو الآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ وموعظة وتذكرة توضح السبيل إلى الله سبحانه وإلى مرضاته ﴿فَمَن شَآءَ﴾ التقرب إلى الله وسلوك السبيل ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بالطاعة ودوام الذكر والإخلاص، وتقليد النبي ﷺ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ قرأ نافع والكوفيون بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لا توجد مشيئتكم أيها الناس أو مشيئة الكفار باتخاذ السبيل إلى الله وبشيء من الأشياء في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله تلك المشيئة عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «مصرف اقلوب صرف قلبي على طاعتك»[1] رواه مسلم فلما وجد مشيئة الله بهداية المؤمنين شاء اتخذ السبيل إلى الله ولما لم وجد مشيئة الله بهداية الكفار لم يشاء ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يستأهل كل أحد فيفعل به ما هو أهل له وذلك يستدعي سبق استعدادهم الخير والشر، وإنما هو يكون المبادي تعينات المؤمنين ماشية من اسم الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف نشاء (٢٦٥٤).

الهادي ومبادي تعينات الكفار من اسم المضل ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشاء إلا ما تقضيه الحكمة ﴿يُدْخِلُ﴾ الله سبحانه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ورحمته ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في جنته فإنها محل الرحمة يقذف الإيمان والتصديق في قلبه ومحبة الله في سره وتوفيقه للطاعة وحفظه وتنفيره عن الكفر والمعصية ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ منصوب بفعل محذوف تفسيره بعده ويعذب الظالمين ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ جملة والظالمين معطوف على يدخل والجملتين يقرران مضمون ما يشاؤون إلا أن يشاء الله، والله تعالى أعلم، تمت سورة الدهر.

سورة المرسلات

مكية وهي خمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾ أدغم عمرو عمر والخلاد التاء في الذال وأظهر الجمهور، قال مقاتل معنى الملائكة التي أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه وهي رواية عن مسروق عن ابن مسعود فعرفاً حينئذ مفعول له ويحتمل أن يكون عرفاً حالاً بمعنى متتابعات من عرف الفرس يعني أرسلت للأحكام متتابعات فعصفن إلى عصر من عصف الرياح في امتثال ما أمروا به ونشرن الشرائع في الأرض بنشر الكتب وإنزالها ونشرن أن أحين النفوس الموتى بالجهل بما أوتين من العلم ففرقن بين الحق والباطل فألقينا إلى الأنبياء ذكر أي وحياً أو اليقين في قلوب المؤمنين ذكر الله سبحانه، وقال مجاهد وقتادة هي الرياح المرسلات أرسلت متتابعة وقيل عرفاً كثير العاصفات شديدة الهبوب عصفاً الناشرات السحاب في الجو نشر الفارقات بين السحاب بالقصر فرقاً أو فارقات السحاب بعد المطر فالملقيات ذكر أي تستبين لذلك فإن العاقل إذا شاهد هبوبها ورثارها ذكر الله تعالى وكمال قدرته وشكره على نعمة المطر بعد ما قنطوا، ويحتمل أن يكون المراد به آيات القرآن المرسلات إلى محمد ﷺ بكل عرف أي معروف فعم من الكتاب والأديان بالنسخ ونشرن آثار الهدى والأحكام في الشرق والغرب وفرقن بين الحق والباطل فأيقين ذكر الله بين العالمين أو المراد بها نفوس الأنبياء المرسلات إلى الخلق للهداية والإرشاد وتبليغ الأحكام فعصفن

وأسرعن امتثال الأوامر والانتهاء عن المناهي ونشرن الهداية وفرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكر الله تعالى في قلوب الأمة وألسنتهم ﴿عُذْرًا﴾ روي عن أبي بكر عن عاصم ضم الذال وهي قراءة الحسن والمشهور عنه وعن سائر القراء السكون ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر بضم الذال والباقون بإسكانها وهما بسكون الذال مصدران العذر أو أمحى إساءة وأنذر إذا خوف وبالضم جمعان للعذير بمعنى المعذرة ونذير بمعنى الإنذار أو المعنى العاذر والمنذر ونصبهما على أولين بالعلية أي عذر المؤمنين إمحاء لإساتهم ونذر للكفار تخويفاً لهم والرياح سبب بوعيد الكفار بالعذاب إذا أسند والمطر إلى الأنواء مثلاً، أو هما منصوبان بالبدلية من ذكر على أن المراد به الوحي وعلى الثالث بالحالية ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من القيامة والجزاء ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ كائن لا محالة الجملة جواب للقسم ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ محقت وذهبت بنورها جواب إذا محذوف وهو العامل فيها أي يفصل بين أهل الجنة وأهل النار ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾ أي شقت فصارت لها فرجاً ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ قلعت من أماكنها وإذا مليت ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ قرأ أبو عمرو وقتت بالواو وعن أبي جعفر رواية بالواو بالهمزة كالجمهور عوضاً عن الواو أي أظهرت وقت جمعهم وشهادتهم على الأمم ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ﴾ متعلق بما بعده وقدم عليه لاقتضاء صدر الكلام ﴿أُجِّلَتْ﴾ أخرت وضرب الأجل لذلك الوقت استفهام استعير للتعجب والتهويل ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ بدل من لأي يوم وبيان له وجملة لأي يوم معترضة، ويحتمل أن يكون ثاني مفعولي أقتت لتضمينه معنى أعلمت ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ تعجيب آخر وتعظيم أمره يعني أنه شيء أعظم لا تعلم كنهه ولم تر مثله ﴿وَيْلٌ﴾ مصدر بمعنى حلول الشر والهلاك في الأصل منصوب على المصدرية بإضمار فعله عدل به إلى الرفع يجعله مبتدأ لدلالته على ثبت الهلاك والشر والجملة دعائية، أخرج أحمد والترمذي وابن جرير ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي وابن أبي الدنيا وهناد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «الويل واد في جهنم يهوي إليه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره»[1] وأخرج البيهقي وابن المنذر عن مسعود قال: الويل واد في جهنم يسيل صديد أهل النار جعل الله للمكذبين وأخرج ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير نحوه، وأخرج البيهقي وابن جرير وابن المبارك عن عطاء بن يسار قال: الويل واد من صديد جهنم لو سيرت فيه الجبال لانذابت من حره، وأخرجه ابن جرير عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ قال: «الويل جبل في النار» وأخرج البزار بسند ضعيف عن سعيد بن أبي وقاص قال: قال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء (٣١٦٤).

رسول الله ﷺ: «إن في النار حجراً يقال له ويل يصعد عليه العرفاء وينزلون» ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذا النجوم طمست إلى آخره ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ليوم الفصل ظرف مستقر خبر لويل يومئذ متعلق به ويحتمل أن يكون يومئذ ظرفاً مستقراً صفة لويل.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ﴾ بالعذاب المكذبين أو ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ نحو قوم نوح وعاد وثمود، استفهام تقرير ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ يعني كفار مكة السالكين سبيل الأولين في تكذيب الرسل عطف على مضمون ألم نهلك يعني أهلكنا أولين ثم نتبعهم الآخرين ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة مصدر محذوف أي فعلاً مثل ذلك الفعل ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي نجس المجرمين ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ بما أوعدنا ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ استفهام تقرير أي خلقناكم ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ حقير قدراً وهي النطفة ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الماء ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ما يتمكن فيه وهو الرحم ظرف مستقر مفعول ثان لجعلناه إن كان ناقصاً بمعنى صيرناه وإلا فظرف لغو متعلق به وجملة جعلناه معطوفة على مضمون ألم نخلقكم الفاء للتفسير لا للتعقيب أو محمول على القلب في التركيب ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ متعلق بقوله في قرار مكين إن كان ظرفاً مستقراً وإلا فبفعل محذوف أي مؤخراً أي مقادر من الوقت المعلوم عرفاً أدناه ستة أشهر وأكثره سنتين أو معلوم عند الله مدة لبثه ﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرأ نافع والكسائي بالتشديد من التقدير أي فقدرنا مدة لبثه في بطن أمه وقت ولادته وعمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً النطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب

فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»(١) متفق عليه والباقون من القراء قرؤوا بالتخفيف من القدرة يعني فقدرنا يعني إيجاده وأعد أمه وإعادته ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ فنحن أي على كل شيء، ويحتمل أن يكون القادر بمعنى المقدر قراءة نافع ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بقدرتنا وهم الكفار أو بتقديرنا وهم القدرية مجوس هذه الامة ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ استفهام تقرير ﴿كِفَاتًا﴾ اسم لما يكفت فيه بضم أو مصدر نعت به مبالغة أو جمع كافت كصيام وصائم أو جمع كفت بمعنى الوفاء أجرى الجمع على الأرض باعتبار أقطاعها ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ حال عن المفعول المحذوف لكفاتاً إن كان مشتقاً وإلا فالفعل محذوف دل عليه كفاتاً يعني نكفت الناس أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم وأمواتاً في بطنها بخروجهم كذا قال الفراء وإنما حذف المفعول للعمل به، ويحتمل أن يكون مفعولين لكذلكأي نكفِتُ الأحياء والأموات وتنكيرهما للتفخيم أو لأن أحياء الناس وأمواتهم بعض الأحياء والأموات ويحتمل أن يكونا ثاني مفعول نجعل وكفاتاً حال منهما قدم عليهما لتنكيرهما ويحتمل أن يكونا حالين عن مفعول نجعل يعني الأرض أو كفاتاً والمراد بالأحياء والأموات ما ينبت من الأرض وما لا ينبت ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على مضمون لم نجعل ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبال ﴿شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ عاليات والتنكير للتعظيم نابعات من الأرض ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ بأمثال هذه النعم قال مقاتل وهذه الأمور المذكورة كلها أعجب من البعث ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ جملة مستأنفة كأن في جواب ما يصنع بالمكذبين يومئذ وتقديره، يقال لهم يومئذ انطلقوا أي سيروا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا نار جهنم ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ بدل من الأول تأكيد وفيه بيان لما يسيرون إليه ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ قال المفسرون أريد به دخان جهنم قال البيضاوي وغيره الدخان العظيم إذ يرتفع يتفرق ذوائب وفي خصوصية شعب دخان جهنم بالثلاث ذكر البيضاوي وغيره وجوهاً لا ترضيه، وعندي وجه الخصوصية بالثلاث أن أسباب الدخول في نار جهنم منحصرة في ثلاث أحدها الكفر بالله وتكذيب الرسل صريحاً وعبارة كقول الكفار افترى على الله كذباً ثانيها اتباع الهوى وتكذيب الرسل وآيات الله اقتضاء كقول أهل الهواء عن المجسمة والقدرية والروافض والخوارج والمرجئة على خلاف ظواهر النصوص القطعية بتأويلات فاسدة على خلاف الإجماع كما أن المجسمة يكذبون، قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾(٢) وما دلت من الآيات على وزن الأعمال والصراط ونحو ذلك والروافض والخوارج يكذبون ما تواتر عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

الرسول ﷺ في مدح أبي بكر وعمر وعثمان وعلي تواتراً معنوياً ثالثها اتباع الشهوات في ارتكاب الكبائر والصغائر وترك الواجبات فهذه الأمور الثلاثة تصلح أن تكونا أسباباً لانشعاب دخان جهنم إلى ثلاث شعب قال البغوي قيل يخرج عنق من النار فيشعب ثلاث شعب أما النور فتقف على رؤوس المؤمنين والدخان تقف على رؤوس المنافقين واللهب تقف على رؤوس الكافرين، قلت: وأيضاً يكون هذا القول مرفوعاً لكونه لا يدرك بالرأي فتأويله أن عبر عن شعبة من شعب الثلاث الدخان جهنم بالنور لخفته في الظلمة بالنسبة إلى أختيه وإلا فما معنى النور في نار جهنم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أوقد على نار جهنم ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»[١] أخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة فهذه الشعبة الخفيفة الظلمة بالنسبة إلى أختيها تقف على رؤوس عصاة المؤمنين من أهل النار وعن الشعبة. . . الثانية بالدخان لكثرة أجزاء النار فيها وشدة ظلمتها فهي تقف عى رؤوس المنافقين والمراد بالمنافقين ههنا هم أهل الهواء الذين يدعون الإيمان ويلزمهم الكفر وتكذيب الرسول ﷺ وليس المراد بالمنافقين ها هنا الذين قالوا آمنا بأفواههم في العلانية دون السر ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ فإنهم أشد من الكفر من الجاهرين وهم في الدرك الأسفل من النار، وقد ذكرنا في تفسير سورة البقرة وجه إطلاق المنافقين على أهل الهواء وتطبيق ما ضرب الله تعالى به مثل المنافقين عليهم وعن الشعبة الثالثة باللهب لكمال احتراقها وشدة التهابها فهي تقف على رؤوس الكافرين.

قلت: ويمكن أن يقال المراد بالظل نار جهنم نفسها عبر عنها بالظل مجازاً لظلمته واسوداده فإن الظل لا يخلو من الظلمة وفيه استهزاء وتهكم بالكفار كما في ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[٢] وفي ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣] فمعنى قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ انطلقوا إلى نار جهنم التي هي ذي ثلاث طرق موصلة إليها أحدها تكذيب الرسل صريحاً ثانيها تكذيبهم اقتضاء ثالثها ارتكاب المعاصي لما ذكرنا ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ كظل العرش وظل الجنة للمؤمنين صفة الظل بعد صفة ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي لا يرد لهب جهنم صفة لموصوف محذوف أي ولا ظل يغني من اللهب ويحتمل أن يكون معطوفاً على ظليل على طريقة فالق الإصباح وجعل الليل فيكون صفة ثالثة لظل مذكورة في هاتين الصفتين، تهكم بهم وروي أوهم لفظ الظل من وقاية الحر

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم (٢٥٩١).
(٢) سورة الدخان، الآية: ٤٩.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٧.

والإغناء من اللهب ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير راجع إلى ظل من حيث المعنى إن كان المراد به النار كما ذكرت وإلا فهو راجع إلى غير مذكور دل عليه الكلام أي جهنم ﴿تَرْمِى﴾ تعليل لعدم الإغناء ﴿بِشَرَرٍ﴾ جمع شررة وهي ما تطاير من النار ﴿كَالْقَصْرِ﴾ أي كل شررة في عظمها كالقصر أي كبيت من حجر أو قرية أو حصن كذا في القاموس فهو مفرد، وقيل هو جمع قصرة بمعنى أصل النخل أو الشجر الغليظ ﴿كَأَنَّهُ﴾ أي انقصرا فرد الضمير نظراً إلى لفظه ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ جملة كأنه صفة ثانية لشرر، قرأ حفص وحمزة والكسائي جملة بغير ألف وهو جمع جمل والباقون جمالات بالألف على أنه جمع جمال فهو جمع الجمع ﴿صُفْرٌ﴾ جمع أصفر فإن الشرر لما فيه من النار به يكون أصفر وقيل: معناه أسود كما جاء في الحديث «إن شرر نار جهنم سود كالقير» والعرب تسمي سواد الإبل صفر الضر به إلى الصفرة والأول تشبيه في العظمة وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ بالنار والعذاب ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي الكفار نطقاً يفيدهم أو لا ينطقون شيئاً من فرط الدهشة والحيرة وهذا في بعض المواقف وينطقون في بعضها ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار عطف على لا ينطقون ﴿فَيَعْتَذِرُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عطف على لا يؤذن فيدل على نفي الإذن والاعتذار مطلقاً ولعله لم يجعل جواباً عن النفي كيلا يدل على أن عدم اعتذارهم بعد الإذن فيوهم أن لهم عذراً، لقال حينئذ أي عذراً لمن أعرض عن منعم وكفر بأياديه ونعمه ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين أهل الجنة وأهل النار ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ خبر ثان لهذا وحال عن يوم الفصل والعامل معنى الإشارة والعائد محذوف أي جمعناكم فيه تعليل يعني هذا يوم الفصل لأنا جمعناكم فيه للفصل بين المؤمن والمكذب وتقرير وبيان للفصل ﴿وَالْأَوَّلِينَ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حيلة لدفع العذاب كما كنتم تكيدون بالمؤمنين في الدنيا كما كنتم تقولون أيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد من تسعة عشر خزنة ﴿فَكِيدُونِ﴾ الياء محذوفة أي فكيدوني الآن توبيخ وتعجيز جملة الشرطية بتقدير. فيقال لكم معطوفة على جمعناكم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ بالعذاب إذا لا حيلة لهم يومئذ في تخليص أنفسهم من العذاب ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الشركة ومن المعاصي مطلقاً على تفاوت درجاتهم ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ كناية عن تكاثف أشجار الجنة كقوله زيد طويل النجاد بمعنى طويل القامة وإن لم يكن له نجاد وإلا فلا شمس حتى يتصور الظل ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية من ماء غير آسن ولبن لم يتغير طعمه وخمر لذة للشاربين وعسل ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي لذيذة مشتهاة وفيه إشعار بأن المآكل والمشارب في الجنة بحسب شهواتهم بخلاف الدنيا فإن فيها يحسب ما يجد

الناس ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ حال من ضمير المرفوع في الظرف أي مستقرون في ظلل حال كونهم مقولاً لهم ذلك أو جملة معترضة بتأويل يقال لهم ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ صفة المصدر المحذوف أي أكلاً هنيئاً أو حال أي مهنئين والهنأ ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقبه خامة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من عقد القلب بالإيمانيات ومعالجته الطاعات، وجملة إن المتقين مستأنفة كأنه في جواب سائل يسأل عن حال غير المكذبين بعد ما سمع حال المكذبين ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ كذلك في محل النصب على المصدرية لما بعده والجملة الفعلية خبر إن والاسمية تأكيد لما سبق فإن المراد بالمحسنين هم المتقون لا ما هو أخص منه وإلا يلزم تشبيه إلا على بالأدنى وفيه حث على الإنسان يعني فأحسنوا أيها الناس يجزينكم كما ذكرنا والإحسان بالمعنى الأخص «أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١) كذا قال رسول الله ﷺ في جواب جبرائيل سأل عنه رواه الشيخان في الصحيحن عن عمر بن الخطاب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ بالجنة حيث يحرمون من النعيم ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ كلام مستأنف خطاب للمكذبين في الدنيا على وجه التهديد ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على المصدرية وعلى الظرفية أي أكلاً قليلاً أو زماناً قليلاً ما دمتم في الدنيا ثم ينقطع ذلك عنكم ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ تعليل للتهديد ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ حيث عرضوا أنفسهم على العذاب الأليم لأجل التمتع القليل، أخرج ابن المنذر عن مجاهد أن النبي ﷺ أمر وفد ثقيف بالإيمان والصلاة فقالوا ولكن لا نحبي فإنها مسبة، في القاموس التجبية وضع يديه على ركبة أو على الأرض أو الإكباب على وجهه قولهم فإنها مسبة إلى عار فنزلت ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فهذه جملة معترضة لذم الكفار ويحتمل أن يكون معطوفة على المجرمون على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة يعني أنكم مجرمون وأنهم لا تركعون إذا دعيتم إلى الصلاة ويحتمل أن يكون معطوفة على مضمون المكذبين، يعني ويل الذين كذبوا ولم يصلوا عند الدعاء إليها ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ بالأوامر والنواهي ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ استهفام إنكاري أي لا يؤمنون بشيء من الحجج إذ لم يؤمنوا بالقرآن الذي هو مشتمل على وجوه من الإعجاز نظماً ومعنى وعلى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١٠).

الحجج الواضحة والبراهين الساطعة ولما كان سياق هذه السورة على التخويف والتهديد غالباً كما إن كان سياق سورة الإنسان على اللطف لتطيع غالباً قال رسول الله ﷺ: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» رواه الحاكم وصححه عن ابن عباس وابن مردويه عن سعيد.

سورة النبأ

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

﴿عَمَّ﴾ أصله عن ما بحذف الألف من ما الاستفهامية إذا وقعت بعد حرف الجر نحو لم وفيم وعم وممم تخفيفاً لكثرة الاستعمال وفرقاً بينهما وبين الموصولة وضم الميم بعن في الخط لبقائه على حرف واحد بعد الحذف والاستفهام في كلامه تعالى مستعار عن التفخيم والتهويل في شأن ما وقع فيه الاستفهام فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ والضمير لأهل مكة وذلك أن النبي ﷺ لما دعاهم إلى التوحيد وأخبرهم عن البعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون ماذا جاء بهم محمد ﷺ كذا ذكر البغوي وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن نحوه عن المعنى يتساءلون الرسول ﷺ عنه استهزاء كقوله يتداعون لهم أي يدعون لهم ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ متعلق بيتساءلون المذكور وعلى هذا النبأ متعلق بفعل مضمر يفسره ما بعده ومتعلق بيتساءلون مضمر وهذه الجملة جواب للسؤال لفظاً بيان لشأن المفخم معنى، ويحتمل أن يكون عن النبأ العظيم ويحتمل أن يكون هذه الجملة استفهامية بتقدير حرف الاستفهام فتكون تأكيد للجملة السابقة وتفخيم بعد تفخيم تقديره عم يستاءلون عن النبأ العظيم ويحتمل أن يكون الاستفهام الثاني للإنكار يعني لا ينبغي السؤال عن النبأ العظيم بل الواجب الإيمان به فإنه واضح عظيم شأنه وشديد وضوحه عن أن يسأل والمراد بالنبأ

العظيم على قول مجاهد والأكثرين القرآن بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾(١)، وقال قتادة هو البعث ويحتمل أن يكون خبر بعث النبي ﷺ ﴿ٱلَّذِى﴾ الموصول مع صلة صفة للنباء ﴿هُمْ﴾ الضمير راجع إلى ما رجع إليه المرفوع في يتساءلون وهم كفار مكة على تقدير كون السؤال استهزاء أو إنكار أو على هذا فمعنى قوله ﴿فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أن منهم من يقطع بإنكاره ومنهم من يشك ويحتمل أن يكون ضمير يتساءلون راجعاً إلى أهل مكة مؤمنهم وكافرهم أجمعين وعلى هذا فالمعنى أن منهم من يصدق ويسأل عنه لكشف الحال وازدياد اليقين ومنهم من ينكر ويسأل عنه استهزاء وإنكاراً ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاختلاف في المبني على إنكار بعضهم أو كلهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ أي الكافرون المنكرون كونه حقاً عند الشرع وفي القبر ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ يوم القيامة والتكرير للمبالغة والدلالة على لحوق الوعيد مرتين، أحدهما في القبر وثانيهما بعدالبعث وكلمة ثم يشعر بأن الوعيد الثاني أبلغ من الأول ثم ذكر الله سبحانه صنائعه ما يستدل به على التوحيد والقدرة على البعث بعد الموت ووجوب شكر النعم باتباع من يدعو إلى التوحيد والعبادة فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ فراشاً لكم استفهام تقرير أي حمل المخاطب على الإقرار والعبادة أخرى استفهام إنكار وإنكار النفي إثبات فمضمون جعلنا الأرض مهاداً ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ للأرض كيلا تميد بكم ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾ أصنافاً ذكوراً وإناثاً ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ قطعاً لأعمالكم حتى تستريح أبدانكم والسبت القطع ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على خلقنا ﴿ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ لبسه كل شيء بظلمة فيمنع الأبصار ويسكن الأصوات فيستريح النائم فيه ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ أي سبباً للمعاش من فضل الله ما قسم لكم من رزقه حيث ينقلبون فيه في حوائجكم وفيما لا بد منه في الحياة ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ أي سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ محكمات لا يؤثر فيه مر الدهور ﴿وَجَعَلْنَا﴾أي خلقنا، ويحتمل أن يكون المفعول الأول محذوفاً أي جعلنا الشمس ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ متلألئاً وقاداً قال مقاتل جعل فيه نوراً وحرارة والوهج يجمع النور والحرارة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ قال مجاهد ومقاتل والكلبي هي الرياح التي تعصر السحاب وهي رواية العوفي عن ابن عباس فعلى هذا من للنسبة، وقال أبو العالية والضحاك المعصرات هي السحائب وهي رواية الوالبي عن ابن عباس قال الفراء: المعصرات السحاب ينجلب بالمطر ولم يمطر كالمرأة المعصرة هي التي دنا

---

(١) سورة ص، الآية: ٦٧.

حيضها ولم تحض بعد وقال ابن كيسان هي المغيثات من قوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ﴾[1]، وقال الحسن وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حبان من المعصرات من السماوات فمن على هذه التأويلات للابتداء ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ قال مجاهد صباباً مدراراً قال قتادة متتابعاً وقال ابن زيد كثيراً ومرجع الكل واحد ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي بذلك ﴿حَبًّا﴾ يأكله الناس كالبر والشعير ﴿وَنَبَاتًا﴾ تأكله الدواب ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ ملتفة بالأشجار بعضها ببعض واحدها لف كجذع وجذاع أو لفيف كشريف وأشراف أو لا واحد له كأوضاع، وهي جمع الجمع فهي جمع لف واللف جمع لفافة وهي شجرة مجتمعة يقال جنة لفاف ولما ثبت أن من هو قادر على اختراع تلك الأمور قادر على إعادتها وإن تلك الأمور العظام لا يتصور وجودها إلا من فاعل الحكيم ولا يتصور أن يكون عبثاً أو منافياً للحكمة فكان السامع اشتاق إلى معرفة صفات وقت الفصل فاستأنف، وقال:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بين الحق والباطل ﴿كَانَ﴾ في علم الله أو حكمه ﴿مِيقَٰتًا﴾ ميعاداً للثواب والعقاب وقتاً معيناً لهما أو المعنى حداً يؤقت في الدنيا وينتهي عنده أو حداً للخلائق ينتهون إليه ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من يوم الفصل أو عطف بيان له أو بدل من ميقاتاً أو خبر ثان لكان ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ أخرج مسدد بسند صحيح عن ابن مسعود قال: الصور كهيئة القرآن ينفخ فيه وعن ابن عمر نحوه وقد مر في الحاقة، وعن وهب أنها من لؤلؤ بيضاء في صفاء الزجاجة وبه ثقب بعدد كل زوج وقد مر في المدثر ﴿فَتَأْتُونَ﴾ عطف على ينفخ ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال من فاعل تأتون يعني جماعات مختلفة من القبور إلى مكان الحساب، عن أبي ذر قال: «حدثنا الصادق المصدوق ﷺ أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاث أفواج فوج طاعمين كاسبين راكبين وفوج يمشون ويسعون وفوج يسحبون عى وجوههم»[2]

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٩.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: البعث (٢٠٧٧).

رواه النسائي والحاكم والبيهقي وعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ قال يحضر أمتي عشرة أفواج صف على صورة القردة وهم القدرية وصف على صورة الخنازير وهم المرجئة وصف على صورة القردة والكلاب وهم الحرورية وصف على صورة الحمر وهم الروافضة وصف على صورة الذر وهم المتكبرون وصف على صورة البهائم وهم أكلة الربى وصف على صورة السباع وهم الزنادقة وصف يحشرون على وجوههم وهم المصورون والهمازون واللمازون وصف دكيان وهم المقربون وصف مشبعاة وهم أهل اليمين» رواه ابن عساكر وقال: هذا حديث منكر في إسناده مجاهيل ورواه الخطيب بلفظ يحشر عشر أصناف من أمتي أسباتاً فمنهم على صورة القردة وهم النامون وبعضهم على صورة الخنازير وهم أهل السحت والحرام وبعضهم منكبين أرجلهم فوق أعينهم ووجوهم أسفل يسحبون عليهم وهم أكلة الربا وبعضهم عمى يترددون وهم من يجور في الحكم، وبعضهم صم بكم لا يعقلون وهم الذين يعجبون بأعمالهم وبعضهم يمضغون ألسنتهم مدلاة على صدورهم لسيل ألقيح من أفواههم يقذرون أهل الجمع وهم العلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وهم الذين يؤذون الجيران، وبعضهم مصلبين على جذوع من النار وهم السعاة بالناس إلى السلطان وبعضهم أشد نتناً من الجيف وهم الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله في أموالهم وبعضهم يلبسون جلابيبت سابغة من القطران وهم أهل الكبر والفخر والخيلاء وكذا روى الثعلبي من حديث البراء بن عازب عن معاذ ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي شقت قرأ أهل الكوفة بالتخفيف والباقون بالتشديد للمبالغة والتكثير عطف على تأتون ومعناه الاستقبال أو حال بتقدير قد وكذا سيرت ﴿فَكَانَتْ﴾ السماء ﴿أَبْوَٰبًا﴾ أي ذات أبواب أو حمل على المبالغة يعني صارت من كثرة الشقوق كأنها كلها أبواب ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض في الهواء كالبهاء ﴿فَكَانَتْ﴾ الجبار ﴿سَرَابًا﴾ السرب في الأصل الذهاب كذا في الصحاح، ويقال اللامع في المفازة كالماء سراباً ما لا سرابه في رأي العين والمراد ها هنا صارت الجبال شيئاً لا حقيقة لها لتفتت أجزائها ولما ذكر الله سبحانه ميجيء الناس أجمعين للحساب بقوله فتأتون أفواجاً فكان السامع اشتقاق إلى تفصيل أحوالهم فذكر أهل الطاغين أولاً لأن الترهيب أهم من يرصد عند أذهان الناس فقال ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ الرصد الاستعداد للترقيب وموضع يرصد فيه والمعنى ملائكة العذاب وملائكة الرحمة يرصدون الناس جسر جهنم فأما ملائكة العذاب فيرصدون الكفار ليأخذوهم ويلقونهم في النار ويعذبونهم وأما ملائكة الرحمة فيرصدون المؤمنين

ليحرسونهم في مجاوزتهم عليها من فيح جهنم وكلاليب الصراط فهذه الآية بهذا التأويل تدل على كون جهنم طريقاً وممراً للناس أجمعين كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[١] فمن فسر المرصاد بالطريق أو المعنى الالتزامي، وقيل: مرصاد أي معدة للكفار يقال أرصدت الشيء إذا أعددته ويحتمل أن يكون المرصاد صيغة مبالغة أي مجدة مجتهد في ترصد الكفار كيلا يشذ منها واحد، أخرج البيهقي عن أنس قال سمعت النبي ﷺ يقول: «الصراط أحد كحد السيف وإن الملائكة يحفظون للمؤمنين والمؤمنات وإن جبرئيل لآخذ بحجزتي وإني لأقول يا رب سلم سلم والزالون والزالات كثير» وأخرج ابن المبارك والبيهقي وابن أبي الدنيا عن عبيد بن عمير عن النبي ﷺ قال: «الصراط على جهنم مثل حد السيف بجهة الكلاليب والجسك في ركبه الناس فيخطفون والذي نفسي بيده وإنه ليؤخذ بالكلوب الواحد أكثر من ربيعة ومضر والملائكة على جهة يقولون رب سلم سلم» وأخرج البيهقي عنه قال: «إن الصراط مثل حد السيف دحض مزلة تنكفأ الملائكة والأنبياء قياماً ما يقولون رب سلم سلم والملائكة يخطفون بكلاليب» قال البيهقي روى مقسم عن ابن عباس أن على جسر بجهنم سبع محابس يسأل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني فيسأل عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز بها إلى الرابع فيسأل عن الصوم فإن جاء بها تامة جاز إلى الخامس فيسأل عن الحج فإن جاء به تاماً جاز إلى السادس فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع فيسأل عن المظالم فإن خرج منها وإلا يقال أنظروا فإن كان له تطوع أكمل به أعماله فإذا فرغ به انطلق به إلى الجنة» ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ يجوز بخمسة أوجه أن يكون خبر ثانياً لكانت أو صفة لمرصاد أو لمآب قدم عليه ما انتصب حالاً أو ظرف مرصاد أو لمآب، والطاغي الذي جاوز الحد في العصيان ولا يكون ذلك حتى يقطع في الكفر والتكذيب إما صريحاً فحينئذ يسمى كافراً وإما التزاماً واقتضاء فيسمى رافضياً أو قدرياً أو مرجئاً أو نحو ذلك من أهل الهواء ﴿مَـَٔابًا﴾ خبر آخر لكانت ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب لبثين بغير الألف والباقون بألف حال مقدرة من الضمير في الطاغين ﴿فِيهَآ﴾ في جهنم ﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حقب والحقب الواحد ثمانون سنة كل سنة اثني شهراً كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة، قال البغوي روي ذلك عن علي بن أبي طالب وكذا أخرج هناد عن أبي هريرة، وقال مجاهد الأحقاب ثلاثة وأربعون حقباً كل حقب سبعون خريفاً كل خريف سبعمائة سنة كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم ألف سنة، وقال

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

مقاتل بن حبان الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة لما كانت هذا المدة متناهية وقد دلت الآيات المحكمات على خلود الكفار في النار والعذاب حيث قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾(١) وعليه العقد الإجماع، وروى السدي عن مرة بن عبد الله قال: لو علم أهل النارأنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا ذهب المفسرون إلى تأويل هذه الآيات فقيل إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾(٢) قالوا: فالعدد قد ارتفع والخلود قد حصل، قلت: هنا خبر والخبر لا يحتمل النسخ، وقال الحسن في تأويلها إن الله لم يجعل لأهل النار مدة بل قال: لا بثين فيها أحقاباً فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب آخر ثم أخرى إلى الأبد فليس للأحقاب مدة إلا الخلود ومن ها هنا قال البيضاوي والمراد وهو ممتابعة وليس فيه دلالة على خروجهم منها وإن كان فمن قبيل المفهوم فلا يعارض المنطوق الدال على الخلود الكفار، قلنا: نعم المنطوق لا يزاحمه المفهوم ومن ثم قلنا بخلود الكفار في النار وعليه انعقد الإجماع ووجب تأويل هذه الآية وتأويله بالأحقاب الغير المتناهية والدهور المتتابعة ضعيف إذ لا يظهر حينئذ فائدة لتقييد بالأحقاب الموهم خلاف المراد كيف والأحقاب بالنسبة إلى غير المتناهي من الزمان كالأيام بالنسبة إليها ولا شك أنه لو قيل لابثين فيها أياماً لا يتبادر الذهن منه إلى الخلود بل إلى الخروج فكذا هنا، وقيل أحقاباً جمع حقب من حقب الرجل إذا أخطأ الرزق وحقب العالم إذا قل مطره وخيره فيكون حالاً بمعنى لابثين فيها حقبين أي ممنوعين عنهم الرزق كله وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ تفسير له، قلت وهذا التأويل يأبى عنه الآثار المروية عن علي وغيره المذكورة مع أنها في حكم المرفوع لعدم مساغ الرأي فيه وقول أن قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ حالاً من المستكن في لابثين أو صفة لأحقاباً أو أحقاباً ظرف بلا يذوقون فالمعنى أنهم يلبثون أحقاباً على هذه الصفة غير ذائقين إلا حميماً وغساقاً لأحقاف زمان بعدم الذوق لا المطلق اللبث فلعلهم يبدلون بعد ذلك جنساً آخر من العذاب أشد من ذلك والظاهر أنه حال مرادف بقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ﴾، والتأويل عندي أن لفظ الطاغين ليس على عموم اتفاقاً فأنتم تحملونه على الكفار دون أهل الهواء، فيلزمكم التكلفات في هذا الآية لينذفع المعارضة بينها وبين المحكمات ونحن نحمل الطاغين ها هنا على أهل الهواء دون الكفار فلا يلزمنا ما يلزمكم ويؤيد ما قلت ما أخرج البزار عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «والله لا يخرج أحد من

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٠. (٢) سورة النبأ، الآية: ٣٠.

النار حتى يمكث فيه أحقاباً والحقب بضع وثمانون سنة وكل سنة ثلاثمائة وستون يوماً مما تعدون» فإن هذا الحديث يدل على الخروج بعد تلك المدة والله تعالى أعلم، قرأ الحمزة والكسائي وحفص غساقاً بالتشديد كالخباز والباقون بالتخفيف كالعذاب أما الحميم فماء في غاية الحرارة في الحديث: «يرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم»(١) الحديث رواه الترمذي والبيهقي عن أبي الدرداء وأما الغساق فأخرج هناد عن مجاهد قال الغساق الذي لا يستطيعون أن يذوقه لشدة برده، قال البغوي قال ابن عباس يحرقهم ببرده كما يحرق النار بحرها، قال مقاتل هو الذي انتهى برده، وأخرج هناد عن أبي العالية في هذه الآية أنه استثنى من الشراب الحميم ومن البرد الغساق، قال البيضاوي أخر الغساق ليوافق رؤوس الآي، وأخرج هناد عن عطية قال: الغساق الذي يسيل من صديدهم وأخرجه مثله عن إبراهيم وأبي زرين فهو مشتق من قولهم غسقت وانصبت والغساق الأنصاب وأخرج ابن حاتم وابن أبي الدنيا وأيضاً عن كعب قال: الغساق عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذي حمة من حية وعقرب وغير ذلك فيستنقع يؤتى بالآدمي فينغمس غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده عن العظام وتعلق جلده ولحمه في كعبيه فتجر لحمه كما يجر الرجل ثوبه فعلى هذه الأقوال إن كان الغساق بارداً كان المستثنى من البرد إلا فهو والحميم كلاهما مستثنى من الشراب والمراد بالبرد حينئذ برد جهنم ويستثنى عن حر النار والمراد بالبرد النوم، وقيل: الاستثناء منقطع والمراد بالشراب ما يسكن عطشهم ﴿جَزَآءً﴾ منصوب على المصدرية من فعل المحذوف أي يجزون جزاء ﴿وِفَاقًا﴾ أي وافقاً أو موافقاً أو يوافق وفاقاً لأعمالهم وأباطيلهم، قال مقاتل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك هذا على تفسير القوم بأن المراد بالطاغين الكفار فعلى هذا جزاء مصدر وقع بعد جملة لا محتمل لها غيره من قبيل له على ألف درهم اعترافاً إذ لا محتمل من جملة إن جهنم الخ إلا الجزاء فهو تأكيد لنفسه وأما على ما ذكرت من أن المراد بالطاغين أهل الهواء فمعناه يجزون لجنس ما ذكر من العذاب موافقاً لبعدهم عن الحق في عقائدهم فيكون لبث بعضهم في جهنم أكثر من بعض وعذابهم أشد منهم غير أنه يبلغ هذا اللبث وما هم فيه إلى الأحقاب وأذاه حقب وعلى هذا التأويل فالمصدر تأكيد لغيره إذا الجملة السابقة عليه يحتمل غير ذلك والحمل على كونه تأكيداً لغيره أولى من الحمل على كونه تأكيداً لنفسه فإن التأسيس أولى من التأكيد ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يخافون ولا يعتقدون

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٦).

﴿حِسَابًا﴾ تعليل لما سبق من الجزاء فالكافرون لا يعتقدون البعث والحساب والجزاء مطلقاً وأما أهل الهواء فإن هذه الصفة موجودة في بعضهم فإن المرجئة لا يعتقدون الحساب والجزاء وكذا الروافض يقولون شيعة علي ومحبه لا يعذب بشيء من الذنوب كبيرة كانت وصغيرة ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾ عطف على كانوا وهذه الصفة عامة في جميع أهل الهواء كما ذكرنا في المرسلات ألا ترى إلى الروافض أنهم ينكرون مناقب جميع الصحابة ويدعون ارتدادهم أو نفاقهم أجميعن إلا ثلاثة منهم أو نحو ذلك، ويزعمون إن عمر بن الخطاب وغيره من الخلفاء حين مكنهم الله تعالى في الأرض أفسدوا في الأرض ويزعمون أن الصحابة شر الأمم وأسوأ القرون وقد قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾[2] إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3] الآية وقال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾[4] وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[5] الآية إلى غير ذلك من آيات لا تكاد تحصى، وكذاباً المصدر بمعنى التكذيب مطرد شائع أو بمعنى المكاذبة فإنهم كاذبون عند المسلمين والمسلمون كاذبون عندهم أو المعنى أنهم مبالغون في الكذب مبالغة المبالغين فيه وعلى المعنيين يجوز أن يكون حالاً بمعنى كاذبين أو مكاذبين ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي تكذيباً مفرطاً كذبه.

مسألة:

هذه الآية على ما ذكرت من التأويل تدل على عذاب أهل الهواء وأما عذاب أهل الكبائر من المؤمنين فأطول مدة مكثهم بقدر الدنيا سبعة آلاف سنة ولا يجرعون الحميم ونحو ذلك، أخرج ابن أبي حاتم وابن شاهين عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم كلها الذين ماتوا على الكبائر غير تائبين من دخل منهم جهنم لا يزرق أعينهم ولا تسود وجوههم ولا يقرنون بالشياطين ولا يغلون بالسلاسل لا يجرعون الحميم ولا يلبسون القطران حرم الله أجسادهم على الخلود

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٤) سورة الفتح، الآية: ١٨.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

وصورهم على النار من أجل السجود فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ومنهم من تأخذه النار إلى عقبيه ومنهم من تأخذه النار إلى حنجرته ومنهم من تأخذه إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ومنهم من يمكث فيها سنة، ثم يخرج وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ خلقت إلى أن تفنى» الحديث وأخرج الحاكم في نوادر الأصول عن أبي هريرة نحوه فهم في الباب الأول من جهنم ولا يضربون بالمقامع ولا يطرحون في الدرك فمنهم من يمكث فيها ساعة ثم يخرج منها ومنهم من يمكث وفيها يوماً ثم يخرج ومنهم من يمكث فهيا سنة وأطولهم فيها مكثاً منذ خلقت الدنيا إلى يوم فنيت وذلك سبعة آلاف، قلت والمراد بالسنة ها هنا السنة الدنيوية حتى يتحقق مساواتهم فيها بمدة الدنيا وورد في بعض الروايات عن ابن سعيد مرفوعاً «أن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم يميتهم الله في النار فإذا كانوا أذن بالشفاعة يحيون بخلاف الكفار فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون» ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر على شريطة التفسير أي أحسينا كل شيء من أعمال الطاغين وأباطيلهم ﴿أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ منصوب على التميز أو على الحال بمعنى مكتوباً أو على المصدرية من قبيل ضربتهم سوطاً أي أحصيناه إحصاء كتاب أو بفعل محذوف أي أحصيناه كتبناه كتاباً في اللوح المحفوظ أو في صحف الحفظة، قيل: هذه الجملة معترضة والظاهر عندي أنها تعلل لقوله تعالى: ﴿وِفَاقًا﴾ كما أن قوله أنهم كانوا لا يرجون الخ تعليل لقوله جزاء يعني جزيناهم كذلك لأجل إنكارهم للحساب وتكذيبهم بالآيات ويوافق الجزاء أعمالهم وفاقاً حيث كتبنا أعمالهم وأباطيلهم لا يغادر فيها شيء فيجزيهم وفاق ذلك ﴿فَذُوقُوا﴾ الفاء للسببية بمعنى ذوقوا العذاب بسبب إحساء أعمالهم خطاب مع الطاغين على طريقة التفات للمبالغة ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ أيها الطاغون ما دمتم في النار ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن أبي هريرة الأسلمي مرفوعاً إن هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار ورواه الطبراني والبيهقي في البعث موقوفاً والله أعلم. ولما ذكر الطاغين ذكر الله سبحانه حال المتقين فقال:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١﴾ فوزاً ونجاة من النار أو موضع فوز ﴿حَدَآئِقَ﴾ بدل بعد من مفاز إن كان بمعنى الموضع وإلا فبدل اشتمال ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ هذا وما بعده بدل اشتمال من مفازاً ويجوز عطف على بدل البعض تقول أعجبني زيد وجهه وعلمه ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جواري نواهد قد تكعبت ثديهن واحدتها كاعب ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات السن ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة مملوءة وقال سعيد بن جبير متابعة وقال عكرمة صافية ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ حال من الضمير في للمتقين اراجع إلى مفاز أو هو الحدائق والجنات أو صفة لكأساً وعلى هذا فالضمير ﴿فِيهَا﴾ راجع إلى كأس لا يسمعون في شربها كما كانوا يسمعون في شرب كاسات الدنيا ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً من الكلام ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ قرأه الكسائي بالتخفيف على أنه مصدر الكاذبة، وقيل هو الكذب وقيل: هو كالمشدد في المعنى والباقون بالتشديد بمعنى التكذيب يعني لا يكذب بعضهم بعضاً ولا يوجد في الجنة الكذب ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر فعل محذوف مؤكد بجملة وقعت قبله كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾⁽¹⁾ ﴿عَطَآءً﴾ مصدر كذلك أي يجزون جزاء أو يعطون عطاء ﴿حِسَابًا﴾ صفة لعطاء بمعنى كافياً وافياً من أحسبت فلاناً أي أعطيته ما يكفيه حتى قال حسبي قال ابن عتبة عطاء حساباً أي كثيراً فعلى هذا يكون تأكيداً لنفسه من قبيل الله أكبر دعوة الحق وله علي ألف اعترافاً، وقيل حساباً معناه على حسب الأعمال وقدرها في القاموس هذا بحسبه أي بعدده على هذا يستقيم المقابلة بما سبق جزاء وفاقاً يعني الطاغون يجزون جزاء موافقاً لأعمالهم وأباطيلهم والمتقون يجزون جزاء على حسب أعمالهم وقدرها قلت بل على حسب مشيئة الله تعالى وفضله لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾⁽²⁾ وعلى حسب إخلاص العالمين ومراتب قربهم، فإن المقربين يعطون الآجر على القليل من العمل لا يعطي الأبرار على الكثير لما روى الشيخان في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»⁽³⁾ وهذا التفاوت فيما بين المقربين على تفاوت درجات قربهم قال المجدد ﵁: الصحابة كانوا

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

كلهم مستغرقين في التجليات الذاتية الدائمة بكمالات النبوة وكثيراً من التابعين وقليل من أتباعهم كانوا كذلك وهم المقربون وبعد القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير انطفت أنوار تلك الدولة العظمى ودرست آثارها ثم بعد مضي ألف سنة من الهجرة خلق الله سبحانه بعض الكرام وأعطاهم كمالات مثل كمالات الأولين كما نطق به الصادق المصدوق ﷺ: «مثل أمتي كمثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره»[(١)] رواه الترمذي عن أنس شبه رسول الله ﷺ آخر هذه الأمة بأوله بحيث لا يدري أيها خير من الآخر وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أبشروا بشروا إن مثل أمتي مثل الغيث لا يدرى آخره خير أم أوله أو كحديقة أطعم منها فوج عاماً وفوج عاماً لعل آخرها أفواجاً يكون أعرضهم عرضاً وعمقهم عمقاً وأحسنهم حسنات» الحديث رواه البيهقي ورواه رزين وعن صحابي بهم سمع النبي ﷺ أنه يقول: «سيكون في آخر هذه الأمة قوم لهم أجر مثل أجر أولهم»، رواه البيهقي في دلائل النبوة وعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ تأكيداً الغيرة كما ذكرت في جزاء وفاقاً والله تعالى أعلم ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ الكوفيون بالجر والباقون بالرفع ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قرأ عاصم وابن عامر بالجر والباقون بالرفع فعلى قراءة عاصم بالجر فيهما كلا الاسمين صفتان لربك في قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ أو بدل منه وعلى قراءة أهل الحجاز والبصرة بالرفع فيهما رب السماوات مبتدأ والرحمن صفة له وما بعده خبره ويحتمل أن يكون رب السماوات خبر مبتدأ المحذوف أي هو رب السماوات الرحمن صفة له أو خبر ثان وما بعده خبر ثالث، ويحتمل أن يكون الرحمان مبتدأ وما بعده خبره وعلى قراءة حمزة والكسائي بالجر في الأول والجر في الثاني رب السماوات خبر مبتدأ محذوف فهو جملة معترضة والرحمان بدل من ربك وما بعده استئناف ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أي أهل السماوات والأرض ﴿مِنْهُ﴾ أي من الرحمان ﴿خِطَابًا﴾ أي لا يقدر أحد أن يخاطبه منه وقال الكلبي معناه لا يملكون الشفاعة إلا بإذنه ويحتمل أن يكون معناه لا يمكن لأحد الاعتراض عليه سبحانه في إعطاء الأجر بعضهم أكثر من بعضهم لأنهم مملوكون على الإطلاق ولا يستحق أحد عليه شيئاً والأجر تفضل منه فعلى هذا لا اعتراض، عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم من أجل ما خلا من الأمم من العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عملاً فقال من يعمل إلى النصف النهار على قيراط فعملت اليهود إلى النصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال (٢٨٦٩).

على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألا لكم الأجر مرتين فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل إعطاء قال الله تعالى فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا قال الله تعالى فإنه فضلي أعطيته من شئت»[١] رواه البخاري، قلت: معناه قوله ﷺ «إنما أجلكم من أجل ما خلاف من الأمم ما بين العصر إلى مغرب الشمس «أن أعمار هذه الأمة قصيرة وأعمالهم قليلة والمراد بالقيراطين الكثرة مطلقاً كما في قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾[٢] لا تعيين الكثرة بقدر الضعيف والله أعلم وبتأويلنا هذا يرتبط هذه الآية بما سبق أي جزاء من ربك عطاء حساباً والله تعالى أعلم ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ ظرف للا يملكون أو للا يتكلمون والأول أظهر ﴿ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في ذلك اليوم واختلفوا في الروح، فأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: الروح في السماء الرابعة وهو أعظم من السماوات والجبال ومن الملائكة وزاد البغوي أنه يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيح يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً واحداً، وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في هذه الآية قال الروح صاحب الله يقوم بين يدي الله وهو أعظم ملائكة لو فتح فاه لوسع جميع الملائكة ما يخلق ينظرون إليه فمن مخافته لا يرفعون طرفهم إلى من فوقهم، وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب ﷺ قال الروح ملك له سبعون ألف وجهة لكل وجهة سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون لغة يسبح الله بتلك اللغات كلها وأخرج من طريق عطاء عن ابن عباس قال الروح ملك واحد له عشرة وآلاف جناح ومن طريق أبي طلحة عنه أنه من أعظم الملائكة خلقاً وزاد البغوي في قول عطاء عنه أنه قال إذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفاً والملائكة صفاً واحداً فيكون أعظم خلقه مثلهم، وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل بن حبان قال: الروح أشرف الملائكة وأقربم إلى الله وهو صاحب الوحي وأخرج من وجه آخر عن الضحاك في هذه الآية فالروح جبرائيل عليه السلام وأخرج عن ابن عباس أن جبرائيل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقاً من عذاب الله يقول سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك وإن ما بين المشرق والمغرب وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ وأخرج أبو نعيم عن مجاهد وابن المبارك عن أبي صالح مولى أم هاني قال: الروح خلق على صورة بن آدم وليسوا بالإنسان زاد البغوي يقومون صفاً والملائكة صفاً هؤلاء جند وهؤلاء جند وكذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإجارة، باب: الإجارة إلى نصف النهار (٢٢٦٨).

(٢) سورة الملك، الآية: ٤.

ذكر البغوي عن قتادة، وأخرج أبو الشيخ من طريق مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً قال: «الروح جند من جنود الله ليسوا بالملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل ثم قرأ (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) قال هؤلاء جنده وهؤلاء جنده» وذكر البغوي عن مجاهد عنه قال: خلق على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا معه واحد منهم أخرج ابن المبارك وأبو الشيخ في العظمة عن البيهقي قوله تعالى: (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) قال يقوم سماطين لرب العالمين يوم القيامة سماط من الملائكة وسماط من الروح وذكر البغوي أنه قال الحسن هم بنوا آدم ورواه قتادة عن ابن عباس وقال: هذا مما كان يكتمه ابن عباس ﴿صَفًّا﴾ حال مفرد من فاعل يقومون أو مصدر بفعل محذوف أي يصفون صفا والجملة حالان يتكلمون يعني الروح والملائكة وهذه الجملة حال من فاعل يقوم وجملة يوم الروح والملائكة صفا ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ تقرير وتوكيد لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ فإن هؤلاء الذين أفضل الخلائق وأقربهم إلى الله إذا لم يقدروا على التكلم فكيف من عداهم ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ في الكلام والشفاعة استثناء من فاعل لا يتكلمون أو من فاعل لا يملكون والأول أظهر لفظاً لاتصاله والثاني معنى فإن الإذن في الشفاعة والكلام غير مختص بالروح والملائكة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي حقاً وصدقاً واعتقد به فالقول ها هنا كان كناية عن الاعتقاد والاعتقاد لا يظهر إلا بالقول عطف على أذن له الرحمن يعني من قال صواباً في الدنيا يعني لم يقل باطلاً من الكلام كاذباً وأكذب الكذب الكفر بالله العظيم لعدم إمكان صدقه ثم قول أهل الهواء لأن القرآن يكذبهم، وقيل معنى قال صواباً قال لا إله إلا الله فالكفار لا يؤذن لهم أن يتكلموا أو يعتذروا وأهل الهواء وأنى لهم درجة الشفاعة ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ﴾ إشارة إلى ما سبق من اليوم المذكور بالصفات المذكورة مبتدأ ﴿الْحَقُّ﴾ خبره عرف للقصر على كونه حقاً ثابتاً لا شبهة فيه ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ مرجعاً وسبيلاً مقرباً إليه بطاعاته واتباع رسله والهادين إلى سبيله بالجذب والتسليك فليتخذ الفاء السببية فإن كون ذلك اليوم حقاً موجب الاتخاذ السبيل إلى الله وإلى ربه متعلق بمآباً أو ظرف مستقر حال منه ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ﴾ وأيها الكفار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني عذاب الآخرة فإن كل ما هو آت قريب أو عذاب القبر والموت أقرب من شراك النعل ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ﴾ الظرف متعلق بعذاباً فإنه بمعنى التعذيب ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ما استفهامية منصوبة بقدمت أو موصولة منصوبة بينظر والعائد من الصلة محذوف المعنى لتعذيب أنه يرى كل امرئ يوم القيامة ما قدم من العمل شيئاً في صحيفة أو يرى جزائه في الآخرة أو في القبر إنما أسند تقديم

الأعمال إلى اليد لأن عامة الأعمال الجوارح منها أو لأن اليد كناية عن القدرة والقوة، عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القبر أول منزلة من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»[١] والأحاديث في العذاب القبر كثيرة وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من البول» وفي رواية لمسلم «لا يستنزه من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[٢] الحديث، ويدل على رؤية العمل في القبر حديث البراء بن عازب بطوله وفيه في ذكر المؤمن «فيفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك كنت توعد فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه تجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح» الحديث وفيه في ذكر الكافر «ويضيق عليه قبره حتى يختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه وقبيح الثياب نتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسؤوك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه تجيء بالشر فيقول: أنا عملك الخبيث» الحديث رواه أحمد ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ أخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مدا لادبم وحشر الله تعالى الخلائق الإنس والجن والدواب والوحش فإذا كان ذلك اليوم جعل الله القصاص بين الدواب حتى يقضي للشاة العجماء من القرناء فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها كوني تراباً فيراها الكافر فيقول يا ليتني كنت تراباً، وأخرج الدينذري عن يحيى بن جعدة نحوه وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي هريرة نحوه، وذكر البغوي قول مقاتل نحوه وفيه يقول الكافر يا ليتني كنت في الدنيا في صورة خنزير وكنت اليوم تراباً وذكر البغوي عن الزياد وعبد الله بن ذكوان قال: إذا قضى بين الناس وأمر أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجن عودوا تراباً فيعودون تراباً فحينئذ يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً وبه قال ابن أبي سليم مؤمنوا الجن يعودون تراباً، وقيل المراد بالكافر ها هنا إبليس وذلك أنه عاب آدم أنه خلق من التراب وافتخر بأنه خلق من النار فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه المؤمنون من الثواب والرحمة وما هو فيه من الشدة والعقاب قال يا ليتني كنت تراباً قال أبو هريرة فيقول التراب لا ولا كرامة لك من جعلك مثلي.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٣٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: من الكبائر أن لا يستتر من بوله (٢١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

سورة النزاعات

مكية وهي ست وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾ الواو للقسم وجواب القسم محذوف أي لتبعثن ولتحاسبن يدل على ما بعده، والمراد بالنازعات غرقاً الملائكة التي تنزع أرواح الكفار غرقاً في النزع فغرقاً اسم أقيم مقام المصدر فهو مفعول مطلق من غير لفظ العامل نحو قعدت جلوساً، يقال أغرق النازع في القوس أي استوفى مدها بقوة وشدة وبالناشطات نشطاً الملائكة التي يخرجون أرواح المؤمنين برفق من نشط الدلو إذا أخرج بلا كره أو من نشط الحبل أو أمده حتى انحل فإن المؤمن كان في مصائب الدنيا كأنه معقود محسوس فالملائكة الناشطات أخلصته وحلت حلاً رقيقاً كما ينشط العقال من يد البعير كذا حكى القراء، وفي الحديث في حال أرواح المؤمن «كأنما أنشط من عقال»، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة تنزل إليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج كأطيب نفحة مسك» الحديث «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا تنزل إليه من السماء ملائكة سوداء الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى

يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله قال: فتفرق في جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوت المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسموح ويخرج منها كنتن ريح جيفة» وفي رواية «وينزع نفسه ـ يعني الكافر ـ مع العروق»[١] رواه أحمد قال البغوي، قال ابن مسعود وينزعها يعني نفس الكافر ملك الموت من تحت كل شعرة ومن الأظافير وأصول القدمين ويرددها في جسده بعدما ينزعها حتى إذا كادت تخرج ردها جسده فهذا عمله بالكافر، وقال مقاتل ملك الموت وأعوانه ينزعون روح الكافركما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل.

فائدة: ومن ها هنا يظهر أن النفس جسم لطيف على حسب الجسم الكثيف سارٍ في البدن ناشيء من العناصر الأربعة الروح والقلب وغيرهما من لطائف عالم الأمر الجواهر المجردة الإمكانية التي تظهر في النظر الكشف للطافتها وتجردها في عالم المثال فوق العرش، قالت الصوفية إنه بكمال قدرته تعالى جعلت النفس في معاملتها بمنزلة المرآة في مقابلة الشمس في النفس وامتلأت النفس بها كما تمتلىء المرآة بالشمس إذا قوبلت بها وانضاءت كالقمر إذا اتسق بأنوار الشمس على رأي الفلاسفة فحياة البدن بالنفس وحياة النفس بالأرواح المجردة وتنزع النفس من البدن عند أجل مسمى ولا يحل انتزاع الأرواح المجردة بالنفس أبدا كذا ما ورد في الحديث أن النفس ينزع من البدن ويجعل في الأكفان والحنوط والمسوح يسعد بها فيفتح أبواب السماء لنفس المؤمنة إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى أكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ولا يفتح أبواب السماء للكافر بل يطرح روحه إلى الأرض صريح على كونه جسماً مخلوقاً من الأرض، وعلى هذا التحقيق لا مجال لإنكار عذاب القبر على ما ذهب إليه أهل الهواء مع قطع النظر من البدن الكثيف وعند أهل الحق عذاب القبر يمكن على البدن الكثيف أيضاً ولا يمنعه الموت كما مر تحقيقه في سورة البقرة والله تعالى أعلم ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣﴾ قال مجاهد هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ قال مجاهد هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وقال مقاتل هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة يعني إلى

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الجنائز، باب: السؤال في القبر (٤٢٦٦).

الثواب، قلت: وأرواح الكفار إلى العذاب، قلت: وهم الذين ورد ذكرهم في حديث البراء المذكور أن ملك الموت إذا أخذ نفساً لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذها، وعن ابن مسعود السابقات هي أنفس المؤمنين تستبق إلى الملائكة الذين يقبضونها شوقاً إلى لقاء الله وكرامة غاية السرور ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾ أخرج ابن أبي الدنيا ابن عباس في المدبرات أمراً قال: ملائكة مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم فمنهم من يعرج بالروح ومنهم من يؤمن على الدعاء ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلي عليه ويدلى في حفرته، وقال البغوي قال ابن عباس هم الملائكة الذين وكلوا بأمور عرفهم الله عز وجل العمل بها قال عبد الرحمن بن سابط يدبر الأمر في الدنيا أربعة جبرائيل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل أما جبرائيل فوكل بالرياح والجنود وأما ميكائيل فوكل بالمطر والنبات وأما ملك الموت فوكل بقبض الأنفس وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم، قال قتادة بجمعيتها غير المدبرات بالنجوم فإنها تنزع من أفق إلى أفق ثم تغيب وتنشط من أفق إلى أفق أي تذهب وقال الله تعالى فيها: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] وتسبق بعضها على بعض في السير وهذا القول ضعيف فإنه لا فرق حينئذ بين النزع والنشط والسبح ولا وجه لذكر شيء واحد أربع مرات والفرق بين النزع والنشط بأن حركتها من المشرق إلى المغرب قسرية فتغرب بالنزع غرقاً وحركاتها من برج إلى برج طبيعة ملائمة فسمت بالنشط مبني على مذهب الفلاسفة قائلين بانطباق السماوات بعضها على بعض حتى يتصور القسر والثابت من الشرع أن مسافة ما بين السماء إلى السماء خمسمائة عام، وذكر في تأويل هذه الآية وجوه أخر بناء على احتمال العقل من غير نقل من السلف قال البيضاوي صفات للنفوس الفاضلة حال المفارقة فإنها تنزع من الأبدان نزعاً شديداً من أغراق النازع في القوس فتنشط إلى عالم الملكوت وتسبح فيه وتستبق في حظائر القدس حتى يصير لشرفها وقوتها من المدبرات أو حال سلوكها فإنها تنزع عن الشهوات وتنشط إلى عالم القدس فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من الكمالات أو صفات أنفس الغزاة أي أيديهم بنزع القسي بإغراق السهم وينشطون بالسهم للرحى ويسبحون في البر والبحر فيسبقون إلى حرب العدو فيدبرون أمرها أو صفات خيلهم فإنها تنزع في أعنتها وتغرق في عرقها والأعنة أطول أعناقها ويخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر وتسبح في جريها وتسبق إلى العدو فتدبر أمر الظفر والله تعالى أعلم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ متعلق بجواب القسم المحذوف يعني لتبعثن ولتحاسبن يوم ترجف

---

(١) سورة يس، الآية: ٤٠.

الراجفة وظرفية ذلك اليوم باعتبار أجزائها فإن مقدار ذلك اليوم خمسين ألف سنة من النفخة الأولى إلى دخول الجنة أو النار، أخرج البيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ فقال: ترجف الأرض والجبال وهي الزلزلة تتبعها الرادفة قال: دكتا دكة واحدة ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ في موضع الحال من فاعل ترجف والمراد بالراجفة النفخة الأولى بالراجفة لأنها توقع الزلزلة فيحرك بها كل شيء ويموت منها الخلائق والثانية بالرادفة لأنها رديفة الأولى، أخرج ابن المبارك من مرسل الحسن بين النخفتين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل ميت، قال الحليمي اتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعون سنة وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة»[1] وأخرج ابن أبي داود في البعث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه وفيه بين النخفتين أربعون عاماً والأول أصح، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس يسيل واد من ماء فيما بين النفختين ومقدار ما بينهما أربعون فينبت كل خلق بلى من إنسان أو حيوان ودابة ولو مر عليهم مار قد عرفهم، قيل ذلك على وجه الأرض لعرفهم فتنبتون ثم يرسل الأرواح فيزوج بالأجساد فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ ﴿قُلُوبٌ﴾ مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بفعل يدل عليه ﴿وَاجِفَةٌ﴾ خبر أي مضطرب اضطراباً شديداً مستعار من الواجف بمعنى سريع السير ﴿أَبْصَـٰرُهَا﴾ أي أبصار أصحابها ﴿خَـٰشِعَةٌ﴾ ذليلة من الخوف، الجملة خبر بعد خبر لقلوب أو صفة لواجفة ﴿يَقُولُونَ﴾ تعليل لواجف قلوبهم وخشوع أبصارهم يعني يلحقهم الاضطراب والزلزلة أنهم ينكرون البعث ويقولون في الدنيا هذا القول ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ الاستفهام للإنكار يعني كنا مردودين قرأ أبو جعفر أنا بحذف همزة الاستفهام لفظاً وإرادته معنى ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي في الحياة الأولى يعني حياة بعد الموت يقال رجع فلان في الحافرة يعني طريقة التي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيئته كقولهم عيشة راضية أو على تشبيه القابل ما يقابل وقال ابن زيد الحافرة النار ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا﴾ قرأ نافع والكسائي ويعقوب والحمزة وعامر إذا كنا بغير همزة الاستفهام والباقون بالهمزة للإنكار بعد الإنكار للتأكيد والظرف متعلق بمحذوف تقديره انبعث إذا كنا ويحتمل أن يكون متعلقا بمردودون ﴿نَّخِرَةً﴾ يابسة قرأ أبو بكر وحمزة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ (٤٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: ما بين النفختين (٢٩٥٥).

والكسائي بالألف ناخرة والباقون بغير ألف، أخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب قال لما نزل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾ قال كفار قريش لئن رجعنا بعد الموت لنخسرن فنزل ﴿قَالُوا۟﴾ عطف على يقولون وحال بتقدير قد من فاعل يقولون لكن نزول تلك الآية كما يدل عليه رواية سعيد بن منصور عن محمد بن كعب يأبى على كونه حالاً ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الرجعة المفهوم من قوله إنا لمردودون في الحافرة مبتدأ ﴿إِذًا﴾ أي كان كذلك أي كما يقول محمد شرط مستغني عن الجزاء لوقوعه في وسط جملة تدل على الجزاء تقديره إذا كان كذلك فتلك الرجعة ﴿كَرَّةٌ﴾ رجعة ﴿خَاسِرَةٌ﴾ أي ذات خسران وخاسر أصحابها والمعنى أنها إن صحت فنحن خاسرون لتكذيبنا وهذا استهزاء منهم ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ أي النفخة الثانية ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ في الصحاح الزجر الطرد بالصوت يقال زجرته فانزجرو منه هذه الآية فإن الناس يطردون في الأرض بصوت ينفخ في الصور ثم يستعمل تارة في الصوت كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢﴾[1] يعني الملائكة التي زجرن السحاب بالصوت وتارة بالطرد كما في قوله تعالى: ﴿مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾[2] يعني طرد ومنع ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ الفاء للعطف وإذا للمفاجأة أضيفت إلى جملة اسمية جعلها في قوة الفعلية معطوفاً على فعلية تقديره يقولون في الدنيا كذا فيفاجؤون وقت كونهم بالساهرة وجملة فإنما هي زجرة واحدة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لبيان كون الرجفة التي أنكروها سهلة بينه عند الله تعالى استفهام أي قد آتيك إلى غير مستصعبة والساهرة وجه الأرض يعني إذا هم أحياء بوجه الأرض، وقيل: هي أرض القيامة وقال قتادة هي جهنم.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ استفهام تقرير أي قد أتاك ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ جملة معترضية تسلية النبي ﷺ على تكذيب قومه وتهديدهم بأن يصيبهم مثل ما أصاب من كان أعظم منهم ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾

(١) سورة الصافات، الآية: ٢.
(٢) سورة القمر، الآية: ٩.

الظرف متعلق مفهوم حديث موسى أي هل أتاك الحديث المتعلق بموسى وقت نداء ربه إياه ﴿بِٱلْوَادِ﴾ والباء بمعنى في ﴿ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قرأ الكوفيون بالتنوين ويكسرون نونها لالتقاء الساكنين بتأويل كونه علماً للمكان، وقيل: هي مثنى من الطي مصدر لنودي أو المقدس أي نودي ندائين أو قدس مرتين وقرأ الباقون بغير تنوين لأنه معدول تقديري أي عن طاواسم لواد فعدل عن الصرف أو لأنه علم لمؤنث بتأويل البقعة فهو عطف بيان للوادي واذهب بيان لنادى بتقدير القول أي قال ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ قبيل الذهاب ﴿فَقُلْ﴾ عطف على اذهب ﴿هَل لَّكَ﴾ ميل ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ قرأ أهل الحجاز ويعقوب بتشديد الزاء والباقون بالتخفيف بحذف إحدى التائين أي تسمل وتطهر من الشرك قال ابن عباس تشهد أن لا إله إلا الله ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أراك السبيل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي معرفته وعبادته وتوحيده ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ عقابه فتؤدي الواجبات وتترك المحرمات على أن أهديك الفاء للسببية فإن الخشية مسبب للمعرفة والمعرفة مسبب لهداية ﴿فَأَرَىٰهُ﴾ معطوف على محذوف يعني ذهب وبلغ فأراه ﴿ٱلْـَٔايَةَ﴾ على صدقه ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي المعجزات الباهرة العظيمة في الدلالة على صدقه وإفرادها لأن كلها من حيث الدلالة كالآية الواحدة أو المراد بها قلب العصى حية ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله ورسوله بعد ظهور صدقه بالمعجزات ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ من ذلك المكان حين رأى الثعبان مسرعاً في مشيه إليه ﴿يَسْعَىٰ﴾ حال من فاعل أدبر أو المعنى عن الإيمان والطاعة حال كونه يسعى في الفساد في الأرض ﴿فَحَشَرَ﴾ جمع جنود أو السحرة ﴿فَنَادَىٰ﴾ في مجمعه ﴿فَقَالَ﴾ بيان لنادي والفاء للتفسير ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني لا رب لكم فوقي أو أن أعلى من كل من يلي أمركم وقيل أراد أن الأصنام أرباب وأنا ربها وربكم ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ النكل في اللغة الضعف والعجز ويقال لا يمنع الشيء عن الشيء ويعجزه عنه فيطلق على قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين والنكال اسم من التنكيل، يقال: نكلت به إذا فعلت به من عقاب الشديد ما يمنع غيره من ارتكاب مثله فالنكال ها هنا إما صفة لمصدر محذوف مؤكد لماقبله أي أخذه الله أخذاً نكالاً مانعاً لمن أراه أو سمعه أن يفعل مثله أو أخذه الله نكله نكالاً وإضافته إما بمعنى في يعني نكالاً في الآخرة بالإحراق وفي الدنيا بالإغراق كذا قال الحسن وقتادة أو بمعنى اللام يعني نكله نكالاً للكلمة الأخسرة وهي هذه، قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾(١) وكان بينهما أربعون سنة كذا قال مجاهد وجماعة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الأخذ والنكال ﴿لَعِبْرَةً﴾ موعظة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ لمن كان من شأنه الشية صفة لعبرة، ثم خاطب منكري البعث

(١) سورة القصص، الآية: ٣٨.

على سبيل الالتفات واحتج عليهم على البعث وكونه تعالى قادراً عليه بما ظهر من قدرته في إيجاد العالم فقال:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ مبتدأ محذوف الخبر تقديره أنتم أشد خلقاً أم السماء أشد خلقاً منكم والاستفهام للتقرير والمراد بالسماء هي وما فيها بقرينة ذكر الأرض والجبال في مقام التفصيل والحاصل أن السماء وما فيها أشد خلقاً منكم البتة لأنكم بعض ما فيها والكل أعظم وأشد من الجزء بالبداية والإعادة أهون من الله ﴿بَنَىٰهَا﴾ صفة للسماء إما على أن اللام زائدة على طريقة لقد أمرّ على اللئيم يسبني أو على حذف الموصول أي التي بناها أو جملة ثانية معطوفة على الأول بحرف مقدر ويحصل من القضيتين مادة البرهان تقديره أن الله بنى السماء التي هي أشد خلقاً منكم وكل من هو قادر على بناءها قادر على إعادة ما هو أضعف منها ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ السمك الارتفاع والمعنى جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو جعل تحتها الذاهب في العلو رفيعها والجملة بيان لجملة بناها أو بدل اشتمال منه ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ عمد لها وجعلها مستوية بلا فطور ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعلها ذا ظلمة يقال غطش الليل إذا أظلم أضاف الليل إلى السماء لحدوثها بحركة الشمس المستقر فيها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي أبرز ضوء شمسها وجعل النهار موجوداً منها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ منصوب بفعل محذوف على شريطة التفسير يعني ووحي الأرض ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد خلق السماء ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بسطها للسكنى قال ابن عباس خلق الله الأرض بأقواتها في يومين من غير أن يدحوها قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات في يومين بعد ذلك، ثم دحى الأرض في يومين بعد ذلك فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وقيل معناه الأرض مع ذلك دحاها كقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾[1] في التفسير البيضاوي حمل كلمة بعد ها هنا على الحقيقة، وقال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[2] أن ثم لتفاوت

(١) سورة القلم، الآية: ٨٣ (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

ما بين خلقتي السماء والأرض من الفصل كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(١)] والتأويل الأول لكونه مستفاداً من كلام السلف أولى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي من الأرض ﴿مَآءَهَا﴾ ينفجر العيون فيها ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ كلائها تسمية الحال باسم المحل أو مصدر بمعنى المفعول وجملة أخرج معطوفة على الأرض نظيره له.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا﴾ أي تمتيعاً منصوب على العلية من دحى وأرسى على سبيل التنازع ﴿لَّكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ الفاء للسببية يعني إذا ثبت البعث بأخبار الله تعالى بعد إمكانه وظهور قدرته سبحانه وتعالى عليه بما ظهر من قدرته في إيجاد العالم فاعلموا صفته وقت مجيئه وغيرها بالطامة الكبرى ليعلم بعض صفاته من عنوانه، والطم في اللغة الغلبة ويقال للبحر لأنه يغلب كل شيء والطامة عند العرب الداهية التي لا يستطاع من ذلك سميت القيامة طامة لأنها تطم الدواهي كلها وتغلبها ثم وصفها بالكبرى لمزيد تأكيدها في الطم وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بدل منه ﴿مَا سَعَىٰ﴾ ما مصدرية أو موصولة يعني يرى أعماله عدد ما في صحيفته وكان قد نسيها من قبل لفرط الغفلة أو طول المدة ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ عطف على يتذكر أي يوم يبرز يظهر ﴿ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ لكل من يرى، قال مقاتل يكشف عنها الغطاء فيظهر إليها الخلق أما الكفار فيدخلها وأما المؤمن فيمرون من الصراط على ظهرها أو المراد لمن يرى الكفار وجواب إذا قيل محذوف دل عليه يوم يتذكر والظاهر أن جوابه ما بعده من التفصل ولا ضرورة في التقدير ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أي جاوز الحد في العصيان حتى كفر ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ على الآخرة باتباع الشهوات وهواء النفس ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ هي فصل أو مبتدأ واللام في المأوى يدل على المضاف إليه عند الكوفيين أي مأواه وعند السيبويه والبصريين تقديره هي المأوى له عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب دنياه أضر آخرته من أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[(٢)] رواه أحمد والبيهقي في الشعب وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره»[(٣)] متفق عليه وعند مسلم حفت مكان حجبت وعنه «إن

(١) سورة البلد، الآية: ١٧.

(٢) رواه أحمد والطبراني والبزار ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فيمن أحب الدنيا (١٧٨٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: حجبت النار بالشهوات (٦٤٨٧)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٢).

الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم»[١] رواه الترمذي وابن ماجه ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي مقامه يوم القيامة لحساب ربه ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ الأمارة بالسوء ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ في الصحاح الهوى ميل النفس مما يشتهيه قيل: سمي به لأنه يهوي صاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية والهوى الانهدار والسقوط عن علو. اعلم أن الهوى رأس المنهيات وأساس المحرمات قال أبو بكر الوراق إن الله لم يخلق خلقاً أخبث من الهوى، قلت وهو قبيح عقلاً وشرعاً أما عقلاً فلأن حقائق الأشياء كما هي في نفس الأمر لاسيما حقائق المبدأ والمعاد وعواقب الأمور من الأخلاق والأفعال وغيرها المستدعية لحسنها وقبحها مما لا يدرك غالباً بالرأي وإن أدرك بعضها بالرأي فلا يليق بالوثوق ما لم يستفاد من علام الغيوب يتوسط الرسل ﷺ وإلا لما احتيج إلى الرسل، فتحصيل العقائد الصحيحة والعلم بالأعمال الحسنة والقبيحة والعمل بها وبالأخلاق الشريفة والرذيلة لا يتصور إلا باتباع الرسل على خلاف الهوى واتباع الهوى يضاده، وأما شرعاً فلأن الله سبحانه قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٢] وفي الصحاح العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها وهي ضربان عبادة بالتسخير كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[٣] وعبادة بالاختيار وهو مطلوبة من الثقلين فكما أن الأشياء كلها بالتخسير والاضطرار لا يتصور منه إلا ما شاء الله وأراد فلا بد أن يكون كذلك بالاختيار لا يصدر منه شيء من أفعال القلوب والجوارح وصفات النفس إلا ما أراد الله وأمر به بلا مدخل للهواء فيه وضده واتباع الهوى فهو ينافي العبودية فكل باطل قبيح من شعب من الهوى ومنبعث من الآراء الكاسدة قالت الكفار بناء على فساد رأيهم ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[٤] ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾[٥] قالت المجسمة: الباري موجود وكل موجود جسم متحيز وقلت المعتزلة وغيرهم لا يتصور عذاب القبر ووزن الأعمال والصراط ونحو ذلك والفساق مع اعترافهم بوجوب امتثال الرسول والقرآن وعلمهم بعذاب الآخرة وعلى مساوىء الأخلاق والأعمال لم يثبتوا على الشرائع باتباع الهوى والشهوات فتركوا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٢).

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧.

(٥) سورة القمر، الآية: ٢٤.

الواجبات وارتكبوا المحرمات والمكروهات فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات هوى» إلى «بئس العبد عبد الهوى يضله» رواه الترمذي والبيهقي عن أسماء بنت عميس، وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات هوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه وهي أشدهن» رواه البيهقي عن أبي هريرة، قلت: والثلاث كلها راجعة إلى الهوى وإن كان المراد في الحديث بالهوى بعض أفرادها.

فائدة: ترك الهوى على مراتب أدناه اجتناب ما هو يخالف ظاهر النصوص وإجماع السلف في العقائد وبه يصير مسلماً سنياً وأوسطه ما قال مقاتل أن يهم الرجل المعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ومن تمام هذه المرتبة ترك المشتبهات واجتناب عما لا بأس به حذراً عما به بأس قال رسول الله ﷺ: «من اتقى المشتبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في المشتبهات وقع في المحرمات كراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقع»[١] متفق عليه عن النعمان بن بشير وأيضاً من تمامه قصر دائرة المباح على ما لابد منه وترك الهوى في الفضول منها، قال رسول الله ﷺ: «من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت»[٢] رواه ابن ماجه والبيهقي عن أنس، قال المجدد قال سيدنا قبلتنا الشيخ الأجل الشيخ بهاء الدين النقشبندي وجدت طريقاً أمرب الطرق إلى الله سبحانه وهي المخالفة مع النفس يعني مع زيادة الرعاية الشريعة والله تعالى أعلم وها هنا تدقيق وهي أن المعصية منها ما هو ظاهر يمكن التحرز عنها مخالفة المقام لجانب ربه العلام ومنها ما هو أدق من دبيب النمل وذلك ما كان منها في لباس الحسنات كالرياء أو العجب وتزكية النفس المنهي عنها في كثرة النوافل والطاعات وهذا من مزال الأقدام، قال بعض الأكابرة لمريده يا بني لا أخاف طرق الشيطان إليك من سبيل السيئات ولكن أخاف أن يطرق إليك من طريق الحسنات والتحفظ في هذا المقام إتهام نفسه في كل مأتى به والتضرع والاستغفار.

أبيات:

خالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدنيه (٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأطعمة، باب: من الإسراف أن تأكل ما اشتهيت (٣٣٥٢)، وإسناده ضعيف.

ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
استغفر الله من قول بلا عمل لقد نسبت به نسلاً لذي عقم

والحصين في كل الحصين في هذه المقام التشبث بذيل شيخ فات في الله باق به وأن لا يفعل شيئاً إلا بأمره وإجازته، ذكر الشيخ الإمام يقعوب الكرخي ح عن بدء حاله أنه قال: كنت نجاراً فأدركت في نفسي تكاسلاً وفي باطني شيئاً من الظلمة فأردت أن أصوم أياماً ليذهب ذلك فعمت وأصبحت عند الشيخ الإمام الأجل بهاء الملة والدين النقشبذر فأمر الشيخ بإحضار الطعام وقال لي كل فإنه بئس العبد عبد هوى تضاله وقال: إن الأكل أفضل من الصوم إن كان بهوى النفس ففهمت أنه لا بد في العبادة النافلة أيضاً من إذن من الشيخ الفاني في الله المستخلص عن الهوى، قال قلت للشيخ بهاء الدين إن لم يوجد شيخ كذلك فماذا يفعل المرء قال: فقال الشيخ ليستغفر الله كثيراً أو يستغفر بعد كل صلاة عشرين مرة فإنه قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة»[1] وأعلى المراتب الانتهاء عن الهوى سلب الهوى عن نفسه بالكلية بحيث يكون لكون له مراد ومطلب غير الله سبحانه وغير مراده ولتحصيل هذه المرتبة تكثر الصوفية تكرار لا إله إلا الله بملاحظة لا مقود إلا الله، قال المجدد رضي الله عنه إن العبد ما دام في هوى نفسه فهو عبد نفسه مطيع الشيطان وهذه الدولة العظمى يعني سلب الهوى بالكلية منوط بالولاية الخالصة ومربوط بالفناء والبقاء الأكملين، قلت: وفي هذه المرتبة يحصل للصوفي الرضاء بما قدر الله له وإن كان خلاف طبعه وإنه يدعو لدفع ضرر نزل به بناء على أنه مأمور بالدعاء أو طلب العافية لا لأجل ضيق صدره من فقدان مراده وفي هذه المرتبة يكون عبد الله تعالى بالاختيار كما هو عبد الله بالتسخير والاضطرار لا يجد الشيطان إليه سبيلاً إلا نادراً لأن سبيله إلى الإنسان غالباً يكون بتوسط الهوى ألا ترى أن من هو محرور المزاج مغلوب الغضب يزين له الشطان نم أعماله القتل والظلم ونحو ذلك ومن هو مبرود المزاج ضعيف القلب يزين له الشيطان القرار من الزحف وترك الغيرة في الحق والنفاق ونحو ذلك وقس على هذا فإذا أزال الهوى منه انسد طرق الشيطان إليه كلها وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾[2] ومن هذا المقام قال شيخ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.

الأجل يعقوب الكرخي إن الرجل لا يبلغ مبلغ الرجال حتى يخلص من الهوى وفي هذا المقام يطلق على العبد أنه مؤمن حقيقي وهو المراد من قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» رواه البغوي في الشرح السنة، وقال النووي في أربعين حديث صحيح ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ ليس له مأوى سواها أخرج ابن حاتم من طريق جبير عن الضحاك عن ابن عباس أن مشركي مكة سألوا النبي ﷺ فقالوا متى تقوم الساعة استهزاء منهم فأنزل الله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي كفار قريش ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي متى قيامها مصدر من الرأس بمعنى القيام والثبوت، وأخرج الحاكم وابن جرير عن عائشة قالت كان النبي ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله عليه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الخ فانتهى، وأخرج الطبراني وابن جرير عن طارق بن سهاب قال كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ أخرج ابن حاتم عن عروة مثله والحاصل أن النبي ﷺ بشدة حرص على جواب السائلين عن وقت قيامها كان يسأل الله سبحانه عنها نزلت هذه الآية ظهر أن في إخفائها حكمة وأنه لا يرجى علمها فانتهى عن السؤال عنها وما في فيم استفهامية للإنكار ومن ذكراها بيان لما أي في شيء أنت في ذكر الساعة وبيان وقتها لا يجوز كذلك ولا يتصور لأنك لا تعلمها ولا يجوز أن يعلم الحكمة في إخفائها والمعنى في أي شيء أنت حال كون ذلك الشيء من ذكر الساعة وبيا وقتها يعني لست في شيء من ذكرها وعلمها يعني ليس شيء من عملها عندك يقال ليس فلان في العلم من شيء يعني ليس شيء من العلم عنده ويحتمل أن يكون فيم خبر مبتدأ محذوف يعني فيم هذا السؤال وأي فائدة فيه ثم استأنف وقال أنت من ذكراها أي من علاقاتها وموجب تذكرها فإنك ختم الأنبياء، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[1] متفق عليه، وعن المستورد بن شداد عن النبي ﷺ: «بعثت في نفس الساعة سبقتها كما سبقت هذه هذه» بأصبعيه السبابة والوسطى[2] رواه الترمذي. وقيل فيم أنت من ذكراها متصل بالسؤال يعني يسألونك عن الساعة أيان مرساها ويقولون وأين أنت من ذكرانها وبيان وقتها فتذكر وقتها على التعيين ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ يعني مدة تقوم الساعة عند انقضائها مفوض إلى ربك لا يعلمها غيره فهذا التعليل للإنكار السابق جواباً للسؤال وإن كان من تتمة السؤال فهذا جواب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة والنازعات (٤٩٣٦)،.وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة (٢٩٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول النبي ﷺ «بعثت أناء الساعة كهاتين» يعني السبابة والوسطى (٢٢١٣).

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ يعني لم تبعث لبيان وقت السياعة إنما بعثت لتنذر منها من يخشى شدائدها حتى تجتنب من موجباتها من يخشى لأنه هو المنتفع الشدائد والعلم بوقوع الساعة قطعاً يكفي للإنذار ولا حاجة فيه إلى بيان وقت وقوعها وتخصيص من يخشى لأنه هو المنتفع بالإنذار وهذه الجملة تأكيد لما سبق من التعليل لإنكار السؤال ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ أي الناس ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا﴾ أي الساعة والظرف متعلق بمعنى التشبيه المفهوم من كان ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ خبر كان أي لم يلبثوا في الدنيا والقبور زماناً ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي عشية يوم واحد ﴿أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ أمال حمزة والكسائي أو آخر هذه السورة من قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾[1] إلى آخرها إلا دحاها فإن حمزة فتحاه وورش ما ليس فيه هاء ألف بين بين وغيرها بالفتح إلا ذكراها فبين بين وأبو عمرو ما فيه راء أمال وغيرها بين بين والباقون بالفتح كلها أي ضحى تلك العشية أضيف الضحى إلى العشية لملابسة اجتماعها في يوم واحد يعني أنهم يزعمون مدة لبثهم في الدنيا والقبور لكونها متناهية ولانقضائها وانعدامها كأن لم يكن ولعدم تناهي زمان للعذاب ولشدة ذلك العذاب زمان قصير جداً نظيره قوله تعالى ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾[2] وهذه الآية كان جواب لسؤالهم عن وقت مجيئها يعني أن قيام الساعة قريب جداً.

---

(١) سورة النازعات، الآية: ١٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٣.

سورة عبس

مكية وهي اثنتان وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

ذكر البغوي أن ابن أم مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر ابن لؤي أتى رسول الله ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأبي وأمية ابني خلف يدعوهم إلى الله يرجوا إسلامهم، فقال ابن أم مكتوم يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله فجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مقبل علي غيره حتى ظهرت الكراهية في وجهه ﷺ لقطع كلامه، وقال في نفسه يقول هؤلاء الصناديد أما أتباعه العميان والعبيد والسفلة فعبس وجهه وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ محمد أي كلح ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض وجهه ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ ومحله النصب على أنه مفعول لأحد الفعلين على التنزاع أو لأن جاءه الأعمى وهو ابن أم مكتوم المذكور كذا أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة وفيه قال ابن أم مكتوم أترى عما أقوله بأساً؟ قال رسول الله ﷺ لا، وأخرج مثله عن أنس وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وفيه فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا رآه يكرمه ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ويقول له هل لك من حاجة» وفيما روى الترمذي والحاكم عن عائشة أن النبي ﷺ استخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما، وذكر الأعمى في الآية إشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام النبي ﷺ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ما نافية أو استفهامية للإنكار ومعناه النفي يعني أنت ما أدريت بحاله وأي شيء يجعلك دارياً بحاله وفيه إيماء إلى العذر في حق النبي ﷺ يعني أنك لو كنت عالماً بحال الأعمى لم تعرض

عنه مقبلاً على غيره. وفي الآية إجلال للنبي ﷺ بوجوه أحدها أنه ذكر موجب الإنكار والإعراض عنه في بدأ الكلام بلفظ الغيبة، ولم يسند ذلك الفعل إليه بالتخاطب إيهاماً بأن من صدر ذلك الفعل كأنه غيره وليس من شأنه أن يصدر منه مثله وتوجيه ذلك أن الأعمال إنم هي بالنيات وما كانت في نية النبي ﷺ الإعراض عنه مطلقاً بل كان غرضه أن هذا الرجل مؤمن لا يضره التأخير في تعليمه ولا يخاف منه التولي والانحراف وأن صناديد قريش عند الإعراض عنهم يذهبون ولا ينظرون ولو أنهم آمنوا لآمن معهم خلق كثير وتساع كلمة الله فبهذا الغرض كأن لم يصدر عن النبي ﷺ التولي عن الأعمى وإن وجد منه صورة التولي، وثانيها أن ذكر الإيماء إلى الاعتذار منه ﷺ بأنك لم تكن تعلم وإلا لما صدر عنك ذلك، وثالثها الالتفات إليه من الغيبة إلى التخاطب إيناساً له دفعاً للإيحاش وإقبالاً عليه دفعاً لتوهم الإعراض ورابعها إسناد موجب العذر إليه ﷺ بالتخاطب تصريحاً بكونه معذوراً فيما صدر عنه ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أصله يتزكى أي يتطهر بكماله من الشرك الجلي والخفي ورذائل النفس وهوائها وتعلق القلب بغير الله سبحانه وذهاب الغفلة عن سائر لطائف عالم الأمر وزوال صولة كل عنصر من عناصر عالم الخلق بفيض صحبة النبي ﷺ وبركة أنفساسه الشريفة واقتباس أنواره الظاهرة والباطنة ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أصله يتذكر أي يشتغل بما يذكر الله سبحانه ويزيد حضوره ويفيد خشيته من عذابه ورجاء ثوابه ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ قرأ عاصم بالنصب على جواب لعل والباقون بالرفع عطفاً على يذكر ﴿ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ في الصحاح الذكرى كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ إشعار إلى غاية منازل الإبرار وقوله أو يذكر إشارة إلى بداية حال الأخيار ولم يذكر ها هنا حال المقربين الصديقين لأن المقام مقام الأنانية وأما المقربون فملاك أمرهم على الاجتباء وذلك بالأصافة مختص بالأنبياء وبالوراثة والطفيل لمن شاء الله تعالى من الأصفياء وكلمة أو بين لمنع الخلو دون الجمع كما في قوله جانس الحسن أو ابن سيرين والجملة معترضة لما ذكرنا من الفوائد والبيان صلوح الأعلى للخطاب وفيه تعريض بأن صناديد قريش ليسوا بأهل للخطاب وفيه تعريض لا يرجى ما يقصد منهم كمن يقرأ مسألة لمن لا يفهمها وعنده آخر قابل لفهمها فيقال بل هذا يفهم ما تقول، وقيل: ضمير لعله راجع إلى الكافر يعني أنك تطمع منه تزكى وتذكر وما يدريك أن ما تطمع فيه كأين وعلى هذا جملة لعله يزكى مفعول ثان ليدريك والله تعالى أعلم ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ قال ابن عباس اسغنى عن الله وعن الإيمان بماله من المال ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ قرأ نافع وابن كثير بتشديد الصاد بإدغام التاء التفعل في الصاد والباقون بالتخفيف بحذف إحدى التائين وأصله يتصدى أي تعرض له وتقبل

عليه كيلا يفوت منه التزكي والتطهر ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ بأس في ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ حتى يبعثان الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم إنما عليك البلاغ ويحتمل أن يكون لا زائدة وألا يزكى اسم ما عليك خبره والمعنى أنه ليس الواجب عليك تزكيته إنما عليك البلاغ والجملة فاعل تصدى أو معترضة ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ حال أي ساعياً طالما لما عندك من الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ الله عز وجل حال مرادف سعى أو متداخل ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ أمال حمزة والكسائي أو آخر الآيات من أول السورة إلى ها هنا وورش بين بين إلا ذكرى فأما لها والباقون بالفتح أي تتشاغل إلى غيره الجملتين تفصيل لما أجل في عبس وتولى وبيان لما عليه العتاب وهو إهمال الطالب وبذل الجهد في الغافل مع أن الأولى عكس ذلك ﴿كَلَّآ﴾ ردع عما فعل أي لا تفعل مثل ذلك أبداً ﴿إِنَّهَا﴾ أي القرآن أنث الضمير لتأنيث خبره أو بتأويل الآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة وموجب لذكر الله سبحانه ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الإتعاظ وذكره تعالى ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ حفظه أي القرآن والجملة متعرضة تعليق الذكر بالمشيئة تخيير صيغة وتوبيخ للمعرضين عنه وثناء للمشتغلين به معنى في ﴿فِى صُحُفٍ﴾ أي مثبتة مكتوبة فيها صفة لتذكرة أو خبر ثان لأن أو خبر مبتدأ محذوف أي هي في صحف والمراد بالصحف اللوح المحفوظ أو صحف ينسخها الملائكة من اللوح أو صحف الأنبياء بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾[1] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾[2] أو المصاحف التي كتبها الصحابة عن النبي ﷺ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدر عند الله سبحانه وقبل مرفوعة في السماء السابعة ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن مس الجنب والحائض والنفساء والمحدث ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ جمع سافر بمعنى كاتب ومنه يقال الكتاب سفر وجمعه أسفار كذا قال ابن عباس ومجاهد فالمراد بهم الملائكة الكرام الكاتبون أو الأنبياء أو كتبة الوحي، وقال الآخرون هم الرسل جمع سفير بمعنى الرسل يقال سفير القوم للذي يسعى بينهم للصلح فالمراد هم الرسل من الملائكة ومن البشر قلت: وكذا كتبة الوحي وعلماء الأمة فإن كل منهم سفير بين الرسول وبين الأمة قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام الأبرار والذي يقرأه وينتفع فيه وهو عليه شاق له أجران»[3] رواه الشيخان، عن عائشة رضي الله عنها يعني له أجران أجر

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٦.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٨ ـ ١٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة عبس (٤٩٣٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتعتع به (٧٩٨).

القراءة وأجرالمشقة وبهذا يظهر أن للماهر أجور غير متناهية ﴿كِرَامٍ﴾على الله منعطفين على المؤمنين يكملونهم ويستغفرون لهم ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء صفة بعد صفة لسفرة هكذا ينبغي شأن العلماء.

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾ أي لعن ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات وتعجب من إفراطه في الكفر بعد هجوم الدواعي على التشكر والإيمان وهذا الكلام مع قصره يدل على سخط عظيم وذم بليغ، أخرج ابن المنذر عن عكرمة وكذا قال مقاتل أنها نزلت في عتبة بن أبي لهب قال: كفرت برب النجم قلت: وقصة ذلك على ما في السير أنه كان النبي ﷺ زوجه ابنته أم كلثوم وزوج أخيه عتبة أختها ﷺ فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ قال أبو لهب رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد فطلقا لهما ولم يبنيا بهما وجاء عتبة حين فارق أم كلثوم عند النبي ﷺ وقال: كفرت بدينك وفارقتك ابنتك وسطا عليه وشق قميص النبي ﷺ قال النبي ﷺ: إني أسأل الله أن يسلط عليك كلباً من كلابه وكان خارجاً إلى الشام تاجراً مع نفر من قريش حتى نزلوا مكاناً من الشام يقال له الزوراء ليلاً فطاف بهم الأسد تلك الليلة عتبة يقول يا ويل فإني أخاف دعوة محمد فجمعوا حمالهم فعرشوا لعتبة في أعلاها وناموا حوله فقيل: إن الأسد انصرف عنهم حتى ناموا وعتبة في وسطهم، ثم أقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتبة قلت وأما عتبة ومعتب ابني أبي لهب فقد أسلم بعد ذلك وكان من التائبين مع النبي ﷺ يوم حنين ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾﴾ بيان لموجبات الإيمان والشكر وذكر مبدأ خلقه لكونها أسبق النعم وضمير الفاعل راجعاً إلى مذكور تقديراً يعني من أي شيء خلقه الله الاستفهام للتقرير إلى حمل المخاطب على الإقرار بأنه خلقه الله من نطفة بيان لما وهذا الوجه أوقع في الذهن وفيه تحقير ينافي التكبر ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ متعلق بمحذوف أي خلق الله من نطفة بيان لما أبهم ثم بين ما اعترض عليه من الأحوال من مبدأ خلقه إلى منتهاه فقال ﴿خَلَقَهُ﴾ أوجده في الرحم من نطفة تاماً ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي كتب بإذنه ملك الموكل أربع كلمات مقدرة مقادير عمله وأجله ورزقه وسعادته أو شقاوته كما ذكرنا في سورة المرسلات حديث ابن مسعود المتفق عليه وهذا التأويل أولى

مما ذكره المفسرون بأن معناه ها هنا لا يصلح من الأعضاء والأشكال أو قدره أطواراً من نطفة إلى أن تم خلقه ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ إضمار على شريطة التفسير معطوف على قدر يعني سهل طريق خروجه من بطن أمه كذا قال السدي ومقاتل أو المعنى سهل له طريق الحق وسبيل الوصول إلى الله تعالى ببعث الرسل وإنزال الكتاب ليتم عليه الحجة نظيره قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[1] أو المعنى سهل له الحياة الدنيا وما يتوقف عليه، فإن الدنيا سبيل أما إى الجنة وإما إلى النار وليست بدار القرار قال رسول الله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[2] رواه البخاري من حديث ابن عمر، ورواه أحمد والترمذي وابن ماجه وزاد «واعدد نفسك من أصحاب القبور» ويناسب هذا التأويل قوله ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ عدا الإماتة من النعم لكونها موصلة إلى دار القرار قال رسول الله ﷺ: «تحفة المؤمن الموت» رواه الطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وأما كونه سبيلاً إلى النار فلفساد اختياره ولا جبر بالكلية، قال رسول الله ﷺ: «قيل لي سيد بني داراً ووضع مأدبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة وسخط عليه السيد فقال: فالله السيد ومحمد الداعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة» رواه الدارمي من حديث ربيعة الجرسي والبخاري عن جابر نحوه ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي أمر الناس بجعل الميت في القبر صيانة عن السباع وهذا نعمة أخرى صبت أكرم الإنسان ولم يجعله كسائر الحيوانات جيفة ملقاة ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾ الله بعثه من القبر ﴿أَنشَرَهُۥ﴾ أحياه بعد الموتة فإن من هو قادر على خلقه قادر على نشره من القبر وقد أخبر بذلك على لسان رسله ولولا البعث والجزاء لصار الشاكر كالكافر وذلك قبيح ﴿كَلَّا﴾ ردع عما عليه الكافر من الإنكار والكفران مع تلك الدلائل الموجبة للإيمان والنعماء المستوجبة للشكر ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ أي بعده ما علم تلك النعم الجليلة والدلائل الواضحة لم يقض إلى الآن ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾ الله من الإيمان والنعماء المستوجبة لشكر المنعم ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطف على مفهوم ما سبق أي لينظر أولاً إلى نفسه من مبدأ خلقه إلى منتها وما أنعم عليه وفيه فينظر ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كيف خلقناه ومتعناه به ﴿أَنَّا

(١) سورة الليل، الآية: ٥ ـ ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (٦٤١٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٤)، أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في قصر الأمل (٢٣٣٣).

صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾ المطر من السماء، قرأ الكوفيون بفتح همزة إنا على أنه بدل اشتمال للطعام لبيان كيفية خلقه والباقون بالكسر على الاستئناف ﴿صَبًّا﴾ مفعول مطلق للتأكيد ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ بإخراج شطأ الزرع من الأرض أو بالكراب وحينئذ إسناد الفعل إلى الله إسناد إلى السبب ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾ يعني الرطبة سميت بمصدر قضبه أو أقطعه لأنها يقضب مرة بعد أخرى وفي الصحاح القضب يستعمل في البقل وفي القاموس القضب كل شجرة طالت وبسطت أغصانها ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ وهي الحديقة المتكاثفة أشجارها كذا في القاموس ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ ما يراد بها التفكه فقط من الثمار، ومن ثم قال الفقهاء من حلف لا يأكل فاكهة لا يحنث بأكل التمر والعنب والزيتون ولأن العطف دليل المغايرة وكذا أكل ما يراد به الغذاء والدواء كالرمان ﴿وَأَبًّا﴾ أي كلأ ومرعى كذا في القاموس ﴿مَّتَٰعًا﴾ مفعول له لأنبتنا ﴿لَّكُمْ﴾ كالحب من الحنطة وغيرها ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ كالأب.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ في القاموس الصاخة صيحة بضم شدتها والمراد بها نفخة الصور، وفي الصحاح الصاخة الشدة الصوت ذي نطق وعلى هذا وصفت نفخة الصوربها مجازاً لأن الناس يصيحون بها وهذا لاشرط محذوف الجزاء والجملة متصل لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أو بقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ فعلى الأول تقديره إنها تذكرة وعظة فإذا جاءت الصاخة يختلف حال المتعظين بها وغير المتعظين وبيانه وجوه يومئذ الخ ويحتمل حينئذ أن يكون جزاءه وجوه يومئذ الخ وعلى الثاني تقديره قتل الإنسان ما أكفره فإذا جاءت الصاخة يرى جزاء كفرانه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ لاشتغاله بشأن نفسه وعلمه بأنهم لا ينفعونهم أو لبغضهم وكراهتهم لأجل كفرهم وسوء حالهم عن علي رضي الله عنه قال: «سألت خديجة ولدين ماتا لها في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ في النار فلما رأى الكراهة في وجهها قال لو رأيت مكانهما لأبغضتهما»(١)

---

(١) فيه محمد بن عثمان لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيحين. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: القدر، باب: ما جاء في الأطفال (١١٩٤٠).

الحديث رواه أحمد وتأخير الأحب للمبالغة كأنه قيل يفر المرء من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه والظرف أعني يوم يفر بدل من إذا ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾ من الناس ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بالظرف المستقر ﴿شَأْنٌ﴾ فاعل للظرف المستقر أو مبتدأ والظرف خبره ﴿يُغْنِيهِ﴾ أي يشغله عن شأن غيره صفة لشأن وهذا التعليل للفراء عن سودة زوج النبي ﷺ قالت قال رسول الله ﷺ: «يبعث الله الناس حفاة عراة غرلاً لقد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان، فقلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض فقال قد شغل الناس لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» رواه الطبراني والبيهقي والبعوث وفي الصحيحين عن عائشة نحوه وفيه قال لعائشة: «الأمر منهم يومئذ أشدّ من ذلك»[1] يعني من أن ينظر بعضهم أي بعض وأخرج البيهقي عن ابن عباس نحوه ﴿وُجُوهٌ﴾ المؤمنين أو وجوه كثيرة أو وجوه منهم أي من الناس المفهوم من كل امرىء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بما بعده ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ أي مضية من أسفار الصبح ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ وصفت الوجوه بصفة أصحابها مجازاً ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بظرف مستقر بعده ﴿عَلَيْهَا﴾ ظرف مستقر ﴿غَبَرَةٌ﴾ فاعل الظرف أو مبتدأ أي استقر عليها غبار أو كدورة والجملة خبر لوجوه ﴿تَرْهَقُهَا﴾ تعلوها وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي سواد وظلمة قال ابن عباس تغشاها ذلة قال ابن زيد فرق بين الغبرة والقترة أن القترة ما ارتفع من الغبار فلحق بالماء والغبرة ما كان أسفل في الأرض وجملة ترهقها صفة بغبرة أو خبر بعد خبر بوجوه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ يعني الذين وجوهم عليها غبرة ﴿هُمُ﴾ ضمير الفصل ﴿ٱلْكَفَرَةُ﴾ جمع كفر خبر ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ جمع فاجر صفة لكفرة أو خبر والجملة مستأنفة كأنها جواب من أصحاب تلك الوجوه والفجور شق شر الدين والديانة وكماله في الكفر، والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (٦٥٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩).

سورة التكوير

مكية هي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة رأي العين فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت»[(١)] رواه أحمد والترمذي وحسنه، ورواه البغوي من غير ذكر إذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت ﴿إِذَا الشَّمْسُ﴾ إذا شرطية والشمس مرفوعة بفعل شرط محذوف يفسره ﴿كُوِّرَتْ﴾ وكذا كل ما عطفع ليه أي لغت فذهب ضوءه وأظلمت، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس قال: أظلمت وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في كتاب في البحر والأحوال وأبو الشيخ في كتاب العظمة عنه في تلك الآيات قال يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فينفخه حتى يرجع ناراً قال بعضهم إذا ألقيت الشمس في البحر فيه انحمى وتنقلب ناراً، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مريم أن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ قال: انكدرت في جهنم وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم إلا ما كان من عيسى وأمه قلت: لعل التطبيق بين تكويرها في البحر وفي جهنم أن البحر يصير ناراً حميماً لأهل النار، وأخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة إذا الشمس كورت (٣٣٣٣).

مكوران يوم القيامة»[1] وأخرج البزارفي مسنده وزاد في النار ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ أي اقنضت وتناثرت من السماء وتساقطت إلى الأرض يقال انكدر الطير أي أسقط، قال الكلبي يمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم إلا وقع ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ عن وجه الأرض فصارت هباء منبثاً ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ أي التوق اللاتي مر على حملها عشرة أشهر جمع عشراء ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة وهي النفيس أموال العرب يكونون ملازمي أذنابهن ﴿عُطِّلَتْ﴾ تركت بلا راع أهملها أهلها لما جاء أهوال يوم القيامة أو المراد بالعشار السحايب عطلت عن المطر ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ قال أبي بن كعب معناه اجتلت وماجت بعضها في بعضها وقيل: معناه جمعت بعد البعث للقصاص بين الدواب كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾[2] وروى عكرمة عن ابن عباس حشرها موتها قال حشر كل شيء الموت غير الجن والإنس ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف والباقون بالتشديد، قال ابن عباس أوقدت فصارت ناراً تضطرم وهو قول أبي، وقال الكلبي ملئت يقال المسجود المملوء، وقال مجاهد مقاتل يعني قحم بعضها في بعض العذب والملح فصارت البحور كلها بحراً واحداً من الحميم لأهل النار، وقال الحسن وقتادة يبست وذهب ماءها فلم يبق من الماء قطرة، قلت والجمع بين الأقوال أنه يجمع البحار كلها وملئت بحراً واحد أو كورت الشمس فيها فحينئذ تحمي البحر وتصير ناراً ولم يبق من الماء قطرة بصيرورتها ناراً وماء حميماً لأهل النار، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن أبي بن كعب قال ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك إذا وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت وفزعت الإنسان والجن فتقول الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج فبينما هم كذلك إذا جاءتبهم ريح فأماتتهم، وقال البغوي روى أبو العالية عنه فذكر نحوه غير أن في رواية فانطلقوا الجن إلى البحر فإذا هي نار تأجج فبينما هم كذلك إذ انصدعت الأرض صدعة واحدة أي الأرض السابعة السفلى إلى السماء العليا فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم، وعن ابن عباس أيضاً قال: هي اثني عشر خصلة ست في الدنيا ستة في الآخرة وهي ما ذكر بعدها ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير قال: قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر بحسبان (٣٢٠٠).

(٢) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

رسول الله ﷺ في هذه الآية «الضرباء كل رجل مع قومه كانوا يعملون عمله وذلك بإذن الله ويقول وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون»، وأخرج البيهقي من النعمان بن بشير قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: وإذا النفوس زوجت قال: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان به الجنة أو النار وسمعته يقول احشروا الذين ظلموا وأزواجهم قال ضربائهم وأخرج سعيد بن منصور بلفظ يقرن الرجل الصالح مع الصالح في الجنة ويقرن الرجل السوء مع السوء في النار، وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: احشروا الذين ظلموا وأزواجهم قال: أشياعهم، وقيل: تزوجت النفوس بأعمالها وقال عطاء ومقاتل زوجت النفوس المؤمنين بالحورالعين وقرنت نفوس الكفار بالشياطين وروى عن عكرمة قال إذا النفوس زوجت أي ردت الأزواج في الأجساد ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ وهي الجارية المدفونة حية سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيودها أي يثقلها حتى تموت وكانت العرب تدفن البنات مخافة العار والفقر تبكيتاً للوائدة كتبكيت النصارى بقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾[1] أو يقال أسند الفعل إلى المؤودة مجازاً والمعنى ﴿سُئِلَتْ﴾ عنها كما في قوله: ﴿ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[2] أي مسؤولاً عنه أو المراد بالمؤودة الوائدة وقد يطلق المفعول بمعنى الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[3] والمراد بالمؤدة المؤودة لهما كما في قوله ﷺ: «الوائدة والموؤدة في النار»[4] رواه أبو داود بسند حسن عن ابن مسعود قال الوائدة هي القابلة والموؤدة لها هي الأم ولا يمكن في الحديث إلا هذا التأويل.

فائدة: الوأد كبيرة لأنه قتل النفس بغير حق وفي حكمه إسقاط الحمل بعد أربعة أشهر لتمام خلقة الجنين ونفخ الروح في تلك المدة وأقل منه وزراً إسقاط الحمل قبل أربعة أشهر لكنه حرام ولذلك تجب الغرة إجماعاً فيما ضرب بطن امرأة حبلى فسقط جنيناً كامل الخلقة أو ناقصاً إذ تصور فيها خلق آدمي هذا إذا انفصل ميتاً وأما إذا انفصل حياً فمات ففيه كمال دية الكبير، عن أبي هريرة قال: «قضى رسول الله ﷺ في جنين امرأة من بني لحيان سقط بغرة عبد أو أمة»[5] متفق عليه.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦١.
(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في ذراري المشركين (٤٧٩٤).
(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الفرائض، باب: ميراث المرأة والزوج مع الولد وغيره (٦٧٤٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: دية الجنين (١٦٨١).

مسألة:

يجوز العزل عن الأمة ولا يجوز عن الحرة إلا بإذنها لكنه يكره ملقاً لما روى مسلم عن خذامة بنت وهب أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن العزل فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوأد الخفي وهي وإذا المؤودة سئلت»[١] ووجه الجواز حديث جابر كنا نعزل والقرآن ينزل»[٢] متفق عليه وزاد مسلم فبلغ ذلك النبي ﷺ فلم ينهنا وفي رواية عنه ﷺ قال في الأمة «اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها» وفي روايتها «ما عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة»[٣] متفق عليه ووجه الاحتياج إلى الإذن في الحرة حديث عمر بن الخطاب قال؛ «نهى رسول الله ﷺ أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها»[٤] رواه ابن ماجه ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ أي المؤودة قرأ أبو جعفر بالتشديد المبالغة والجمهور بالتخفيف فيا لتاء ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ صحف الأعمال ﴿نُشِرَتْ﴾ للحساب أو فرقت بين أصحابها قراءة نافع وابن عامر وعاصم بتخفيف الشين والباقون بالتشديد للمبالغة في النشر أو لكثرة الصحف أو شدة الطائر ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ قلعت وأزيلت كما تكشط الأهاب عن الذبيحة، قلت والظاهر أن يكون هذا قبل نفخة الصعف حين كورت الشمس وانتشرت الكواكب أو عند تلك النفخة ويحتمل أن يكون بين النفختين فتطوى السماء والأرض وتبدل السماء سماء آخر وتبدل الأرض غير الأرض، قال القرطي جمع صاحب الأفصاح بين الأخبار فقال تبديل السماوات والأرض تقع مرتين إحداهما تبديل صفاتها فقط وذلك قبل نفخة الصعف فتنشر الكواكب وتخسف الشمس والقمر وتصير السماء كالمهل وتكشط عن الروس وتسير الجبال ويصير البحر ناراً وعوج الأرض وينشق إلى أن تصير الهيئة غير الهيئة ثم بين النفختين تطوى السماء والأرض وتبدل السماء بسماء أخرى ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾ قرى نافع وحفص وابن زكوان بتشديد العين والباقون بالتخفيف أي أوقدت إيقاداً شديداً لأعداء الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ أدنيت للمتقين قال الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: جواز الفعيلة وهي وطء المرضع وكراهة العزل (١٤٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: النكاح، باب: العزل (٥٢٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (١٤٤٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: العزل (٥٢١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (١٤٣٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: العزل (١٩٢٨) وإسناده ضعيف.

تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾[1] ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ مكرمة عامة في الأسباط بمعاونة المقام أي كل نفس ﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾ أي ما فعلت من خير أو شر وهذا جواب لإذا الشرطية في إذا الشمس كورت وفيما عطف عليه والمراد بذلك الزمان الزمان المتسع الشامل لجميع ما ذكرهما قبل النفخة الأولى إلى دخول الجنة.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ الكلام ها هنا كالكلام في المفتتح سورة القيامة والفاء يعني لما أنزلنا عليكم الآيات في شأن الساعة فاعلموا أنه كلام الله غير مقتول أقسم ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ الخنوس الرجوع من منتهى السير إلى مكان ابتدأ منه والمراد بها الكواكب الخمسة المسمات بالمتحيرة وهي عطارد والزهرة والمشتري والمريخ والزحل فإنها ترى سيارة من المغرب إلى المشرق ثم ترجع إلى المغرب وقد ترى ساكنة ولذلك سميت متحيرة والسبب في ذلك عند الهيئة أنها مرتكزة في أفلاك جزئية غير مجوفة تسمى تدويرات وللتدويرات حركات برأسها وحركات أعاليها على نسق أفلاكها من المغرب إلى المشرق وحركات أسافلها على عكس ذلك فالكواكب إذا كان في أعلى التدوير فتساعد الحركتين حركة التدوير وحركة الفلك الكلي يرى متحركاً إلى المشرق بسرعته وإذا كان في أسفلها فلتزاحم الحركتين أو عدم التساعد قد يرى متحركاً نحو المغرب وهو الرجوع والخنوس وقد يرى ساكناً، وأما عندنا فالكواكب كل منها في ذلك يسبحون على ما أراد الله سبحانه ولا امتناع لخرق السماوات والتئامها فحركات الخمسة المتحيرة قد تكون نحو المشرق وقد تكون نحو المغرب وقد تكون بطيئة وقد تكون سريعة كما أراد الله تعالى وجرى به عادته وحركات سائر الكواكب جرت العادة بكونها دائماً على نسق واحد، وقال قتادة الخنس هي النجوم كلها تبدو بالليل وتخنس بالنهار فتخفى فالمراد بالخنوس حينئذ الخفاء وهو

(١) سورة ق، الآية: ٣١.

لازم يعني الرجوع، وقيل: خنوسها أن يغيب قلت وعلى هذا يكون الخنس والكنس مترادفين فلا وجه للتكرار ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ في الفلك ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ والكنوس أن تأوى الأرنب والظبي في مكانها والمراد ها هنا بالكنس اختفائها عند غروبها أو عند المحاق قلت: ويحتمل أن يقال المراد بمكانها مستقرها تحت العرش، عن أبي ذر قال: قال: رسول الله ﷺ: حين غربت الشمس «أتدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش»[1] الحديث ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ قال الحسن أقبل بظلامه وقال أدبر وهو من الأضداد ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أي بدأ أوله، وقيل امتد ضوئه وارتفع جواب القسم ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ من حيث إنه رسول يعني ليس بمقول محمد عليه السلام بل هو قول مرسل وهو الله سبحانه والمراد بالرسول جبرائيل أو محمد ﷺ ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله صفة رسول ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ أن المراد جبرائيل فمن قوته أنه اقتلع قريات قوم لوط ومن الماء الأسود حملها على جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها وأنه صاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين وأنه يخبط من السماء إلى الأرض ويصعد في أسرع من الطرف وأن المراد به محمد ﷺ فهو ذو قوة في الجذب إلى الله من الإرشاد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وما آمن قوم إلا قليل ولبث محمد ﷺ في أمته ثلاثاً وعشرين سنة وانتشر دينه في الآفاق كان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً وكان معه حجة الوداع مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً وأربعة وعشرين ألفاً من الصحابة وأنه صعد من السماء السابعة وإلى ما لم يستطع جبرائيل الصعود إليه، ثم هبط الأرض في أقل من ساعة وأنه رأى ربه ولم يستطع أحد غيره فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صَعِقاً ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي الله سبحانه الظرف متعلق بما بعده ﴿مَكِينٍ﴾ ذي مكانة وجاه ومنزلة ﴿مُّطَاعٍ﴾ للعالمين قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2] ﴿ثَمَّ﴾ أي عند ذي العرش ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي والظرف أعني ثم الظاهر أنه متعلق بأمين ويجوز أن يكون متعلق بمطاع يعني في الملأ إلا علي قال البغوي من إطاعة الملائكة إياه يعني جبرائيل أنهم فتحوا أبواب السماوات ليلة المعراج بقوله لرسول الله ﷺ وفتح خزنة الجنة أبوابها، قلت: وهذا بعينه إطاعة لمحمد ﷺ ويحتمل أن يراد بالإطاعة أن الأحكام الإلهية تنزل أولاً عليه ثم بواسطته تصل تلك الأحكام لى غيره من الملائكة، عن النواس بن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر بحسبان (٣١٩٩).

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.

سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله تعالى فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل فيكلمه الله وحيه بما أراد ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرائيل فيقول جبرائيل قال: الحق وهو العلي الكبير، قال فيقول كلهم مثل ما قال: جبرائيل بالوحي حيث أمره الله»(١) وهذا يدل على كون جبرائيل مطاعاً وأما كون محمد ﷺ مطاعاً في الملائكة فوجه ذلك أن الحقيقة المحمدية عند أهل التحقيق هو التعين الأولى بفيوض الوجود ومراتب القرب ومنها مرتبة كونه يوحي إليه كليم الله لا يصل في أحد إلا بتوسط الحقيقة المحمدية وهذا أمر كشفي ويشهد من النصوص قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾(٢) وقوله ﷺ: «أما وزيراي في السماء فجبرائيل وميكائيل ووزيراي في الأرض أبو بكر وعمر»(٣) فبجرائيل مطاع بالطريق الأولى ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعني محمد ﷺ عطف على أنه فهو أيضاً جواب للقسم فإن كان المراد بالرسل فيما سبق محمد ﷺ فوضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على أنه صاحبكم منذ أربعين سنة قبل ذلك لم يظهر منه إلا وفور العقل وكماله فالحكم فيه ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ مكابرة أو جنون ففي هذا الكلام رد لقول الكفار افترى على الله كذباً أم به جنة ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ الضمير المرفوع راجع إلى صاحبكم محمد ﷺ بالاتفاق والضمير المنصوب إما راجع إلى ذي العرش فعلى هذا قوله تعالى: ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ ظرف مستقر حال من الضمير المرفوع والمعنى أنه رأى محمد ذا العرش ليلة المعراج حال كون محمد بالأفق للعالم على منتهى السماوات السبع، قال البغوي روينا في قصة المعراج عن شريك بن عبد الله عن أنس قال دنى جبار رب العزة فتدلى كان حتى قاب قوسين أو أدنى وهو رواية أبي سلمة عن ابن عباس وكذا قال الضحاك، والقائلون بهذا القول اختلفوا فقال بعضهم جعل بصره في فؤاده فرآه بفؤاده استنباطاً من قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾(٤) وهذا قول ابن

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه في الأسماء والصفات والطبراني.
انظر: كنز العمال (٣٠٢٨).
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٦٨٩).
(٤) سورة النجم، الآية: ١١.

عباس، روى مسلم عن أبي العالية عنه ما كذب الفؤاد ما رأى ولقد رآه نزلة أخرى قال رآه بفؤاده مرتين وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة قالوا: رأى محمد ربه وروى عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة واصطفى موسى بالكلام واصطفى محمد بالرؤية وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»[1] رواه مسلم، قلت: ويحتمل أن يراد بالأفق المبين والأفق الأعلى منتهى درجات سير السالكين إن أقصى حقائق العابدين وهي الحقيقة الأحمدية المعبر فيها بالمحبوبية الصرفة وراء ذلك مرتبة اللاتعين ولا مساغ للسير والسلوك في مرتبة اللاتعين والسير في تلك المرتبة العليا السير النظري فحسب كذا قال المجدد، وقال جمهور المفسرين الضمير المنصوب راجع إلى رسول كريم والمراد بالرسول جبرائيل، قال قتادة ومجاهد الأفق المبين هو الأفق الأعلى من ناحية المشرق، روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال: قال: رسول الله ﷺ لجبرائيل: «إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء قال: لن تقوى على ذلك قال بلى قال: فأين تشاء أن أتخيل لك قال بالأبطح قال: لا يسعني قال في منى قال لا يسعني قال فبعرفات قال لا يسعني ذلك قال بحراء قال: يسعني فواعده فخرج النبي ﷺ للوقت فإذا هو بجبرائيل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض فلما رآه النبي ﷺ كبر وخر مغشياً عليه قال فتحول جبرائيل في صورته فضمه إلى صدره، وقال: يا محمد لا تخف فكيف لك لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابع وإن العرش لعال كأهله وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله عز وجل حتى يصير مثل يعني العصفور حتى ما يحمل عرش ربك إلاعظمة» ومن القائلين بهذا القول عائشة ﵂. روى البخاري في صحيحه وغيره أنها كذبت من قال: رأى محمد ربه مستدلة بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾[2] الآية، والفقه في الباب أن المثبتين للرؤية أولي من قولها وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[3] لا ينفي الرؤية في الآخرة إجماعاً فكذا في ليلة المعراج حين خرج النبي ﷺ ورأى الجنة والنار وما ذكر ابن عباس وعائشة قصة رؤية النبي ﷺ جبرائيل على صورته حق لكن لا يستلزم أن يكون

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام نور أنى أراه» (١٧٨).

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

المراد بالآية تلك القصة كيف وسوق الكلام لبيانفضل رسول الله ﷺ وبيان كماله ورؤية جبرائيل وهو مفضول من النبي ﷺ بالإجماع ليست من الفضائل كيف وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ يدل على كمال قربه والترقي منه إثبات رؤية الله دون رؤية الجبرائيل ولو كان عند ذي العرش صفة جبرائيل ورؤية جبرائيل صفة محمد عليه السلام يلزم الانعكاس الأمر في الفضل والله تعالى أعلم ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي على ما يخبره من ما يوحى إليه ﴿بِضَنِينٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر والكسائي بظنين بالظاء أي ليس هو بمتهم يعني لا يجوز أن يتهم والباقون بالضاد أي ليس هو يخيل عن تبليغ ما يوحى إليه وتعليمه ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ﴾ أي القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ استرق سمعه فألقاه على وليه الكاهن رد لقول الكفار أنه كاهن، هذه الجملة وما عطف عليه من الجمل السابقة جواب للقسم معطوفات على أنه لقول رسول كريم ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ الفاء المسببة والاستفهام للإنكار على ذهابهم إلى الباطل فيما قالوا إنه شاعر تقوله أو مجنون أو كاهن، قال الزجاج أي طريق يسلكون أبين من هذه الطريقة التي بنيت لكم، ثم بين ما هو كأنه في جواب سائل يقوله فما هو ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ في القاموس الذكر بالكسر الحفظ الشيء كالتذكار والشيء الذي يجري على اللسان والصيت والثناء والشرف والصلاة والدعاء وكتاب فيه تفصيل الذين ووضع الملة والمعنى الأخير ظاهر ها هنا لا غبار عليه ويمكن الحمل على معان أخر أيضاً فإن القرآن ذكر الله وحفظ ما يجب حفظه وشيء ينبغي أن يكون جارياً على اللسان دائماً أو غالباً وثناء لله تعالى وصلاة له وشرف للإنسان ودعاء له ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عموماً فإن النبي ﷺ مبعوث إلى كافة الأنام الإنس والجن بل هو رحمة للعالمين وفيوض القرآن شامل للملائكة أيضاً يدل عليه قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾[1] وروى الحاكم في المستدرك عن جابر أنه قال: لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ قال: لقد سبح هذه من الملائكة فسدوا الأفق ثم خصه وقال ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أي القرآن لمن يتبع الحق ويستقيم عليه خصوصاً من حيث أنهم هم المنتفعون به بدل بعض من العالمين والاستقامة لفظ جامع لجميع الأحكام، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك وفي رواية غيرك قال عليه السلام: «قل آمنت بالله فاستقم»[2] رواه مسلم، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن

---

(١) سورة عبس، الآية: ١٥ ـ ١٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في جامع أوصاف الإيمان (٣٨).

سليمان بن يسار قال: لما نزلت لمن شاء منكم أن يستقيم قال أبو جهل جعل الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم تستقم فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامة على الحق ﴿إِلَّآ﴾ وقتل ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ شئكم واستقامتكم ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه رب كل شيء وخالق كل شيء من الأعيان والأعراض وأفعال العباد وغير ذلك حتى مشيتكم فمن شاء الاستقامة واستقام فذلك من فضل الله ونعمه وأخرج ابن أبي حاتم من طريق بقية عن عمر بن محمد عن زيد بن مسلم عن أبي هريرة مثل ما روى عن سليمان وأخرج ابن المنذر من طريق سليمان عن القاسم بن مخيمرة نحوه والله أعلم بالصواب.

سورة الانفطار

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١﴾ انشقت ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢﴾ تساقطت متفرقة ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ فتح بعضها في بعض واختلط العذب بالملح فصار الكل بحراً واحداً ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ قلب ترابها وأخرج موتاها ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ جواب إذا وهذا نظير ما مر في إذا الشمس كورت إلى قوله علمت، قيل: معناه ما قدمت من عمل صالح وسيء ما أخرت من سنة حسنة أو سيئة والمعنى ما قدمت أي ضيعت وما أخرت أي تركت من العمل وقيل: ما قدمت من الصدقات وأخرت من الزكاة، وقيل: معناه بل قدمت الدنيا على الآخرة أو بالعكس وقد مر نظيره قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾(١) ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ﴾ أي ما خدعك وسوّل لك الباطل غروراً ملصقاً ﴿بِرَبِّكَ﴾ موجباً للجرأة على عصيانه وترك ما أمر به ﴿الْكَرِيمِ﴾ الصفوح جملة يا أيها الإنسان معترضة ذكر توبيخاً على الإساءة في أعمالهم المفهوم من قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ قال نزلت في الوليد بن مغيرة كذا قال البغوي، وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنها نزلت في أبي بن خلف، وقال الكلبي نزلت في الأسيد بن كلدة ضرب النبي ﷺ فلم يعاقب الله عز وجل فأنزل الله تعالى هذه الآية يقول ما الذي غرك بربك الكريم التجاوز عنك أو لم يعاقبك عاجلاً بكفرك وصفه بالكريم لأنه منشأ غروره

(١) سورة القيامة، الآية: ١٣.

وبه يغره الشيطان فإنه يقول له إن شئت فربك لايعذب أحداً ولا يعاجل في العقوبة وهو المعنى من قول مقاتل غره عفو الله حين لم يعاقبه في أمره، وقال السدي غره رفق الله به والاستفهام للإنكار ولا يجوز ذلك الغرور بكرمه وعدم تعجيله بالعقوبة إن لا يقتضى إهمال الظالم مطلقاً وتسوية الموالي والمعادي فكيف قد انضم معه صفات أخر من القهر والانتقام وغيره وفيه مبالغة في الإنكار على الكفر فإن كثرة كرمه يقتضي أن يشكر ولا يكفر ويستدعي الجد في الطاعة لا الانهماك في عصيانه اغتراراً بكرمه، وقال بعض أهل البشارة إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته كأنه تفه لإجابته معنى بقول غر في الكريم وهو المعنى مما قال يحيى بن معاذ لو أقامني بين يديه فقال يا يحيى ما غرك بي قلت: غرني برك بي سابقاً وآنفاً، وقال أبو بكر الوراق لو قال لي ما غرك بربك الكريم لقلت غرني كرم الكريم، قال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا يسخر الله به يوم القيامة فقال: يا ابن آدم ما غرك بي أي ابن آدم ماذا عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين قال عطاء تأويل الآية ما غرك بربك وقطعك وأشغلك عنه إلى نفس بئس للظالمين بدلاً. حكي أن امرأة رفعت إلى قاض أن زوجها نكح عليها امرأة أخرى فقال القاضي لا سبيل لك بالاعتراض عليه فإن الله تعالى أباح للرجال ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فقالت الضعيفة أيها القاضي لولا منعني الحجاب والحياء لبرزت حسني لك وسألتك بأن من كان له في الجمال والحسن مصاحباً مثلي هل يجوز له أن يشتغل عنه بغيره فسمع قولها رجل من أهل القلوب فصاح وخر مغشياً عليه فلما أفاق قال سمعت الهاتف يقول ألم تسمع قول الضعيفة ولولا حجاب الكبرياء والعظمة لأبرزت لكم من الجلال والجمال الذي لا يسعه المقابل وسألتكم أنه من استطاع الاشتغال بمثلي فهل يجوز الاشتغال بغيري ومن مثلي وأين يكون مثلي فليس يكون فاطلبني تجدني عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله عز وجل بوجهه فإذا التفت قال يا ابن آدم إلى من تلتفت إلى من هو خير مني أقبل إليّ فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك فإذا التفت الثالثة صرف الله تبارك وتعالى عنه وجهه» رواه البزار ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ من تراب ثم من نطفة بعد ما لم يكن شيئاً ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي فجعلك بشراً سوياً مستوى الخلق وتسويته جعل أعضائه سليمة معدة لمنافعها ﴿فَعَدَلَكَ﴾ قرأ الكوفيون بالتخفيف أي فصرفك وأمالك إلى أي صورة شاء أو صرفك عن خلقه غيرك حتى تميزت وفارقت عن سائر الحيوانات أو صرف طبعة بعض أجزائك إلى بعض فكسر حرارة الصفراء ويبوستها ببرودة البلغم ورطوبته وبالعكس ويبوسة السوداء وبرودتها برطوبة الدم وحرارته حتى اعتدلت وصرت أعدل

الحيوانات مزاجاً وقرأ الباقون بالتشديد أي جعل بنيتك متناسبة الأعضاء لعدلته معدة لا يستعدها من القوي ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ ما مزيدة لتأكيد التنكير والتنكير للتكثير ﴿مَّا شَآءَ﴾ صفة لصورة ركبك، قال مجاهد والكلبي ومقاتل في أي شبيه من أب أو أم أو خال أو عم وجاء في الحديث أن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر بينه وبين آدم ثم قرأ في أي صورة ما شاء ﴿رَكَّبَكَ﴾ رواه ابن جرير والطبراني بسند ضعيف من طريق موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن جده عنه ﷺ. قوله: في أي صورة إما متعلق بركبك أو ظرف مستقر حال من مفعول ركبك وفيه معنى الشرط والجزاء والجملة بيان لعدلك ومن ثم لم يعطف الموصول مع صلاته صفة أخرى لربك مقررة للربوبية مبينة للكرم منبه على أن من قدر على ذلك أولى أن يقدر عليه ثانياً مؤكدة للإنكار والتوبيخ على الغرور والكفر فإن من هذا شأنه لا يجوز كفرانه ﴿كَلَّا﴾ ردع على الاغترار بكرم الله تعالى ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ بالإسلام أو بالجزاء إضراب عن الاغترار بكرم الكريم يعني ليس أمركم أيها الناس مقتصراً على الإقرار بل مع ذلك تكذبون بالدين ويحتمل أن يكون إضراباً عن مفهوم علمت نفس ما قدمت وأخرت أي ما قدمت من العصيان وأخرت من الطاعة فإن حاصل المعنى أنكم تعصون بل تكذبون ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ أي والحال أن عليكم ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾ لأعمالكم وأقوالكم من الملائكة ﴿كِرَامًا﴾ على الله ﴿كَٰتِبِينَ﴾ صحف الأعمال للجزاء ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من خير وشر عقب الحافظين بتلك الصفات تعظيماً لهم وتنبيهاً على أنه لا يفوت من علمهم شيء من الأعمال والأقوال فيه توبيخ على تكذيبهم وتحقيق لما يكذبون به وروى يتوقعون من التسامح والإهمال.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ الذين بروا وصدقوا بإيمانهم باجتنابهم عما نهى الله عنه من العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة والأعمال القبيحة وامتثالهم أوامره، وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ﴿لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ الذين شقوا ستر الدين والديانة بالكفر والمعاصي والفجر الشقي ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ جملة إن الأبرار إلى آخر السورة متصل بقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ فإن في هذا الكلام بيان لا يعلم كل نفس من خير أو شر علمه بإدراك جزائه،

روي أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المدني ليت شعري ما لنا عند الله؟ قال: أعرض عملك إلى كتاب الله فإنك تعلم مالك عند الله قال: فأين أجد في كتاب الله؟ فقال؟ عند قوله إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم قال سليمان فأين رحمة الله قال قريب من المحسنين انتهى ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء ﴿وَمَا هُمْ﴾ الضمير إلى بعض الفجار أعني الكفار أو المراد بالفجار الكفار ﴿عَنْهَا﴾ أي عن الجحيم ﴿بِغَآئِبِينَ﴾ لخلودهم فيها أو المعنى ما هم كانوا عنها غائبين قبل ذلك أو كانوا يجدون سمومها في القبور عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[1] متفق عليه، وفي حديث البراء بن عازب عن رسول الله ﷺ ذكر حال الكافر في القبر «يسأل عن دينه فيقول هاه هاه لا أدري فقال فينادي من السماء أن كذب فأفرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار» ثم عظم ذلك اليوم فقال ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾ الاستفهام للتعجب والتوبيخ يعني أنه يوم عظيم البلاد شديد غاية الشدة لا تدري عظمته وشدته حيث لا يدرك كنه أمره دراية دار ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ تأكيد للتفخيم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر وبالرفع على أنه بدل من اليوم في ما يوم الدين أو خبر مبتدأ محذوف أي هو والباقون بالنصب على أنه بدل من اليوم في يصلونها يوم الدين أو متعلق بمحذوف أي يجزى كذلك في يوم لا تملك نفس أو اذكر يوم لا تملك أو هو مبني على الفتح لإضافة إلى غير التمكن ومحله الرفع ﴿نَفْسٌ﴾ أي أحد ﴿لِنَفْسٍ﴾ يعني كافرة كذا قال مقاتل ﴿شَيْـًٔا﴾ من المنفعة ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ وحده لا يملك الله في ذلك اليوم أحداً شيئاً من الأمر كما ملكهم في الدنيا وأما الإذن في الشفاعة للمؤمنين فليس بتمليك أويقال الأمر يومئذ عياناً وفي زعم كل أحدكما كان الأمركله لله في الحقيقة وفي زعم أهل البصيرة والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: سكرات الموت (٦٥١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٦٦).

سورة المطففين

مكية وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

عن ابن عباس قال لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى ويل للمطففين فأحسنوا الكيل بعد ذلك[1] روا الحاكم والنسائي وابن ماجه بسند صحيح، وقال السدي قدم رسول الله ﷺ المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فأنزل الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ والطف الحقير والمراد بالمطففين ما بين بقوله ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟﴾أي أخذوا الكيل أو اتزنوا ولم يذكره اكتفاء بذكر الوزن في القرنية الثانية ولعل الكيل كان هو الغالب في الاستعمال ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ متعلق بقوله اكتالوا أو بقوله ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ وقع على موضع من تقديره إذا اكتالوا من الناس يستوفون منهم للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس أو أن اكتيالهم بتحامل فيهم عليهم، قال الفراء من يتعاقبان في هذه الموضع فإذا اكتلت عليك كأنه قال أخذت ما عليك وإذا قال اكتلت منك فكأنه قال استوفيت منك ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ الضمير المنصوب راجع إلى الناس أي كالوهم أو وزنوهم حذف الجار وأوصل الفعل روى التقدير كالوا مكيلهم فحذف المضاف وأقيم مضاف إليه مقامه وليس تأكيد المتصل

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: التوقي في الكيل والوزن (٢٢٢٣).

بالمنفصل إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والإعطاء لا في المباشرة وعدمها وأيضاً يأبى يأبي عنه الخط فإنه يستدعي عن إثبات ألف بعد الواو ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي ينقصون الكيل والوزن يقال خسر الميزان وأخسره وسمى هذا العمل بالتطفيف لأن ما يبخس في الكيل والوزن لا يكون إلا حقيراً وفيه إيماء إلى أن بخس الحقير موجب للويل والعذاب فبخس الكثير بالطريق الأولى قال رسول الله ﷺ: «خمس بخمس ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغيره ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيم الموت ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»[1] رواه الحاكم من حديث بريدة، ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رواه الطبراني من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ولا فشا الربا في قوم إلا كثر فيهم الموت ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ولا حكم قوم بغير حق إلا فشا فيهم الدم قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو» رواه مالك موقوفاً والختر الغدر، قلت: وقطع الرزق بالتطفيف قد يكون بجعله فقيراً لا يقدر على شيء، يكون بمنع الرزق عنه مع قدرته عليه فلا يقدر الأكل منه في حقه كما في البقالين من ديارنا، قال البغوي كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول اتق الله أوف الكيل والوزن فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى أن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ ذكر الظن مكان اليقين إيماء إلى أن من كان يظن ذلك ينبغي أن لا يرتكب موجبات تلك الشدائد فكيف من يستقين والاستفهام للإنكار وفيه تعجيب من مآلهم وتوبيخ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المطففين فاعل ليظن ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ قام مقام المفعولين ليظن ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ متعلق بمعوثون وللتعليل أي لحساب يوم عظيم أو بمعنى في يوم عظيم وهو يوم القيامة عظمه لعظم ما يكون فيه، أخرج ابن المبارك عن الحسن قال لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى لخشي أن لا ينجو من عظمة ذلك اليوم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ من القبور منصوب يبعوثون على الظرفية أو بدل من يوم عظيم وفتحه على البناء لإضافته إلى غير متمكن ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لحسابه وجزائه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين حين يغيب

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي، لينه الحاكم وبقية رجاله موثوقون وفيهم كلام.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الزكاة، باب: فرض الزكاة (٤٣٤٦).

أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[١] متفق عليه وأخرج الحاكم مثله عن أبي سعيد الخدري، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى آذانهم»[٢] وأخرج الطبراني وأبو يعلى وابن حبان عن ابن عباس إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة حتى يقول يا رب ارحمني ولو إلى النار، وأخرج الحاكم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العرق ليلجم الرجل في الموقف حتى يقول: يا رب إرسالك لي إلى النار أهون عليّ مما أجد وهو يعلم ما فيها من شدة العذاب» أخرج البيهقي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ قال بلغني أن كعباً كان يقول يقومون مقدار ثلاثمائة عام، وأخرج مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى يكون منهم مقدار ميل» قال سليم بن عامر فوالله ما أدري ما يعني بالميل الأرض أم الميل الذي يكحل به العين؟ فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبه ومنهم من يكون إلى ركبته ومنهم من يكون إلى حقونه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه» وأخرج أحمد والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي عن عقبة بن عامر نحوه، وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة الباهلي عنه ﷺ وفيه ويزاد في حرها كذا وكذا تغلى منها الهوام كما تغلى القدور، وأخرج أحمد والطبراني بسند جيد عن أنس رفعه قال لم يلق ابن آدم شيئاً منذ خلق الله أشد عليه من الموت وهو أهون مما بعده وإنهم ليلقون من هول ذلك اليوم شدة حتى يلجمهم حتى أن السفن لو أجريت لجرت، وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال يشتد كرب ذلك اليوم حتى يلجمهم الكافر العرق قبل الحساب قيل له: فأين المؤمنين؟ قال: على كراسي من ذهب ويظلل عليهم الغمام وأخرج هناد عن ابن مسعود نحو هذا كله وفيه «ما طول ذلك اليوم عليهم أي على المؤمنين إلا كساعة من نهار» وأخرج هناد وابن المبارك عن سلمان قال: تدني الشمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة قاب قوسين أو قوسين ويعطى حر عشر سنين وليس أحد من الناس عليه يومئذ إلى خرقة ولا يرى عورة مؤمن ولا مؤمنة ولا يجد حرها مؤمن ولا مؤمنة، وأما الكافر فيطبخهم طبخاً حتى يسمع لأجوافهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المطففين (٤٩٣٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة يوم القيامة (٢٨٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾ (٦٥٣٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة يوم القيامة (٢٨٦٣).

عق عق ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن التطفيف وتم الكلام، وقال الحسن: كلا ابتداء يتصل بما بعده بمعنى ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ يعني صحف أعمالهم التي كتبتها الحفظة الكرام والمراد بالفجار الكفار ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ مشتق من السجن بمعنى الحبس في القاموس السجين كالسكين الحبس الدائم الشديد قال الأخفش فعيل من السجن كما يقال فسيق وشريب معناه لفي حبس شديد، وقال عكرمة لفي سجين أي في خسأ وضلال لما كان كتاب الفجار في أي ما في الكتاب من الأعمال موجباً لكونهم في الحبس والخساء والضلال أسند ذلك إلى الكفار مجازاً والظاهر من الأحاديث والآثار أن السجين اسم موضع في كتاب الفجار كذا في القاموس، وكون الكتاب في ذلك الموضع بأن يوضع صحف أعمالهم هناك أو يكتب هناك تاب جامع الصحف أعمال الفجار من الثقلين ووجه تسمية ذلك الموضع بالسجين أن هناك يحبس أرواح الكفار أجمعين وذلك الموضع هو الأرض السابعة أو تحت الأرض السابعة، أخرج ابن مندة والطبراني وأبو الشيخ عن حمزة بن حبيب مرسلاً قال: «يسئل رسول الله ﷺ عن أرواح المؤمنين؟ فقال: في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت قالوا: يا رسول الله وأرواح الكفار؟ قال: محبوسة في سجين» وروى ابن المبارك والحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا وابن مندة عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال: نفس الكافر في سجين، قال البغوي قال عبد الله بن عمر وقتادة ومجاهد والضحاك سجين هي الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار قلت: كذا أخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر روى البغوي بسنده عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «سجين أسفل سبع أرضين وعليّون في السماء السابعة تحت العرش» وقد ورد في حديث طويل عن البراء بن عازب مرفوعاً في ذكر موت المؤمنين وموت الكفار فذكر في الكفار «أنه لا يفتح لهم أبواب السماء فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روح طرحاً» الحديث أخرج أحمد وغيره، وذكر البغوي قول شبرمة بن عطاء جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: أخبرني عن قول الله عز وجل (إن كتاب الفجار لفي سجين)فقال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ثم تهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين وهي موضع جند إبليس فيخرج لها من سجين من تحت جند إبليس رق فيرقم ويختم ويوضع تحت جند إبليس لمعرفتها الهلاك بحساب يوم القيامة، وقال الكلبي هي صخرة تحت الأرض السابعة السفلى خضراء خضرة السماء منها يجعل كتاب الفجار تحتها وروى عن ابن نجيح عن مجاهد قال سجين صخرة تحت الأرض السفلى تقلب فيجعل كتاب الفجار فيها وقال

البغوي جاء في الحديث الفلق جب في جهنم مغطى والسجين جب في جهنم مفتوح، قلت: ويمكن الجمع بينهما أعني بين كون السجين تحت الأرض السابعة وكونه في جهنم أن جهنم تحت الأرض السابعة السفلى أخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي من طريق أبي عن عبد الله قال: الجنة في السماء السابعة والنار في الأرض السابعة السفلى، وأخرج البيهقي في الدلائل عن عبد الله بن سلام الجنة في السماء والنار في الأرض، وأخرج ابن جرير في تفسيره عن معاذ قال: سئل رسول الله ﷺ من أين يجاء بجهنم يوم القيامة؟ قال: يجاء بها من الأرض السابعة بها ألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك فإذا كان من العباد على مسيرة ألف سنة زفرت زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول رب نفسي نفسي ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨﴾ تفخيم وتهويل قال الزجاج ليس ذلك مما كنت تعلمها أنت ولا قومك ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾ أي مكتوب فيه أعمالهم ثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى حتى يجازوا به أو المعنى معلم يعلمه من رآه أنه عرف لا خير فيه، وقيل: معناه مختوم بلغة حمير قال البغوي ليس هذا تفسير للسجين بل هو بيان الكتاب المذكور أنه كتاب الفجار وقال البيضاوي هذا تفسير للسجين لقب به الكتاب لأنه سبب للحبس فقال: هذا ظرفية السجين الكتاب لكونه كتاباً جامعاً لكتب الفجار من الثقلين والظاهر أن السجين فيه مقر أرواح الكفار ومقر صحف أعمالهم وفي الكلام حذف مضاف أي في السجين أي ما كتاب سجين أو في كتاب مرقوم أي محل كتاب مرقوم بالشر ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ بالحق ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾ صفة موضحة أو ذامة أو مخصصة أو بدل من المكذبين وجملة ويل يومئذ الخ معترضة للذم، قلت: ويحتمل أن يكون في محل الرفع من مرقوم بمعنى رقم فيه ويل يومئذ الخ أو صفة الكتاب أي كتاب موجب للويل والتأويل الأول أظهر من حيث اللفظ وللأخيرين من حيث المعنى لأن كونه كتاباً مرقوماً ليس من خصائص كتاب الفجار بل قيل مثل ذلك في كتاب الأبرار أيضاً يتصور كونه جواباً لقوله ما سجين ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ أبي بيوم الدين ﴿إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ مجاوز عن الحد في الجهل وتقليد الآباء الجهلة حتى أنكر قدرة الله على الإعادة ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في الشهوات اشتغل بها عما ورائها وحمله على الإنكار لما عداها ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني القرآن شرط جزائه ﴿قَالَ﴾ من فرط جهله وغفلته عن كونه معجزاً أو من غباوته وإعراضه عن الحق تعنتاً ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي والأساطير جمع أسطوراً أو أسطاراً أو أسطر بمعنى الأحاديث التي لا نظام بها في القاموس وفي الصحاح أساطير الأولين أي شيء كتبوه كذباً، والجملة الشرطية صفة بعد صفة لمعتد لبيان أنه لا

ينفعه من الأدلة العقلية والنقلية شيء والجملة ما يكذب به معترضة ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن التكذيب وعما قالوا، وقال مقاتل معناه أي لا يؤمنون ﴿بَلۡۜ﴾ إضراب عن الردع ينفي قابلية قلوبهم عن درك الحق وتميزه من الباطل يسكت حفص ها هنا سكتة ويدغم غيره ﴿رَانَ﴾ قال أبو بكر وحمزة والكسائي فتح الراء والباقون بتفخيمها ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ والرين الغلبة يقال ران الخمر على قلبه إذا غلبه عليه سكره والمعنى غلب على قلوبهم ظلمات ما كانوا يكسبون من المعاصي حتى عمى قلوبهم عن التميز بين الحق والباطل، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب وفزع واستغفر صقل قلبه منها وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذا لكم الران الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾»[1] رواه البغوي وكذا أخرج أحمد والترمذي وصححه وأحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وفي بعض الروايات «أن العبد كلما أذنب ذنباً» الحديث ولفظ المؤمن يدل على شدة السوداء قلب الكافر بطريق الأولى ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن كسب المعاصي الموجبة للرين أو هو بمعنى حقاً لتحقيق الرين قال يريد أنهم لا يصدقون ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي الكفار ﴿عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم الدين يوم يرى الله سبحانه المؤمنون ﴿لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ لحجب ظلماتهم الناسبة عنهم فلا يرون الله سبحانه كما كانوا لا يرون الحق من الباطل في الدنيا، قال الحسن لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم لزهقت أنفسهم في الدنيا سئل مالك عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأولياءه حتى رأوه، قال الشافعي في الآية دلالة على أن أولياء الله يرون الله ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد كونهم محجوبين عن رؤية الله ﴿إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ﴾ أي لداخلوا ﴿ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ﴾ يقول لهم خزنة جهنم ﴿هَٰذَا﴾ هذا العذاب.

﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أن التطفيف تكرير للأول ليعقب وعد الأبرار كما عقب وعيد الفجار إشعاراً بأن التطفيف فجور كما أن الإيفاء بر أو ردع عن تكذيب العذاب أو هو بمعنى حقاً وقال مقاتل معناه لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ويل للمطففين (٣٣٣٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب (٤٢٤٤).

﴿النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قال بعض أهل المعاني هو علو وشرف بعد شرف ولذلك جمع بالواو والنون وقال الفراء اسم موضع على صيغة الجمع لا واحد له من لفظ كعشرين، وقال بعض المحققين هو منقول من جمع على وزن فعيل من العلو وقد مر حديث البراء المرفوع عليين في السماء السابعة تحت العرش وفي الحديث البراء الطويل في ذكر الموت المؤمنين والكفار ذكر في نفس المؤمن «إنه يصعد بها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوا الأرض»[١] الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وغيرهم من طرق صحيحة، وقال ابن عباس هو يعني عليين لوح زبرجد خضراء معلق تحت العرض أعمالهم مكتوبة فيها ومن ها هنا قالوا: هو كتاب جامع الأعمال الخير من الملائكة ومؤمني الثقلين، وقال كعب وقتادة هو قائمة العرش اليمنى، وقال عطاء عن ابن عباس هو الجنة وقال عطاء والضحاك هو سدرة المنتهى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ الكلام فيه كما مر في نظيره ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ صفة لكتاب كما كان ويل للمكذبين صفة هناك والمقربون، قال البغوي يعني الملائكة قلت وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء أيضاً فإن هناك لعزها كما أخرج مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أرواح الشهداء عند الله في حواصل طير خضر تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت تأوي إلى قناديل تحت العرش»[٢] وكذا روى سعيد بن منصور عن ابن عباس وتقي بن مخلد عن ابن أبي سعيد الخدري وروى أبو الشيخ عن أنس قال: يبعث الله شهداء من حواصل طير بيض كانوا في قناديل معلقة بالعرش، وأخرج ابن مندة عن ابن شهاب بلاغاً بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر المعلقة بالعرش تغدوا ثم ترجع إلى رياض الجنة يأتي ربها سبحانه وتعالى كل يوم يسلم عليه وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال هي يعني أرواح الشهداء طائر خضر في قناديل الحديث، وأخرج البخاري عن أنس أنه قال لما قتل حارثة قال رسول الله ﷺ: «إنها جنان وإنه في

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الجنائز، باب: السؤال في القبر (٤٢٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (١٨٨٧).

الفردوس الأعلى»(١) وقال الله تعالى في حبيب نجار ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾(٢) الآية ولا منافاة بين كونهم في الجنة وكونهم تحت العرش في قناديل لأن العرش بمنزلة السماء للجنة، قلت: وهذا الحكم غير مختص بالشهداء فإن الأنبياء والصديقين أعلى منهم منزلة وقد ورد في الحديث بلفظ المؤمنين مطلقاً، أخرج مالك والنسائي بسند صحيح عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر المتعلقة في شجرة الجنة حتى ترجع إلى جسده يوم القيامة»(٣) وكذا أخرج أحمد والطبراني عن أم هانىء عنه ﷺ قال: يكون النسم طيراً لتعلقه بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسده، وأخرج ابن عساكر عن أم بشر امرأة أبي معروف نحوه والمراد في تلك الأحاديث الكاملين منهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ وقد ورد في بعض الأحاديث أن مقر أرواح المؤمنين في السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم في الجنة أخرجه أبو نعيم بسند ضعيف عن أبي هريرة وأخرج أيضاً عن وهب بن منبه أن الله تعالى في السماء السابعة داراً يقال لها البيضاء تجتمع فيها أرواح المؤمنين وفي بعض الأحاديث إذا أخرج من الجسد كان بين السماء والأرض رواه سعيد بن منصور عن سلمان وروى ابن المبارك والحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا وابن مندة عن سعيد بن المسيب عن سلمان أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت ونفس الكافر في سجين وفي هذا الحديث حكاية عن حال المؤمين على تفاوت درجاتهم، قال الشعبي في بحر الكلام الأرواح على أربعة أوجه أرواح الأنبياء تخرج من جسدها وتصير مثل صورتها المسك والكافور وتكون في الجنة تأكل وتشرب وتنعم وتأوي بالليل إلى قناديل معلقة بالعرش، وأرواح الشهداء تخرج من جسدها ويكون في أجواف طير خضر في الجنة تأكل وتشرب وتنعم وتأوي بالليل إلى قناديل معلقة بالعرش وأرواح المطيعين من المؤمنين يربص بالجنة لا تأكل ولا تتمتع ولكن تنظر في الجنة وأرواح العصاة من المؤمنين تكون بين السماء والأرض في الهواء، وأما أرواح الكفار فهي في السجين في جوف طير سود تحت الأرض السابعة قلت: وما ذكر في أرواح الأنبياء أنها تصير في مثل صورتها المسك والكافر يعني أن لها أجساداً كالأجساد الإنسان وعبرها بالمسك لتطيب ريحها وعبر المجدد عن تلك الأجساد بالجسم الموهب ويكون ذلك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من أتاه سهم غرب فقتله (٢٨٠٩).
(٢) سورة يس، الآية: ٢٦ ـ ٢٧.
(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٧٧).

للأنبياء ولكمل أتباعهم الصديقين قبل الموت. فإن قيل: بعض الأحاديث الصحاح تدل على أن أرواح المؤمنين حتى الأنبياء وأرواح الكفار كلها في القبور كما ورد في حديث البراء الطويل يقول الله تعالى في حق المؤمنين «اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فيعاد روحه في جسده، وكذا قال في الكافر فيعاد روحه في قبره» قال ابن عبد البر هذا أصح فأقيل وقد رأى النبي ﷺ موسى عليه السلام في قبره يصلي ليلة أسري به وأنه ﷺ قال: «من صلى علي عند قبري سمعته ومن صلى علي غائباً بلغته»[1] فكيف تطبيق؟ قلنا: وجه التطبيق أن مقر أرواح المؤمنين في عليين أو في السماء السابعة ونحو ذلك كما مر ومقر أرواح الكفار في سجين ومع ذلك لكل روح منها اتصال لجسده في قبره لا يدرك كنهه إلا الله تعالى وبذلك الاتصال يصح أن يعرض على الإنسان المجموع المركب من الجسد والروح مقعده من الجنة أو النار ويحس اللذة أو الألم ويسمع سلام الزائر ويجيب المنكر والنكير ونحو ذلك بما ثبت بالكتاب والسنة كما أن جبرائيل مع كون مستقره من السماوات كان يدنوا من النبي ﷺ حتى يضع يديه على فخذيه قال الشعبي في بحر الكلام هي متصلة بأجسادها فتعذب الأرواح ويتألم الأجساد منها كالشمس في السماء ونورها في الأرض والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ مستأنفة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي على الأسرة في الحجال حال من المستكن في ظرف المستقر ﴿يَنظُرُونَ﴾ حال بعد حال مترادف لما سبق أو متداخل، قال أكثر المفسرين يعني ينظرون إلى ما أعطاهم الله تعالى من الكرامة والنعمة، وقال قتادة ينظرون إلى أعدائهم كيف يعذبون في النار، قلت: ينظرون إلى ربهم تبارك وتعالى كما أن الكفار عن ربهم يومئذ لحجوبون ﴿تَعْرِفُ﴾ أيها المخاطب كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو جعفر ويعقوب على المبني للمفعول ﴿فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ﴾ بالرفع عند جعفر ويعقوب وبالنصب عند الجمهور ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ أي بجنة النعيم قال الحسن النضرة في الوجه والسرور في القلب ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ أي جنة صافية طيبة بيضاء ﴿مَّخْتُومٍ﴾ أي ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختامه الأبرار ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قرأ الكسائي خاتمه بتقديم الألف على التاء على وزن عالم والباقون على وزن كتاب في القاموس ختام ككتاب الطين يختم على الشيء والخاتم ما يوضع على الطينة، والمراد بالقراءتين واحد أي مختوم أو آنية بالمسك مكان الطين

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، قال العقيلي: حديث لا أصل له، وأورده ابن الجوزي في الموضوع.
انظر: فيض القدير (٨٨١٢).

وكذا قال ابن زيد، وقال ابن مسعود مختوم أي ممزوج ختامه أي آخر طعمه وعاقبته مسك في القاموس والختام، من كل شيء آخره ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ الرحيق والنعيم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ التنافس مشتق من النفس أو من النفيس ومعناه اختيار الشيء النفيس لنفسه بحيث ينفسه به أي يضن به على غيره وحاصل المعنى فليرغب الراغبون يعني أن التنافس لا يليق على الأمتعة الدنيوية لخستها وقلتها ونفادها بل على النعم الأخروية، فإن قيل التنافس من الرذائل فكيف يكون مرغوباً فيه؟ قلت: إنما هو من الرذائل إذا كان متعلقاً بالأمور الدنيوية لأنها غير مرضية لله تعالى ولأنها يستلزم الإضرار بغيره إذ الأمتعة الدنيوية نافدة قليلة إذا اختار لنفسه فات عن غيره بخلاف النعم الأخروية فإنها مرضية لله تعالى ولا ينفد فإيثارها لنفسه لا يضر بغيره ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي يمزج به الرحيق ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ قال البغوي شراب ينصب عليهم من علو في غرفهم ومنازلهم قلت: الظاهر أنها تنصب من فوق العرش فإن العرش بمنزلة السقف للجنة، وقيل: يجري في الهواء متسنماً فينصب في أواني أهل الجنة على قدر ملئها فإذا امتلئت أمسك وهذا معنى قول قتادة وأصل الكلمة من العلو يقال للشيء المرتفع سنام ومنه سنام البعير، قال الضحاك هو شراب اسمه تسنيم وهو من أشرف أشربة الجنة قال ابن مسعود وابن عباس هو خالص للمقربين يشربونها صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة ثم فسره بقوله: ﴿عَيْنًا﴾ منصوب على المدح أو بتقدير أعني أو حال من تسنيم ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها أو بتضمين يلتذ صفة لعينا ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي أصحاب كمالات النبوة بالأصالة أو بالوراثة وهم الصديقون قال البغوي روى يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه سأل عن قوله من تسنيم، قال: هذا فيما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ يعني كفار قريش أبو جهل والوليد بن مغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مشركي مكة ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عمار وصهيب وخباب وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟﴾ أي المؤمنين ﴿بِهِمْ﴾

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.

أي بالكفار ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ أي الكفار يشيرون إليهم بالجفن والحواجب استهزاء والجملة الشرطية معطوفة على يضحكون خبر لكانوا وكذا الشرطيتين الأخريين ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ أي الكفار ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ معجبين ملتذين بالسخرية منهم قرأ حفص فكهين بغير ألف والباقون بالألف فاكهين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ يعني الكفار المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي خدعهم محمد فضلوا عن دين آبائهم وتركوا اللذات، لما يرجون في الآخرة من الكرامات فقد تركوا الحقيقة بالخيال ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ﴾ أي الكفار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ لأعمالهم ويشهدون برشدهم وصلاحهم جملة وما أرسلوا حال من فاعل قالوا ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم كون المؤمنين على الأرائك ينظرون إلى الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم في السلاسل والأغلال في النار، قال البغوي قال أبو صالح وذلك أنه يفتح للكفار في النار أبوابها ويقال لهم أخرجوا فإذا رأوها مفتوحة قبلوا إليها ليخرجوا والمؤمنون ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم يفعل بهم ذلك مراراً والمؤمنين يضحكون من الكفار كما كان الكفار يضحكون منهم في الدنيا وقال كعب بين الجنة والنار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو له في الدنيا اطلع عليه من تلك الكوى كما قال الله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[1] فإذا اطلعوا من الجنة إلى أعدائهم وهم يعذبون في النار فضحكوا فذلك قوله تعالى هذه الآية، وأخرج البيهقي عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لأحدهم هلم فجيىء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه فما زال كذلك حتى أن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة فيقال له هلم فما يأتيه من الإياس» ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ حال من فاعل يضحكون ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي الكفار في النار حال مترادف أو متداخل لما قبله ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ أي جوزي ﴿ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي جزاء ما كانوا يعملون من الاستهزاء والاستفهام للتقرير أي نعم والله أعلم بالصواب.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٥٥.

سورة الإنشقاق

مكية وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا
مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾
وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ
مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ السماء مرفوع بفعل مقدر يفسره ما بعده ﴿وَأَذِنَتْ﴾ أي استمعت وانقادت ﴿لِرَبِّهَا﴾ لأمره بالانشقاق ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي حق لها الانقياد وإذ المملكن لا يمكن منه إلا الانقياد لما أراده الواجب جل شأنه إذ هو في نفسه لا يقتضي شيئاً ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ وزيدت في سعتها، قال مقاتل سويت كمد الأديم فلا يبقى فيها جبل ولا بناء، أخرج الحاكم عن ابن عمرو قال: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض كالأديم وحشر الخلائق، وأخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي ﷺ: «تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه ثم أدعى أول الناس فأخر ساجداً فيؤذن لي فأقول: يا رب يا رب أخبرني هذا جبرائيل وهو عن يمين الرحمن والله ما رآه جبرائيل قبلها قط إنك أرسلته إلي قال: وجبرائيل ساكت لا يتكلم حتى يقول الله صدق ثم يأذن الله لي في الشفاعة فأقول يا رب عبادك أطراف الأرض فذلك المقام المحمود» ﴿وَأَلْقَتْ﴾ الأرض ﴿مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي تكلفت في خلوها عما فيها حتى لم يبق شيء في بطنها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلية ﴿وَحُقَّتْ﴾ جواب إذا محذوف يدل عليه ما بعده أي يلاقي الإنسان ما كدح ويؤتى كتابه إما بيمينه فينقلب مسروراً أو بشماله فيدعوا ثبوراً وتكرراً إذ الاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة، أخرج أبو القاسم الختلي في الديباج بسند حسن عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله تعالى: إذا السماء

انشقت الآية قال: أنا أول من ينشق عنه الأرض فأجلس جالساً في قبري فيفتح باب إلى السماء بحيال رأسي حتى انظر إلى العرش ثم يفتح لي باب من تحتي حتى أنظر إلى الأرض السابعة حتى أنظر إلى الثرى ثم يفتح باب عن يميني حتى أنظر إلى الجنة ومنازل أصحابي وإن الأرض تحركت بي فقلت لها مالك أيتها الأرض فقالت إن ربي أمرني أن ألقي ما في جوفي وأن أتخلى فأكون كما كنت أن لا شيء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ وأخرج ابن المنذر في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ قال: سواري الذهب وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن عطية يعني ما فيها من الكنوز وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس والفريابي عن مجاهد أخرجت الأرض أثقالها قال الموتى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ خطاب للجنس ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ أي كدح عمل الإنسان وجهده في الامر من خير أو شر حتى يكدح ذلك فيه أي يؤثر من كدحه إذا أخدشه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى لقاء ربك يعني الموت وما بعده يعني أنك جاهد في العمل إلى الموت ﴿كَدْحًا﴾ سعياً بلغياً مصدر للتأكيد ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ عطف على كادح والضمير إما راجع إلى الكدح يعني فملاقي كدحه يعني جزاء ما عمل أو إلى الرب أي فملاقي ربك بعد الموت يوم يقوم الناس لرب العالمين أو بحذف المضاف أي فملاقي حساب ربك وجملة يا أيها الإنسان مستأنفة للوعد والوعيد ولما بين الله سبحانه أولاً بعض الناس ولقاء كل منهم كدحه إجمالاً فصل ذلك بقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ﴾ ديوان عمله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ وهم المؤمنون ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ روى البخاري بسنده عن ابن أبي مليكة أن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عذب قالت عائشة أو ليس الله يقول فسوف يحاسب حساباً يسيراً؟ قالت: فقال إنما ذلك العرض ولكن من نوقش في الحساب يهلك»[1] وأخرج أحمد عن عائشة قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: أي ينظر في كتابه فيتجاوز عنه أنه من نوقشه في الحساب يهلك، وأخرج أحمد يومئذ هلك ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ أخرج البيهقي عن مجاهد في هذه الآية قال: يجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه قال ابن تلوى يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١﴾ والثبور الهلاك أي يتمنى الهلاك ويقول واثبوراه ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام والباقون بضمن الباء وفتح الصاد وتشديد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من سمع شيئاً فراجعه حتى يعرفه (١٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إثبات الحساب (٢٨٧٦).

اللام من التصلية على البناء للمفعول، أي يدخل ﴿سَعِيرًا إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ بالمال والجاه غافلاً عن الآخرة غير خائف وهذا تعليل لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أي لن يرجع إلى ربه للحساب والجزاء تكذيباً بالبعث تعليل للسرور ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب للنفي أي بلى ليحورن ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ في موضع التعليل لإثبات الرجوع أي ليحورن وليعذبن لأن الله بصير بما يعمل فلا يهمله بل ينتقم منه.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ البيضاء بعد الحمرة ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ أي جمعه الليل بعدما كان منتشراً بالنهار من الدواب وروى منصور عن المجاهد حالف وأظلم عليه، وقال سعيد بن جبير وما عمل فيه ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ أي اجتمع وتم نوره في الليالي البيض افتعال من الوسق بمعنى الجمع ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ إما صفة بطبقاً أو حال من الضمير المرفوع في لتركبن بمعنى مجاوز عن طبق أو بمجاوزين له على اختلاف القراءتين قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتح التاء إما على صيغة المخاطب الواحد المذكر خطاباً للنبي ﷺ، قال الشعبي ومجاهد يعني لتركبن يا محمد سماء بعد سماء وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾(١) ففي هذه الآية بشارة للنبي ﷺ بالمعراج والأحاديث الواردة في قصة المعراج ذكرت في سورة الإسراء وسورة النجم ويجوز أن يكون المراد أنه يصعد درجة بعد درجة تتبع بعد رتبه في القرب من الله والرفعة روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: لتركبن طبقاً عن طبق حال بعد حال قال هذا نبيكم ﷺ، وأما على صيغة الواحد المؤنث والضميرحينئذ عائد إلى السماء يعني لتركبن السماء حالاً بعد حال، أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في هذه الآية قال: يعني السماء تنفطر ثم تنشق ثم تحمر، وأخرج البيهقي عنه قال: السماء تكون ألواناً تكون كالمهل وتكون وردة كالدهان وتكون واهية وتشق فيكون

(١) سورة الملك، الآية: ٢ ـ ٣.

حالاً بعد حال وقرأ الآخرون بضم الباء على صيغة جمع المخاطبين يعني لتركبن أيها الناس حالاً بعد حال وأمراً بعد أمر في مواقف القيامة وقال مقاتل يعني الموت ثم الحياة وقال عطاء حالاً في الدنيا فقيراً ومرة غنياً، وقال عمرو بن دينار عن ابن عباس يعني الشدائد والأهوال والموت ثم البعث ثم العرض وقال عكرمة حالاًبعد حال رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ، وقال أبو عبيدة لتركبن سنن من كان قبلكم روى الحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتم وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه» وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري نحوه ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ استفهام للإنكار والتعجب متصل بما مرمن الوعد والوعيد وجملة فلا أقسم معترضة، قلت: ويحتمل أن يكون هذه الجملة متصلة لقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ يعني انقلابهم عن حال إلى حال دليل على محول الأحوال فما لهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حال من الضمير المجرور والعامل فيه معنى الفعل أي ما يصنعون ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ إذا متعلق بلا يسجدون والجملة الشرطية معطوفة على لا يؤمنون حال مرادف له وهذه الآية تدل على وجوب السجود حين استماع القرآن فإنه ذم لمن سمع القرآن ولم يسجد فإما أن يكون المراد بالسجود الخضوع مجازاً وهوا لظاهر لإطلاق القرآن على كل آية وإن لم يكن آية السجدة مع الاجتماع على عدم وجوب السجود عند استماع القرآن مطلقاً وإما يكون المراد بالسجود سجود التلاوة واللام في القرآن للعهد والمراد آية السجدة فحينئذ يكون حجة لأبي حنيفة في القول بوجوب التلاوة ولم يقل بالافتراض للشك في التأويل ووقع الخلاف في المسألة والظاهر أن الوجوب لا يثبت بالشك بل بدليل ظني يفيد الوجوب واحتج أبو حنيفة وصاحبيه بحديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»[1] رواه مسلم ووجه الاحتجاج أن الحكيم إذا حكى عن غير الحكيم كلاماً ولم يعقبه بالإنكار كان دليلاً على صحته، وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن عمر أنه قال السجدة على من سمعها وعند جمهور الفقهاء والمحدثين سجود التلاوة سنة، واحتجوا بحديث زيد بن ثابت قرأت على النبي ﷺ فلم يسجد أخرجاه في الصحيحين وأخرجه أصحاب السنن والدارقطني وزاد ولم يسجد منا أحد، قالت الحنفية هذا لا يدل على عدم وجوب السجدة لأنه واقعة حال ويجوز أن يكون ترك السجود لكون

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨١).

القراءة في وقت مكروه أو على غير وضوء أو لتبين أنه غير واجب على الفور، قلنا: لوكان الترك لأجد هذه الأمور لبين ذلك ولئلا يلزم ترك بيان المجمل في وقت الحاجة وبحديث عمر بن الخطاب: «أنه قرأ سجدة وهو على المنبر يوم الجمعة فنزل فسجد وسجد الناس معه ثم قرأها يوم الجمعة الأخرى فتهيأ الناس السجود فقال على المنبر رسلكم، الله لم يكتبها إلا أن يشاء» رواه البخاري ومالك في الموطأ، قال الشيخ ابن حجر زعم المزني أنه من تعليقات البخاري ووهم رواه البيهقي وأبو نعيم، قلت في هذه الحديث حكاية عن الإجماع حيث لم ينكر أحد على قول عمر مع حضورهم لصلاة الجمعة وما ورد فيقول الشيطان أمر ابن آدم بالسجود والظاهر أن المراد بالسجود هناك الجنس دون السجود المخصوص عند التلاوة كيف وإنما الشيطان بالسجود لله تعالى متوجهاً إلى آدم من غير سبق تلاوة آية.

مسألة:

اختلف العلماء في سجود المفصّل؟ فقال الجمهور بالسجود في النجم وإذا السماء انشقت واقرأ فعندهم سجود القرآن أربعة عشر أو خمسة عشرب بناء على خلافهم في الثاني سجدتي الحج وسجدة ص ويذكر هناك إن شاء الله تعالى وقال مالك في رواية لا سجود في المفصل محتجاً بحديث ابن عباس أنه ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة[1] رواه أبو داود وأبو علي بن السكن من طريق أبي قدامة الحارث بن عبيد عن مطر عن عكرمة وأبو قادمة ومطر، قال الشيخ ابن حجر هما من رجال مسلم لكنهما مضعفان، وقال ابن الجوزي قال أحمد أبو قدامة مضطرب الحديث وقال يحيى ليس بشيء ولا يكتب حديثه وروى الطحاوي وغيره سأل أبي بن كعب هل في المفصل سجدة قال لا لنا حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ لم يسجد في إذا السماء انشقت واقرأ انفرد بإخراجه مسلم وفي الصحيحين من طريق آخر عن أبي نافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ إذا السماء انشقت فسجد فقلت ما هذا؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد هنا حتى ألقاه وإسلام أبي هريرة كان سنة ست من الهجرة وحديث ابن عباس قال: سجد رسول الله ﷺ فيها يعني النجم والمشركون[2]، رواه

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من لم ير السجود في المفصل (١٤٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في السجدة في النجم (٥٧١).

البخاري ورواه الترمذي وصححه، وحديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قرأ خمس عشر سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطني والحاكم وحسنه المنذري والنووي وضعفه عبد الحق وقال ابن الجوزي لا يعتمد عليه فيه محمد بن راشد كذبوه وحديث عبد الرحمن بن عوف قال: رأيت رسول الله ﷺ سجد في إذا السماء انشقت عشر مرات رواه البزار.

مسألة:

قال أبو حنيفة يجب السجدة على التالي والسامع سواء قصد سماع القرآن أو لم يقصد لإطلاق الموجب أعني الذم على ترك السجود في هذه الآية، وعند الجمهور لا يتأكد السجود على السامع ما لم يقصد السماع لحديث عثمان أنه مر بعاص فقرأ آية السجدة يسجد معه عثمان فقال عثمان إنما السجود على من استمع ثم مضى ولم يسجد رواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن ابن المسيب عنه وذكره البخاري تعليقاً وفي مصنف ابن أبي شيبة عن عثمان إنما السجدة على من جلس لها وحديث ابن عباس أنه قال إنما السجدة لمن جلس لها، رواه البيهقي وابن أبي شيبة.

مسألة:

يجب السجود على السامع وإن لم يسجد القارىء عند أبي حنيفة لإطلاق الأمر وعند الجمهور لا بتأكد على السامع ما لم يسجد القارىء لحديث زيد بن أسلم أن رجلاً قرأ عند رسول الله ﷺ فسجد النبي ﷺ ثم قرأ آخر عنده السجدة فلم يجد النبي ﷺ فقال سجدت لقراءة فلان ولم تسجد لقراءتي، قال: كنت إماماً فلو سجدت سجدنا رواه أبو داود، في المراسيل عن زيد بن أسلم ورواه أيضاً زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار بلاغاً وكذا روى الشافعي وقال البيهقي رواه قرة عن الزهري عن أبي هريرة وقرة ضعيف وعند البخاري معلقاً عن ابن مسعود.

مسألة:

قال أبو حنيفة يكره قراءة آية السجدة فيما يسر فيها القراءة من الصلاة إن كان إماماً لا فيما يجهر بها ولا إن كان مفرداً به قال أحمد حتى قال إن أسر بها لا يسجد وعند الشافعي لا يكره مطلقاً لحديث ابن عمر سجد رسول الله ﷺ في الظهر فرأى أصحابه أنه قرأ آية السجدة فسجدوا رواه أبو داود والطحاوي والحاكم.

مسألة:

إذا سجد الإمام سجدوا كذا عند الشافعي مع قوله أنها سنة وكذا قوله في القنوت ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ القرآن، إضراب عن السجود عند استماع القرآن ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بما يجمعون في الصدور من الكفر والعداوة، قال مجاهد: بما يكتمون، والجملة حال من فاعل يكذبون ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ الفاء للسببية فإن التكذيب سبب للتبشير وذكر التبشير مقام التنذير تهكم واستهزاء ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منهم وتابوا عن الكفر فالاستثناء متصل أو منقطع بمعنى لكن الذين آمنوا غير مبشرين بالعذاب ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع ولا منقوص أو ممنون عليهم تعليل الاستثناء.

سورة البروج

مكية وهي اثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ
۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا
نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ
الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١١﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ البرج الحصن سمي الحصن بها لظهوره يقال تبرجت المرأة أي ظهرت والظاهر أن للسماء بيوتاً سميت بالبروج، قال عطية العوفي البروج أي القصور فيها الحرس ورد في الصحيحين في حديث المعراج «ثم رفع إلى البيت المعمور يعني في السماء السابعة بحذاء الكعبة» وقد مر في سورة المطففين قول وهب بن منبه أن الله في السماء السابعة داراً يقال لها البيضاء يجتمع فيها أرواح المؤمنين أو المراد بالبروج أبواب السماء فإن النوازل يخرج منها وتظهر وزعم العوام باتباع الفلاسفة أن السماء منقسم بالقسمة الوهمية إلى اثني عشر حصة سميت كل حصة منها ببرج يكون فيها الثوابت وينزلها السيارات وسموا البروج بالحمل والثور والجوزاء ونحوها نظراً إلى هيئة الكواكب الثوابت على صورة الحمل والثور ونحو ذلك وهذا ليس بشيء لأن مبنى ذلك على كون السموات متحركة دائماً وكون الكواكب مرتكزة فيها وكل ذلك باطل والثابت من الكتاب والسنة أن الكواكب كل منها في فلك يسبحون فليس في السموات كواكب ثوابت حتى يسمع حصة من السماء برجاً بحسب تلك الثوابت ولا يجوز أن يكون المراد في كلام الله تعالى مصطلح الفلاسفة الكفرة فكيف الحصص الموهومة بالبروج التي أصل تركيبها الظهور والله تعالى أعلم، وقيل: المراد بالبروج عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها كذا قال

الحسن ومجاهد وقتادة ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾﴾ أي يوم القيامة ﴿وَشَاهِدٍ﴾ أي يوم الجمعة أو جنس شاهد يشهد بالحق ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ أي يوم عرفة أو جنس فاشهد عليه شاهد صدق أقسم الله تعالى بهذه الأمور لتعظيمها روى أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة والمشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله فيها بخير إلا استجاب له ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه منه»(١) قال الترمذي هذا حديث غريب لا يعرف إلا من حديث موسى بن عبيدة وهو يضعف وروى الطبراني بسند ضعيف عن أبي مالك الأشعري نحوه وفيه «يوم الجمعة خصه الله لنا والصلاة الوسطى صلاة العصر» وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس الشاهد محمد ﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾(٢) والمشهود يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾(٣) ولكن هذا يلزم التكرار في اليوم الموعود والمشهود، وقيل: الشاهد الحفظة والمشهود ابن آدم، وقال الحسين بن الفضل الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾(٤) وقال سالم بن عبد الله سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ قال: الشاهد هو الله تعالى والمشهود ونحن بيانه وكفى بالله شهيداً، وقيل: الشاهد أعضاء بني آدم قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾(٥) وقيل: الشاهد الأنبياء والمشهود محمد ﷺ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(٦) قلت: وعندي أنه لو صح الحديث في تأويل الآية فذاك وإلا فلا وجه للتخصيص بل المقسم جنس شاهد يشهد بالحق وجنس الحق المشهود به، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾(٧) فالشاهد هو الله تعالى والملائكة والحفظة منهم والأنبياء ومحمد ﷺ والمؤمنون خصوصاً أمة محمد ﷺ خصوصاً أولوا العلم منهم ومن يشهد بالحق الخصومات وإقامة الحدود ومشهود هو كلمة

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البروج (٣٣٣٩).

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٣) سورة هود، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٥) سورة النور، الآية: ٢٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

التوحيد وصدق الأنبياء وتبليغهم وأعمال بني آدم وكل كلمة حق أشهد به شاهد صدق قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الشهود فإن الله يستخرج بهم الحقوق ويدفع بهم الظلم» رواه الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس بسند ضعيف والله تعالى أعلم وجواب القسم قيل قوله تعالى: ﴿قُتِلَ﴾ أي لعن لكن هذا القول ضعيف لشذوذ جواب القسم بدون اللام والأولى أن يقال جواب القسم محذوف يدل عليه ما بعده يعني أسم أن كفار قريش ملعونون كما قيل وقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٱلنَّارِ﴾ عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك باليمن فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر فبعث له غلاماً يعلمه وكان في طريقه راهب إذا سلك إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب فقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه وإذا رجع من عند الساحر فقعد إلى الراهب وسمع كلامه فإذا أتى أهله ضربوه فشكى إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي فإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى عليه دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم أن الراهب أفضل أم الساحر فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها فمضى الناس فأتى الراهب فأخبره، فقال الراهب أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما ترى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ويداوي الناس بسائر الأدواء فسمع جليس للملك وكان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: إنها لك إن أنت شفيتني، قال: لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: ومن رد عليك بصرك؟ قال: ربي قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيىء بالغلام فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ما يبرىء الأكمه والأبرص وتفعل ما تفعل قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له إرجع عن دينك فأبى فدعى موضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: إرجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوا فذهبوا به الجبل فقال: اللهم اكفينهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا فجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا

فاقذفوه فذهبوا به فقال: اللهم اكفينهم بماشئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله فقال للملك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ بهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس وقل بسم الله رب الغلام ثم ارمني فإنك إذ فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد قوسه ثم قال بسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم في صدغه فمات فقال الناس آمنا برب الغلام ثلاثاً فأتى الملك فقيل له رأيت بما كنت تحذر قد نزل بك حذرك قد آمن الناس فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدّت وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها لاقتحم قال فافعلوا حتى جاءت امرأة معها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق»[(١)] رواه مسلم في صحيحه. وروى عطاء عن ابن عباس نحو هذه القصة وذكر أنه كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل في الفترة قبل مولد النبي ﷺ بسبعين سنة وذكر اسم الغلام عبد الله بن تامر وذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه القصة وذكر أنه أحرق اثني عشر ألفاً ثم غلب أرباط على اليمين فخرج ذو نواس هارباً فاقتحم البحر بفرسه فغرق، فقال الكلبي ذو نواس قتل عبد الله بن تامر وقال محمد بن عبد الله بن أبي بكران جارية اختفرت في زمن عمر بن الخطاب فوجد عبد الله بن تامر واضعاً يده على ضربة في رأسه إذا بسطت يده عنها انبعث دماً وإذا تركت ارتدت مكانها في يده خاتم من حديد فيه ربي الله فبلغ ذلك عمر فكتب إن العبد والخاتم على أي على الذي وجدتم عليه وقد روي في أصحاب الأخدود روايات أخرى لا يوازي رواية المسلم في القوة فلا يلتفت إليها ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ وصف أي النار بالعظمة لكثرة الالتهاب واللام للجنس، قال الربيع بن أنس نجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار بقبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ أي على حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ قال مجاهد كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود والظرف متعلق بقعود ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من التعذيب ﴿شُهُودٌ﴾ أي حضور لم يكن هذا التعذيب منهم على غفلة أو المعنى كان يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به أو يشهدون على أنفسهم يوم القيامة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٣٠٠٥).

حين يشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم والجملة إما معطوفة على هم عليها قعود أو حال من فاعل تعود ﴿وَمَا نَقَمُوا۟﴾ أي ما كره الكفار وما أنكروا ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من المؤمنين ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ أي لإيمانهم فعلى هذا مفعول له وصيغة المضارع بمعنى الماضي بقرينة نقموا أي لأن آمنوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ يعني ما كان منهم حسناً لذاته وكمالاً وشرفاً زعموه لفرط جهلهم وشقاوتهم عيباً منكراً موجباً للعذاب ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه الغالب على كل شيء يخشى عذابه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود المنعم الذي يرجى ثوابه ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهن لا إله غيره تقرير لحصر الخوف والرجاء عليه سبحانه وصف الله سبحانه نفسه بهذه الأوصاف لدلالة على كون المؤمنين محقين في إيمانهم مستحقين للثواب، وكون الكفار مبطلين ظالمين فيما فعلوا مستحقين اللعن والعذاب ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ يجازي كلاً على حسب ما عمل من خير أو شر والجملة تذييل أو حال من مفعول يؤمنوا وجملة ما نقموا معترضة أو حال من شهود ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾ أي عذبوا ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الموصول شامل لأصحاب الأخدود وغيرهم سواء كانوا مؤمنين أو كفاراً والمؤمنون يعم المطروحين في الأخدود وغيرهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ من تلك المعصية ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة، يعني هم مستحقون العذاب بتعذيبهم وذلك لا ينافي المغفرة إن كانوا مؤمنين ويحتمل أن يكون المراد بالموصول الكفار فقط للملاحظة الحيثية في المؤمنين يعني الذين فتنوا المؤمنين لأجل إيمانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ تأكيد لما سبق أو المراد لهم عذاب الحريف في الدنيا فإن من الغالب أنه من حفر بيراً لأخيه فقد وقع فيه وقد مر في ما سبق أنها خرجت النار إلى من على شفر الأخدود ومن الكفار فأحرقتهم وأن ذو نواس غرق في البحر وجملة إن الذين فتنوا مستأنفة، كأنه قيل ما يفعل بأصحاب الأخدود وأمثالهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ يصغر بالنسبة إليها الدنيا وما فيها.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ أي أخذه بعنف ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لا يمكن مداعفته هذه الجملة متصلة بجملة إن الذين فتنوا كأنها تعليل لها، وجملة إن الذين آمنوا معترضة بينهما لذكر جزاء المؤمنين رديف الجزاء الكفار كما هو عادة الله تعالى في المثال ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي ربك ﴿هُوَ

﴿يُبْدِئُ﴾ الخلق ﴿وَيُعِيدُ﴾ لا إله غيره حتى يمكنه دفع بطشه أو المعنى يبدء البطش بالكفار في الدنيا ويعيده في الآخرة ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب المؤمنين ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المحب لمن أطاعه والمحبوب إليهم ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ قال العرش مالكه القاهر على كل شيء ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالجر صفة للعرش ومجده وعظمته وكونه مطرحاً لتجليات رحمانية مختصة به والباقون بالرفع على أنه خبر بعد خبر لهو ومجده تعالى كونه عظيماً في ذاته وصفاته واجباً وجودة تاماً قدرته وحكمته ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ لا يعجزه شيء ولا يمنع عليه ما أراد خبر بعد خبر لهو أو خبر مبتدأ محذوف أي هوفعال لما يريد وجملة أنه هو يبدء ويعيد الخ معترضة مادحة لله تعالى يوضح ما يفعل بالمؤمنين من المغفرة والمودة وبالكافرين من أنواع التعذيب ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ استفهام للتقرير بمعنى قد أتاك ﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ الكافرة الذين يجندوا على الأنبياء ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بدل من الجنود ويحذف المضاف أي جنود فرعون ﴿وَثَمُودَ﴾ أمثالها أنهم أهلكوا بالغرق أو الصيحة أو نحو ذلك ثم أدخلوا ناراً واصبر على تكذيب قومك وحذرهم بمثل ما أصاب من كان من قبلهم أمثالهم في الكفر ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قومك أولى بنزول العذاب من الجنود الماضية والأمم الخالية، فإنهم سمعوا قصة السابقة ورأوا آثار هلاكهم ومع ذلك هم ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ عظيم للقرآن أضد من تكذيبهم مع أنه معجز نظمه دون الكتب السابقة والتنكير للتعظيم، وقيل: بل هنا ليس للإضراب بل ابتدائية بمعنى لكن والجملة للاستدراك متصلة بجواب القسم وما بينهما معترضات وجه الاتصال أنه لما اتضح جواب القسم بالقسم نشأ تصديق السامعين من الكفار فلدفع هذا الوهم استدرك وقال بل الذين كفروا أي لكن الذين كفروا في تكذيب وقوله في تكذيب ظرف اعتباري فإن الصفة يعتبر محيطاً بالموصوف بناء على المبالغة ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ إحاطة ذاتية بلا كيف مستكرماً لقربه وقهرمانه فهو عالم بأحوالهم قادر على الانتقام منهم لا يمكن أن يفوتوا والجملة معترضة للوعيد أو حال من فاعل الظرف المستقر في تكذيب ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ كريم شريف عالي الطبقة في الكتب وحيد معجز نظمة ومعناه والجملة معناه متصل بقوله بل الذين كفروا في تكذيب، يعني ليس تكذيبهم على شايبة من الحق بل هو يعني فاكذبوا أن لا ينبغي أن يكذب به من له أدنى شعور في النظم والمعنى ﴿فِى لَوْحٍ﴾ أخرج الطبراني عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء وصفحاتها من ياقوت حمراء قلمه نور وكتابته نور، الله في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيى ويعز ويدل ويفعل ما يشاء» روى البغوي بسند عن ابن عباس قال: إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام

ومحمد عبده وسوله فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة قال: واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق إلى المغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوته حمراء وقلمه نور وكتابه نور وكل شيء فيه مسطور وقيل: أعلاه معقود بالعرش وأصله في حجر ملك، قال مقاتل اللوح المحفوظ عن يمين العرش ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لوح فإنه محفوظ من الشياطين ومن الزيادة والنقصان ولذلك سمي باللوح المحفوظ وهو أم الكتاب ومنه نسخ الكتاب وقرأ نافع بالرفع على أنه صفة القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1] فلا يجوز أي لا يمكن فيه الإلحاق لحفظه تعالى وأيضاً لإعجاز نظمه ولا التحريف ولا الحذف وقالت الروافض ألحق بالقرآن ما ليس منه وحذف منه بقدر عشرة أجزاء من أربعين جزء فبقيت ثلاثون جزء مغيرة محرفة فعليهم قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩﴾ لما بين دفتي المصحف والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

سورة الطارق

مكية وهي سبع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾

قال الكلبي أتى أبو طالب النبي ﷺ فأتحفه بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل إذ انحط نجم فامتلأ ماءً، ثم ناراً ففزع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال رسول الله ﷺ «هذا نجم رمي به وهو آية من آيات الله عز وجل» فعجب أبو طالب فأنزل الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ وهو في الأصل لسالك الطريق واختص عرفاً بالآتي ليلاً ثم استعمل للبادي وفيه الإجمال ها هنا فسره فيما بعد ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢﴾ فإنه مجمل ويحتمل أن يكون الاستفهام لتعظيم أمره فإن فيه منافع كثيرة من طرق الشياطين وزينة السماء وتخويف العباد وغير ذلك وجملة ما الطارق في محل المفعول الثاني لإدراك ثم فسر الجمل، فقال ﴿النَّجْمُ﴾ اللام للجنس والمراد به جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرجم بها أو للعهد والمراد به الثريا كذا قال ابن زيد والعرب تسميه النجم، وقيل: هو الزحل ﴿الثَّاقِبُ﴾ فمن قال المراد بالنجم الزعل قال إنم سمى به لارتفاعه قال العرب للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعاً قد ثقب وهذا لا يستقيم إلا على قول الحكماء القائلين بكون الزحل في السماء السابعة والظاهر أن المراد بالثاقب المعنى المتوهج كذا قال مجاهد كأنه يثقب الظلام لضوئه فينفذ فيه ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لما بتشديد الميم بمعنى إلا على لغة هذيل استثناء مفرغ فعلى هذا أن نافية والمعنى ما كل نفس كائناً على حال إلا على حال ثبوت حافظ عليها والباقون بالتخفيف فعلى هذا أن

مخففة من المثقلة واسمها ضمير الشأن محذوف فاصلة وما مزيدة يعني أنه كل نفس من البشر ثابت أو ثبت عليها حافظ من ربها يحفظ عملها ويحصى عليها ما يكتب من خير أو شر، قال ابن عباس هم الحفظة من الملائكة وقيل حافظ يحفظها من الآفات فإذا استوفى رزقها وأجلها ماتت والمراد بحافظ الجنس حتى يصدق على الواحد الكثير فلا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾[1] بصيغة الجمع أو المراد لحافظ ها هنا هو الله سبحانه والحفظة أن يحفظوا بأمره فيضاف فعلهم إليه تعالى والجملة على القراءتين جواب للقسم أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أن أبا أسد كان يقوم على الأديم فيقول يا معشر قريش من أذى النبي ﷺ عنه فله كذا ويقول إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر فأنا كفيكموهم وحدي عشرة واكفوني تسعت فنزلت ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ الفاء للسببية، فإن وجود الحفظة سبب لوجوب المراقبة على أعماله حتى يستدل به على صحة إعادة فيستوجب الإيمان بالله ورسوله والإتيان بما أمر به من الأعمال والانتهاء عما نهى عنه ومن ابتدائية وما استفهامية والجار والمجرور متعلق بخلق نائب مناب فاعله والجملة في محل النصب بالمفعولية من النظر أي في جواب هذا السؤال الحاصل بالنظر فقال ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ﴾ أي مني والمراد به الممزوج من المائين ماء الرجل وماء المرأة ﴿دَافِقٍ﴾ صفة لماء أسند الدفق إلى الماء مجازاً وكما في عيشة الراضية أي مرضية فهو فعلبمعنى المفعول أي مدفوق والدفق هو الصب بمرة فالإسناد على الحقيقة ﴿يَخْرُجُ﴾ صفة أخرى لماء﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ صلب الرجل أي ظهره، قال في الصراح الصلب الشديد باعتبار الشدة سمى الظهر صلباً ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي ترائب المرأة في القاموس الترائب عظام الصدر وما وليَ الترقوتين أو مابين الثديين والترقوتين أو أربع أضلاع من يمين الصدر وأربع من يسرته أو لليدان والرجلان والعينان أو موضع القلادة، في البيضاوي أن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد بأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء ومقرها عروق ملتف بعضها عند البيضتين والدماغ أعظم الأعضاء معونة في توليدها لذلك تشيع وتسرع الفراط في الجماع بالضعف فيه وله خليفة وهو النخاع وهو في الصلب وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب هما أقرب إلى أوعية المني فذلك خصاً بالذكر ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير راجع إلى الخالق المفهوم، من قوله خلق من ماء ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي إعادته بعد الموت كذا قال قتادة ﴿لَقَادِرٌ﴾ لإمكان الإعادة فمن خلق أولاً فلا يجوز إنكاره بعد ما أخبر به مخبر صادق شهد المعجزة على صدقة والجملة مستأنفة ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾

(١) سورة الانفطار، الآية: ١٠.

متعلق برجعه أو بمضمر دل عليه رجعه أي يبعث الإنسان يوم يظهر الخفايا من الأعمال والعقائد والنيات والضمائر يعني يوم القيامة، قال ابن عمر يبدىء الله يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في وجوه ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي للإنسان المنكر للبعث والفاء جزاء لشرط مقدر تقديره فإذا ارجع فماله ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ منعة في نفسه يمتنع بها من العذاب ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يعنيه ويدفع عنه العذاب ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ قسم آخر معطوف على القسم السابقة ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي المطر سمي لأنه يرجع كل عام ويتكرر الكواكب فيها إلى موضع من السماء الذي يتحرك منها بعدم يوم وليلة أو بعد شهر أو بعد سنة ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾﴾ أي الشق بالنبات والعيون ونحو ذلك وجواب القسم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ فأصل بين الحق والباطل ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾﴾ باللعب والباطل بل هو جد كله فمن حقه يرتفع قارئه وسامعه من أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح وأن يخشع له القلب ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي أهل مكة ﴿يَكِيدُونَ﴾ النبي ﷺ ﴿كَيۡدٗا﴾ ويظهرون ما هم على خلافه أو المعنى أنهم يحيلون في إبطال أمر النبي ﷺ وإطفاء نور الحق حيلة ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾﴾ كيد الله استدراجه إياهم من حيث لا يعملون أو المعنى أجزيهم في الآخرة جزاء كيدهم وجملة ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾﴾ مستأنفة كأنه في جواب سائل فما شأن منكري البعث ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولا تشتغل بالانتقام منهم أو لا تستعجل بإهلاكهم بالدعاء عليهم، وهذا منسوخ بآية القتال على تقدير النهي عن الانتقام منهم ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ﴾ تأكيد لهمل والتأكيد مع تغير البناء لزيادة التسكين أو التحسين في اللفظ ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ أي أرواداً أي إمهالاً يسيراً أو رويداً تصغير أي الأرواد بحذف الزوائد ويسمى تصغير ترخيم مشتق من راودت الريح ترود روداً إذا تحركت حركة ضعيفة ولا يستعمل بها إلا مصغرة، قال ابن عباس هذا وعيد من الله عز وجل قد أخذهم الله يوم بدر، والله أعلم.

سورة الأعلى

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ أي نزه اسم ربك عن إلحاد فيه وإطلاقه على غيره أو المعنى نزه تسمية ربك بأن تذكره وأنت له معظم ولذكره محترم وأن لا تسميه باسم من قبل نفسك بل سمي به نفسه في كابه أو على لسان نبيه، وقيل: أريد بالاسم الذات المسماة كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾(١) أي مسميات وقيل: لفظ الاسم مقحم والمعنى سبح ربك الأعلى ونزهه عما يصفه الملحدون وهذا أمر بالتسبيح قولاً قال البغوي يعني قل سبحان ربي الأعلى وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين واحتج عليه البغوي بما رواه بسند عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربي الأعلى وقال قوم أمر بالتنزيه مطلقاً قولاً واعتقاداً وعملاً ولا وجه للتخصيص بالقول والحديث المذكور لا يصلح حجة للتخصيص بالقول بل التسبيح باللسان بمواطأة القلب أحد محتملاته وقول من غير مواطأة القلب لا يعتاد به، قال البغوي قال ابن عباس سبح أي صل بأمر ربك الأعلى فهو أمر بالصلاة ويحتمل أن يكون أمراً بالتسبيح باللسان في الصلاة يدل عليه ما ذكرنا في سورة

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

الحاقة من حديث عقبة بن عامر «اجعلوها في سجودكم»[١] وحديث حذيفة كان رسول الله ﷺ يقول في سجوده سبحان ربي الأعلى وحديث ابن مسعود وقد ذكرنا.

مسألة:

تسبيحات الركوع والسجود هناك فلا نعيدها وتوصيفه بالأعلى إشارة إلى موجب التسبيح فإن علو شأنه عن إدراك العقول وكما قال قهرمانه واقتداره بمنع عن تسميته بشيء إلا بما وصف به نفسه ويوجب تنزيهه عما وصف به الملحدون سبحانه ما أعظم شأنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ حذف المفعول للدلالة على العموم أي خلق كل شيء من الجواهر والأعراض وأفعال العباد ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي جعل كل شيء متناسب الأجزاء غير متفاوت أو المعنى سوى ما شاء تسويه بحيث لا يتطرق إليه تصور مما خلق لأجله من منفعة ومصلحة أو المعنى سوى مجموع الخلق على ما يقتضيه النظام الجملي ومن ثم قالوا ليس في الإمكان أبدع مما قد كان يعني بحسب النظام ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ قرأ الكسائي بتجفيف الدال يعني هو قادر على كل ممكن والباقون بالتشديد وقال البغوي هما بمعنى واحد أي قل أجناس الأشياء وأتراعها وأشخاصها ومقاديرها صفاتها وأفعالها وأرزاقهاوآجالها على ما يشاء عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وكان عرشه على الماء»[٢] رواه مسلم وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[٣] رواه مسلم ﴿فَهَدَىٰ﴾ إلى ما خلق لأجله من خير أو شر، قال مجاهد هدى الإنسان سبيل الخير والشر والسعادة وهدى الحيوان لمراتعها وقال مقاتل والكلبي عرف الذكر كيف يأتي ذكر الأنثى، وقيل: خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان بوجه استخراجها منها، وقال السدي قدر مدة الجنين في الرحم ثم هدى للخروج من الرحم أو المعنى فهدى من شاء هدايته وأضل من شاء ضلالته والتقدير فهدى وأضل لكن حذف وأضل اكتفاء لقوله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٤] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد خضرته ﴿غُثَآءً﴾ يابساً متفتتاً ﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود صفة لغثاء، وقيل: حال من مرعى أي

(١) أخرجه أبو داود في كاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كل شيء بقدر (٢٦٥٥).

(٤) سورة النحل، الآية: ٩٣.

أخرجه أحوى من شدة حضرته، كان النبي إذا نزل عليه جبرائيل يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها مخافة أن ينساها فأنزل الله ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ وفي إسناده جويبر ضعيف جداً وكذا قال مجاهد والكلبي وقال: فلم ينس رسول الله ﷺ بعد ذلك شيئاً يعني سنجعلك قارياً بإلهام القراءة كما أنزلنا عليك بلسان جبرائيل، وقيل: لا تنس والألف مزيد الفاصلة عن أبي موس الأشعر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصياً من الإبل في عقلها»[1] متفق عليه، وفي الصحيحين عن ابن مسعود نحوه وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهدها أمسكها وإن أطلقها ذهبت» متفق عليه وعن سعد بن مسعد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرىء يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم»[2] رواه أبو داود والدارمي ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن ينساه والاستثناء مفرغ في محل النصب والمراد على تأويل الجمهور كما هو الظاهر ما نسخ الله تلاوته وحكمه معاً كماقال: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾[3] والإنساء نوع من النسخ وعلى هذا التأويل في الآية المعجزة بوجهين فإن عدم النسيان مطلقاً مع أن النسيان مجبول في الإنسان معجزة وفي الأخبار فيما يستقبل ووقعه كذلك معجزة أخرى وأما على ما قيل أن لا ينسى نهي فمعنى الاستثناء أن معاهدة القرآن بقدر الطاقة البشرية واجب فإن شاء الله نسيانه مع معاهدته فهو معذور له ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ من القول والفعل ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ منهما أي يعلم السر والعلانية ويعلم جهرك بالقراءة مع جبرائيل وما دعاك إليه من مخافة النسيان ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾ أي نوفقك ونهون عليك عمل الجنة ومنه القراءة على حسب ما أنزل عليك وحفظه والعمل بمضمونه، وفي الكلام قلب تقديره نيسر اليسرى لك وفيه مبالغة فإن اليسرى كان مطلوباً للنبي ﷺ فجعل طالباً له ﷺ، قلت: وهذا هو شأن المحبوبية الصرفة قال ابن عباس اليسرى عمل الخير وقيل: معناه نوفقك للشريعة السمحة الحنيفية والجملة معطوفة على سنقرءك وجملة أن يعلم يعلم الجهر وما يخفى معترضة مادحة فذكر الفاء للسببية يعني لما يسرنا لك القرآن والشريعة السمحة ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾ شرط مستغن عن الجزاء بما سبق قيل: إنما جاءت الشرطية بعد تكرير التذكير وحصول اليأس

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (٥٠٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضائل القرآن وما يتعلق به (٧٩١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه (١٤٧٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

عن البعض لئلا يتعب نفسه ويتلهف عليهم كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[(١)] وقيل: ظاهره شرط ومعناه استبعاد لتأثير الذكرى فيهم وذم لهم، وقيل: بالتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يجب إذا ظن نفعه ولذلك أمر بالإعراض عمن تولى وقيل: شرط الجملة محذوف والمراد أنه ذكر أن نفعت الذكرى أو لم ينفع كما في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[(٢)] وأراد الحر والبرد جميعاً ثم بعد ذلك من ينفعه فقال ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ يتعظ وينفع بها ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ الله تعالى فإنه يتأمل فيها ويعمل بمضمونها مخافة عذاب الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي الذكر ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي الكافر فإنه أشقى من الفاسق أو الأشقى من الكفرة لتوغله في الكفر واللام حينئذ للعهد قيل هو الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى﴾ أي يدخل ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي نار جهنم أو ما في الدرك الأسفل منها أنه ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فتستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة طيبة عطف على يصلي بثم لأن التأبيد في العذاب أفزع من التصلي فهو متراخ عنه في مراتب الشدة وفي الوجود أيضاً ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي فاز ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهر باطنه عن الشرك وظاهره عن النجاسة للصلاة وماله عن الخبث بالزكاة وقلبه من الاشتغال بذكر الله سبحانه ونفسه عن الرزائل وجوارحه عن خبث المعاصي من الزكاة كتصدق من الصدقة وجملة قد أفلح مستأنفة كأنه في جواب من نجا منها ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ أخرج البزار عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «قد أفلح من تزكى قا:ل من شهدأن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله وذكر اسم ربه فصلى قال: هي الصلاة الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها» قالت الحنفية كبر لافتتاح الصلاة فصلى ومن ثم قالوا إن تكبيرة الافتتاح ليست ركناً من الصلاة بل هو شرط عملاً بمقتضى الفاء العاطفة الدالة على المغايرة والتعقيب لايقال عطف العام على الخاص جائز إجماعاً مع كون العام مشتملاً على الخاص فكذا عطف الكل على الجزء لأنا نقول جواز عطف العام على الخاص لنكتة بلاغية وهي منعدمة في عطف الكل على الجزء ولا نظير له في الاستعمال فعلى هذا جوزوا وبناء النافلة على الفريضة وعلى النافلة وروي عن أبي اليسير جواز بناء الفرضة على النافلة أيضاً وجمهور الحنفية على منعه وكذا على منع بناء الفرض على الفرض، قلت: وكونه شرطاً لا يقتضي البناء ألا ترى أن الية شرط ولا يجوز الصلاتان بنية واحدة والوضوء شرط وكان في صدر الإسلام واجباً لكل صلاة غير أن بناء النفل على الفرض يجوز تبعاً كمن صلى الظهر خمساً ناسياً وقعد

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨١.

للأخيرة ضم إليها السادسة وسجد للسهو والركعتان نافلة، وقال الشافعي وغيره تكبيرة الإحرام ركن لأنه يشترك له كسائر الأركان وهذا آية الركنية قال الحنفية مراعاة الشرائط لما يتصل بها من القيام لا لنفسه ولذا قالوا: لو تحرم حامل النجاسة أو مكشوف العورة أو قبل ظهور الزوال أو متحرفاً عن القبلة وألقاها واستتر لعمل يسير وظهر الزوال واستقبل مع آخر الجزء من التحريمة جاز وذكر في الكافي أنها عند بعض أصحابنا ركن انتهى وهو ظاهر كلام الطحاوي فيجب على قول هؤلاء أن لا يصح هذا الفروع والله تعالى أعلم، قلت: ويحتمل أن يكون المراد بذكر اسم ربه الأذان والإقامة يعني أذن وأقام فصلى وحينئذ لا دليل على نفي ركنية تكبيرة الافتتاح وقيل: تزكى أي تصدق للفطر وذكر اسم أي كبر يوم العيد فصلى صلاته كذا قال عطاء، وقال ابن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ إمرأ تصدق ثم صلى ثم قرأ هذه الآية وقال نافع كان ابن عمر إذا صلى الغداة يعني يوم العيد قال: يا نافع أخرجت الصدقة فإن قلت نعم مضى إلى المصلى وإن قلت لا قال فالآن نخرج فإنما نزلت هذه الآية وفي هذا قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى وهو قول أبو العالية وابن سيرين وقال بعضهم لا أدري ما وجه هذا التأويل فإن هذه السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة ولا فطر، قال البغوي يجوز أن يكون النزول سابقاً عن الحكم قال الله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾[1] فإن السورة مكية وظهر أثر الحل يوم الفتح وكذا نزل بمكة ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[2] قال عمر بن الخطاب لا أدري أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر قلت سيهزم الجمع صيغة الاستقبال فلا محذور في نزوله سابقاً وأما هنا فقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ صيغة لا يتصور الحكاية عن شيء من قبل وجوده، وقيل المراد بالصلاة ها هنا الدعاء فإن من سنة الدعاء الثناء على الله أولاً وآخراً عن فضالة قال: بينما رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل وصلى فقال: اللهم اغفر لي وارحمني قال رسول الله ﷺ: «عجلت أيها المصلي إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله وصل علي ثم ادعه قال: ثم صلى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلى على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أيها المصلي ادع تجب»[3] رواه الترمذي وروى أبو داود والنسائي نحوه، عن عبد الله بن مسعود قال: كنت أصلي والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر معه فلما

---

(١) سورة البلد، الآية: ٢.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٥.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات.

جلست بدأت بالثناء على الله ثم الصلاة على النبي ﷺ ثم دعوت لنفسي فقال النبي ﷺ: «سل تعط» رواه الترمذي، قال الشيخ الأجل يعقوب الكرخي ﷺ إن في الآية إشارة إلى منازل السلوك الأول التوبة والتزكية بقوله قد أفحلح من تزكى والثاني المداومة بالذكر اللساني والقلبي والروحي والسري بقوله وذكر اسم ربه والثالث بالمشاهدات بقوله فصلى فإن الصلاة معراج المؤمنين قال رسول الله ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[1] رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي، قلت: وأيضاً في عطف الذكر على التزكي بالواو وعطف الصلاة عليه بالفاء إشارة إلى ما ذكر المجدد من الترتيب في أذكار الطريقة حيث عين للمبتدي الذكر باسم الذات أو النفي والإثبات في أثناء تزكية النفس وقال: إن الصلاة لا تقيد فائدة تامة إلا بعد تزكية النفس وفي التجليات الذاتية والترقي هناك بالصلاة والله تعالى أعلم ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الأشقياء والباقون بالتاء على الخطاب لهم على سبيل الالتفات أو على إضمار قل جملة بل تؤثرون على محذوف أي وهم يعني الأشقياء لا يزكون وأنتم أيها الأشقياء لا تزكون ولا تذكرون اسم ربكم ولا يصلون بل توترون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الحياة الأخرى ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ فإن نعمها ذات بالذات خال عن الغوائل وأجل نعمها الروية والوصال ورضوان الله ذي الجلال ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي الانقطاع لها بخلاف الدنيا، وهذه الجملة حال من فاعل تؤثرون ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني ما ذكر من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ إلى آخر أربع آيات ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي الكتب السماوية على الأنبياء والماضيين فإنه جامع أمور الديانة وخلاصة الكتب كلها ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ بدل بعض تخصيص بعد التعميم أمال حمزة والكسائي أواخر السورة وورش وأمال أبو عمرو الذكرى واليسرى وما عداها بين بين والباقون بالفتح، أخرج البزار عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ قال النبي ﷺ كان هذا وكل هذا في صحف إبراهيم وموسى وقيل: هذا في إن هذا إشارة إلى ما في السورة كلها واستدل بعض الحنفية بهذه الآية على جواز قراءة القرآن في الصلاة بالفارسية لأن الله سبحانه أمر بقراءة ما تيسر من القرآن ثم قال: إن هذا لفي الصحف الأولى وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2] ولم يكن في الصحف الأولى بهذا

(١) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٩٦.

النظم بل بالمعنى، قلت: هذا ليس بشيء فإن القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[2] يعني في النظم فإنه هو المعجز في كل سورة غالباً ولذا جاز مس المحدث والجنب وقراءة الجنب والحائض ترجمة القرآن بالفارسية والإشارة إلى المعنى في هذه الآية وكذا إرجاع الضمير إلى القرآن من حيث المعنى مجازاً لايستلزم كون القرآن اسماً للمعنى فقط والله تعالى أعلم. عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة سبح اسم ربك الأعلى» رواه أحمد، وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين يوتر بعدهما سبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون وفي الوتر بقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس»[3] رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وفي حديث أبي بن كعب عند أبي داود والترمذي وحديث ابن عباس عند أبي داود والنسائي وأحمد وابن ماجه وقال: إذا صلى الوتر ثلاثاً يقرأ في الأولى سبح اسم ربك الأعلى وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل هو الله أحد، وعن النعمان بن بشير قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في العيدين والجمعة سبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية»[4] رواه مسلم وروى أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث سمرة أنه ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية.

فائدة: في هذه السورة تأثير عظيم في العروج كما أن في سورة ألم نشرح تأثير قوي في النزول كذا قال المجدد رضي الله عنه ، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الوتر، باب: ما جاء فيما يقرأ في الوتر (٤٥٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: قيام الليل وتطوع النهار، باب: نوع آخر من القراءة في الوتر (١٧٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقرأ في الوتر (١٤٢٢).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: ما يقرأ في صلاة الجمعة (٨٧٨).

سورة الغاشية

مكية وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ
نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي
مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا
لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾
وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ استفهام تقرير أي قد أتاك ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ أي الساعة التي تغشى كل شيء بالشدائد والأهوال، وقيل: المراد بالغاشية النار قال الله تعالى ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾[1] لكن تعقيبها بذكر الكفار والمؤمنين بقوله وجوه يومئذ يدل على صحة التأويل الأول ﴿وُجُوهٌ﴾ تنوينه للتكثير أو عوض عن المضاف إليه أي وجوه كثيرة أو وجوه الكفار فصح جعلها مبتدأ لأنه مخصصة أو في قوة المعرفة والمراد بها أصحاب وجوه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وأعرب بإعرابه وأجري عليه من الأخبار ما كانت جارية على المضاف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بغاشية أي يوم إذا كانت الغاشية وجوه ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة من الحزن والهوان ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ يعني في النار والنصب التعب، قال الحسن لم تعمل لله في الدنيا فاعملها وانصبها في النار بمعالجة السلاسل والأغلال وبه قال قتادة وهو رواية العوفي عن ابن عباس قال ابن مسعود يخوض في النار كما يخوض الإبل في الوحل وقال الكلبي يجرون على وجوههم في النار، وقال الضحاك يرتقي جبلاً من حديد في النار، وقيل: معناه الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين حق من عبده الأوثان وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم لا يقبل الله منهم اجتهاداً في ضلالته يدخلون

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥٠.

النار يوم القيامة وهو قول سعيد بن جبير وزيد بن أسلم رواه عطاء عن ابن عباس وقال عكرمة والسدي عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في الآخرة في النار ﴿تَصْلَىٰ﴾ قرأ أبو عمر وأبو بكر تصلى بضم التاء والباقون بفتح التاء ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ قال ابن عباس قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال يعني ما انتهى حرها فلا يكون فوقه حر، وأخرج البيهقي عن الحسن أنه قال كانت العرب يقول للشيء إذا انتهى حره حتى لا يكون شيئاً أحر منه قد أتى حره فقال الله سبحانه من عين آنية، يقال قد أوقدت عليها في جهنم منذ خلقت يأتي حرها، قال المفسرون وردوا إلى جهنم وردوا عطاشاً فسقوا من عين آنية لو وقعت منها قطرة على الجبال الدنيا لذابت ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ أخرج عبد الله بن أحمد من طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الضريع شيء يكون في النار شبه الشوك أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حراً من النار إذا أطعم صاحبه لا يدخل البطن ولا يرتفع إلى الفم فسقى بين ذلك لا يسمن ولا يغني من جوع» وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: هو الزقوم، وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب» وقد مر فيما قبل، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة نبت ذو شوكة لا بالأرض تسميه قريش الشبرق فإذا هاج العود تسميه الشريع هوا خبث طعام، قال الكلبي لا يقربه دابة إذا يبس وقال ابن أبي زيد أما في الدنيا فإن الضريع الشوك اليابس الذي ليس له ورق وهو في الآخرة شوك من نار، قال المفسرون لما نزلت هذه الآية قال المشركون إن إبلنا يسمن من الضريع وكذا في ذلك فإن الإبل إنما يرعاه ما دام رطباً وسيماً شدقاً فإذا يبس لا يأكله شيء فأنزل الله تعالى ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ صفة ضريع والمقصود من الطعام أحد الأمرين والمراد أيضاً في ليس لهم طعام إلا من ضريع أو شبه لا يسمن أو يغني من جوع كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾(١) يعني ليس كاهناً أو شاعراً ونحو ذلك مما ينافي الرسالة، والمراد ههنا بعض من الكفار لا يكون طعامهم إلا من ضريع ويكون الضريع والزقوم طعام غيرهم من الكفار ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ كثيرة أو وجوه المؤمنين يعني أصحابها مبتدأ وما بعد أخبار ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ متنعمة ذات بهجة ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ في الدنيا في طاعة الله متعلق بقوله ﴿رَاضِيَةٌ﴾ فيالآخرة لما رأت ثوابها ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ المحل والقدر ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر وبالياء المضمومة على البناء للمفعول الواحد المذكر ﴿فِيهَا لَاغِيَةً﴾ بالرفع على أنه

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

مسند إليه والتأنيث غير حقيقي وقرأ نافع ذلك إلا أنه قرأ لا تسمع بالتاء التأنيث المسند إليه والباقون بالتاء المفتوحة على البناء للفاعل والضمير للمؤنث راجع إلى وجهه أو للخطاب مع النبي ﷺ والمخاطب غير معين وقرأ لاغية بالنصب على المفعولية يعني لا تسمع لغواً وباطلاً وكلمة ذات لغو المراد نفساً تلغوا فإن كلام أهل الجنة للذكر والحكمة، أخرج البيهقي في هذه الآية قال: لا تسمع صفة لجنة بعد صفة وكذا الجملة بعدها ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ لا يقطع جريانها والتنكير للتعظيم أخرج ابن حبان والحاكم والبيهقي والطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من جبل مسك» ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ رفيعة السمك والقدر، أخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «في قوله تعالى (وفرش مرفوعة) قال: «ما بين الفراشين كمابين السماء والأرض» ولفظ الترمذي «ارتفاعها كما بين السماء الأرض مسيرة خمسمائة»[1] قال الترمذي قال بعض أهل العلم في تفسيره معناه أن الفرش في الدرجات كما بين السماء والأرض، أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ قال: لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفاً وأخرج الطبراني عنه مرفوعاً «لو طرح منها فراش من أعلاها لهوى إلى قرارها مائة خريف» قال البغوي قال ابن عباس ألواح السرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة ما لم يجيء أهلها فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم يرتفع لى مواضعها ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب أخرج هناد عن مجاهد قال: التي ليست لها أذن يعني لا عروة له ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ على حافة العيون معدة للشرب ﴿وَنَمَارِقُ﴾ جمع نمرقة بالفتح والضم ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بضعها إلى جنب بعضها أيما أراد أن يجلس جلس واستند ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بسط عريضة فاخرة جمع زربية ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطة أو متفرقة في المجالس أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فكذبوه فأنزل الله تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة ثياب أهل الجنة (٢٥٤٠).

﴿إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ قال صاحب المدارك لما أنزل الله فيها سرر مرفوعة الخ وفسره النبي ﷺ بأن ارتفاع السرائر كذا والأكواب الموضوعة لا تدخل في حساب الخلق لكثرتها وطول النمارق كذا وعرض الزرابي كذا أنكر الكفار، وقالوا كيف يصعد على تلك السرر وكيف يكثر الأكواب هذه الكثرة وطول النمارق هذا الطول وبسط الزرابي هذا الانبساط ولم تشاهد ذلك في الدنيا قال الله تعالى: (أفلا ينظرون) نظر اعتبار استفهام للتوبيخ والفاء للعطف والمعطوف عليه محذوف تقديره تعجبون ويغفلون أفلا ينظرون ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ طويلة ثم يبرك لركوب لم تقوم فكذا سرر يطأطأ للمؤمنين كما يطأطأ الإبل ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ رفعاً بعيداً ونجومها تكثير هذه الكثيرة فلا يدخل في حساب الخلق فكذا الأكواب ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ راسخة لا تميل مع طولها فكذا النمارق ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ سطحاً مستوياً واحداً فكذا الزرابي ويجوز أن يكون المعنى أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات الشاهد على كمال قدرة الخالق فيستدلوا به على اقتداره على البعث فيسمعوا إلى إخبار مخبر الصادق الصدوق بشهادة المعجزات وليؤمنوا به ويستعدوا للغاية وتخصيص الإبل من المركبات والثلاثة من البسائط لأن الخطاب للعرب والمراد إنما يستدل به بما يكثر مشاهدته والعرب تكون في البوادي ونظرهم فيها إلى السماء والأرض والجبال والإبل كان الإبل أعز أموالهم وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر الحيوانات وهي تجمع جميع المآرب المطلوبة من الحيوان من النسل والدر والحمل والركب والأكل بخلاف غيرها فقال أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث جعلها مع عظمها باركة للحمل ناهضة بالحمل منقادةً من أقوادها طويلة الأعناق ليتناول الأوراق من الأشجار ولترعى كل نابت ويحتمل العطش إلى عشرة فصاعداً ليتأتي بها قطع البوادي، وقيل: المراد بالإبل السحاب قال في القاموس الإبل بكسرتين ويسكن بالمعروف السحاب الذي يحمل ماء المطر والله تعالى أعلم عن ابن عباس قال: هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل وليرفع مثل السماء وينصب مثل الجبال ويسطح مثل الأرض غبرى ﴿فَذَكِّرْ﴾ لهم بالأدلة ليتفكروا فيها ولتهتم ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليل للتذكير أي ليس عليك إن لم ينظروا ولم يذكروا إنما أنت عليك البلاغ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ تأكيد لمضمون إنماأنتَ مذكر قرأ هشام

بمسيطر بالسين وحمزة بخلاف عنه والباقون بالصاد خالصة أي لست بمسلط عليهم قائم وحافظ عليهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ﴾[1] ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان وكفر بالله استثناء منقطع معنى لكن والخبر محذوف يعني لكن من تولى منهم ﴿وَكَفَرَ﴾ فالله مسلط قاهر عليه ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ بالنار في الآخرة وقيل: استثناء متصل كأنه أوعد بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، وقيل: استثناء متصل من الضمير المنصوب المحذوف في قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ﴾ يعني فذكرهم إلا من تولى منهم وكفر وآخر طلبه بحيث انقطع طمعك في إيمانه وما بينهما إعراض ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾رجوعهم وتقديم الظرف لتشديد الوعيد يعني ليس إيابهم إلا إلى جبارقها متعذر على الانتقام ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ فنحاسبهم ونجازيهم على حسب غلوهم في الكفر وعلى في الأصل للوجوب واستعير ها هنا لتأكيد الوعيد إذ لا يجب على الله شيء فإن الوجوب ينافي الألوهية، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.

سورة الفجر

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ أقسم الله تعالى بالفجر أي انفجار صبح كل يوم كذا روى أبو صالح عن ابن عباس وهو قول عكرمة وقال عطية هو صلاة الفجر، وقال قتادة هو أول فجر المحرم ينفجر منه السنة وقال الضحاك فجر أول يوم من ذي الحجة لأنه قرن به الليالي العشرة ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ تنكير للتعظيم روى عن ابن عباس أنها العشر الأول من ذي الحجة وهو قول قتادة ومجاهد والضحاك والسدي والكلبي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد فيها من عشر ذي الحجة يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر»(١) رواه الترمذي وابن ماجه بسند ضعيف وقال أبو روق عن الضحاك هي العشر الأول من شهر رمضان وروى أبو ظبيان هي العشر الآخر من شهر رمضان وقد ذكرنا فضائل رمضان في سورة البقرة وأيضاً في العشر الأخير ليلة القدر وسنذكرها في سورة ليلة القدر إن شاء الله تعالى، وقال يمان بن رباب هي العشر الأول من المحرم التي عاشرها يوم عاشوراء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٢).

الفريضة صلاة الليل»[١] رواه مسلم ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الواو والباقون بالفتح قيل: الشفع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾[٢] والوتر الواحد روى ذلك عن أبي سعيد الخدري وهو قول عطية والعوفي وقال مجاهد ومسروق نحوه فقال: الخلق كله شفع يعني يقابل بعضها بعضاً قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[٣] الكفر والإيمان والهدى والضلال والسعادة والشقاوة والليل والنهار والسماء والأرض والبر والبحر والشمس والقمر والجن والإنس والذكر والأنثى والوتر هو الله أحد.

سئل أبو بكر عن الشفع والوتر؟ قال: الشفع تضاد أوصاف المخلوقين الحياة والموت والعز والذل والعجز والقدرة والقروة والضعف والعلم والجهل والبصر والعمى والسمع والبكم والكلام والسكوت والغنى والفقر والوتر انفراد صفات الله تعالى حياة بلا موت وعز بلا ذل وقدرة بلا عجز وقوة بلا ضعف وعلم بلا جهل وكلام بلا سكوت وغنا بلا فقر وقال الحسن وابن زيد الشفع والوتر الخلق كله شفع ومنه وتر، وروى قتادة عن الحسن قال: هو العدد منه شفع ومنه وتر قال: هي الصلاة منها شفع ومنها وتر مالك عن ابن حصين مرفوعاً رواه أحمد والترمذي وعن عبد الله بن زبير الشفع النفر الأول من الحج والوتر النفر الثاني قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[٤] وقال مقاتل بن حبان الشفع الأيام والليالي والوتر يوم القيامة لا ليلة لها وقال الحسن الشفع درجات الجنة الثمان والوتر درجات النار لأنها سبع كأنه أقسم بالجنة والنار ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ إذا سار وذهب كما قال والليل إذا أدبر وقال قتادة إذا جاء وأقبل وإنما قيد بذلك لما في التعاقب من قوة الدالة على كمال القدرة ووفور النعمة الماد يسري فيه من قولهم صلى المقام بمعنى صلى فيه وأراد بالليل كل ليلة، وقال مجاهد وعكرمة هي ليلة مزدلفة. قرأ ابن كثير يسري بإثبات الياء وصلاً ووقفاً لأنها لام الفعل فلا يحذف منه وقرأ نافع وأبو عمرو بالياء وصلاً وبالحذف وقفاً والباقون بالحذف في الحالين لوفاق رؤوس الآي، سئل الأخفش عن العلة في سقوط الياء فقال: الليل ما يسري ولكن يسرى فيه فهو مصروف فلما صرف بحسبه صفة من الإعراب كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[٥] ولم يقل بغية لأنه صرف عنه باغية

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: فضل صوم المحرم (١٦٣).
(٢) سورة النبأ، الآية: ٨.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.
(٥) سورة مريم، الآية: ٢٨.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكرت ﴿قَسَمٌ﴾ التنكير للتعظيم مقنع ويكتفى في القسم والاستفهام للتقرير والجملة الاستفهامية معترضة لتفخيم شأن المقسم به فإنه من عجائب قدرة الله تعالى وبدائع حكمته ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي لذي عقل سمى العقل بذلك لأنه يحجر صاحبه عن القبائح وجواب القسم إن ربك لبالمرصاد وما بينهما اعتراض جيء لتأكيد الجواب أو الجواب محذوف وهو هؤلاء الكفار إن لم يؤمنوا كما أهلكنا عاد أو ثمود يدل عليه ما بعده ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استهفام لإنكار النفي فهو للتقرير للإثبات وللتعجب والرؤية هنا لمعنى اليقين والجملة الاستفهامية بعده في محل النصب بالمفعولية ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ كانوا أطول أعمار أو أشد قوى من هؤلاء الكفار يعني أهلكهم وسلط عليهم ريحاً دمرهم فكيف هؤلاء ﴿إِرَمَ﴾ بدل أو عطف بيان ومنع الصرف للعلمية والعجمية والتأنيث وإنها اسم قبيلة من عاد كان فيهم الملك وكانوا وكان في الأصل اسماً لأبي قبيلة وهو إرم بن عاد بن سام بن نوح عليه السلام وقال محمد بن إسحاق هو جد عاد وهو عاد بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام وعلى هذا التقرير عاد سبط إرم، وقال الكلبي إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل السواد وأهل الجزيرة كان يقال عاد أرم وثمود أرم فأهلك الله عاداً ثم ثمود وبقي أهل السواد والجزيرة فعلى هذا الأقوال أرم اسم أمة، قال مجاهد ثم وصف تلك الأمة بقوله ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي ذات العدد والطوال كذا قال ابن عباس يعني كان طولهم مثل عماد قال مقاتل كان طولهم اثني عشر ذراعاً يعني من ذراع النبي ﷺ وقيل: أكثر من ذلك، وقيل سمى تلك الأمة بذلك لأنهم كانوا أهل أعمدة وخيام سيارة في الربيع فإذا أباح العود رجعوا إلى منازلهم وكان أهل جنان وزروع ومنازلهم بوادي القرى وقيل: سموا ذات عماد لبناء بعضهم نشداً عمدة ورف بنائه يقال بنا شداد بن عاد على صفة لم يخلق في الدنيا مثله وسار إليه في قومه فلما كان منه على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى من معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً، وقال سعيد بن المسيب أرم ذات العماد بلدة يقال لها دمشق وقال القرطبي هي الاسكندرية فتقدير الكلام عاد أهل أرم ذات العماد أي ذات البناء الرفع وأساطين ﴿الَّتِي﴾ صفة أخرى لأرم سواء كانت بلدة أو قبيلة ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ أي مثل ذلك الأمة في القامة والقوة أو مثل تلك البلدة في رفعة البناء والاستحكام والحسن إليها ﴿فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ﴾ عطف على عاد ﴿الَّذِينَ جَابُوا﴾ أي قطعوا ﴿الصَّخْرَ﴾ واحدتها صخرة وهي الحجر كانوا ينحتون بيوتاً ﴿بِالْوَادِ﴾ أي بواد القرى أثبت ياء الوادي في الحالين البذي وكذا روى عن قنبل وفي الوصل فقط ورش وقنبل وحذف الباقون في الحالين لموافقة رؤوس الآي ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ عطف على ثمود ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ قال ابن عباس

ومحمد بن كعب القرطبي أي ذي البناء المحكم، وقيل: المراد بأوتاد الملك الشديد الثابت يقول العرب هم في العز ثابت الأوتاد ويريدون الدائم وقال عطية ذي الجنود والجموع الكثيرة وسميت الجنود الأوتاد لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويرتدونها في أسفارهم وهي رواية عطية عن ابن عباس، وقال مقاتل والكلبي الأوتاد جمع الوتد وكانت له أوتاد يعذب الناس عليها فكان إذا غضب على أحد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد وشد كل يد وكل رجل إلى سارية وتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت وقال مجاهد ومقاتل بن حبان كان يمد الرجل مستلقياً على الأرض ثم يمد يديه ورجليه على الأرض بالأوتاد، وقال السدي كان يمد الرجل ويشده بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحياة، وقال قتادة وعطاء كانت له أوتاد وملاعب يلعب عليها بين يديهس، روى البغوي بسنده عن ابن عباس أن فرعون سمي بذي الأوتاد لأنه كانت له امرأة وهي امرأة خازنة حزقيل وكان مؤمناً وكتم إيمانه مائة سنة وكانت أمرأته ماشطة بنت فرعون فبيما هي ذات يوم يمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت: تعس من كفر بالله فقالت بنت فرعون وهل لك من إله غير أبي فقالت إلهي وإله أبيك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له فقامت ودخلت على أبيها وهي تبكي فقال: ما يبكيك؟ فقالت: الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهك وإلهها وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له فأرسل إليها فسألها عن ذلك فقالت: سبعين شهراً ما كفرت بالله وكانت لها ابنتان فجاء ابنتها الكبرى فذبحهاعلى فيها وقال لها أكفري بالله وإلا ذبحت الصغرى على فيك وكانت رضيعاً، فقالت: لو ذبحت من علي الأرض علي في ما كفرت بالله عز وجل فأتى فلما اضجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جزت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا أطفالاً فقالت: يا أماه لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة اصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته فذبحت فلم تلبث أن ماتت فأسكنها الله الجنة، قال: وبعث في طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه فقيل لفرعون إنه قد رأي في موضع كذا في جبل كذا فبعث رجلين في طلبه فلما انتهيا إليه وهو يصلي وثلاثة صفوف من الوحوش خلفه يصلون فلما رأى ذلك انصرفا قال حزقيل اللهم كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر على أحد فأيما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار فانصرف رجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ فقال: وهل كان معك غيرك؟ قال: نعم فلان فدعا به، فقال: أحق ما يقول هذا؟ قال: لا ما رأيت مما قال شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل

وأما الآخر فقتله ثم صلبه وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بني إسرائيل يقال لها: آسية بنت مزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة فقالت: كيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وهو كافر؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها فقالت: يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثه عمدت إلى الماشطة فقتلتها فقال: فلعل بك الجنون الذي كان بها؟ قالت: ما بي جنون وإن إلهي وإلهها وإلهك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له فمزق عليها ثيابها وضربها وأرسل إلى أبويها فدعاهما، فقال لهما ألا تريان أن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك إني أشهد أن ربي وربك رب السماوات والأرض واحد لا شريك له فقال أبوها يا آسية ألست من خير نساء عماليق وزوجك إله العماليق؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك إن كان ما تقول حقاً فقولا لأن يتوجني تاجاً تكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله فقال لهما فرعون أخرجا عن أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون فعند ذلك قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله فقبض الله روحها وأسكنها في الجنة انتهى، وامرأة فرعون هذه هي التي منعت فرعون عن قتل موسى عليه السلام حين التقطه آل فرعون من اليم وقد ألقاها بإذن ربها حين خافت القتل على موسى وذكر القصة في سورة القصص ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾(١) وقد نفعهما الله به حيث آمنت ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مجرور صفة للمذكورين أو منصوب على الذم أو مرفوع خبر مبتدأ ومحذوف أي هم الذين ﴿طَغَوْا﴾ أي جاوزوا في الحد والعصيان ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ متعلق بطغوا، ﴿فَأَكْثَرُوا﴾ عطف على طغوا ﴿فِيهَا﴾ أي في البلاد ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ بالكفر والظلم ﴿فَصَبَّ﴾ عطف على طغوا والفاء للسببية ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي عذاباً مختلطاً بعضها ببعض فهي إضافة صفة إلى موصوفها كأخلاق ثياب وأصل السوط الخلط ومنه يقال السوط للحد لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض وشبه بالسوط ما حل بهم في الدنيا من العذاب إشعاراً بأنه بالقياس إلى ما أعدلهم في الآخرة من العذاب كالسوط إذا قبس بالسيف وقال قتادة يعني سوطاً من العذاب صبه عليهم، وقال أهل المعاني هذا على الاستعارة لأن السوط عندهم غاية العذاب فالمعنى أنه دفع العذاب بهم على أبلغ الوجوه دفعة واحدة كما يشير به الصب ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ جواب للقسم أو بجواب محذوف والمرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد وكونه بالمرصاد كناية من أنه تعالى يريد من العباد الطاعة والسمع لأجل الآخرة فيترصد أعمالهم

(١) سورة القصص، الآية: ٩٠.

ويحيط بحث لا يفوته شيء منها كما لا يفوت ممن يرصد في المرصاد من يمر بها يجازيهم عليها والإنسان غافل عن ذلك لا يهم إلا لدنيا ولذاتها ولذلك عطف عليه قوله:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي امتحنه بالغنى واليسرى حتى يظهر أنه يشكر المنعم أو يكفر والظرف متعلق بيقول ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ في الدنيا بالجاه ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالأموال والأزواج والأولاد وغير ذلك بيان للابتلاء ﴿فَيَقُولُ﴾ أخبر للإنسان والفاء بمعنى الشرط في إفادته معلولية القول ﴿رَبِّىٓ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بسكون الياء والباقون بالفتح، وكذا في ربي أهانن ﴿أَكْرَمَنِ﴾ أي فضلني بها أعطاني أثبت الياء في أكرمني وأهانني يعقوب والبزي وصلاً ووقفاً ونافع في الوصل فقط وجر فيها أبو عمرو قياس قوله في رؤوس الآي يوجب حذفها في الحالين قال أبو عمر الدالاني بذلك قرأت وبه أخذوا والباقون حذفها في الحالين ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي امتحنه بالفقر حتى يظهر أنه يصبر ويرجع إلى الله تعالى أو يجزع ويكفر متى غير رجوع إليه تعالى ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر قدر بالتشديد والباقون بالتخفيف فقيل أولى بمعنى قتر والثاني بمعنى أعطاه ما يكفيه، وقيل: معناهما واحد أي ضيق ولم يقل ها هنا أهانه وقدر عليه رزقه كما قال: هناك فأكرمه ونعمه لأن توسعته المال في الدنيا تفضل يوجب الشكر وقد يكون موجباً للإكرام في الآخرة أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا على اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»[1] متفق عليه، وأما التقتير فلا يكون إهانة فقط ﴿فَيَقُولُ﴾ الإنسان ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: من يقوم بالقرآن يعلمه (٨١٦).

ويقول ذلك لقصور نظره على الدنيا وانهماكه فيها، قال الكلبي ومقاتل نزلت في أمية ابن خلف الجمحي الكافر والله تعال أعلم ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يقول فإن الغنى والنعام الدنيوية قد يكون استدراجاً من الله إذا لم يقترن بالشكر بل مع الشكر أيضاً لا تقبل عند الله للغني الشاكر على الفقير الصابر، عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد أن له فضلاً على من دونه فقال رسول الله ﷺ: «هل تُنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»[(١)] رواه البخاري، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأبعين خريفاً»[(٢)] رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم»[(٣)] رواه الترمذي والفقر والضعف إذا اقترن بالصبر والرضا يكون نعمة لا إهانة عن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء»[(٤)] رواه أحمد والترمذي وفي الباب أحاديث كثيرة ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ بالنفقة ولا تحبون إليه مع أن الله تعالى أكرمكم بالغنى، وقيل: لا تعطونه حقه عطف على يقولون يعني بل قولهم دال على انهماكهم في الدنيا حيث لا يكرمون اليتيم قال مقاتل: كان قدامة بن بظعن يتيماً في حجر أمية بن خلف فكان يدفعه عنه حقه، قرأ أبو عمرو لا يكرمون ولا يحضون ويأكلون ويحبون بالياء عى الغيبة والضمير راجع إلى الإنسان نظراً إلى معناه الجمعي من حيث كونه جنساً وما سبق من الضمائر المفردة راجع إليه نظر إلى لفظه والباقون الأفعال الأربعة بالتاء الخطاب إليهم على سبيل الالتفات ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ قرأ الكوفيون بالألف بعد الحاء من التفاعل بحذف أحد التائين أي لا يحض بعضكم بعضاً والباقون بغير الألف أي لا تحضون غيركم ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فضلاً أن تطعموا من أموالكم ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي الميراث أصله الوارث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي ذا لم أي جمع بين الحلال والحرام كانوا يأكلون مع أبضاعهم أبضاع ضعفاء من النساء والصبيان، قال ابن زيد الأكل اللم الذي يأكل شيئاً يجده لا يسأل عنه أحلال أم حرام، وقيل: يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ أي كثيراً مع

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب (٢٨٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٣٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الطب، باب: ما جاء في الحمية (٢٠٣٧).

حرص وشره ﴿كَلَّآ﴾ ردع عما يفعلون وقال مقاتل أي لا يفعلون ماأمروا به أو هو بمعنى حقاً تحقيقاً لما يذكر بعده من الوعيد ويخبر عنه تحسرهم حين لا ينفعهم الحسرة ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي زلزالاً بعد زلزال حتى تنكسر ما عليها من الجبال والأشجار والأبنية وصارت هباء منبثاً ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ عطف على دكت وهي من المتشابهات وقد ذكرنا ما فيها من قول السلف والخلف وأصحاب القلوب في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[1] ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ اللام للجنس أي وجاءت الملائكة ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ حال من الملك، أي جاؤوايصفون صفاً بعد صف، أخرج ابن جرير وابن المبارك عن الضحاك قال: إذا كان يوم القيامة أمر الله سبحانه السماء الدنيا فنشقتت بأهلها فتكون الملائكة على حافاتها حين يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثانية ثم الرابعة والخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفوا صفاً دون صف ثم ينزل الملك الأعلى بجنبه اليسرى جهنم فإذا أراها أهل الأرض فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا لى مكان الذي كانوا فيه وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾[2] الآية وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] الآية، قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾[4] يعني ما تشقق منها فبينما كذلك إذ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ عطف على جاء، أخرج مسلم والترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[5] وأخرج ابن وهب في كتاب الأهوال عن زيد بن أسلم قال: «أتى جبرائيل إلى النبي ﷺ لتكسر الطرف فسأله علي عليه السلام فقال: أتاني جبرائيل فقال: أتاني جبرائيل فقال: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ بما

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٢) سورة غافر، الآية: ٣٢ ـ ٣٣.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.
(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٦ ـ ١٧.
(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٢)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة النار (٢٥٧٣).

تقاد سبعين ألف زمام تقاد سبعين ألف ملك فبينما هم إذا خردت انفلتت من أيديهم فلولا أنهم أدركوها لأحرقت من في الجمع فأخذوها قال القرطبي يجاء بها من المحل الذي خلقها الله فيه فيدار بأرض الحشر لا يبقى للجنة طريق إلا الصراط، وأخرج أبو نعيم عن كعب قال: إذا كان يوم القيامة فنزلت الملائكة فصاروا صفوفاً فيقول الله لجبرائيل ائت بجهنم فيأتي بها تقاد سبعين زماماً حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام زفرت طارت بها أفئدة الخلائق ثم زفرت الثانية فلا يبقى ملك مقرب ولا بني مسر إلا جثى الركبة ثم تزفر الثالثة فبلغ القلوب الحناجر وتزيل العقول فيفزع كل امرء عمله حتى إبراهيم يقول: بخلتي لا أسألك إلا نفسي ويقول موسى بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي، وقال عيسى بما أكرمني لا أسألك إلا نفسي ولا أسألك مريم التي ولدتني ومحمد ﷺ يقول: أمتي أمتي لا أسألك اليوم نفسي فيجيب جل جلاله إن الأولياء من أمتك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فوعزتي لأقرن عينيك في أمتك فقم تقف الملائكة بين يدي الله ينتظرون ما يؤمرون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا دكت أي يوم إذا دكت الأرض، وجيء بجهنم والعامل ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر الذي قال ربي أكرمني ربي أهانن على سراء الدنيا وضرائها جزاء بمعنى الشرط في الظرف أي يتذكر معاصيه يتعظ ويتوب ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ استفهام للإنكار أي ليس له منفعة الذكر فإن من شرط قبول التوبة الإيمان بالغيب ﴿يَقُولُ﴾ ذلك الإنسان تحسراً جملة مستأنفة كأنه في جواب فما يصنع حين يتذكر ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾ يعني يقول يا ليتني ﴿قَدَّمْتُ﴾ في الدنيا أعمالاً صالحاً ﴿لِحَيَاتِي﴾ التي لا ينطلق إليها الموت أو اللام بمعنى الوقت والمعنى يا ليتني قدمت الأعمال الصالحة وقت حياتي في الدنيا ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ عطف على يمئذ السابق والظرف متعلق بما بعده ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ﴾ منصوب بنزع الخافض، أي كعذابه وكذا وثاقه أحد ﴿أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ قرأ الكسائي ويعقوب لا يعذب ولا يوثق بفتح العين على البناء للمفعول أي لا يعذب أحد من الناس يعني عصاة المؤمنين كعذاب ذلك الإنسان أي الكافر إن كان المراد باللام الجنس أو المعنى لا يعذب أحد كعذاب ذلك الإنسان المعهود وهو أمية بن خلف ولا يوثق أحد في السلاسل والأغلال كوثاقه والباقون بكسر العين فيهما على البناء للفاعل وحينئذ الضمير المجرور في عذابه، ووثاقه إما راجع إلى الله سبحانه والإضافة إلى الفاعل أي لا يتولى عذاب الله ووثاقه يوم القيامة أحد سواه والأمر يومئذ كله لله أي والإنسان الكافر والإضافة إلى المفعول أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه أحداً وعلى هذا التأويلات يومئذ متعلق بلا يعذب ولا يوثق على سبيل التنازع والمعنى لا يعذب أحد أحداً من الأزل إلى الأبد كعذاب الله

يومئذ ولا يوثق أحد أحداً من الأزل إلى الأبد كوثاق الله يومئذ فيومئذ وحينئذ متعلق بالمصدر أي عذابه وثاقه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا﴾ بتقدير يقال جملة مستأنفة كأنه في جواب السائل إنما ذكر شأن الكفر فما شأن المؤمن فقال وتقديره يقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ في ذكر الله تعالى وطاعته كما تطمئن السمكة في الماء وذلك الاطمئنان لا يتصور إلا بعد زوال صفاتها الرذائل الموجبة لكونه أمارة بالسوء وزوال تلك الصفات لا يمكن إلا بتجليات صفات الله الحميدة الحسناء وفنائها فيها وبقائها فتصير حينئذ مؤمنة إيماناً حقيقياً كما أن الكلب لا يمكن طهارته إلا بوقوعه في الملح وفنائه فيها وبقائه بصفات الملح حتى يصير حلالاً طيباً ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي إلى ذات البحث بلا حجب الأسماء والصفات ﴿رَاضِيَةً﴾ بالله وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً وبما قدر الله لها حال من فاعل ارجعي، قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»[(١)] متفق عليه، وذاق طعم الإيمان المراد به هو الإيمان الحقيق ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ فإن رضا العبد بالله موجب لرضاء الله سبحانه عنه بل رضاء العبد أثر لرضائه تعالى ودليل عليه، قال الحسن إذا أراد الله قبضها اطمئنت ورضيت عن الله ورضي الله عنها، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقائه ومن كره لقاء الله كره الله لقائه فقالت عائشة أو بعض أزواجه إنا نكره الموت فقال ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت يبشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وأما الكافر إذا حضره الموت يبشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه ممامامه فكره لقاء الله وكره الله لقائه»[(٢)] متفق عليه، وفي رواية عائشة والموت قبل لقاء الله، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضر المؤمن الموت أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: أخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحانه ورب غير غضبان فيخرج كأطيب ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضه بعضاً حتى يأتوا به أبواب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائب يقدم عليه فيسألوا ماذا فعل فلان؟ فيقول: دعوه فإنه كان في غم الدنيا فيقول: قد مات أما أتاكم فيقولون قد ذهب به إلى أمه وإن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً فهو مؤمن (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من أحسب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٢٦٨٦).

الكافر إذا احتضر أتته الملائكة العذاب بمسح فيقولون أخرجي ساخطة مسخوطاً إليك أي عذاب الله عز وجل فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتون به إلى باب الأرض فيقولون: ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار»(١) رواه أحمد والنسائي وفي رواية ابن ماجه نحوه وفيه «ثم يعرج بها لى السماء فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنها لا يفتح لك أبواب السماء ثم ترسل من السماء ثم يصير القبور» وفي الباب أحاديث كثيرة واختلفوا في وقت هذه المقالة؟ فقال قوم يقال لها ذلك عند الموت كما دلت عليه الأحاديث وقال أبو صالح في قوله ارجعي إلى ربك راضية مرضية، قال: هذا عند خروجها من الدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل فادخلي في عبادي وادخلي جنتي، وقال آخرون إنها يقال لها ذلك عند البعث ارجعي إلى ربك وادخلي في أجساد عبادي يعني جسدك فيأمر الله تعالى الأرواح أن ترجعي إلى الأجساد وهذا قول عكرمة وعطاء والضحاك ورواية العوفي عن ابن عباس، وقال الحسن معناه ارجعي إلى ثواب ربك وكرامة راضية من الله تعالى بما أعد الله مرضية رضي عنها ربها فادخلي في عبادي أي مع عبادي جنتي، قلت سياق الآية يؤيد هذا القول يعني أنها يقال عند البعث لأن الله ذكر حال الكفار عند البعث بقوله فيومئذ لا يعذب عذابه الخ فكذلك ذكر ما يقال للمؤمنين يومئذ والأحاديث المذكورة يؤيد القول الأول والجمع بينهما أنه يقال في الوقتين جميعاً عند الموت وعند البعث، بل التحقيق أن استحقاق هذا الخطاب يحصل للنفس في الدنيا حصول الاطمئنان فيقال لها ارجعي إلى ربك مدارج قربه وتجلياته الذاتية راضية مرضية ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩﴾ أي في جملة عبادي الصالحين الذين سأل سليمان عليه السلام الدخول فيهم فقال: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢) وسأل يوسف عليه السلام اللحوق بهم حيث قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٣) وقال الله تعالى فيهم لإبليس ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾(٤) والفاء في فادخلي للسببية فإن اطمئنان النفس وكونهاراضية مرضية سبب لخلوص العبودية لله سبحانه وذلك عن رقبة الإلهية الباطلة الهوائية ووساوس الخناسية قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾(٥) وقال رسول الله ﷺ: «تعس عبد

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه (١٨٢٤).

(٢) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

الدينار والدراهم والقطيفة والخميصة»[1] الحديث ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ إضافة الجنة إلى الله سبحانه يقتضي خصوصاً تلك الجنة من بين الجنات كما لا يخفى، قال البغوي قال سعيد بن جبير مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته فجاءطائر لم ير على خلقه فدخل نعشه ثم لم نر خارجاً منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لم يدر من تلاها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن بريدة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ الخ قالت: نزلت في حمزة ﷺ وأخرج من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «من اشترى هذه الأمة يستعذب بها غفر الله له فاشتراها عثمان ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ الآية.

فائدة: قال بعض الصوفية: تأويل هذه الآية ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ إلى الدنيا ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ بترك الدنيا والسلوك إليه في الطريق الصوفية، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٦).

سورة البلد

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾

﴿لَآ﴾ زائد لتأكيد القسم إشارة إلى وضوح المقسم بحيث استغنى عن القسم ﴿أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ يعني مكة ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ الجملة حال من المقسم به أقسم الله سبحانه بمكة مقيداً بحلوله ﷺ إظهاراً لمزيد فضائلها بشرف المتمكن على فضل لها في نفسها قال رسول الله ﷺ لمكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك من بلد وأحبك إلى الله ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»[1] رواه الترمذي عن ابن عباس، وقال: حديث حسن صحيح غريب إسناداً وكذا روى الترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عدي بلفظه «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» وقيل: معنى مستحل إخراجك فيه كما يستحل تعرض الصيد في غيرها والجملة معترضة لذم الكفار بهذا البلد فيستحلون إخراجك وقتلك فإن الله سبحانه أقسم بمكة إظهار التحريم ما وشرفها ثم قال وأنت مستحل في زعم الكفار بهذا البلد فيستحلون إخراجك وقتلك مع أنهم يحرمون قتل الصيد فيها، وقيل: معناه وأنت حلال إن تصنع فيه ما تريد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل مكة (٣٩٣٥).

من قتل وأسر ليس عليك ما على الناس فيه من الإثم فهو وعد بما أحل الله له مكة يوم الفتح حتى قاتل فيه وأمر بقتل عبد الله بن حنظل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن خبابة وغيرهما قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السماوات الأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لن يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلا خلاها»[١] الحديث متفق عليه ﴿وَوَالِدٍ﴾ عطف على بلد والمراد آدم وإبراهيم عليه السلام أو أي والد كان ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذرية آدم عليه السلام أو الأنبياء من أولاد إبراهيم عليه السلام، أو محمد ﷺ والتنكير للتعظيم وإيثار ما على من لمعنى التعجب كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[٢] وجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ اللام للجنس أو للعهد على ما قيل أنها نزلت في أبي الأشد اسمه أسيد بن كلدة بن حجر، وكان شديداً قوياً يصنع الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول: من أزالني عنه فله كذا وكذا فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلا قطعاً ويبقى موضع قدميه ﴿فِي كَبَدٍ﴾ على تقدير كون المراد من الإنسان الجنس فالمراد من كبد النصب والمشقة كذا روى عن ابن عباس وقتادة قال عطاء عن ابن عباس في شدة حمله وولايته ورضاعته وفطامه ومعاشه وحياته وموته، وقال عمرو بن دينار منه نبات أسنانه قلت: وما ذكر من المكابد يشارك فيها الإنسان وغيره من الحيوانات فتخصيصه بالذكر لأجل عقله وشعوره فإن مشقة تحمل المكائد مع كمال الشعور أشد منها ما كان وعندي أن المراد بالمكائد حمل ميثاق الأمانة التي أبى عن تحملها السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً فإن أدى ما وجب فاز ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وإن تردى في مكائد الآخرة ليعذب الله المنافقين والمنافقات والكافرين والكافرات فعلى هذا النظير الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٣] وفيه تسلية للنبي ﷺ على تحمل المكائد من قومه فيما وجد عليه من التبليغ وقال مقاتل بناء على نزول الآية في أبي الأشد أن معنى في كبد في قوة وشدة ﴿أَيَحْسَبُ﴾ الضمير راجع إلى الإنسان والاستفهام للإنكار والتوبيخ فإن كان المراد بإنسان المعهود يعني أبي الأشد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: من شهد الفتح (٤٢٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

فظاهر أن الله سبحانه أنكر على اغتراره وبقوله وإن كان المراد به الجنس فالضمير راجع إليه باعتبار بعض أفراده وهو الذي كان النبي ﷺ في كبد منه أكثر من غيره وهو أبو الأشد، وقيل: الوليد بن مغيرة ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ﴾ أن مخففة من المثقلة اسمها ضمير الشأن محذوف والجملة قائمة مقام المفعولين ليحسب ﴿عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ نكرة موضع النفي للعموم كان أبو الأشد يزعم أن لا يقدر عليه ملائكة العذاب أو المراد به الأحد الصمد يعني أيحسب أبو الأشد أنه لا يقد عليه الله تعالى خلقه بهذه القوة فلا ينتقم منه ﴿يَقُولُ﴾ ذلك الإنسان حال من فاعل يحسب ومقولة القول ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي كثر جمع لبدة وهي ما تلبد وكثر واجتمع لعله كان يذكر كثرة إنفاقه مفاخرة ورياء أو بعدما أنفق في معاداة النبي ﷺ حتى يعترف بفضله كفار قريش أعدائه ﷺ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ بل الله سبانه يراه حين أنفق رياء وفي معاداة النبي ﷺ فيسأل من أين اكتسبه وأين أنفقه رياء رياء في معاداة النبي ﷺ فيسأل من أين اكتسبه وأين أنفقه فيجازيه وينتقم منه، كذا قال سعيد بن جبير وقتادة وقال الكلبي إنه كان كاذباً في افتخاره، وقوله أنفقت كذا وكذا لم يكن أنفق جميع ما قال وهذه الجملة بعد قوله أيحسب أن لن يقدر عليه أحد تأكيد التوبيخ والإنكار بمنزل النكير ثم عد الله سبحانه نعمه ليقره وليكون دليلاً وتقريراً على كون الله سبحانه مقتدراً على انتقامه فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ يبصر بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ يتكلم به ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ ليستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب النفخ، قال البغوي جاء في الحديث أن الله عز وجل يقول: ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق وإن نازعك بصرك على ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق وإن نازعك فرجك على ما حرمت عليك فقد أعنتك بطبقتين فأطبق ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ يعني الثديين كذا روى محمد بن كعب عن ابن عباس وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك، وقال أكثر المفسرين طريقي الخير والشر والحق والباطل والهدى والضلال يعني أظهرنا له الخير من الشر بإيجاد العقل فيه وإرسال الرسل فمن ضل واختار طريق الشر بعد ذلك فلا عذر له ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ قيل لا ها هنا ليس على معناها فإنها لا تدخل على الماضي إلا مكرراً فهي بمعنى هلا والمعنى فهلا اقتحم العقبة بإنفاق ماله فيما يجوز به العقبة من الطاعات فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوة النبي ﷺ والجملة معطوف يقال أهلكت مالاً لبداً، وقيل: ها هنا تكرار تقدير التعدد معنى العقبة فكان تقديره فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً ولا كان من الذين آمنوا فلا ها هنا بمعناها، والجملة معطوف على جواب القسم يعني لقد خلقنا الإنسان في كبد التكليفات فلا اقتحم ما كلف به وكان عليه

الاقتحام وإتيان ما خلق لأجله أو معطوفة على مضمون ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة بإتيان الطاعات حتى يكون شكر النعم وصرفاً للنعمة فيما ينبغي. والعقبة في الأصل الطريق في الجبل استعير ها هنا المشاق التكاليف واقتحامها الدخول فيها وهذا معنى قول قتادة، وقيل: اقتحامها التجاوز عنها والخروج من عهدة ما وجب عليه فإنه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها واشتغال الذمة بالواجبات بالغفلة فإذا أعتق رقبة أو أطعم مسكيناً بزكاة ماله كان كمن اقتحمها وجاوز عنها وروي عن ابن عمر أن هذه العقبة جبل في جهنم، وقال الحسن وقتادة عقبة شديدة في النار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله وقال مجاهد بطاعة الله وقال المجاهد والضحاك والكلبي هي الصراط على جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة سهلاً وصعوداً وهبوطاً وإن لجنبيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في النار منكوس فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالريح العاصف ومنهم من يمر كالفارس ومنهم من يمر كالراجل ومنهم من يزحف ومنهم كالزالون ومنهم من يكردس في النار فقال: ابن زيد يقول فهلا يسلك الطريق التي فيه النجاة ثم بين ما هي فقال ما أدراك ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾ فإنك لم تدر صعوبتها على النفس وكثرة ثوابها، وقال سفيان ابن عيينة كل شيء قال وما أدراك فإنه أخبر به وما قال وما يدريك فإنه لم يخبر به انتهى، فإن كان المراد بالعقبة الطاعات فلا حاجة إلى التقدير وإن كان المراد به ثقل الذنوب فالتقدير ما أدراك ما اقتحام العقبة والخروج عنها ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَـٰمٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر والكسائي فك بفتح الكاف على الماضي ورقبة بالنصب على المفعولية وأطعم بفتح الهمزة علي الماضي بناء على أن بدل من اقتحم أو بيان له وما أدراك ما العقبة اعتراض والباقون بضم الكاف ورقبة بالجر على الإضافة وإطعام بالتنوين على المصدر بناء على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي فك رقبة والمراد بفك الرقبة أعم من الإعتاق ومن أن يعين في ثمنها يريد عتقها أو يعين المكاتب أو معتق البعض في فك رقبتها. عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: علمني عملاً يدخلني الجنة؟ قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة، قال أوليسا واحداً قال: «لا عتق النسمة أن تفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها والمنحة الوكوف والفيء على ذي الرحم الظالم فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمأن وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير» رواه البيهقي في شعب الإيمان، عن

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مسلم أعتق الله بدل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه»(١) متفق عليه، وقال عكرمة قوله فك رقبة يعني من الذنوب بالتوبة ﴿فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ المسغبة والمتربة والمقربة مفعلات من مسغب إذا جاع وقرب في النسب والترب إذا أفقر أي التصق بالتراب بشدة الحاجة ووصف اليوم المسغبة مجازي والظرف متعلق بإطعام وانتصب على المفعولية يتيماً ومسيكناً ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطفع لى اقتحم أوفك وعطفيه بثم لتباعد الإيمان عن العتق والإطعام بالرتبة واستقلاله واشتراط الطاعات به ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعة والمصائب ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ عباد الله أو بموجبات رَحمَهُ اللهُ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة الموصوفين بتلك الأوصاف ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي أصحاب اليمين والبركة في أنفسهم والجملة مستأنفة كأنه في جواب ما شأن من اقتحم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الذي نصبنا دلائل على الحق من كتاب وحجة بالقرآن ﴿هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي أصحاب الشمال أو الشؤم والتكرير ذكر المؤمنين بالإشارة والكفار بالضمير الشأن لايخفى ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ مطبقة من أوصدت الباب إذا طبق أو أغلق، قرأ حفص وأبو عمرو حمزة وهناد في سورة الهمزة بالهمزة وهمزة إذا وقف أبدلها واواً والباقون بغير وحمزة وهما لغتان، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: كفارات الأيمان، باب: قول الله تعالى ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وأي الرقاب أزكى (٦٧١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: العتق، باب: فضل العتق (١٥٠٩).

سورة الشمس

مكية وهي خمس عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ قال مجاهد والكلبي يعني ضوءها حين تطلع الشمس فيصفو ضوئها وقال قتادة هو النهار كله، وقال مقاتل حرها في القاموس الضحية كالعشية ارتفاع النهار والضحى ويذكر ويصفر ضحاها بلا هاء والضحاء بالمد إذا قرب انتصاب النهار ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾ أي تبع طلوعه طلوع الشمس وذلك في النصف الأول من الشهر أو تبع طلوعه غروب الشمس وتبع في الاستدارة وكمال النور كذا قال الزجاج وكلا الأمرين في الليالي البيض ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾﴾ أساد التجلية إلى النهار مجازي كما في صام نهاره والضمير المنصوب إما عائد إلى الشمس فإنها تتجلى إذا انبسط النهار وأما إلى غير مذكور يعني جلية الظلمة أو الأرض والدنيا ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾﴾ يعني يغشى الشمس أو الآفاق أو الأرض والظروف أعني إذا تلاها وإذا جلاها وإذا يغشاها متعلقة بفعل القسم عن الجمهور، وقال في البحر المواج لا يجوز ذلك فإن الأقسام ليس في تلك الأوقات وأيضاً لا يجوز أن يكون صفة للقمر والنهار والليل فإن ظرف الزمان لا يكون صفة لأمر حسي فتأويله أن يقال بحذف المضاف وتقديره وانجلاء القمر إذا تلاها أي وقت تبيعتها للشمس وحصول النهار إذا جلاها أي وقت تجلية الشمس وحدوث الليل إذا يغشاها أي وقت غشيانها فالظرف إما صفة للمضاف فإنه اسم معنى أو متعلق به، ويحتمل أن يقال أن إذا ها هنا بمعنى الوقت من غير الظرفية على طريقة إذا يقوم زيد إذا يعقد عمرو فيكون

حينئذ بدل اشتمال مما قبله فيكون مقسماً به ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ومن بناها وهو الله سبحانه كذا قال عطاء والكلبي لا يقال يلزم حينئذ إساءة الأدب بتقديم القسم لغير الله تعالى على القسم بدلاً نقول فيه ترق من الأدنى إلى الأعلى وذلك هو الأدب وأوثرت ما على الإرادة معنى الوصفية كأنه قيل والشيء القادر الذي بناها ول على وجوده كما قدرته بناءها، وقال الزجاج والفراء ما مصدرية أي وبناها وكذا الكلام في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ أي بسطها وكذا الكلام في ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ أي عدل خلقها وسوى بقضائها على ما يقتضيها الحكمة، قال البيضاوي تبعاً لصاحب الكشاف جعل ما مصدرية تجرد الفعل عن الفاعل ويخيل بنظم قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ بقوله وما سواها حيث يلزم عطف الفعل على المصدر إلا أن الضمير فيها اسم الله المعلم به وقال في بحر الأمواج ألهمها معطوفة على سواها والمعنى ونفس وتسويه فألهمها فجورها وتقواها فلا يلزم ما ذكر انتهى وتنكير نفس للتكثير والتعميم كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾[(١)] وللتعظيم والإفراد والمراد به نفس آدم عليه السلام، وقال عطاء يريد جميع ما خلق الله من الإنس والجن والمراد بإلهام الفجور والتقوى أن بيّن لها الخير والشر والطاعة والمعصية حتى يأتي بالخير والطاعة ويتقي عن الشر والمعصية كذا روى عن ابن عباس والمراد به إلزامها الفجور أو التقوى وخلق الميل في قلبه إلى أيهما شاء وتوفيقه إياها بالتقوى وخلق بالتقوى على يد المؤمن وخذلانه إياها للفجور وخلق الفجور يد الكافر كذا قال سعيد بن جبير وابن زيد واختاره الزجاج عن عمران بن حصين أن رجلين من مزينة قالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبت الحجة عليهم؟ فقال: لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها»[(٢)] رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ «مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعاتك»[(٣)] رواه

(١) سورة التكوير، الآية: ١٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب، البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٥٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤).

مسلم، قدم الفجور على التقوى لأن الأصل كونها أمارة بالسوء أيضاً فيه رعاية رؤوس الآي والواو الأول للقسم بالاتفاق وكذا الثانية والثالثة وما بعدها عند البعض وليست للعطف لزم العطف على معمول عاملين مختلفين في مثل قوله والليل إذا يغشاها فإن قوله الليل مجرور بواو القسم وإذا يغشى منصوب بفعل القسم المقدر فلو جعلت الواو في والنهار إذا جلاها للعطف كانت الواو قائمة مقام الفعل وحرف الجر معاً والصحيح أن كلها للعطف سوى الأولى منها فإن إدخال القسم في القسم قبل تمام الأول لا يجوز وواو العطف قائمة مقام واو القسم فقط لكن واو القسم نزلت منزلة الباء والفعل حتى لم يجز إبراز الفعل معها فصارت كأنها هي العاملة نصباً وجراً فصارت كعامل واحد له عملان فيجوز العطف على معموليه وذلك جائز بالاتفاق ونحو ضرب زيد عمرواً وبكر خالداً هذا إذا كانت الظروف متعلقة بفعل القسم، وأما على تأويل صاحب البحر فلا حاجة إلى هذا التوجيه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ الضمير المرفوع راجع إلى الله سبحانه والمنصوب إلى من باعتبار أنه عبارة عن النفس يعني فازت وسمعت نفس طهر الله تعالى عن الرذائل بتجليات أصنافه الكاملة عليها حتى صارت راضية بالله تعالى وأحكامه مطمئنة بذكره رب العالمين أي لحسابه وجزائه عن ابن عمر عن النبي ﷺ، قال يوم يقوم الناس ذره وطاعته محترزة عما نهى عنه وما يشغلها عنه لما أخرج ابن جرير من طريق جويبر عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾[1] «أفلحت نفس زكاها الله كذا قال عكرمة، روى مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي شيبة عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها وزكاها أنت خير من زكاها أنت وليها وهو مولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يستجاب لها»[2] وقال الحسن معناه قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على الطاعة الله يعني أن الضمير المرفوع راجع إلى من معنى الإنسان والمنسوب إلى نفسه فعلى التأويل الأول بيان لحال المرادين وعلى الثاني لحال المريدين فإن الله يجتبى إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب، والجملة جواب للقسم قال الزجاج صار قول الكلام عوضاً عن اللام وكأنه لما أراد من الحث على تزكية النفس والمبالغة والمجاهدة فيه أقسم عليه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل (٢٧٢٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الاستعاذة، باب: الاستعاذة من دعاء لا يستجاب (٥٥٣٦).

مجاهد الهم على وجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته فيستفاد منها أقصى درجات القوة النظرية ويذكرهم عظائم الآية لحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي هو منتهى كمال القوة العملية فيترتب على العلم والعمل الجذب من الله سبحانه بفضله ومن قبلهم التقوى ويحصل التزكية، وقيل هذه الجملة معترضة جيئت بعد قوله فألهمها فجورها وتقواها استراد البيان افرق بين الفريقين وجواب القسم محذوف يدل عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ حين كذبت بطغواها وهو أنه يدمدم الله تعالى على الكفار بمكة بتكذيبهم محمداً ﷺ كما دمدم على ثمود حين كذبت صالحاً عليه السلام ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ والكلام في هذه الجملة كما في قبلها وأصل دساس أبدلت حرف التضعيف بحرف العلة كتقضي وتقضض ومعنى التدس الإخفاء قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾[1] والمراد ها هنا الإهلاك فإنه يستلزم الإخفاء يعني خابت وخسرت نفس أهلكها الله تعالى بالإضلال أو أهلك هو نفسه بكسب الضلالة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ هذه الجملة إلى آخر السورة تأكيد لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ أو للمعفول ما وقع فيه التكذيب محذوف والباء في قوله: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ للسببية وتقديره كذبت ثمود بطغواها بسبب طغيانها في الكفر صالحاً علم بالتوحيد والنبوة حين قال: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[2] وطلبوا منه آية على صدقه أن يخرج ناقة عشراء من صخرة عينوه فدعا صالحاً فخرجت من تلك الصخرة ناقة وولدت في الحال ولداً مثلها وكانت الناقة تشرب الماء كله فجعل صالحاً نصيباً من الماء وقال: هذه ناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم فأرادوا قتل الناقة ليسلم لهم الماء كله ذلك قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ أي قام لعقر الناقة بالإسراع حين أمروها كما قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ﴾[3] والانبعاث هو الإسراع بالطاعة للباعث والظرف متعلق بكذبت ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ أي أشقى ثمود وهو قدار بن سالف كان رجلاً أشقر أزرق قصيراً فضلت شقاوته غيره لتولية العقر، روى البخاري عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب ذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ «إذ انبعث أشقاها انبعث لها عزيز عارم في أهله مثل أبي زمعة»[4] وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أشقى الناس

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة القمر، الآية: ٢٩.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة والشمس وضحاها (٤٩٤٢)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة والشمس وضحاها (٣٣٤٣).

عاقر ناقة ثمود وابن آدم الذي قتل أخاه ما سفك على الأرض من دم إلا لحقه منه لأنه أول من سن القتل» رواه الطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية بسند صحيح ﴿فَقَالَ﴾ فقال عطفع لى انبعث ﴿لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ذروا ناقة الله واحذروا عقرها لله والإضافة إلى الله لتعظيم الناقة وكمال التحذير ﴿ وَسُقْيَٰهَا﴾ عطف على الناقة أي ذروا سقياها فلا ترددوها علينا ولا تمسوها بسوء أي يعقر فيأخذكم عذاب عظيم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي صالحاً فيها أوعدهم من نزول العذاب إن عقروها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي الناقة عطف على كذبوا أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحداً منهم لأمرهم به، وقال مقاتل الذين عقروا الناقة كانوا تسعة ويجوز التعبير عن التسعة بقوله تعالى: ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ لأن أفعل التفضيل إذا أضيف صلح للواحد والجمع فقال صالح تمتعوا في ثلاثة أيام فتصبحوا في اليوم الأول وجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني وجوهكم محمرة وفي اليوم الثالث وجوهكم مسودة ثم تهلكون بعد ثلاثة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ بعد ثلاثة أيام، قال في المواج الدمدمة الإهلاك باستئصال، قال عطاء ومقاتل أي دمر عليهم ربهم أي هلكهم وقيل: الدمدمة حكاية صوت لا مده وفي القاموس الدمدمة الغضب ودمدم عليه كلمته مغضباً، وقيل: دمدم عليهم أطبق عليهم ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي بسبب ذنبهم وهو تكذيب الرسول وعقر الناقة ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي سوى الدمدمة عليهم جميعاً وعمهم لها ولم يفلت فيها صغير منهم ولا كبير ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ قرأ نافع وابن عامر فلا يخاف بالفاء وكذلك هو في مصاحفهم والباقون بالواو والضمير راجع إلى الله يعني لا يخاف الله ﴿عُقْبَٰهَا﴾ أمال حمزة والكسائي أواخر هذا السورة إلا تلاها وضحاها فءن حمزة فتحها وأبو عمر وكلها بين بين والباقون بالفتح أي عاقبته الدمدمة أو عاقبته إهلاك ثمود فيبقى بعض الإبقاء كذا قال الحسن وهي رواية علي بن طلحة عن ابن عباس، قال الضحاك والسدي والكلبي الضمير راجع إلى العاقر وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها والجملة حال من فاعل دمدم، أو من فاعل انبعث على ما قيل والواو للحال وعلى قراءة الفاء عطف على فسواها، والله تعالى أعلم.

سورة الليل

مكية وهي إحدى وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ الشمس أو النهار كما في قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾[(١)] أو كل شيء يواري بظلامه والكلام في إذا يغشى كما مر في والليل إذا يغشاها من كونه متعلقاً بفعل القسم أو بمضاف محذوف أي حصول الليل وكونه صفة له أو بمعنى الوقت فينسلخا عن الظرفية ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ أي ظهر بزوال ظلمة الليل أو بطلوع الشمس ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ أي القادر الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من كل نوع له توالد أو آدم، وحواء ويجوز أن يكون مصدرية وجواب القسم ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ يعني إن عملكم لمختلف منكم سائغ فكاك رقبة من النار وصعود درجات القرب ومدارج الجنة ومنكم ساع في عطبها، قال البغوي عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[(٢)] ثم فصل الله سبحانه فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ماله في سبيل الله أو أدى كل من وجب عليه ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ عذاب ربه فاجتنب مجاريه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء (٢٢٣).

وفي الحديث «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[١] رواه الشيخان عن عدي بن حاتم وأحمد عن عائشة والبزار والطبراني عن أنس في الأوسط وعن ابن عباس وأبي أمامة في الكبير والبراء عن النعمان بن بشير وأبي هريرة ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞﴾ قال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك وصدق بلا إله إلا الله وهي رواية عطية عن ابن عباس وقال مجاهد بالجنة قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾[٢] يعني الجنة وقيل: أيقن أن الله سيخلفه وهو رواية عكرمة عن ابن عباس وقال قتادة ومقاتل والكلبي بموعود الله تعالى أن يفي به ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ أي نسهله ونهيئه ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي للخلقت اليسرى التي يؤدي إلى يسر وراحة وهي العمل وما يرضى الله ودخول الجنة من يسر الفرس أو هبته المركوب باليسر بالسرج واللجام ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بالنفقة بالخير وبما أمر به الله تعالى وفي الحديث «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي»[٣] رواه الترمذي والنسائي عن علي وابن حبان والحاكم عن أنس ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ بشهوات الدنيا عن الثواب في الآخرة وعن القادر به ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۞﴾ بالكلمة الحسنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۞﴾ أي لخصلة التي يؤدي إلى العسر والشدة وهي العمل بما يكرهه الله تعالى ودخول النار، قال مقاتل يعسر عليه أن يأتي خيراً عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسنيسره بعمل أهل السعادة وإما من كان من أهل الشقاوة فسنيسره بعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[٤] متفق عليه قال البغوي قيل: نزلت في أبي بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببردة وعشر أواق فأنزل الله تعالى سورة الليل إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۞﴾ سعي أبو بكر وسعي أمية، كذا روى عن ابن مسعود وأخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق الحاكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة قبل الرد (١٤١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة (١٠١٦).

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: قول رسول الله ﷺ «رغم أنف رجل» (٣٥٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞﴾ (٤٦٦٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعاته (٢٦٤٧).

فكان الرجل إذا جاء فدخل الدار فصعد إلى النخلة، ليأخذ منها الثمرة وبما يقع التمرة في أخذها صبيان الفقير فينزل من نخلة فيأخذ الثمرة من أيديهم وإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعيه يخرج التمرة من فيه فشكى ذلك الرجل يعني الفقير إلى النبي ﷺ فقال: اذهب ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان لك نخلة في الجنة، فقال الرجل لقدأعطيت وإن لي نخلاً كثيراً وما فيه نخلة أعجب إليّ تمرة منها ثم ذهب الرجل ولقي رجلاً كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة، فأتى إلى رسول الله ﷺ فقال أتعطني يا رسول الله ما أعطيت الرجل يعني صاحب النخلة وإن أنا أخذتها قال: نعم فذهب الرجل فلقي صاحب النخلة ولكليهما نخل فقال له أشعرت أن محمد ﷺ أعطاني بنخلتك التي في دار فلان نخلة في الجنة فقلت له لقد أعطيت ولكن يعجبني تمرها ولي نخل كثير ما فيه نخل أعجب إليّ تمرة منها، فقال له الآخر أتريد بيعها؟ فقال: لا إلا إن إعطيتني بها ما أريد ولا أظنك تعطي، وقال فكم فيها؟ قال: أربعين نخلة قال: لقد جئت بأمر عظيم ثم سكت عنه فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة قال فاشهد لي إن كنت صادقاً فدعا قومه فأشهد له ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن النخلة قد صارت لي فهي لك فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار فقال: النخلة لك فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ قال ابن كثير غريب جداً وذكر البغوي عن علي بن حجر عن إسحاق بن نجيح عن عطاء نحوه وفيه أن صاحب النخلة شكى إلى النبي ﷺ تناول صبيان الجار من نخلة فقال له النبي ﷺ بعينها بنخلة في الجنة فأبى فخرج فلقيه أبو الدحداح إلى آخر القصة قال فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ والصحيح هي الرواية الأولى يعني نزلت في أبي بكر الصديق وأمية بن خلف لأن السورة مكية وقصة صاحب النخلة وأبي الدحداح يقتضي كونها مدنية وعلى تقدير صحة الرواية الثانية فنقول نزول الآية بمدح أبي الدحداح رضي الله عنه قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ كأبي الدحداح ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾ أي بما وعد النبي ﷺ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ يعني الجنة ولما كان حكم الآية عاماً وءن كان موردها خاصاً عقبه بما يقيده من الوعيد فقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨﴾الآية وليست هذه الجملة للوعيد فيحق صاحب النخلة فإنه كان رجلاً من الأنصار لم يكن ممن استغنى من ثواب الله تعالى ونعيم الجنة وكذب بالحسنى بل كان مصدقاً بها والبخل المستوجب للنار إنما هو بمنع الزكاة المفروضة كما لا يخفى والله تعالى أعلم ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ﴾ الذي بخل فيه نفي أو استفهام إنكار ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ الظرف متعلق بيفني وتردى تفعل من الردي بمعنى الهلاك،

قال مجاهد أي بات إذا المراد بالهلاك استيجاب العذاب أو بمعنى السقوط يعني تردى في حفرة القبر أو قعر جهنم قال قتادة وأبو صالح هوى في جهنم ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ كلمة على للتأكيد يعني التزمنا الهداية بموجب قضائنا السابق أو بمقتضى كلمتنا ﴿لَلْهُدَىٰ﴾ أي الإرشاد إلى الحق بنصب الدلائل وبيان الشرائع، كذا قال الزجاج وقتادة، وقال الفراء معناه من سلك الهدى فعلى الله سبيله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾[1] يقول من أراد الله فهو على السبيل القاصد يعني من سلك على طريق الهدى يصل إلى الله سبحانه ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ ملكاً وخلقاً وتقديم الخير للحصر فمن طلبها من غيره لكنهما فقد أخطأ الطريق أو فنعطي ثواب الهداية للمهتدين أو فلا يضرنا ترككم الاهتداء ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي خوفتكم والفاء للسببية فإن كون الآخرة والأولى كلاهما خالصاً لله تعالى سبب للتخويف ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ إحدى التائين محذوف أي تتلظى تتوقد وتتلهب صفة للنار ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ صفة أخرى ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ قيل الأشقى ها هنا بمعنى الشقي فهو يعم الكافر والفاسق الغير المغفور وصفه تعالى: ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ الرسول ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان باعتبار بعض أفراده، وليس الاحتراز بل لأن العادة مقتضى الإيمان أن لا يكون المؤمن شقياً إذ الإيمان يقتضي التقوى والسعادة والكافر المكذب هو الذي يكون شقياً عاصياً غالباً فبقيد الشقى بوصف التكذيب والتولي خرج مخرج العادة كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم﴾[2] أو المراد بالتكذيب أعم من التكذيب صريحاً وهو الكفر أودلالة وهو ارتكاب المحرمات مع الإيمان بتحريمها أو أعم مما هو صادر عن اللسان والقلب فيكون كفراً نفاقاً ومما هو صادر عن النفس الأمارة بالسوء حال كون قلبه مطمئنة بالإيمان ولسانه ما خلقنا به فيكون إيماناً مجازياً عاماً، وقيل: الأشقى بمعناه للتفضيل والمراد به الكافر فإني أشقى من الفاسق لكي يصلى ههنا ليس على إطلاقه بل المراد سنة المقيد اللزوم والشدة قال البيضاوي لا يصلاها لا يلزمها مقاسياً شدتهما إلا الأشقى أي الكافر فإن الفاسق وإن دخلها إن لم يغفره لا يلؤها فلا نقض في الحصر، وقيل لا حاجة إلى هذه التكليف بل الضمير في لا يصلاها عائد إلى ناراً تلظى ولا يصلى ناراً تتلظى وتتلهب إلا الكافر وأما الفاسق فأدخل جهنم لا يصلى ناراً تتلهب بل ناراً ضعيفة بالنسبة إلى الكافر وهي الطبقة العليا من النار وعندي أن المراد بالأشقى هو الكافر كما هو الظاهر النار أيضاً على عمومها فإن التلهب توصف بها نار الدنيا أيضاً ونار جهنم وإن كانت ضعيفة فهي أشد من

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

نار الدنيا البتة لكن الحصر في الآية إضافي بالنسبة إلى المؤمنين الموجودين في زمان النبي ﷺ، فالآية تدل على عدم دخول أحد من الصحابة في النار كيف وقد انعقد الإجماع على أن الصحابة كلهم عدول وقد قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾[1] وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2] وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[3] الآية وقال رسول الله ﷺ: «لا تمس النار مسلماً رآني أو رأى من رآني»[4] رواه الترمذي عن جابر وقال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم واهتديتم» رواه رزين عن عمر بن الخطاب فمن صدر منه معصية فهم على سبيل الندرة وفق غالباً للتوبة فإن «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[5] رواه ابن ماجه عن ابن مسعود مرفوعاً، أو أدركته الرحمة ببركة صحبة النبي ﷺ كيف وقد قال رسول الله ﷺ في حق الصلحاء من أمته «هم قوم لا يشقى جليسهم»[6] ولا يخاب أنيسهم في حديث في الصحيحين والترمذي عن أبي هريرة فما ظنك فيمن جالس سيد المرسلين في حين من الدهر والله تعالى أعلم. ولما كان الناس في زمن النبي ﷺ منحصرين في فريقين إما مؤمن تقي أتقى الناس ممن سواهم أو كافر فلذلك ترى كلام الله مشحوناً من ذكر هذين الفريقين وقلما يستفاد حال عصاة المؤمنين من القرآن لأن الكلام غالباً يبحث عن أحوال الموجودين والله تعالى أعلم فلا يجوز بهذه الآية استدلال المرجئة على أن المؤمن إن كان فاسقاً لا يدخل النار وأن السيئات من الكبائر والصغائر مطلقاً لا يضر مع الإيمان، لأن الحسنات مطلقاً لا تنفع مع الكفر وبه قال الروافض شيعة علي ولا استدلال المعتزلة على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار وليس بمؤمن وجه استدلالهم أن ارتكاب الكبيرة موجب لدخول النار بالإجماع وإن خالف المرجئة فلو كان مرتكب الكبيرة مؤمناً لم يكن أشقى الناس فلا يصلاها بهذه الآية وأهل السنة يؤولون هذه الآية بما ذكرنا من التأويلات جمعاً بين النصوص وجرياً على ما انعقد عليه الإجماع من أن الله تعالى لا يغفر

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه (٣٨٦٧).

(٥) أخرجه، ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥٠).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل (٦٤٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء أن لله ملائكة سياحين في الأرض (٣٦٠٠).

أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء سواء تاب أولم يتب وقال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١) وقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾(٢) وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾(٣) فلا يجوز في حق المؤمن الخلود في النار وإن كان فاسقاً غير مغفور وقد تواتر قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»(٤) وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾(٥) يعني إن شاء الله أن يعذبه ولم يغفره يرى جزاء السيئة في النار ولولا مقتضى إتيان المحرمات وترك الواجبات دخول الناركما قالت المرجئة لصارت الشريعة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر كلها سفسطة ولايقولها إلا كاهن أو مجنون ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ عطف على لا يصلاها والسين للتحقيق ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ أي الذي اتقى الشرك الجلي والخفي والمعاصي القلبية والقالبية والنفسانية وذلك بعد تزكية النفس واطمئنانها ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ الفقراء وفي فك الرقاب ووجوه الخير ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ بدل من يؤتي ولا محل له من الإعراب أو منصوب على الحالية من فاعله أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء ولا سمعة أو يتفعل من الزكاة والمفهوم عندنا غير معتبر فلا تدل تلك الآية على دخول تقي في النار وكذا عند الشافعي إذ الكلام خارج مخرج الجواب في حادثة لاتفاق المفسرين على أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق، فالغرض منه توصيف الصديق بكونه أتقى الناس أجمعين غير الأنبياء وإنما خصصنا بغير الأنبياء دلالة العقل والإجماع والنصوص وليس الغرض منه الاحتراز والحكم بدخول التقي دون أتقى في النار ولو سلمنا المفهوم فالمراد بالتقى الذي جاز دخوله في النار التقي عن الشرك فقط دون المعاصي والله تعالى أعلم. أخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله فنزلت ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة قلت: فحينئذ اللام للعهد وأخرج حاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قال أبو قحافة لأبي بكر أراك تعتق رقاباً ضعفاً فلو أنك أعتقت رجالاً أجلد يمنعونك ويقومون دونك فقال: يا أبت إنما أريد ما عند الله فنزلت هذه الآية (فأما من أعطى واتقى) إلى آخر السورة وذكر محمد بن

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٩.
(٣) سورة الزلزلة، الآية: ٧.
(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٦).
(٥) سورة الزلزلة، الآية: ٨.

إسحاق قال: بلال لبعض بني جمع وهو بلال بن رباح واسم أمه حمامه وكان صادق الإسلام طاهر القلب وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول لا يزال على هذا حتى يموت أو تكفر لمحمد فيقول وهو في ذلك البلاء أحد أحد، قال محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه قال مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك وكانت دار أبي بكر في جمح فقال لأمية ألا تتقي في هذا المسكين قال: أنت أخذته فأنقذه مما ترى، قال: أفعل عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على ذلك أعطيتك قال: قد فعلت، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر رقاب بلال سابعهم عامر بن فهيرة شهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة شهيداً وأم عميس وزبير فأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش ما أذهب بصرها وأعتق ابنتها الهدنة وكانتا لامرأة من عبد الدار بمنزلهما وقد بعثتها سيدتها يطحنان وهي تقول والله لا أعتقكما أبداً فقال أبو بكر فلان فقالت: حلا أنت أفسدتهما فأعتقهما قال: فبكم؟ قالت: بكذا وكذا قال: فأخذتهما وهما حرتان. ومر بجارية بني مؤمل وهي تعذب فاتباعها فأعتقها وقال سعيد بن المسيب بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر في بلال حين قال ابتعنيه قال نعم أبيعه بنسطاش عبد لأبي بكر صاحب عشر آلاف دينار وغلمان وجواري ومواش وكان حمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون ماله له فأبى فأبغضه أبو بكر فلما قال له أمية أبيعه بغلامك نسطاش اغتنمه أبو بكر وباعه منه فقال المشركون ما فعل ذلك أبو بكر ببلال إلا ليدٍ كان له عنده فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾ بلال ولا لغيره من الغلمان ﴿عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ وكذا أخرج البزار عن ابن الزبير أنها نزلت في أبي بكر والجملة حال من فاعل يؤتي ماله أو مستأنفة كأنه في جواب بل كان لأحد ممن يؤتيه ماله عنده يجزي أن يكافيه عليهما ويقصد بإعطائه أو إعتاقه مجازاً بها ﴿إِلَّا﴾ استثناء منقطع أي لكن يفعل ذلك أبو بكر ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ طلباً لرضاه ويجوز أن يكون متصلاً عن محذوف تقديره لا يؤتى ماله لغرض من الأغراض ومكافاته لنعمة إلا لغرض ابتغاء وجه الله وطلب رضائه ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ الله عنه بما يفعل أو يرضى عن الله تعالى بما يعطيه من الجزاء في الآخرة من الجنة والكرامة عطف على وسيجنبها وهذه الآية لأبي بكر كقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ وكون أبي بكر اتقى الناس بعد الأنبياء دليل على كونه أفضلهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1] وعليه انعقد الإجماع، عن ابن عمر قال:

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

كنا في زمن النبي ﷺ لانعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لاتفاضل بينهم[١] رواه البخاري، وسأل محمد بن الحنفية عن علي أي الناس خير بعد النبي ﷺ؟ قال: أبو بكر قال: ثم من؟ قال: عمر رواه البخاري، وقد بسطنا الكلام في هذه المسألة وذكرنا فيها الأحاديث والآثار وروايات الإجماع والمنقول في كتابنا السيف المسلول انصراماً على الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً أمال حمزة والكسائي أواخر هاتين السورتين والليل والضحى إلا قوله تعالى سجى فإن حمزة فتحها وأمال أبو عمرو للعسرى ولليسرى وما سواهما بين بين وورش جميع ذلك بين بين والباقون بإخلاص الفتح في الكل، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب ﷺ المناقب، باب: مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رضي الله عنه (٣٦٩٧).

سورة الضحى

مكية وهي إحدى عشر آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

أخرج الشيخان في الصحيحين وغيرهما عن جندب بن عبد الله قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة وليلتين فقالت امرأة يا محمد ما أرى لشيطانك إلا قد تركك فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ وقال البغوي قال يعني جندب أن امرأة التي قالت ذلك أم جميل امرأة أبي لهب، وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي فقالت أم جميل امرأة أبي لهب ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك فأنزل الله والضحى الآيات، وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن جندب قال: أبطأ جبرائيل على النبي ﷺ فقال المشركون قد ودع محمد فنزلت وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن شداد أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد قلاك مما ترى من جزعك فنزلت وكلاهما مرسل ورجالهما ثقات قال الحافظ ابن حجر والذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك لكن أم جميل قالت شماتة وخديجة قالت توجعاً، وأخرج ابن شيبة والطبراني بسند فيه من لا يعرف عن حفص بن ميسرة القرشي عن أمه عن أمها وكانت خادمة رسول الله ﷺ أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير فمات فكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ؟ جبرائيل لايأتيني فقلت في نفسي لو نقيت البيت وكنسته فأهويت بالكناسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه أخذته الرعد فأنزل الله والضحى إلى قوله ترضى، قال الحافظ ابن حجر قصة إبطاء

جبرائيل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب بل شاذ مردود كما في الصحيح، قال البغوي في مدة احتباس الوحي عنه اختلاف فقال ابن جريج اثني عشر يوماً وقال مقاتل أربعون يوماً فقال المشركون إن محمد أودعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة كذا أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فقال النبي ﷺ يا جبرائيل ما جئت اشتقت إليك، فقال جبرائيل إني كنت أشد شوقاً إليك ولكني عبد مأمور بما أنزل الله وما نتنزل إلا بأمر ربك قوله تعالى: والضحى قيل: أريد به النهار كله بدليل مقابلة الليل نظيره قوله تعالى: ﴿أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحًى﴾[1] يعني نهاراً وقال قتادة ومقاتل يعني وقت الضحى وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس قيل: خص ذلك الوقت لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقي فيها السحرة سجداً وهي الساعة يعدل فيها النهارفي الحر والبرد في الصيف والشتاء والليل إذا سجى الظرف إما متعلق بفعل القسم أو بمضاف مقدر على الليل أي وحصول الليل إذا سجى أوصفة الليل بتقدير المضاف وإذا بمعنى الوقت منسلخاً عن معنى الظرفية بدل من الليل مقسم به، قال الحسن أقبل بظلام وهي رواية العوفي عن ابن عباس وقال الوالبي إذا ذهب وقال عطاء والضحاك غطى كل شيء بالظلمة وقال مجاهد استوى وقال قتادة وابن سكن استقر ظلامه فلا يزداد بعد ذلك أو المراد سكن الناس فيه والأصوات يقال ليل ساج وبحر ساج إذا كان ساكناً وتقديم الليل في السورة السابقة باعتبار الأصل وتقديم الضحى ههنا الشرف وجواب القسم قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي ما تركك وقطع عنك قطع مودع ﴿رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ وما أبغضك حذف الضمير المنصوب اكتفاء بما سبق اختصار أو رعاية للفواصل أخرج الطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ عرض عليّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ يجوز أن يكون هذه الآية متصلاً بما سبق ووجه اتصاله أن قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ يتضمن أن الله مواصلك بالوحي إليك وإنك حبيب الله ولا يكون كرامته أعظم ذلك فأخبره بأن حاله في الدار الآخرة خير له وأعظم من ذلك لتقدمه على الأنبياء واختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه الأولون والآخرون وشهادة أمته على الأمم وقد ذكرنا بعد ما يختص به النبي ﷺ في الآخرة من الفضائل في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[2] الآية، وروى البغوي بسنده من طريق ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: قال

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

رسول الله ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا» أو المعنى وللآخرة أي الحالة الآخرة خير لك من الأولى ونهاية أمرك خير من بداية يعني لا تزال تتصاعد في الرفعة والكمال، قالت الصوفية من استوى يوماه فهو مغبون، وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته فسرته فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ حذف المفعول الثاني ليعطيك ليدل على العموم والشمول أي يعطيك عطاء جزيلاً من النصر والتمكين وكثرة المؤمنين وشيوع دينك في الأرضين في الدنيا ومن الشفاعة وكثرة الثواب وغير ذلك لا يخفى وما لا يعلمه إلا الله تعالى في الآخرة وأفضل العطيات رؤية الله سبحانه على حسب كمال النبي ﷺ وأعلى درجات القرب قال رسول الله ﷺ إذن لا أرضى من واحد من أمتي في «النار وعن علي أن رسول الله ﷺ قال: «أشفع لأمتي حتى ينادي ربي أرضيت يا محمد؟ فأقول: أي ربي رضيت»[1] وقال عطاء عن ابن عباس المراد يعطيك ربك الشفاعة في أمتك حتى ترضى وهو قول علي والحسن عليهما السلام وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله: يا جبرائيل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسؤك به»[2] وراه مسلم، وروى حرب بن شريح سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقول: إنكم معشر أهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وإنا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ واللام قيل: للابتداء دخل على الخبر بعد حذف المبتدأ والتقدير ولأنت سوف يعطيك لاللقسم فإنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة وجمعها مع سوف للدلالة على أن اللام لام القسم لا لام للابتداء، وقد علم أنها ليس لبتداء لدخولها على سوف ولام الابتداء لا تدخل على سوف ثم عد الله سبحانه ما أنعم عليه من أول حاله ليقيس ما يترقب من فضل الله على ما سلف منه فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ إن كان من وجدت بمعنى علمت يتيماً مفعول الثاني وإن كان بمعنى المصادفة فمنصوب على الحال والاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والغرض منه التقرير أي إقرار المخاطب به والمعنى وجدك يتيماً يعني صغيراً فقيراً حين مات أبوك ولم يخلف لك مالاً ولا مأوى وفي هذه الجملة تأكيد لقوله ما ودعك ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ يعني دلك إلى عمك أبي

---

(١) رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أحمد بن زيد المداري ولم أعرفه وبقية رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم. انظر: مجمع الزوائدفي كتاب: البعث، باب: في الشفاعة (١٨٥١٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٢).

طالب وضمك إليه حتى كفلك روى البغوي من طريق الترمذي عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته قلت: يا رب إنك آتيت سليمان بن داود ملكاً عظيماً وآتيت فلاناً كذا قال: يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ قلت: بلى أي رب قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى أي رب قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قلت: بلى أي رب»[1] وزاد في بعض الروايات ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك بلى أي رب، زعم أكثر الناس أن النبي ﷺ سأل ربه هذه المسألة المال والغنى حيث قالوا إن النبي ﷺ كان مفلساً وكانت قريش تعير بذلك حتى قالوا إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة فاغتم النبي ﷺ وظن أن قومه إنما كذبوه بفقره فسأل ربه هذه المسألة فعدد الله عليه نعمه ووعده الغنى ليسليه، وهذا ليس بشيء بوجوه: أحدها أن رفعة شأن النبي ﷺ لا يقتضي أن يسأل ربه الدنيا:

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم

وأكدت وهذه فيها ضرورته ... أن الضرورة لا تعدوا على العصم

وثانيها: أن قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ يأبى عنه فإن صيغة الماضي تدل على الحصول وسؤال الغنى بعد حصوله محال، وثالثها: أنه لو سأل ربه لأعطاه وقد صح أنه ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين حتى قبض رسول الله ﷺ[2] كذا في الصحيحين من حديث عائشة، وقالت الصوفية العلية: فيتحقيق مثل هذا المقام أن الصوفي قد يعرضه حالة الانقطاع من الخلق بالكلية وخلوص التوجه إلى الله سبحانه ويسمونها العروج والسير إلى الله أو السير في الله وقد يعترضه حالة التوجه إلى الخلق لأجل الإرشاد والدعوة إلى الله فيسرى نفسه في هذه الحالة في بادىء النظر منقطعاً عن الله متوجهاً إلى الخلق وهو في الحقيقة وعند التعمق غير منقطع كمال الانقطاع وأيضاً لما كان هذا الانقطاع مأموراً به مرضياً للمحبوب فهو في حكم الوصل والاتصال بل أولى منه ويسمونه بالنزول والبر من الله بالله فيغتم الصوفي في هذه الحالة غاية يكون في الشدة والبلاء مثله كمثل سمكة ألقيت من البحر إلى الصحراء وقد ذكر مراراً أن من كان نزوله أتم كان

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: عظم قدره ﷺ (١٣٩٢١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا (٦٤٥٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٧٠).

إرشاده أشمل وأعم قالوا: إن نوحاً عليه السلام لم يبلغ في النزول غاية ولذلك ما آمن معه إلا قليل وهم أصحاب السفينة مع لبثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وأن محمداً ﷺ كان نزوله أتم وأوفى ولم يبلغ تلك المنزلة أحد من الأنبياء، ولذلك شاع دينه في الورى مع لبثه فيهم ثلاثة وعشرين عاماً كما كان عروجه أعلى وأسنى فكان قاب قوسين أو أدنى قال الشيخ الأكبر أنكروا دعوة نوح بما كان من الفرقان وأجابوا دعوة محمد ﷺ بما كان من القرآن ولأجل كمال نزول كان رسول الله ﷺ دائم الهم واصل الحزن وهذا معنى قوله ﷺ: «ما أوذي أحد مثل ما أوذيت» رواه ابن عدي وابن عساكر عن جابر وأبو نعيم في الحلية عن أنس ولولا هذا التأويل فلا يظهر المعنى لهذا القول وقد أوذي نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عاماً وأوذي عيسى حتى ارتقى إلى السماء ويحيى وغيرهم حتى قتلوا في البلاء فلعل نزول هاتين السورتين أعني والضحى وألم نشرح كان لتسلية النبي ﷺ في حالة النزول في بدء أمره حين رأى نفسه في باديء النظر منقطعاً عن الله متوجهاً إلى الخلق ووافق ذلك فترة الوحي وحزن حزناً شديداً حتى قال في صحيح البخاري بلغنا أنه غدا مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبل وكلما أوفى بذروة الجبل لكي يلقي نفسه منه ينادي جبرائيل فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه تقر نفسه وقالت خديجة إني أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك وكان سؤال النبي ﷺ لسلب تلك الحالة الموجبة للانقطاع عن الخالق والتوبة إلى الخلق التي عمها وداعاً وقلياً وحزن عليها والوصل بلا انقطاع ولا حجاب دائماً فعلى هذا معنى قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ أنه ليسى الفراق الذي اعترضك وداعاً وقلياً حتى تغتم به بل هو كمال عروج ووصل معنى وإن كان هبوطاً وفراقاً صورة ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ يعني كل حالة آخرة تأتي عليك خير من الحالة الأولى لا يتطرق في أحوالك قصور وفتور قط حتى تكون في الدار الآخرة رؤية ووصالاً بالكلية ولا يكون هاك تكليف التبليغ، والتوجه إلى الخلق ومشقة الفراق أصلاً ولسوف يعطيك ربك عاجلاً وآجلاً ما تحب وترضى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ ﴿وَوَجَدَكَ﴾ عطف على معنى ألم يجدك يتيماً فإن معناه وجدك فهو عطف الخبر على الخبر دون الإنشاء ﴿ضَالًّا﴾ عن معالم النبوة وأحكام الشريعة غافلاً عن كل ما لا طريق إلى دركه إلا السمع نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1] وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[2] كذا قال الحسن والضحاك وابن كيسان وقيل: ووجدك ضالاً في شعاب مكة صبياً صغيراً حين فطمتك حليمة وجاءت بك لترد إلى جدك عبد

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣. (٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

المطلب كذا روى أبو الضحى عن ابن عباس وقال السعيد بن المسيب خرج رسول الله ﷺ عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة فبينما هو راكب بذات ليلة ظلماء ناقة جاء إبليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق فجاء جبرائيل فنفخ إبليسى نفخت وقع منها إلى ورده إلى القافلة، وقيل: وجدك ضالاً نفسك لا تدري من أنت وقال بعض الصوفية معناه وجدك محباً عاشقاً مفرطاً في الحب والعشق يكنى باتصال لاستلزام السكر غالباً والسكران يغالط الطريق غالباً وفي الحديث «حبك الشيء يعمي ويصم» فهي تسمية السبب باسم المسبب كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾[١] يعني من مطر قال الله تعالى عن إخوة يوسف ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢] ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[٣] ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٤] ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي فهداك إلى معالم الدين أو إلى جدك عبد المطلب أو إلى القافلة أو عرفك نفسه وحالك ومن عرف نفسه فقد عرف ربه أو هداك إلى وصل محبوبك حتى كنت قاب قوسين أو أدنى ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ فقيراً ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي أعطاك بمال خديجة أو بما حصل لك ربح في التجارة بالغنائم والمراد بالغناء على هذا التقادير دفع الحاجة وإن كان بالقليل لابمالكية النصاب، وقال مقاتل يعني أغنى قلبك فأرخاك بما أعطاك من الرزق واختاره الفراء وقال «ولم يكن النبي ﷺ غنياً بكثرة المال والعرض «لكن الغنى غنى النفس»[٥] متفق عليه، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً فقنعه الله بما آتاه»[٦] رواه مسلم ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ هذه الجملة وما بعدها إلى آخر السورة معترضات أوردت استطراداً بين قوله ألم يجدك إلى آخره ألم نشرح لك أو هي تذييل بما سبق ذكر اليتيم والعائل الفقير السائل غالباً واتصال السائل للإرشاد غالباً، وذكر نعمة الإيواء والهداية والغناء فصّل ما أجمل ذكره بأما وأورد بالفاء للسببية في فأما اليتيم فلا تقهر لأن كونه ﷺ يتيماً، وقال الفراء والزجاج لا تقهر على ماله فتذهب بحقه

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٥.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٣٠.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الغنى غنى النفس (٦٤٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة (١٠٥٤).

بضعفه كما كانت العرب تفعل كذلك نهى لأمته وإن كان خطاب إليه بشرفه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا يشير بأصبعيه»(١) رواه البغوي، وكذا روى البخاري في الأدب وابن ماجه وأبو نعيم في الحلية ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ قال المفسرون السائل على البا لا تنهره وتزجره فقد كنت فقيراً عائلاً فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً ليناً برفق، وروى عن الحسن في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ قال: طالب العلم إذا سأل عن مسألة فلا تنهره، وعن ابن مسعود: من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجام من نار وهذه الجملة على التأويل الثاني يتصل بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ ويكون النشر على ترتيب اللف وأما على التأويل الأول فيتصل بقوله ووجدك عائلاً ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ يعني أشكر على ما أنعم ربك عليك وهذه الجملة على تقدير اللف والنشر المرتب متصل بقوله تعالى: ووجدك عائلاً فأغنى عن سنان بن سنية عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر»(٢) رواه أحمد وابن ماجه والدارمي بإسناد صحيح، ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وعن أشعث بن قيس قال قال رسول الله ﷺ: «إن أشكرالناس لله أشكرهم للناس» وفي رواية «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» رواه أحمد ورواته ثقات، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال من صنع إليه معروف فليجز به فإن لم يجد ما يجز فليثن عليه فإنه إذا أثنى عليه فقد شكر وإن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبين من زور» رواه البغوي، وعن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير من لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة الله والفرقة عذاب الله» رواه البغوي هذه الأحاديث يقتضي شكر المشايخ والأساتذة وحسن الثناء عليهم ورضوان الله عليهم أجمعين، قال المجاهد المراد بالنعمة في الآية النبوة روى عنه بشير واختاره الزجاج والمعنى بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي أتاك، وقال الليث عن مجاهد يعني القرآن وهو قول الكلبي أمره أن يقرأه فعلى هذا هذه الآية متصل بقوله ووجدك ضالاً فهدى قال مقاتل: اشكرما ذكر في هذه الآية مما أنعمنا عليك من الإيواء والهداية والأغنياء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: فضل من يعول يتيماً (٦٠٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الصيام، باب: فيمن قال الطاعم الشاكر كالصائم الصابر (١٧٦٤).

والتحدث بنعمة الله شكر وهذا أظهر فإن النعمة المذكورة مطلق لا وجه للتخصيص والشكر على كل نعمة دينية كانت أو دنيوية واجب فعلى هذا هذه الآية متصل بالجمل الثلث المذكورات وقد ذرك ما في هذه الآية من اختلاف القراءة في الإمالة والفتح في آخر سورة الليل.

مسألة: يجب الشكر على كل نعمة والشكر صرف النعمة في رضاء المنعم فشكر نعمة المال صرفها بالإخلاص في سبيل الحق وشكر نعمة البدن أداء الواجبات والاجتناب عن المعاصي وشكر نعمة العلم والعرفان التعليم والإرشاد.

مسألة: تحديث النعمة شكر ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»(١) ونحو ذلك وقد ذكرنا في سورة البقرة ومن هذا القبيل ما قال الشيخ محي الدين عبد القادر رضي الله عنه وكلولي له قدم وإني على قدم النبي بدر الكمال: وقوله قدمي هذه على رقبة كل ولي لله ومنه ما ذكر المجدد مما أعطاه الله سبحانه مدارج القرب من الولايات الثلاث وكمالات النبوة والرسالة وأولي العزم أيضاًبالتبعية والوراثة وحقائق الأنبياء كذلك وغير ذلك وكونه مخلوقاً في طينة النبي ﷺ وكونه مجدداً وقيوماً فمن أنكر على ما هؤلاء الرجال في مثل هذه المقال فكأنه أنكر هذه الآية الكريمة من الله ذي الجلال غير أنه لا بد للتحديث بمثل هذه الأقوال تنزه القائل عن صفات النفس بالكلية فلا يجوز لكل أحد الأجتراء على مثل هذه الأقوال كيلا يتردى في ورطة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(٢).

فصل: قال البغوي السنة في قراءة أهل مكة أن يكبروا من أول السورة والضحى على رأس كل سورة حتى يختم القرآن فيقول الله أكبر قال البغوي كذلك قراءته على الإمام المقري أبي نصر محمد وذكر سلسلة إسناد قراءة أبي كثير، وقال ابن كثير إنه قرأ على مجاهد وهو على بن عباس وهو على بن كعب ثم ذكر سلسلة أخرى لإسناد قراءة أبي إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد قال: فلما بلغت والضحى قال لي كبر حتى تختم مع خاتمة كل سورة فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك وأخبره أنه قرأ على النبي ﷺ فأمره بذلك وكان سبب التكبير أن الوحي لما احتبس قال المشركون هجره شيطانه وودعه فاغتم النبي ﷺ لذلك فلما نزل والضحى كبر رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي فأخذوه سنة وما ذكره البغوي آخراً ذكره أبو عمر

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٦٢٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

والداني في اميسير أولاً وما ذكره أولاً ذكره الداني آخراً فإنه قال: إن البزي روى عن ابن كثير بإسناده أنه كان يكبر آخر والضحى مع فراغته ومن كل سورة إلى آخر: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ يصل التكبير فإن كان آخر السورة متحركاً نحو إذا حسد والناس والأبتر وصل التكبير وأسقط همزة الوصل منه وإن كان ساكناً نحو فحدث وفارغب أو منوناً نحو تواباً ولخبير ومن مسد حرك الساكن نون التنوين بالكسر ووصل بالتكبير فإن شاء القارىء قطع عليه أي على التكبير وابتداء بالبسملة موصولة بأول السورة ولا يجوز القطع على بسملة إذا وصلت التبكير بها يعني إذا وصلت التبكير بآخر السورة فالاحتمالات أربعة القطع على التكبير والبسملة أو الوصل فيها أو القطع على الأول دون الثاني أو بالعكس فيجوز الثلاثة الأول ولا يجوز الرابع قال الداني وقد كان بعض أهل الأداء يقطع على أو آخر السورة ثم يبتدىء بالتكبير موصولاً بالبسملة، قال أبو عمرو كذلك روى النقاش عن أبي ربيعة عن البزي وبذلك قرأه على الفارسي عنه وهذا ما ذكره البغوي أولاً، قلت: وبكلا الوجهين قرأت على الشيخ المقري صالح المصري وهو على شيخ القراء قدوة المتأخرين الشيخ عبد الخالق المتوفى وذكر الشيخ الصالح المصري وهو على شيخ القراء قدوة المتأخرين الشيخ عبد الخالق المتوفى وذكر الشيخ الصالح المصري صفة التكبير على رواية البزي لا إله إلا الله والله أكبر فإن قرأ التكبير أول سورة والضحى لا يقرأ بعد سورة والناس ولا يقطع على التكبير بين السورتين موصولة للتبكير بالأولى منها فإن وصل التكبير بآخرالسورة الأولى وجب الوصل بين التكبير والبسملة وأول السورة جميعاً وإن قطع التكبير عن آخر السورة فله الخيار في الوصل والقطع بين التكبير والبسملة وبينها وبين السورة والله تعالى أعلم.

سورة الشرح

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ هذه الجملة وما بعدها على ما روى البغوي عن ابن عباس متصل بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فأغني﴾ فإن صح تلك الرواية فذلك وإلا فالظاهر أن هذه السورة أيضاً نازلة في مثل تلك الحالة بعد سؤال من النبي ﷺ محققاً أو مقدراً ومعنى الآية على مثل ما سبق شرحنا لك صدرك حتى اتسع في صدرك من العلوم الحقة والمعارف الدينية المبصرة بنور الله تعالى ما لا سبيل إليها لعقل العقلاء واجمع فيه التوجه إلى الله تعالى والحضور التام مع التوجه إلى الخلق لأجل الدعوة في مرتبة النزول فليس لك في حالة النزول انقطاعاً عن الله تعالى في الحقيقة حتى تغتم به وشرح الصدر قد وقع للنبي ﷺ في مرتبة العيان مرتين مرة في صباه كما روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبرائيل وهو يلعب في الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ماء الزمزم ثم لأمه وأعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه أي ظئره فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس فكنت أرى أثر المخيط في صدره[١]. ومرة ثانية ليلة المعراج كما في الصحيحين عن أنس قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال ذكر أيضاً قصة المعراج وفيه «فنزل جبرائيل ففرج صدري ثم غسله بماء الزمزم ثم جاء

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦١).

بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه، وفي رواية في الصحيحين عن أنس عن مالك بن صعصعة أن نبي الله «حدثهم فشق ما بين هذه إلى هذه يعني من ثغرة نحره إلى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءاً إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد» «وفي رواية ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء إيماناً وحكمة» الحديث، قلت: والعلقة التي أخرجت من قلب النبي ﷺ هي رذائل العناصر والنفس والقلب الداعية للنفس على كونهاأمارة بالسوء وباعثة للجوارح على المعاصي ثم عطف على شرحنا لك صدرك المفهوم من ألم نشرح قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ الوزر في الأرض الجبل قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾[1] يعني جبل هناك يلتجي إليه والمراد ها هنا الثقل على سبيل الاستعارة وذلك الثقل إماأن يراد به غم الفراق وتوهم الوداع الذي أحزن النبي ﷺ وأنفض ظهره فزال الله سبحانه ذلك الغم والحزن بإنزال الآيات من سورة الضحى وألم نشرح حتى سكن للنبي ﷺ جأشه واستقر نفسه وعلم أن ذلك الفراق ليس على سبيل الوداع والقلى بل لحكمة ومنفعة فعد الله سبحانه إزالة هذا النعم من النعم وإما أن يراد به ثقل التكاليف الشرعية من دعوة الحق وتبليغ الأحكام وإتيان ما أمر بالله به وانتهاء كل ما نهى فإن التكاليف الشرعية شاق إتيانها لم تر أن السماوات والأرض والجبال أبين أن يحملنها وأشفقن منها، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[2] فلما شرح الله صدره ﷺ للإيمان والحكمة وأزال عنه حظ الشيطان ورذائل النفس التي جبلت عليها النفوس صارت التكاليف الشرعية له ﷺ طبيعة ومرغوبة ومحبوبة حتى قال عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[3] وهذه المرتبة التي عبر الله سبحانه عنها بوضع الوزر يسمونها الصوفية بالإيمان الحقيقي وهذا هو المعنى من قولهم بسقوط التكليف عن الصوفي وهذه المرتبة العليا أعني شرح الصدر ووضع الوزر حصلت للنبي ﷺ ظاهراً وعياناً كما روينا وتحصل لأولياء أمته بوراثته باطناً بحيث يظهر في المثال وذلك بعد فناء النفس وزوال العين والأثر وهناك يحكم الصوفية العلية ويبشرون بشرح الصدر والإيمان الحقيق كذا قال المجدد واستعدنا من المشايخ الكرام عليهم الرحمة والرضوان وما قال عبد الله بن يحيى وأبو عبيدة يعني حققنا عنك

---

(١) سورة القيامة، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

أعباء النبوة والقيام بأمرها يناسب التأويل الثاني مما قلنا وما ذكرنا من التأويلين أولى مما قيل: إن معناه خططنا عنك ما سلف منك في الجاهلية من الزلات لأن النبي ﷺ أرفع شأناً من أن يصدر عنه زلة وما قيل: المراد بالوزر ترك الأفضل مع إتيان الفاضل وغيرها من التكلفات ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ أي أثقله فأوهنه حتى سمع له نقيض أي صوت مثل صوت الرجل عند ثقل الحمل صفة الوزرفإن كان المراد من الوزر رغم الفراق كما ذكرنا أولاً فلا حاجة إلى التكلف والتأويل إنه كان أنقض ظهره وإن كان المراد به كلفة التكليف كما ذكرنا ثانياً فمعناه لولا شرحنا صدرك ووضعنا وزرك أنقض كلفة التكليف ظهرك ولم تستطيع إذا ما وجب عليه حق أدائه قال رسول الله ﷺ: «لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا»[١] يعني لولا فضل الله ولما كان كلفة التكليف موجباً لنقض الظهر في الدنيا مانعاً عن إتيان الواجبات أورد النقض بصيغة الماضي كما قيل مع كون النبي ﷺ معصوماً كان المناسب حينئذ إيراد صيغة المستقبل فإن المعاصي لا تنقض الظهر إلا في الآخرة حين يجازى عليها ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ روى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه سأل جبرائيل عن هذه الآية: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ قال الله تعالى: «إذا ذكرت ذكرت معي»[٢] قلت: هذه الآية والحديث يقتضي أن الملأ الأعلى إذا يذكرون الله تعالى يذكرون معه محمداً ﷺ وقد سبق أنه مكتوب على ساق العرش وقد مر في سورة البروج ما روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال: إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله الحديث، قال عطاء عن ابن عباس يريد الأذان والإقامة والتشهد والخطبة على المنابر ولو أن عبد الله صدقه في كل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله ﷺ لم ينفع بشيء وكان كافراً قال الحسان بن ثابت رضي الله عنه:

أغر عليه بالنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي باسمه ... إذا قال في الخمس الأذان أشهد

فشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وقيل: رفعه بأخذ ميثاقه على النبيين وألزمهم الإيمان به والإقرار بفضله ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ الذي أنت فيه ﴿يُسْرًا﴾ عظيماً فإن تنكيره للتعظيم وهذه الجملة واقع موقع التعليل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١٠٤).

(٢) رواه أبو يعلى وإسناده حسن.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: عظم قدره ﷺ (١٣٩٢٢).

المحذوف تقديره لاتحزن على ما أصابك من العسر فإن مع العسر يسرا ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ قيل: التنكير لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء والصحيح أنه استئناف وعده بأن العسر مشفوع بيسر آخر لما روى عبد الرزاق في تفسيره والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان مرسلاً أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «أبشروا قد جاءكم اليسر إنه لن يغلب عسر يسرين» رواه ابن مردويه بإسناده ضعيف عن جابر وله شاهد موقوف على رواه مالك الموطأ والحاكم وقال: هذا أصح طرقه، وقال البغوي: قال: ابن مسعود لو كان في جحر لطلبه اليسر حتى يدخله إنه لن يغلب عسر يسرين. قال أهل العربية: إن الكلمة إذا أعيدت معرفة فالثانية عين الأولى سواء كانت أولى معرفة أو نكرة لأن الأصل في اللام العهد وإذا أعيدت نكرة فالثانية غير الأولى سواء كانت أولى معرفة أو نكرة لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التكرير والتأكيد، قال في تنقيح الأصول: إن أقر بألف مقيداً بصك مرتين يجب الألف وإن أقر به منكراً يجب ألفان عند أبي حنيفة رحمه الله إلا أن يتحد المجلس، قلت: معنى إذا قامت القرينة أن المراد بالثاني هو الأول. فإن قيل: هذا قول مدخول فيه فإنه إذا قال الرجل إن مع الفارس سيفاً أن مع الفارس سيفاً لا يوجب أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنان؟ قلنا: نعم إذا قامت القرينة أن الثانية هي الأولى يحمل على الاتحاد ومثال الفارس والسيف من هذا القبيل وأما الآية فإنه تصلح التأويلين لكن ما فسر به النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم هو التأويل الصحيح، وقال البغوي ما حاصله إن المراد بالآية أن مع العسر الواحد يسران لكن لا لتكرير النكرة بل لأجل أن قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ متصل بما سبق ليسليه ووعده النبي ﷺ خاصة باليسر والغنى في الدنيا عاجلاً بعد الفقر الذي كان فيه ثم أنجز ما وعد وفتح عليه القرى ووسع ذات يده حتى كان يعطي من الإبل ويهب الهبات المسنية وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥﴾ كلام مبتدأ يدل عليه بقرينة عن الفاء والواو وهذا وعد لجميع المؤمنين ومجازة أن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسر في الآخرة فصار للنبي ﷺ مع عسر واحد يسران يسر في الدين ويسر في الآخرة، وقوله «لن يغلب عسر يسرين» فإنه وإن غلب يسراً واحداً وهو اليسر في الدنيا فلن يغلب يسر الآخرة البتة وهو قوي أبدي، قال البغوي رحمه الله جعل اللام في العسر للعهد وفي الثاني للجنس والله تعالى أعلم فبعض المفسرين قالوا: المراد بالعسر الفقر والشدة والبلاد من المشركين الذين كان النبي ﷺ فيه واشتكى منه إلى ربه والمراد باليسر الأول زوال تلك الحالة بنصر الله تعالى والغنى بعد الفقر، وقال البيضاوي المراد بالعسر ضيق الصدر والوزر المتقض للظهر وضلال القوم

وإيذائهم وباليسر الأول شرح الصدر ووضع الوزر والتوفيق للاهتداء والطاعة وأما اليسر الثاني فالمراد به عند كلهم ثواب الآخرة قالوا معنى الكلام أن بعد العسر يسرا وإنما أورد مع موضع بعد مبالغة في معاقبة اليسر للعسر واتصاله به اتصال المتقاربين، وعندي المراد بالعسر التوج إلى الخلق في مقام النزول الموجب للحزن والغم والمراد باليسر الأول التوجه إلى الخالق في عين مقام النول فإن الصوفي في تلك الحالة وإن كان في بادي النظر معرضاً من الله تعالى متوجهاً إلى الخلق لكنه في الحقيقة ليس بمعرض عنه تعالى بل مقبل إليه أيضاً واتسع صدره للتوجهين جميعاً بل التوجه إلى الخلق لما كان بإذن الله وعلى حسب أمره ومرضاته فهو أيضاً في الحقيقة توجه إلى الله سبحانه ومن ثم سمى هذا ايسر السير من الله بالله فعلى هذا كلمة مع في قوله تعالى: فإن مع العسر يسرا بمعناه الحقيقي بمعنى المقارنة وأما كلمة مع في الجملة الثانية فلا شك أنه على المجاز كما قالوا ومعنى الكلام على هذا التأويل لا تحزن فإن مع العسر والتوجه إلى الخلق الموجب لحزنك سراً وتوجهاً إلى الخالق ليست محجوب عنه الآخرة وخلوص التوجه إلى الله تعالى في الآخرة من غير شائبة حجاب وغيبة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ قال المفسرون النصب التعب والمعنى فإذا فرغت من دعوة الخلق فانصب وأتعب بالعبادة شكراً لما عددنا عليك من النعم السابقة ووعدناك بالنعم الآتية أو المعنى إذا فرغت من عبادة فانصب في عبادة أخرى، ولا تجعل وقتاً من أوقاتك ضائعاً خالياً قال رسول الله ﷺ: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم ولم يذكروا الله فيها»[1] وقال ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل والكلبي إذا فرغت من الصلاة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة يعني قبل السلام بعد الشتهد أو بعد السلام، وقال الشعبي إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك وقال ابن مسعود إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وقال الحسن وزيد بن أسلم إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك وهذا معنى قوله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2] وقال منصور عن مجاهد إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في عبادة ربك وقال حبان عن الكلبي إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب أي استغفر لذنبك وللمؤمنين فوجه اتصال هذه الآية بما سبق أن عند النعماء سبب

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان وفي أحد رواته خلاف.
انظر: فيض القدير (٧٧٠١).

(٢) قال ابن حجر: هو من كلام إبراهيم بن عيلة، ورواه الخطيب في تاريخه، وقال العراقي: سنده ضعيف. انظر: كشف الخفاء (١٣٦٢).

للشكر وأما على تأويلنا فمعنى الآية إذا فرغت من دعوة الخلق المقصود من النزول الأتم فانصب أي انتصب وارتفع إلى مدارج العروج ومقام الشهود في الصحاح: نصب الشيء وضعه وضعاً ثانياً كنصب الزرع والبناء والحجر، وفي القاموس نصب كفرج أعني وهم ناصب أي منصب ونصب الشيء وضعه ورفعه ضد كنصبه فانتصب وتنصب وناقة نصباء مرتفعة الصدر وتنصب الغراب ارتفع فعلى هذا التأويل هذه الآية في مقام التسلية مرادف بقوله تعالى: إن مع العسر يسراً الآية ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ عطف تفسيري بقوله فانصب يعني أرغب بالسؤال إلى ربك ولا تسأل غيره، قال عطاء تضرع إليه راهباً من النار راغباً في الجنة وقيل: فارغب إليه في جميع أحوالك، قال الزجاج اجعل رغبتك إلى الله وحده والجار والمجرور متعلق بمحذوف دل عليه ما بعده يعني فانصب وأرغب إلى ربك فارغب، قلت: تكرار الأمر بالرغبة لأن الرغبة الأولى إلى آلاء الله وصفاته والثانية إلى ذاته المجردة الرفيعة عن الشيون والاعتبارات قراءة سورة ألم نشرح لك صدرك يؤيد في مقام النزول كما أن سبح اسم ربك الأعلى يؤيد في مقام العروج وقد ذكرنا هناك والله تعالى أعلم.

سورة التين

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ قال ابن عباس والمجاهد والحسن وإبراهيم وعطاء ومقاتل والكلبي تينكم الذي تأكلون وزيتونكم هذا الذي تعصرون منه الزيت، قيل: خص التين بالقسم لأنه فاكهة مخلقة لا عجم لها شبيهة بفاكهة الجنة قيل في الحديث: «إنه يقطع البواسير وينفع من النقرس» رواه الثعلبي وأبو نعيم في الطب من حديث أبي ذر بإسناد مجهول والزيتون شجرة مباركة وهو ثمر دهن يصلح للاصطباغ وقال عكرمة هما جبلان، وقال قتادة التين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس وقال أبو محمد بن كعب التين مسجد أصحاب كهف والزيتون إيليا ﴿وَطُورِ﴾ يعني الجبل الذي الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام بين مصر وأيلة ﴿سِينِينَ﴾ قال الضحاك هو لغة نبطية ومعناه الحسن، وقال مقاتل كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سنين وسينا بلغة نبط، وقال عكرمة اسم للمكان الذي به هذا الجبل وكذا سيناء، وقيل: سريانية معناه الملتف بالأشجار وقيل: لغة حبشية، وقال مجاهد معناه البركة أي جبل مبارك وقال قتادة معناه الحسن أي جبل حسن، وقال الكلبي معناه الشجر أي جبل ذو شجر وقيل: اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها بوجودها عنده ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ أي ذا أمانة يحفظ من دخل فيه كما يحفظ أمين ما ائتمن عليه أو بمعنى فاعل أو مفعول يعني أمن من دخل فيه أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله والمراد به مكة يأمن الناس فيه في الجاهلية والإسلام أقسم الله سبحانه بهذه الأشياء لأن منبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومقر الأنبياء ومهبط ألوحي وطور المكان الذي نودي به موسى ومكة بيت الله الحرام ومولد النبي ﷺ ومهبط الوحي إليه جواب القسم

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي الجنس ﴿فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تفعيل من القيام والقوام، قال في الصحاح القيام والقوام اسم لما يقوم بالشيء أي تثبت، قلت وهو ما يتحقق به الشيء يعني أحسن حقيقته وماهيته وذلك لاستجماعه ما في عالم الكبير من لطائف عالم الأمر وعناصر عالم الخلق والنفس الناطقة المنشأة عن العناصر ولذلك الاستجماع يظهر فيه خصائص الكائنات كلها من الصفات الملكية والسبعية والبهيمية والشيطانية ويتصف بالصفات الكاملة المنعكسة من الصفات الإلهية من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والمحبو التي سميت بناء العشق يتزين بنور العقل ويستعد للتجليات الظلية والصفاتية والذاتية ومن ثم أعطى خلعة الخلافة إني جاعل في الأرض خليفة، وقيل معنى أحسن تقويم أي أحسن صورة فإن التقويم مصدر بمعنى التعديل في القاموس قومته عدلته فهو قويم مستقيم والمصدر ها هنا بمعنى المفعول أو بمعنى الفعيل أي أحسن صورة ومعدل قويم وذلك لأن كل حيوان خلق مكباً على وجهه إلا الإنسان خلق مستقيم القامة بأدى البشرة يتناول ما كونه بيده ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ﴾ أي صيرناه ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ قال البغوي نكرة تعم الجنس يعني بمعونة المقام كما يقال كريم قائم ويؤيده ما في مصحف ابن مسعود أسفل سافلين وإن لم تعم فهو هُملة في قوة الجزئية فيجوز أن يكون بعض السافلين أسفل عنه ويوافق هذه الآية أعني خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين قوله ﷺ: «ما من مولد إلا يولد على الفطرة أو ينصرانه أو يمجسانه»[١] متفق عليه من حديث أبي هريرة، غير أن في الآية أسند الرد إلى الله تعالى نظراً إلى أنه خالق لأفعال العباد وفي الحديث إلى الأبوين، نظراً إلى الكسب ولعل المراد بالسافلين ما جعله الله سبحانه سافل الاستعداد بحيث لا يمكنه تحصيل كمال من الكمالات الإنسانية والصعود إلى مصاعد القرب والتجليات الرحمانية من السباع والبهائم والشياطين الأجنة وجمعه سالماً تغليباً للعقلاء منهم على غيرهم وهم الشياطين ومردة الجن فالإنسان لما ضيع استعداده وترك شكر المنعم وإتيان موجبات الفوز رضوان الله تعالى وأتى بموجبات سخطه من الكفر ومقتضيات جعل أخبث من كل خبيث وأحط مرتبة من كل دنيء وأسوأ حالاً وأبتر مالاً من الكلاب والخنازير بل من الشياطين أيضاً لما ورد في حديث أنس قال «ويعرج له أي للكافر فرجة قبل الجنة فينظر إلى زمرتها وما فيها فيقال انظر إلى ما صرف الله عنك ثم يعرج له فرجة إلى النار» الحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وذلك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (٤٧٧٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

ليفرح المؤمن كمال الفرح ويتحسر الكافر كمال الحسرة، وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة»[1] وأما الشياطين فليس كذلك ولم يكن لهم مقعد في الجنة لعدم استعدادهم دخولها، وقال الحسن ومجاهد وقتادة معنى الآية ثم رددناه أسفل سافلين يعني إلى النار لأن جهنم بعضها أسفل من بعض وقال أبو العالية إلى النار في شر صورة في صورة خنزير ونحوه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء متصل من الإنسان لإخراجهم من حكم الرد فإنهم لا يردون إلى النار ولا يصيرون إلى أخبث الأحوال ﴿فَلَهُمْ﴾ أي للمؤمنين الصالحين ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع أو لا يمن به عليهم الفاء للسببية والجملة في مقام التعليل للاستثناء مقرر له، وقيل: معنى الآية خلقنا الإنسان في أحسن تقويم أي أعدل صورة أو أقوم حالة بحيث تيسر له كل ما أراد به وبتسخير له الحيوانات كلها والبر والبحر بل الجن والشياطين أيضاً ثم رددناه في بعض الأفراد أي صيرناه بالهرم وأرذل العمر أسفل السافلين والسافلون هم الضعفاء والزمناء والأطفال فإن الشيخ الكبير إذا زال عقله وضعف بدنه وغلب عليه العوارض والأمراض يصير أضعف من الضعفاء فعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن للاستدراك ودفع توهم نشأ وهو أن المؤمنين أيضاً بعد الهرم وسوء الكبر يكونون أسوء حالاً من الضعفاء ووجودهم في هذه الحالة وبال عليهم فقال الله لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قبل الهرم في حالة القوة والشباب فأجورهم غير مقطوعة لا يزال يكتب حسناتهم على حسب ما كانوا يعملون قال الضحاك أجراً بغير عمل. أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في هذه الآية قال: هم نفر ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ فسأل حين أسفت عقولهم فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم قال البغوي قال عكرمة لا يضر هذا الشيخ كبره إذا ختم الله له بأحسن ما كان يعمل، وروى العاصم الأحول عن عكرمة عن ابن عباس قال: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال: إلا الذين قرؤوا القرآن لم يردوا إلى أرذل العمر، وقال جلال الدين المحلى رحمه الله إذا بلغ المؤمن من الكبر بالعجز عن العمل كتب له ما كان يعمل وروى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ابتلى المسلم ببلاء في جسده قال للملك كتب له صالح عمله الذي كان يعمل»

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة والتين (٣٣٤٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: مقدار الركوع والسجود (٨٨٥).

وعن عبد الله بن عمرو نحوه رواهما البغوي في شرح السنة وروى البخاري عن أبي موسى نحوه في المريض والمسافر فإن قيل: مقتضى البلاغة تأكيد الكلام على قدر إنكار المخاطب وكون الإنسان مخلوقاً على أحسن صورة ثم رده بالهرم إلى ضعف أمر بديهي لا ينكره أحد فكيف أورد الكلام بالقسم ولام التأكيد وكلمة قد على هذا التأويل؟ قلنا: لما كان تحول الأحوال على الإنسان دليلاً واضحاً على جواز الإعادة والجزاء والكفار كانوا ينكرون الإعادة والجزاء كأنهم أنكروا التحول لأنه من أنكر المدلول فكأنه أنكر الدليل الواضح لاستلزام أحدهما الآخر ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ المخاطب به الإنسان على سبيل الالتفات يعني فأي شيء يحملك أيها الإنسان على التكذيب بالجزاء عاد أي شيء جعلك كاذباً حيث تقول خلاف الحق أن لا بعث ولا جزاء بعد تلك الدلائل الواضحة من نفسك أن خلقك فقواك ثم ضعف فأماتك قادر على إعادتك وجزاء أعمالك، والاستفهام للتوبيخ والإنكار يعني لا نيبغي لك التكذيب بالجزاء ضعفك أو المخاطب به النبي ﷺ وما للنفي وللاستفهام الإنكاري والمعنى لا شيء يكذبك أو فأي شيء يكذبك أي يدل على كذبك في قولك بالجزاء بالدلائل الواضحة على صدقك فنظير هذه الآية: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، وقيل ما بمعنى من والاستفهام للتعجب يعني من ينسبك إلى الكذب بعد تلك الشواهد على الصدق عجباً منه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ استفهام إنكار للنفي ونفي النفي إثبات فهو تحقيق وتقرير لما سبق والمعنى أليس الذي فعل ذلك من الخلق الرد بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ومن كان كذلك كان قادراً على الإعادة والجزاء والجملة لتسلية النبي ﷺ تكذيب الكفار إياه مكابرة وعناداً أو وعيد للكفار والمعنى أليس الله بأقصى القاضين فهو يحكم بينك وبين من كذبك يا محمد كذا قال مقاتل أو هي في مقام التعليل بقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ لا ينبغي لك أيها الإنسان التكذيب، قال الله أحكم الحاكمين عليك بالعذاب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالتين فانتهى إلى آخرها أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»[2] رواه أبو داود وعن البراء أن رسول الله ﷺ: «كان من سفر فقرأ في العشاء في أحد الركعتين بالتين والزيتون»[3] رواه البخاري، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الجهر في العشاء (٧٦٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: القراءة في العشاء (٤٦٤).

سورة العلق

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

روى البغوي بسنده عن عائشة قالت: أول سورة نزلت إقرأ باسم ربك وعليه أكثر المفسرين وأول ما نزل خمس الآيات من أولها إلى قوله تعالى: ما لم يعلم. عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو تعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ قلت: ما أنا بقارىء قال: فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤداه فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر، وقال: لقد خشيت على نفسي فقالت: كلا والله ما يحزنك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسيد بن عبد العزى بن عم خديجة وكان أمرأ تنصر بالجاهلية وكان يكتب الكتاب العبري فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم إسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس أنزل الله على موسى يا ليتني فيها

جذعاً يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك قال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا أوذي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي[١] متفق عليه. وقيل: المدثر أول القرآن نزولاً وقد ذكرنا هناك، وقيل أول ما أنزل سورة الفاتحة لما روى البيهقي في الدلائل أن خديجة قالت لأبي بكر يا عتيق اذهب به إلى ورقة فأخذه أبو بكر فقص عليه ما رأى فقال: عليه عليه السلام إذا خلوت وحدي سمعت نداء يقول يا محمد يا محمد فانطلق هارباً فقال لا تفعل إذا قال فاثبت حتى تسمع ثم انتهى فأخبرني فلما خلا فناداه محمد فثبت فقال قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ إلى آخرها، ثم قال: قل لا إله إلا الله الحديث، والصحيح هو الأول قال البغوي وهو الصواب الذي عليه جماهير الخلف والسلف وما قيل إنه أول ما أنزل فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ فمحمول على أنه أول ما نزل بعد فترة الوحي وأول سورة نزلت بكمالها الفاتحة أو يقال أوليتها إضافية أول أكثر القرآن بعد اقرأ والمدثر. واختلفوا في مدة الخلو بغار حراء؟ وفي الصحيحين جاورت بحراء شهراً وهو شهر رمضان كما رواه ابن إسحاق في السيرة وأفاد الزرقاني أنه لم يصح أكثر منه وروى مسوار بن مصعب أربعون يوماً لكنه متروك الحديث قاله الحاكم وغيره ورجح بعد العلماء هذا قياماً على ميقات موسى عليه السلام واستدلالاً بقوله ﷺ: «من أخلص لله أربعين يوماً ظهر ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه» رواه أبو نعيم في الحلية عن أيوب لكن الحديث ضعيف وكذا القياس لأن موسى كان ثلاثين ليلة فأتمها الله أربعين بعارضة قال الله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[٢] واختلفوا في كيفية تعبده؟ فقيل بشرع نوح وإبراهيم وعيسى وليس بشيء لكونه أمياً والصحيح أنه كان يتعبد بالانقطاع عن الخلق والنيل إلى الحق والتفكر، قال القسطلاني ولم تكن الرجفة المذكورة في الحديث خوفاً من جبرئيل عليه السلام فإنه ﷺ أجل من ذلك وأثبت جناناً بل خشية أن يشتغل بغير الله عنه تعالى قيل: خاف من ثقل أعباء النبوة، وروى أبو نعيم أن جبرائيل وميكائيل شقا صدره هنا وغسلاه ثم قالا: اقرأ باسم ربك الآيات.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

مسألة:

وهذه القصة تدل على أن التسمية ليست جزء من كل سورة لكن روى بن جرير عن ابن عباس قال: أول ما نزل جبرائيل على محمد ﷺ قال: يا محمد استعذ قال: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال قال: بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، وهذه الرواية شاذة في مقابلة الصحاح.

فائدة: ومدة فترة الوحي ذكر السهيلي أن الفترة كانت سنتين ونصفاً ووقع في التاريخ الإمام أحمد عن الشعبي أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين فقرن نبوته إسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قرن نبوته جبرائيل فينزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة وقد ذكرنا حزن النبي ﷺ في أيام الفترة في سورة والضحى قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ أمر بالقراءة والمفعول محذوف أي اقرأ القرآن مفتحاً أو متبركاً باسم ربك فهو منصوب على الحال يعني قل باسم الله ثم إقرأ القرآن، ويحتمل أن يكون باسم ربك في محل النصب على المفعولية والباء زائدة يعني اقرأ اسم ربك ولم يقل اسم الله لأن الله علم لذات الواجب ولا سبيل إلى معرفة الذات إلا بالتفكر في الآثار والصفات وأظهر الصفات بالنسبة إلينا صفة الخلق والتربية التي تنبه على التحول أحوال الممكنات الدال على حدوث العالم الموصل إلى العلم بالمحدث القديم المنزه عن شوائب النقص والزوال واحتمال التحول عن حال إلى حال وفيه إشارة إلى أن الصوفي يلتزم أولاً على ذكر الاسم لكي يهتدي به إلى المسمى لكن الصوفية اختاروا من الأسماء اسم الذات لأن سلوك الطريقة يكون بعد الإيمان المجازي بذات الواجب فالأول في حقه اسم الذات لاستجماعه في الدلالة على الصفات كلها ولو إجمالاً ولكونه أقرب من الذات والمقصود هو الذات، وقال الطيبي هذا أمر بإيجاد القراءة مطلقاً وهو لا يختص بمفرد دون مفرد فهو بمنزلة اللام والباء للاستعانة والجملة في جواب قوله ﷺ: ما أنا بقارىء والمعنى قارياً لا بقوتك ومعرفتك بل بإعانة ربك وقوته لفظة اسم على هذا مقحم كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ صفة موضحة للرب فإن الربوبية يقتضي الخلق والتربية من النقصان إلى الكمال وحذف مفعول خلق للدلالة على التعميم أي خلق كل شيء ومن جملة خلق القدرة على القراءة ونزل خلق منزلة اللازم يعني الذي له صفة الخلق والتكوين ولا يمكن اتصاف أحد غيره بتلك الصفة ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الظاهر أنه جملة مستأنفة كأنه في جواب سؤال ما خلق وإنما خص الإنسان بالذكر بوجوه أحدها أنه أشمل المخلوقات أجزاء فإن كل ما هو في العالم

الكبير فهو ثابت فيه ولذا سمي عالماً صغيراً فالحكم بأنه خلق الإنسان حكم بخلق كل شيء من عوامل الخلق والأمر ثانيها أنه أشرف المخلوقات مستعد لتجليات الصفات والذات أولي بالمعرفة التي هي المقصود بخلق الكائنات قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[١] أي ليعرفون وفي الحديث القدسي «لولاك لما خلقت الأفلاك»[٢] ولما أظهرت الربوبية خص النبي ﷺ ههنا بالذكر لكونه أكمل أفراد الناس معرفة وفي الحديث «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق» فخص الإنسان في هذه الآية بالذكر إظهاراً لشرفه وبياناً لأن المقصود بالخلق، وثالثها أنه هو المخاطب بالشرائع والمكلف بالتكليفات الشرعية أولاً وأنه أعرف بحاله من حال غيره فاستدلاله على الصانع بانقلابات أحواله أولى وأقرب لحصول المعرفة ويجوز أن يكون المحذوف من الجملة الأولى كاف الخطاب أي الذي خلقك الجملة الثانية مستأنفة في جواب سؤال مقدر وهو من أي شيء خلقه، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بلفظ الجنس لاشتراك أفراد الإنسان فيه اختصاص ما منه الخلق بالمخاطب ويحتمل أن يكون المفعول المحذوف من الجملة الأولى هو الإنسان والجملة الثانية تأكيد لها فسر بعد الإبهام تفخيماً لخلقه وليكون أوقع في النفس، ويحتمل أن يكون المراد بالإنسان هو النبي ﷺ خص بالذكر إظهارا لشرفه ولأنه هو المخاطب به ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمع علقة أو رد صيغة جمع لأن الإنسان جنس في معنى الجمع ولعل العدول من قوله خلق الإنسان من نطفة أو من تراب لمراعاة الفواصل والإشارة إلى جميع أطوار خلقه حيث أشار إلى ما توسط منها فإن هذا خلقه من الطين ثم من الأغذية التي تصير بعد تحويلات منياً ثم تصير المني علقة ثم العلقة مضغة ثم المضغة عظاماً ثم تكسير العظام لحماً ثم ينفخ فيه الروح فذكر المتوسط يشعر بما سبقه وما لحقه من الأطوار ﴿ٱقْرَأْ﴾ تكرير للتأكيد وللمبالغة والأول مطلق والثاني للتبليغ أو في الصلاة وجاز أن يكون باسم ربك متعلقاً بهذا ويكون الأول نازلاً منزلة اللازم والثاني مستأنفة تقديره اقرأ أي صر قارئاً فكأنه قال ما أقرأ وكيف أقرأ فقال الله تعالى: اسم ربك إقرأ وباسم ربك إقرأ القرآن وعلى هذا يحتمل أن يكون ما في قوله ﷺ أنا بقارىء في جواب قول جبرائيل إقرأ استفهامية والباء في الخبر زائدة على لغة أهل المصر، ويمكن أن يقال مافي المرتبة الأولى نافية وبعد ما غطه جبرائيل كانت استفهامية

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) قال الصنعاني: موضوع، وأقول لكن معناه صحيح وإن لم يكن حديثاً. انظر كشف الخفاء (٢١٢٣).

﴿وَرَبُّكَ﴾ مبتدأ والواو للحال ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ صفة للمبتدأ أو خبر له الزائد في الكرم على كل كريم فرض وجوده حيث ينعم بلا غرض ما لا يمكن إحصاءه كماً وكيفاً ومورداً وبحلم عن جهل العباد فإما أن يعفو أو لا يعجل في العقوبة مع العلم وكمال القدرة على الانتقام فوراً فالأفضلية على سبيل الفرض ولو كان المفروض محالاً أو في الحقيقة هو الكريم وحده لا شريك له في الذات ولا في صفة من الصفات ولذا قالوا: أفعل وفعيل في صفات الله تعالى بمعنى واحد فإطلاق لفظ الكريم أو الرحيم أو السميع أو البصير ونحو ذلك على غيره تعالى كأنه بالمجاز لكونه مرأة لصفة كرمه ورحمته وغير ذلك ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ قيل: بالقلم متعلق بمفعول محذوف بعلم تقديره علم الخط بالقلم ليفيد به العلوم والكتب المنزلة فيبقى بعد مضي الدهور ويعلم به البعيد وإنما خص علم الخط أولاً بذكر إظهاراً لشرفه فإن الغرض من التعلم الحفظ وتبقية العلوم وحفظها غالباً لكتابة عادة، قيل أول من خط إدريس عليه السلام، قلت: والظاهر أن قوله بالقلم متعلق بعلم معنى العلوم بتوسط القلم وإنما قدمه في الذكر لكون التعليم بالقلم أسبق التعليمات، قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم»[1] الحديث وقد مر في سورة ن والقلم والموصول مع الصلة خبر للمبتدأ، أولاً أو بعد خبر أو صفة بعد صفة كاشفة للتكريم فإن من كمال كرمه تعليم العلوم وتعليم ما يفيد به العلوم ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ بخلق العقل والقوى ونصب الدلائل والوحي والإلهام وخلق العلم الضروري في الأذهان وإنزال الكتب وإرسال الرسل وتواتر الأخبار وغير ذلك هذه الجملة خبر للمبتدأ إن كان ما سبق صفات وبدل اشتمال من علم بالقلم إن كان الموصول خبر المبتدأ تقييد العلم أولاً بالقلم مع حذف المفعول الأول على التعميم وعدم تقييده به ثانياً مع تقييده بالإنسان دليل على أن علوم العالمين بعض علم الإنسان وأخص ولو من وجه فإن علوم الملائكة مثلاً بتوسط القلم وقد أحاط بها اللوح المحفوظ الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ولا رطب ولا يابس إلا فيه، وأما علم الإنسان فمنها ما هو في اللوح مكتوب بالقلم ومنها ما لا يحيط به الكتاب ولا يتصد به القلم يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[2] الآية وذلك لأن العلم بكنه ذات الله تعالى ليس من قبيل العلم الحصولي حتى يتسعه اللوح ويكتبه القلم بل هو من قبيل العلم الحضوري بل وراء العالمين يحصل للإنسان بعد ماهية الله تعالى ذاتاً موهوماً ومن ها هنا قائل فإن من جودك الدنيا وخرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر (٢١٥٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.

وجملة وربك الأكرم حال من فاعل اقرأ فإنه لما قيل للنبي ﷺ اقرأ فقال ما أنا بقارىء قيل له اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان يعني آدم عليه السلام أو جنس الإنسان الشامل لجميع الأنبياء ما لم يعلم فيعلمك القرآن وإن لم يكن قارئاً، ويحتمل أن يكون المراد بالإنسان محمد ﷺ فلعله قال النبي ﷺ ما أنا بقارىء فأخذه جبرائيل فغطه ثلاثاً حتى بلغ منه الجهد وأفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى فالله سبحانه علم نبيه ﷺ بتلك اللفظات الثلاث علوم الأولين والآخرين ثم عد نعمة عليه فقال علم الإنسان ما لم يعلم وقال في موضع آخر ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾(١) فإن قيل: أي فائدة في إيراد قوله ما لم يعلم مع أن التعليم لا يتصور إلا فيما لا يعلم؟ قلنا: فائدته التصريح بعجز الإنسان التعرف بجهله من قبل العلم ويشكر على تلك النعمة العظمى وذكر في مواهب اللدنية روي أن جبرئيل بدا له ﷺ في أحسن صورة وأطيب رائحة فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أنت رسول إلى الجن والإنس فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ثم ضرب برجله الأرض فنبعث عين ماء فتوضأ منها جبرائيل ثم أمره أن يتوضأ وقام جبرائيل يصلي وأمره أن يصلي معه فعلمه الوضوء والصلاة ثم عرج إلى السماء ورجع رسول الله ﷺ لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر وهو يقول السلام عليكم يا رسول الله حتى أتى خديجة فأخبرها فغشي عليها من الفرح، ثم أمرها فتوضأ وصلى بها كما صلى له جبرائيل فكان ذلك أول فرضها ركعتين ثم إن الله أمرها في السفر كذلك وأتمها في الحضر، وقال ابن حجر في فتح الباري كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعاً وكذلك أصحابه ولكن اختلف هل فرض قبل الخمس شيء من الصلاة؟ فقيل إن الفرض كان صلاة قبل طلوع الشمس وغروبها انتهى وقال أول ما وجب الإنذار والدعاء إلى التوحيد ثم فرض من قيام الليل ما ذكره في أول سورة المزمل ثم نسخه بما في آخرها ثم نسخه بإيجاب الصلاة الخمس ليلة الإسراء بمكة وأما ذكره في هذه الروية من أن جبرائيل علمه الوضوء وأمره فيدل على فرضية الوضوء قبل الإسراء والله تعالى أعلم، وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل نعم فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب فأنزل الله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ

(١) سورة النساء، الآية: ١١٣.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٣ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٤ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١٥ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٦ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٧ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٨﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع لمن كفر بالله لطغيانه ونهى عن الصلاة وإن لم يذكر في الكلام لدلالة الكلام أو الحال عليه أو هي بمعنى حقاً تحقيقاً لما بعده ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أطلق لفظ الجنس باعتبار بعض أفراده يعني أبا جهل ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾ ليجاوز حده في الكفر والتكبر على ربه ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ قرأ قنبل بقصر الهمزة والباقون بالد ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ إنرأى نفسه منصوب على العلية أو على الظرفة بتقدير المضاف أي لأن رأى أو وقت أن رأى نفسه غنياً استغنى مفعول ثانٍ للروية فإنها من أفعال القلوب ولو كان بمعنى الإبصار لامتنع كون الشيء الواحد مرجعاً للضميرين المرفوع والمنصوب، كان أبو جهل إذا أصاب مالاً ارتفع في طعامه وثيابه ومركبه ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ٨﴾ الرجع مصدر كالبشرى اسم أن والظرف خبره والجملة مستأنفة للتهديد والتحذير كأنه في جواب ما عاقبة الطاغي والخطاب للإنسان على سبيل الالتفات أي رجوعك إلى ربك فيجازيك على طغيانك، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ فجاءه أبو جهل فنهاه فأنزل الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ٩﴾ إلى قوله: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا محمد استفهام عن الروية للتقرير فهو بمعنى قد رأيت فأقر به أو يقال الغرض من الاستفهام الرؤية أن يخبر المخاطب عما رأى فحاصل المعنى أخبرني ويستعمل في مقام التعجب والرؤية من الأفعال القلوب يتعدى إلى المفعولين وهما مبتدأ أو خبر في المعنى والغرض ها ها هنا تقرير نسبة بينهما والاستخبار عنها ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾ الظرف متعلق بينهى والمراد بالموصول أبو جهل وبالعبد محمد ﷺ على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أورد الله سبحانه لفظ العبد موقع كاف الخطاب للدلالة على كمال عبوديته وكونه على الحق المبين فإن المقتضى العبودية العبادة وعلى كمال طغيان الناهي وتقبيحه والموصول مع الصلة أحد مفعولي رأيت ومفعول الثاني محذوف في حكم المذكور حملاً على ذكره في قوله تعالى: ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾ تقديره أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى كيف يطغى ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ﴾ العبد ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ حين يصلي ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ١٢﴾ حين يدعون الناس إلى التوحيد والصلاة، والظاهر النهي كان عن الصلاة وعن الأمر بالتقوى معاً فاقتصر في الجملة الأولى على أحدهما اكتفاء بذكرهما في الثانية ولأنه دعوة بالفعل ولأن نهى العبد إذا صلى يحتمل يكون لها ولغيرها وعامة أحواله محصورة في تكميل نفسه بالعبادة وتكميل غيره بالدعوة وهذا شرط حذف جزاءه بدلالة السياق وهو كيف ينهاه أو فيهلك الناهي ويفوز العبد والشرطية قائم مقام مفعولين لرأيت

وكذا في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا محمد ﴿إِن كَذَّبَ﴾ الناهي ما هو الحق ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن الإيمان كيف ينجو من عذاب الله بل يهلك والدليل على المحذوف في الجملتين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ والوعيد فإن إنكار النفي إثبات تقديره وقد علم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ متعلق بيعلم قائم مقام مفعوليه، ويرى بمعنى يعلم حذف مفعولية بدلالة ما سبق أي يرى الله الناهي ناهياً عن الهدى الأمر بالقوى مكذباً بالحق متولياً عن الإيمان والعبد على الهدى والأمر بالتقوى، وعلم الله يستلزم الجزاء على حسب ما علم فأطلق الرؤية وأريد به الجزاء تسمية اللازم باسم الملزوم فتقدير الكلام وقد علم الناهي أن الله يجزي كلا من الناهي والعبد المصلي على حسب ما علم فهذه جمل أربع، وقال صاحب البحر المواج مثل ما قلت غير أنه قال ألم يعلم جزاء الشرطية الثانية وجزاء الشرطية أولى محذوف يقدر مثل الثانية تقديره أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى، وقيل: الخطاب في أرأيت الأولى والثالثة إلى النبي ﷺ وفي الثانية إلى الكافر تقديره أرأيت يا محمد الذي ينهى إذا صليت غطى أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على الهدى أو أمر بالتقوى كيف نهاه أرأيت يا محمد إن كذب أبو جهل وتولى فكيف ينجو ألم يعلم بأن الله يرى كما أن الحاكم بين الخصمين يخاطب تارة هذا وتارة ذاك، وقال الشيخ الجلال الدين المحلي معناه وعجب منه يا مخاطب من حيث نهيه عن الصلاة ومن حيث أن النهي على الهدى أمر بالتقوى ومن حيث أن الناهي مكذب متول عن الإيمان فعلى هذا أيضاً الجمل أربع وقيل: معناه أرأيت يا محمد الذي ينهى عبداً إذا صلى كيف صددناه عنك أرأيت يا محمد إن كان أبو جهل على الهدى أو أمر بالتقوى لكان خيراً له أرأيت يا محمد إن كذب أبو جهل وتولى لأعذبنه ألم يعلم بأن الله يرى فيجازى على حسب ما عمل وكرر لفظ أرأيت ثلاثاً ولم يكتف على الأول ولم يعطف الشرطيتين على الذي ينهى لغاية التعجب، وقال البيضاوي الذي ينهى أول مفعولي أرأيت والشرطتين مفعوله الثاني على التوزيع وجزاء الشرطية الثانية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ وجزاء الأولى محذوف اكتفاء بذكره في الثانية وكلمة أرأيت في الآخريين لتكرير الأولى غير عاملة في ما بعدها والمعنى أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلواته إن كان ذلك الناهي على الهدى فيما ينهى عنه أو أمر بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده أو أن كان على التكذيب بالحق والتولي عن الصواب كما تقول ألم يعلم ذلك الناهي بأن الله يرى ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فالكل على هذا جملة واحدة، قال البغوي تقدير النظم أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى أمر بالتقوى الناهي مكذب متولي

عن الإيمان فما أعجب من هذا فالشرطتين في محل نصب على الحالية أولى عن مفعول ينهى والثانية عن فاعله وألم يعلم جملة مستأنفة للوعيد وضمير الفاعل راجع إلى الذي ينهى ﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي الذي كذب وتولى ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ الذي ينهى عما هو فيه من النهي عن المعروف وتكذيب الحق والتولي عن الإيمان ﴿لَنَسْفَعًا﴾ جواب للقسم لفظاً وللشرط معنى، ويكتب النون الخفيفة كتنوين المنصوب على صورة الألف والسفع القبض على الشيء وجذبه بشدة أي لنا جذبة فلنجذبنه إلى النار ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ وهي مقدم الرأس أي ناصية والاكتفاء باللام عن الإضافة للعلم بأن المراد ناصية المذكور ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ وصف الناصية بالكذب والخطا وهما لصاحبها على الإسناد المجازي للمبالغة وناصية بدل من الناصية وإنما جاز لوصفها وجملة لئن لم ينته مستأنفة كأنها من جواب ما يفعل الله بالطاغي أخرج الترمذي وصححه وابن جرير عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ فزجره النبي ﷺ فقال أبو جهل إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني ذكر البغوي بلفظ أشهره رسول الله ﷺ فقال أبو جهل أشهرني فوالله لأملأن عليك هذا الوادي خيلاً جرداً ورجالاً مرداً فأنزل الله تعالى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾﴾[1] النادي المكان الذي يجتمع فيه القوم والمراد أهل النادي أي قومه وعشيرته بحذف المضاف في اللفظ أو بالمجاز بالإسناد ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ قال ابن عباس يريد زبانية جهنم قال الزجاج هم الملائكة الغلاظ الشداد والزبانية جمع أو زبينة كعفرية وفي الأصل الشرط مأخوذ من الزبن بمعنى الدفع قال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله عياناً وذكر المحلي هذا الحديث مرفوعاً ﴿كَلَّا﴾ أي حقاً ما ذكر من السفع بالناصية ودعاء الزبانية إن دعانا به أو المعنى لا يستطيع أن يدعونا به ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ في ترك الصلاة جملة مستأنفة كأنه في جواب إذا أصنع حين ينهى، ﴿وَاسْجُدْ﴾ عطف على لا تطعه لفظاً وتأكيد معنى ﴿وَاقْتَرِب﴾ من الله بالصلاة روى أبو داود وغيره عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[2] أمال حمزة والكسائي أواخر هذه السورة من قوله عز وجل ليطغى إلى قوله بأن الله يرى وأمال أبو عمرو يرى وحده وما عداه بين بين وورش جميع ذلك بين بين والباقون بالفتح وقد ذكرنا بحث سجدة التلاوة في

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة إقرأ باسم ربك (٣٣٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: التطبيق، باب: أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل (١١٣١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٣).

سورة انشقت فعند أب حنيفة رحمه الله اسجد أمر بسجدة التلاوة بدلالة فعله عليه الصلاة والسلام «أنه ﷺ سجد في إذا السماء انشقت واقرأ»[1] رواه مسلم من حديث أبي هريرة والجمهور على أنه أمر بالصلاة تسمية الكل باسم الجزء فإنه معطوف على لا تطعه عطفاً تفسيرياً بسنية السجود واقتداء بفعله ﷺ وذا لا يقضتي الوجوب، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (٥٧٨).

سورة القدر

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن الحسن بن علي عليه السلام قال: إن النبي ﷺ أري بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ ونزلت: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ يملكها بني أمية، قال القاسم بن الفضل الهمداني فعددنا فإذا هي ألف شهر لا يزيد ولا ينقص[١] قال الترمذي غريب وقال المزني وابن كثير منكر جداً، وأخرج ابن أبي حاتم والواحدي عن المجاهد أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس من السلاح في سبيل الله ألف شهر فحجب المسلون من ذلك فنزلت ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله فيها، وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجلاً يقوم حتى يصبح ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي فعمل ذلك ألف شهر فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ عملها ذلك الرجل، وروى مالك في الموطأ أنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول: إن رسول الله ﷺ تقاصر في أعمار أمته لا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر، قلت: هذا مرسل لكنه أصح ما ورد في الباب وهذا يدل على أن ليلة القدر من خصائص هذه الأمة وبه جزم بن حبيب من المالكية ونقله عن الجمهور صاحب العدة من الشافعية

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة القدر (٣٣٥٠).

ويرد عليه حديث أبي ذر عند النسائي حيث قال: قلت: يا رسول الله أيكون مع الأنبياء فإذا ماتوا رفعت؟ قال: بل هي باقية. ورجح الحافظ ابن حجر كونها في الأمم الماضية، وقال ما رواه المالك بلاغاً يحتمل التأويل فلا يدفع الصريح، قلت: ما رواه مالك أصرح في الدلالة من المرفوع في حديث أبي ذر فإن لفظ المرفوع بل هي باقية يحتمل أن يكون معناه بل هي باقية بعد نبينا ﷺ لكن حديث أبي ذر يدفع قول من قال إنها لم تكن إلا في سنة واحدة في حضور النبي ﷺ وما قيل إنها رفعت بعده ﷺ وكذا يدل على تأييده ما روي عن أبي هريرة قيل: زعموا أن ليلة القدر رفعت قال كذب من قال ذلك رواه عبد الرزاق قال الراوي قلت: هي في كل شهر رمضان استقبله قال: نعم قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن كناية عن غير مذكور تفخيماً وشهادة له بالعظمة المغنية عن تصريح في انتقال الذهن إليه كما عظمه بأن أسند إنزاله إلى نفسه وقدم المسند إليه على الخبر الفعلي لزيادة التأكيد والتقوى أو للتخصيص ثم عظمه باعتبار وقت نزوله فقال: ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ يقدر الله تعالى فيها أمر السنة في عباده وبلاده إلى السنة المستقبلة، قيل: للحسين بن الفضل أليس قد قدر الله تعالى المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: نعم قيل: فما معنى ليلة القدر؟ قال: سوق المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر يعني إطلاع الملائكة الموكلة على الأمور في تلك الليلة على ما قدر الله أمر السنة في عباده وبلاده إلى السنة المقبلة، وقال عكرمة تقدير المقادير وإبرام الأمور في ليلة النصف من الشعبان فيها ينسخ الأحياء من الأموات فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم ويؤيده ما رواه البغوي أن رسول الله ﷺ: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له ولقد خرج اسمه في الموتى» قلت: لعل تقدير المقادير بنحو من الإنجاء أو بعضها في ليلة النصف من شعبان وتقديرها كلها وتسليمها إلى أربابها إنما هو في ليلة القدر قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾[1] قال ابن عباس يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحاج يقال يحج فلان وفلان، وروى أبو الضحى عن ابن عباس أن الله يقضي الأقضية ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر كذا ذكر البغوي، وقال الزهري سميت بها للعظمة والشرف قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[2] أي ما عظموه وقيل: لأن العمل الصالح فيه يكون ذا قدر عند الله وأجر جزيل ومعنى نزول القرآن في

---

(١) سورة الدخان الآية: ٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

ليلة القدر على ما روى مفهم عن ابن عباس أنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم نزل به جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ نجوماً نجوماً في عشرين سنة فذلك قوله: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[١] وروي عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث مضين من رمضان ويروى في أول ليلة من رمضان وأنزلت توراة موسى في ست ليال مضين من رمضان وإنزال الإنجيل في ثلاث عشرة مضت من رمضان وأنزل زبور داود في ثمان عشرة ليلة من رمضان وإنزال القرآن على النبي ﷺ في أربعة وعشرين لست بقين بعدها» وأخرج أحمد والطبراني من حديث وائلة بن الأسقع «نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وأنزل التوراة لست مضين والإنجيل لثلاث عشرة والقرآن لأربع وعشرين[٢] وبناء على تلك الأحاديث قال بعض العلماء إن ليلة القدر ليلة أربع وعشرين من رمضان وروي هذا القول عن ابن مسعود والشعبي والحسن وقتادة ويؤيد قولهم ما روى أحمد عن بلال مرفوعاً التمسوا ليلة القدر ليلة أربع وعشرين وفيه ابن لهيعة قال الحافظ ابن حجر أخطأ ابن لهيعة في رفعه، قلت: وتلك الأحاديث لو صحت لا تدل على أن يكون ليلة القدر في كل عام ليلة أربع وعشرين بل كونها كذلك سنة نزول القرآن إلى بيت العزة أو في سنة حكى عنه بلال.

فائدة: اختلف العلماء في تعيين ليلة القدر على نحو من أربعين قولاً والصحيح أنها ليلة منتقلة في العشر الأواخر من كل رمضان جمعاً بين الأحاديث الصحاح وإعراضاً عما يخالفها منها حديث سلمان الفارسي قال خطب رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم شهر مبارك شهر فيه ليلة خير من ألف شهر»[٣] وقد مر هذا الحديث في سورة البقرة وفضائل رمضان وهذا الحديث يدفع ما قيل أنها يكون في رمضان وغيره كذا ذكر قاضيخان مذهب أبي حنيفة لا يقال لعلها كانت في سنة نزول

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧٥.

(٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عمران بن داود القطان ضعفه يحيى ووثقه ابن حبان وبقية رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد في كتاب: العلم، باب: التاريخ (٩٥٩).

(٣) رواه ابن خزيمة والبيهقي في شعب الإيمان والأصبهاني في الترغيب، قال الحافظ ابن حجر، مداره على علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.
انظر: كنز العمال (٢٣٧١٤).

القرآن أو عما حكى عنه سلمان خاصة في رمضان، فلا يدفع بهذا الحديث ولا بالآية لأنا نقول ورد في حديث سليمان نعوت شهر رمضان مطلقاً حيث قال: «جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوع ومن توطع فيه كان كمن أدى فريضة في غيره ومن أدى فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة وإنه شهر الصبر وشهر المواساة» وغير ذلك وليس شيء من تلك النعوت مختصاً برمضان تلك السنة فكذا هذا أو منها حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره»[(١)] رواه مسلم، وقالت «كان إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»[(٢)] متفق عليه وقالت: «كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه بعده» متفق عليه وقالت: «كان يجاور العشر الأواخر من رمضان ويقول: تحروا الليلة القدرة في العشر الأواخر من رمضان» رواه البخاري، ومنها حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية ثم أطلع رأسه فقال إني أعتكف العشر الأول التمس هذه الليلة ثم اعتكف العشر الأوسط ثم أتيت فقيل لي إنها في العشر الأواخر فمن اعتكف معي فليعتكف العشر الأوامر فإني أريت هذه الليلة ثم أتيتها وقد رأيتني أسجد في الماء والطين من صبيحتها فالتمسوها في كل وتر قال: فمطر السماء تلك الليلة وكان المسجد على عريش فوكف المسجد فيضرب عيني رسول الله ﷺ وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين»[(٣)] متفق عليه في المعنى، وروى مسلم من حديث أبي سعيد قال اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأوسط من رمضان يلتمس ليلة القدر فلما انقضين أمر بالبناء فوقض ثم أنسيت وإنها في العشر الأواخر فأمر بالبناء فأعيد، ثم خرج على الناس فقال: «يا أيها الناس إنها كانت أريت لي ليلة القدر وإني خرجت لأخبركم فجاء رجلان معهما شيطان فنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان والتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة» قال: قلت: يا أبا سعيد إنكم أعلم بالعدد منا، قال: أجل نحن أحق بذلك منكم قال: التاسعة والسابعة والخامسة قال: إذا مضت واحدة وعشرون فالتي تليها

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الاعتكاف، باب: الاجتهاد في العشر الأوخر من شهر رمضان (١١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضل ليلة القدر، باب: العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الاعتكاف، باب: الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان (١١٧٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الاعتكاف، باب: من خرج من اعتكافه عند الصبح (٢٠٤٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الاعتكاف، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٨).

اثنتان وعشرون فهي التاسعة وإذا مضى ثلاث وعشرون فالتي تليها السابعة وإذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة وروى الطيالسي عن أبي سعيد مرفوعاً ليلة القدر «ليلة أربع وعشرين» ومنها حديث عبد الله بن أنيس مرفوعاً «أريت ليلة القدر ثم أنسيتها وأراني صبيحتها أسجد في الماء والطين قال فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بنا رسول الله ﷺ يعني الفجر فانصرف وأثر الماء والطين على جبهته وأنفه»[١] رواه مسلم وأبو داود عنه قال: قلت: يا رسول الله إن لي بادية أكون فيها فمرني بليلة أنزل فقال: إنزل ليلة ثلاث وعشرين وفي رواية عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر صبيحة إحدى وعشرين فقال: كم الليلة؟ قلت: ليل اثنين وعشرين قال: هي الليلة أو القابلة» ومنها حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان متحرياً فليتحرها ليلة سبع وعشرين» رواه أحمد وابن المنذر معناه وحديث جابر بن سمرة نحوه أخرجه الطبراني، وحديث معاوية بن أبي سفيان عن النبي ﷺ في ليلة القدر قال: «ليلة الدرة سبع وعشرين» رواه أبو داود، بأحاديث ليلة سبع وعشرين أخذ أحمد وهي رواية عن أبي حنيفة وبه جزم أبي بن كعب وحلف عليه فقيل لأبي بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالعلامة التي أخبرنا رسول الله ﷺ: «إنها يعني الشمس تطلع يومئذ لاشعاع لها»[٢] رواه مسلم وروى هذا القول ابن أبي شيبة عن عمر وحذيفة وأناس من الصحابة ويستدل بهذه المقالة بما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: تذاكرنا ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ «يذكركم حين طلع القمر كأنه شق جفنه» قال أبو الحسن الفارسي: أي ليلة سابع وعشرين فإن القمر يطلع فيها بتلك الصفة قال المراد به كما وقته وذا بالسابع والعشرين، وهذا الاستدلال ضعيف لأن الظاهر من الحديث أنه كما أن الشمس من صبيحتها تطلع بلا شعاع كذلك القمر في تلك الليلة يطلع بلا شعاع لا لأجل كمال وقته بل لمعنى آخر فهذه الأحاديث لا تدل إلا على كون ليلة القدر تارة ليلة سابع وعشرين لا على أنها لا تكون إلا تلك الليلة ومنها حديث ابن عمر رأى رجل ليلة القدر ليلة السابعة وعشرين فقال النبي ﷺ «أرى رؤياكم في العشرة الأواخر فاطلبوها في الوتر فيها» رواه مسلم، ومنها حديث ابن عمر مرفوعاً «فليتحرها ليلة السابعة» رواه عبد الرزاق وروى أحمد عن ابن عباس نحوه يعني السابعة بعد العشرين أوا لسابعة من الليالي الباقية ومنها حديث النعمان بن بشير مرفوعاً سابعة تمضي أو سابعة تبقى رواه أحمد عن ابن عباس مرفوعاً هي

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: فيمن قال ليلة إحدى وعشرين (١٣٨١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٢).

في العشرة الأواخر في تسع يمضين أو سبع يبقين وفي لفظ تسع يمضين رواه البخاري وفي لفظ للبخاري التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خاصة تبقى ومنها حديث عبادة بن الصامت قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت عسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة أوسبع يبقين» ومنها حديث أبي بكر فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها يعني ليلة القدر في تسع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث أو آخر ليلة»[1] رواه الترمذي وروى أحمد من حديث عبادة بن الصامت نحوه منها حديث ابن عمر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رأى ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال ﷺ : «أرى رؤياكم قد تواطئت في السبع الأواخر فمن كان متحرياً فليتحرها في السبع الأواخر» متفق عليه وفي رواية أن ناساً أروا ليلة القدرة في السبع الأواخر وأن ناساً أروا في العشر الأواخر فقال النبي ﷺ: «التمسوها في السبع الأواخر» ومنها عن علي مرفوعاً «إن غلبتم فلا تغلبوا في السبع البواقي» رواه أحمد، وحديث ابن عمر مرفوعاً «التمسوها في العشر الأواخر فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقي» رواه مسلم ويظهر من هذه الأحاديث كلها أن ليلة القدرة تكون في العشرة الأواخر من رمضان فتارة تكون ليلة إحدى وعشرين كما ثبت من حديث أبي سعيد نحوه وتارة تكون ليلة ثلاث وعشرين كما ثبت بحديث عبد الله بن أنيس وتارة ليلة أربع وعشرين التي أنزل فيها القرآن وتارة ليلة سبع وعشرين كما ظهر على أبي بن كعب بالعلامة وتارة ليلة تاسع تبقى يعني الثانية والعشرين أو خاسة تبقى وهي السادسة والعشرين أو ثلاث تبقين وهي الثامنة والعشرين أو تسع تمضين وهي التاسعة والعشرين أو آخر ليلة وهي الثلاثين فلا تعارض في الأحاديث على هذا التأويل والله تعالى أعلم، وقيل: معنى الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾ ما في قوله أدراك استفهامية للإنكار والغرض منه التعظيم والتعجب وكذا في ما ليلة القدر وجملة ما ليلة القدر بتأويل المفرد مفعول ثان لأدراك والمعنى أي شيء أدراك عظمته ليلة القدر وفضلها فإن عظمتها وفضلها أكثر من أن يدرك، والجملة معترضة ثم بين الله فضلها وعظمها بجملة متسأنفة فقال ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ ليس فيها ليلة القدر يعني أن من أحياها بالعبادة كان له أجل كثيراً كمن عمر ألف شهر بالعبادة، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في ليلة القدر (٤٩٧).

واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[١] رواه البخاري عند مسلم بلفظ «من يقم ليلة القدر فيوافقها»[٢] وعند أحمد من حديث عبادة بن الصامت من قامها ثم وافقت له يعني قائماً بطن ليلة القدر فوافقها في نفس الأمر غفر له» ﴿تَنَزَّلُ﴾ وحذف أحد التائين من تنزل ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ وتحقيق الروح فيما سبق ﴿فِيهَا﴾ في تلك الليلة من السماء إلى الأرض عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان ليلة القدر ينزل جبرئيل في كوكبة من الملائكة يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل» ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ متعلق بتنزل وجملة تنزل خبر بعد خبر الليلة القدر بين فضله أخرى لها أو واقع مواقع التعليل للخبرية ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قدر فيها ﴿سَلَٰمٌ﴾ إما خبر مبتدأ محذوف أي هو سلام والجملة صفة الأمر والمعنى تنزل الملائكة والروح من أجل كل أمر هو سلام، والحمل على المبالغة نحو زيد عدل أو بحذف المضاف أي أمر هو موجب للسلامة عن كل مكروه والظاهر أن هذا الأمر هو الرحمة والبركة في أجور الأعمال والسكينة النازلة على المؤمنين الذاكرين الله تعالى وعلى هذا قوله ﴿هِيَ﴾ مبتدأ خبره ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ والضمير هي راجع إلى الليل لا مطلقاً فإنه حمل غير مفيد فإن ثبوت الليل إلى مطلع الفجر أمر معلوم بديهي بل مقيد بصفة الخبرية ونزول الملائكة أو يقال: هي مبتدأ وسلام خبر مقدم عليه والجملة خبر بعد خبر ليلة القدر وتقديم الخبر على المبتدأ لقصد الحصر أي ما هي الإسلام وخير كلها ليس فيها شر، قال الضحاك لا يقدر الله في تلك الليلة الشر ولا يقتضي الإسلام، وقال مجاهد ليلة شاملة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوء أو لا أن يحدث فيها أذى، وقيل: ما هي الإسلام لكثرة ما يسلم الملائكة على المؤمنين وعلى هذا الظرف أعني حتى مطلع الفجر إما متعلق بمفهوم سلام بمعنى تسليم يعني ما تلك الليلة إلا مقصورة على التسليم حتى مطلع الفجر أو هو ظرف مستقر خبر مبتدأ محذوف أي تلك حتى مطلع الفجر وهذه الجملة خبر آخر لليلة القدر أو متعلق يتنزل وعلى هذين التقديرين سلام هي جملة معترضة، قرأ الكسائي مطلع الفجر بكسر اللام والباقون بفتح اللام وهو إما مصدراً بمعنى الطلوع أو ظرف زمان وقت طلوعه.

فائدة: قيل: يرى في ليلة القدر كل شيء ساجداً والأنوار في كل مكان ساطعة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: قيام ليلة القدر من الإيمان (٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

ويسمع سلام وخطاب من الملائكة، قلت: وهذا أمر قد يظهر بنظر الكشف على بعض الأكابر لا على كل منهم ولا يشترط الحصول الثواب ظهور شيء فيها ولو كان ظهور تلك الأشياء أمراً كلياً أو أكثرياً لم يتصور خفاءها وإبهامها على الأمة لا سيما على الصحابة والتابعين ومن يليهم وأكابرة الأولياء ولكن يشترط لحصول ثواب ليلة القدر عبادة الله تعالى كما يدل عليه قوله ﷺ : «من قام ليلة القدر إيماناً» وقوله ﷺ : «يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله».

مسألة: من أدى صلاة العشاء والفجر في تلك الليلة بالجماعة فقد أدرك ثواب تلك الليلة ومن زاد زاده الله، عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»[١] رواه مسلم، يعني من صلى الصبح في جماعة بعدما صلى العشاء فكأنما صلى الليل كله فكل صلاة قائم مقام نصف الليل فإنهما فريضتي الليل وأما المغرب فإنها وتر النهار يستحب أن يكثر في ليلة القدر اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني لحديث عائشة قالت: قلت: يا رسول الله: «أرأيت إن علمت أي ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو الخ»[٢] رواه أحمد وابن ماجه والترمذي، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة (٦٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٥٠).

سورة البينة

مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في زمان الماضي قبل مبعث النبي ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من لبيان الموصول وكفرهم بالإلحاد في صفات الله تعالى وقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يعني عبدة الأوثان عطف عل أهل الكتاب ﴿مُنفَكِّينَ﴾ زائلين متعضلين عن كفرهم الذي كانوا عليه، حذف صلة منفكين لدلالة صلة الذين عليه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ لفظه مستقبل أريد به الماضي أي حتى أتتهم ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ يعني ما يبين الحق من الباطل وهو ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني محمد ﷺ بدل من البينة ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا﴾ الجملة صفة لرسول الله ﷺ وأنه ﷺ وإن كان أمياً لكنه لما كان متلوه مما يكتب في الصحف كان كمن يتلو صحفاً أي مصاحف ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الباطل وتصرف الشياطين أو ممنوعة من مس المحدث والجنب والحائض، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾(١) وقال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾(٢) ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الصحف ﴿كُتُبٌ﴾ مكتوب ﴿قَيِّمَةٌ﴾ عادلة مستقيمة لا عوج فيها فإذا أتاهم الرسول بين لهم ضلالتهم وأزال عنهم جهلهم ودعاهم إلى الإيمان فانفك عن كفره من وفقه الله للإيمان وقدر له السعادة ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في الإيمان بالنبي ﷺ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ما مصدرية والاستثناء

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٧٩.

مفرغ منصوب المحل على الظرفية متعلق بتفرق أي ما تفرقوا من أمر النبي ﷺ في وقت من الأوقات إلا بعد مجيئه وكانوا قبل ذلك مجتمعين على تصديقه منتظرين لمجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾(١) حسداً وعناداً وجملة ما تفرق عطف على لم يكن والحاصل أن أهل الكتاب وإن كان بعضهم لمحمداً في صفات الله ونسبه الولد ليه لكنهم كانوا مجتمعين في أمر النبي ﷺ لوضوح بيان أمره في كتبهم، ولما كان صفة اجتماعهم على تصديق النبي ﷺ مختصاً بأهل الكتاب دون المشركين أفرد في هذه الآية ذكرهم لإظهار زيادة شناعة من بقي منهم على الكفر والآية الأولى لبيان حال المؤمنين من أهل الكتاب ومن المشركين والآية الثانية لبيان من بقي على الكفر من أهل الكتاب، قال البغوي وقال بعض أئمة اللغة معنى قوله منفكين هالكين من قولهم انفك صدر المرأة عند الولادة وهو أن ينفصل فلا يلتئم حتى تهلك ومعنى الآية لم يكونوا هالكين معذبين إلا بعد قيام الحجة عليهم من إرسال الرسول وإنزال الكتاب نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٢) ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يعني هؤلاء الكفار كلهم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قيل اللام زائدة والفعل منصوب بأن مقدرة حذفت إن وزيدت اللام والجملة في محل النصب على أنه مفعول به لأمروا أي ما أمروا إلا بأن يعبدوا الله، وقيل المفعول به محذوف واللام لام كي والجملة في محل النصب على العلية والمعنى ما أمروا بما أمروا به بشيء إلا ليعبدوا، والحاصل أنهم ما أمروا على لسان محمد ﷺ إلا بشيء حين ذاته تدل الأدلة العقلية على حسنه وقد أمروا بذلك فيماسبق من الكتب املنزلة فعجباً من المنكرين كيف أنكروا وكيف يفرقوا فيه ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من فاعل يعبدوا ﴿لَهُ﴾ أي الله ﴿الدِّينَ﴾ أي الاعتقاد عن الشرك بغيره ﴿حُنَفَاءَ﴾ حال مرادف أو متداخل لمخلصين أي مائلين عن الأديان الباطلة كلها، قال ابن عباس معناه وما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بإخلاص العبادة لله موحدين ﴿وَيُقِيمُوا﴾ عطف على يعبدوا ﴿الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة في أوقاتها ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ عند محلها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الذي أمروا به على لسان محمد ﷺ ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي الأمة القائمة الراسخة على الحق من الأنبياء والماضيين وأتباعهم الصالحين، قال البغوي قال النضر بن شميل: سألت الخليل بن أحمد عن قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ فقال: القيمة والقيم والقائم واحد مجازاً الآية وذلك دين القيمة لله بالتوحيد، أو المعنى وذلك دين الكتب القيمة التي لا عوج فيها التي جرى ذكرها في ضمن الذين أوتوا الكتاب،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

وقيل: معناه ذلك طريق الملة والشريعة القيمة المستقيمة، قال البغوي أضاف الدين إلى القيمة وهي لغة لاختلاف اللظين وأنت القيمة بتأويلها إلى الملة، ولما ورد ذكر المؤمنين والكافرين استأنف الله سبحانه بالوعد والوعيد للفريقين فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ اسم وخبره ما بعده ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة من فاعل الظرف ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي شر الخلائق أجمعين حتى الكلاب والخنازير والجملة إما تذييل أو خبر لأن بعد خبر وهم ضمير الفصل، قرأ نافع وابن ذكروانالبرية في الموضعين بالهمزة والباقون بتشديد الياء بغير همزة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ﴾ أجمعين حتى ﴿الْبَرِيَّةِ﴾ الملائكة المعصومين ومن ها هنا قالوا إن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة وعوام البشر أعني المؤمنين الصالحين أرباب القلوب الصافية النفوس الزاكية أفضل من عوام الملائكة وأما غير الصالحين من المؤمنين فيلتحقون بالصالحين بعدما يتمحضون من الذنوب إما بالمغفرة أو بالعقاب ويدخلون الجنة ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ مبتدأ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف لجزاءهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة خبر لجزائهم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ فاعل تجري على المجاز والجملة صفة لجنات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في جنات حال منهم في جزاءهم ﴿أَبَدًا﴾ ظرف لخالدين، قال البيضاوي فيه مبالغات تقديم المدح وذكر الجزاء المؤذن بأن ما منحوا في مقابلة ما وصفوا به والحكم عليه بأنه من عند ربهم وجمع جنات وتقيدها إضافة ووصفها بما يزداد بها نعيماً وتأكيداً الخلود بالتأبيد ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ هذا نعمة زاد من الجنات وما فيها فضل الله، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم يعط أحد من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب أي شيء أفضل من ذلك فيقول:

أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[١] متفق عليه، قلت: لعل المراد من قوله ما لم يعط أحد من خلقك ما لم يعط الملائكة وإلا فليس غير أهل الجنة إلا أهل النار ولا يجوز القول بالتفضيل عليهم ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ قال البغوي قيل: الرضا ينقسم قسمين رضي الله به ورضي عنه رضي به رباً ومدبراً ورضي عنه فيها يقضي ويقدر، وقلت: والرضى عنه على أقسام قسم منه معناه ترك الاعتراض عليه والاعتقاد بأن كل ما فعل هو الحسن في نفس الأمر وإن خفي علينا وجه حسنه وهذا القسم من الرضا واجب على العباد في كل ما قضي الله عليه من مرغوب ومكروه عنده غير أنه إن صدر عنه المعصية أو عن غيره لا يرضى عن الكفر والمعصية من حيث صدوره عن العبد وكسبه فإن صدور الكفر والمعصية عن العبد وكسبه به غير مرضي الله وإن كان صادراًبإرادة الله وخلقه ومناط التكليف في وجوب هذا القسم من الرضاء العقل والاستدلال فإن العاقل إذا لاحظ أن الله تعالى مالك للأشياء كلها والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء والاعتراض إنما يتوجه على من يتصرف في ملك بغير إذنه ولاحظ أنه تعالى حكيم لا يفعل إلاعلى ما اقتضاه الحكمة رضي الله به وإن اختلج شيء في صدره فذلك لأجل نقصان في عقله ودينه وبقية كفر في نفسه الأمارة بالسوء وإلى هذا القسم من الرضاء أشار السري السقطي ﷺ إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضى عنك وقسم منه معناه كون مقتضيات الله محبوباً له مرغوباً عنده وإن كان على خلاف هواه ومنشأه العشق والمحبة بالله سبحانه فإن فعل المحبوب ومراده أحب عند المحب من مراد نفسه ومن ها هنا، قال الشاعر فإن فرحت بهجري رضيت بالضروري وقسم منه معناه بلوغ المراد أقصى ما يتمناه ويشتهيه وهو المراد ها هنا ومن قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾[٢] قال رسول الله ﷺ: «إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار» وقد مر في سورة والضحى ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الجزاء والرضوان ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ فإن الخشية ملاك الأمر والباعث على كل خير والناهي عن كل معصية وشر وجملة ذلك لمن خشي ربه في مقام التعليل بقوله تعالى: جزاءهم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن وفي رواية أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا قال: الله سماني لك؟

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٢) سورة الضحى، الآية: ٥.

قال: نعم قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعم فذرفت عينه»[١] متفق عليه، قلت: وما ذكر في الحديث من حال أبي هواية عشاق، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة البينة (٤٩٦١)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحذاق فيه وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه (٧٩٩).

سورة الزلزلة

مدنية وهي ثمان آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١﴾ أي حركت حركة واضطراباً مناسباً بشأنها في العظمة ولا بقاء بها في الحكمة أو حركة ممكناً لها أو مقدراً لها، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: تحركت من أسفلها واختلفوا في تلك الزلزلة هل هي بعد النفخة الثانية وقيام الناس من قبورهم أو قبل النفخة الأولى في الدنيا من أشراط الساعة؟ فاختار الحليمي وغيره الأول وابن العربي ومن معه الثاني محتجين بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾[1] وأجاب أهل المقالة الأولى أن خرج مخرج المجاز والتمثيل لشدة الهول لا على حقيقة مستدلين بما أخرج الترمذي وصححه عن عمران ابن حصين قال: كنا مع رسول الله ﷺ: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾ الآية فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار»[2] الحديث وله طرق في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله يوم القيامة لآدم «قم فابعث بعث النار من

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: قوله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ (٦٥٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قوله: «يقول الله لآدم أخرج بعث النار» (٢٢٢).

ذريتك؟ فيقول: أي رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ويبقى واحد فعند ذلك يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، فشق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ فقال من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد وهل أنتم في امم إلا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود» وقال أهل المقالة الثانية هذا الحديث لا يدل على أن الزلزلة يكون حين الأمر ببعث النار بل في ذلك اليوم والأمر متأخر عنها فكأنه ﷺ لما أخبر عن الزلزلة التي يكون متقدمة على النفخة الأولى ذكر ما يكون في ذلك اليوم من الأهوال العظام، قلت: وعبارة حديث الصحيحين يأبى عن هذا التأويل فإنه فيه فعند ذلك أي عند بعث النار يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها والله تعالى أعلم قلت: جاز أن يتكرر الزلزلة مرة في أشراط الساعة ومرة بعد البعث ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ إسناد الإخراج إلى الأرض مجازي ﴿أَثْقَالَهَا﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال يعني الموتى من القبور كذا أخرج الفريابي عن ابن مجاهد وعلى هذا فهي حكاية عما بعد النفخة الثانية، وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال: يعني ما فيها من الكنوز، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يلقى الأرض فلاذ كبدها أمثال أسطوان من الذهب والفضة ويجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي ويجيء السارق يقول: في هذا قطعت يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»(١) رواه مسلم وفي الصحيحن عنه مرفوعاً «يوشك الفرات أن يحسر عن أكثر من ذهب فمن حضر فلا يأخذ منه شيئاً»(٢) وفي رواية لمسلم عنه «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب فتقتل الناس عليه فتقتل من مائة تسعة وتسعون ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو» قلت: لعل القتال يكون في بادىء الأمر ثم يؤل الأمر إلى أن لا يأخذ أحد منهم شيئاً ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تعجباً ﴿مَا لَهَا﴾ أي ما للأرض تزلزل هذه الزلزلة الشديدة وتلفظ ما في بطنها، قيل: المراد بالإنسان الكافر يقول ذلك حين يبعث ولم يكن يرجو البعث، وأما المؤمن فيقول هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، قال البغوي في الآية تقديم وتأخير تقديره ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ فيقول الإنسان

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٠١٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في أشراط الساعة (٢٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: خروج النار (٧١١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب (٢٨٩٤).

ما لها تخبر وتتكلم بما عمل عليها يومئذ بدل من إذا زلزلت والعامل فيه تحدث ويحتمل أن يكون يومئذ أصلاً وإذا اقتضى بمحذوف أي لتحاسبن إذا زلزلت يومئذ تحدث أخبارها عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول عمل كذا وكذا فذاك أخبارها»(١) رواه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن حبان والبيهقي، وأخرج الطبراني عن ربيعة الحرثي أن رسول الله ﷺ قال: «تحفظوا من الأرض فإنهاأمكم وإنه ليس من أحد عمل عليها خيراً وشراً إلا وهي مخبرة»، وكذا أخرج الطبراني عن مجاهد ﴿بِأَنَّ﴾ أي بسبب أن ﴿رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ اللام بمعنى إلى يعني أوحي ربك إليها أن تخبروا بمعناها أذن لها في ذلك تشقى في العصاة، وجاز أن يكون بأن ربك بدلاً من أخبارها يقول أخبرته كذا وأخبرته هكذا أو حينئذ يكون جواباً لقول الإنسان ما لها يعني تقول أوحي ربك إلي وحكم بالزلة، وإخرج الأثقال ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لما بعده ﴿يَصْدُرُ﴾ أي يرجع ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عن موقع الحساب بعد عرض ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين فأخذ ذات المين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾(٢) ﴿لِّيُرَوْا۟﴾ متعلق بيصدر أي لكن يروا أعمالهم قال ابن عباس أي ليروا جزاء ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني يرجعون عن الموقف لينزلوا منازلهم من الجنة أو النار وجملة يومئذ يصدر مستأنفة وقول ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ إلى آخر السورة تفصيل ليروا، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ كان المسلمون يرون أنهم يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوا وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير الكذبة والنظرة وأشباه ذلك وإنما وعد الله على الكبائر فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية أي وزن نملة صغيرة أو أصغر من نملة ﴿خَيْرًا﴾ تميز المثقال ذرة ﴿يَرَهُۥ﴾ قرأ هشام بإسكان الهاء في الموضعين والباقون بالإشباع فيهما أي يرى جزاءه، قال مقاتل يرغبهم في القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكبر قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»(٣) متفق عليه،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة إذا زلزلت (٣٣٥٣).

(٢) سورة الروم، الآية: ١٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب (١٤١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٤).

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[١] رواه مسلم وهذه الآية حجة لأهل السنة على المعتزلة أن المؤمن وإن كان مرتكباً للكبائر لا يخلد في النار بل يصير عاقبته إلى الجنة فإن الله وعد بإيفاء الجزاء على مثقال ذرة من الخير والخلف عن وعد الله محال والإيمان نفسه رأس الخيرات وأساس العبادات كلها فكيف يتلاش بارتكاب المعاصي ومحل رؤية الجزاء إنما هو الجنة فالمؤمن وإن كان فاسقاً ومات من غير توبة يصير لا محالة إلى الجنة وعليه انعقد الإجماع وبه تواترت الروايات عن النبي ﷺ قال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار من قالها وفي قلبه وزن ذرة من خير ومن إيمان»[٢] متفق عليه من حديث أنس، وعند مسلم عن عثمان بلفظ «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة» وعنده عن جابر بلفظ» من مات يشرك بالله دخل النار ومن مات لا يشرك بالله دخل الجنة» وعنده عن عبادة بن الصامت بلفظ «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ حرم الله عليه النار» وكذا عن أنس وعن عتبان بن مالك في الصحيحين وعن عمر عند الحاكم وعن معاذ عند مسلم وعنده عن ابن مسعود بلفظ «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» يعني حرم الله عليه النار المؤيد ولا يدخل ناراً مقدر الخلود فيه، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك دخل الجنة، قلت وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق؟ قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق؟ قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر»[٣] متفق عليه، وعند أحمد والبزار والطبراني مثله قال السيوطي الأحاديث في ذلك كثيرة زائدة على التواتر. فإن قيل هذه الآية يشتمل من عمل صالحاً كإنفاق وصلة الرحم ونحو ذلك من الكفار مع دلالة النصوص والإجماع على خلودهم في النار؟ قلنا: الآية لا يشملهم لأن شرط إتيان الحسنات الإيمان بالله وإخلاص العمل له تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب طلاقه الوجه عند القاء (٢٦٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: زيادة الإيمان ونقصانه (٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: الثياب البيض (٥٨٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار (٩٤).

الأعمال بالنيات»(١) فإذا فات منهم شرط فات المشروط فمثل حسناتهم كمثل صلاة بلا وضوء فإنها ليست بصلاة حقيقة بل يعد استهزاء ومعصية، ومن ثم قال العلماء: إنه من نذر بالصلاة أوبالصوم أو بالاعتكاف في حالة الكفر ثم أسلم لا يجب عليه الوفاء لأن الصلاة والصلام والاعتكاف من الكافر ليس لله خالصاً فهي كفر معصية ليس من الطاعة في شيء ولا نذر بالمعصية و﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٢) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ أي يرى جزاءه إن لم يتداركه المغفرة والدليل على هذا التقييد الآياتت والأحاديث الدالة على جواز مغفرة المعاصي من غير توبة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾(٣) وقال الله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾(٤) وقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾(٥) وقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾(٦) ونحو ذلك وعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليغفر الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس وجاء أن يصيبه» رواه البيهقي وفي الباب أحاديث كثيرة بالغة حد التواتر، وهذه الآية حجة لأهل السنة على المرجئة في قولهم إن الله لا يعذب المؤمن وإن كان فاسقاً وإن المؤمن لا يضره سيئة كما أن الكافر لا ينفعه حسنة وقد ورد في تعذيب المؤمنين على الصغائر والكبائر آيات وأحاديث كثيرة لا يحصى يطول الكلام بذكرها فثبت أن الحق ما قال أهل السنة أن الله سبحانه إن شاء يعذب على صغيرة عدلاً وإن شاء يغفر الكبائر فضلاً، قال مقاتل الإثم الصغير في عين صاحبه أعظم من الجبال يوم القيامة، عن سعيد بن حبان قال: لما فرغ النبي ﷺ من حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيها شيء فقال النبي ﷺ: إجمعوا من وجد شيئاً ليأت به قال: فما كان إلا ساعة حتى أجمعوا ركاباً فقال النبي ﷺ: «ترون هذا فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله عز وجل فلا يذهب صغير ولا كبيرة فإنها محصاة عليه»

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١).

(٢) سورة النور، الآية: ٣٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٩.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

رواه الطبراني، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً»[١] رواه النسائي وابن ماجه وصححه ابن حبان، وعن أنس «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[٢] رواه البخاري ولأحمد مثله من حديث أبي سعيد بسند صحيح، قال ابن مسعود أحكم آية في كتاب الله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ وورد في الحديث الطويل، عن أنس عند مسلم أن رسول الله ﷺ سمي هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ وقال الربيع بن خيثم مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة فلما بلغ آخرها قال: حسبي قد انتهيت الموعظة، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: أقرأني يا رسول الله قال: اقرأ ثلاثاً من ذوات آلر قال: كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني قال: فاقرأ ثلاثاً من ذات حم فقال مثل مقاله فقال: الرجل يا رسول الله اقرأني سورة الجامعة فاقرأ رسول الله ﷺ إذا زلزلت الأرض حتى فرغ منها فقال الرجل والذي بعثك بالحق لا أزيد عليه أبداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل مرتين»[٣] رواه أحمد وأبو داود، وعن أنس وابن عباس قالا: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن وقل هو الله أحمد يعدل ثلث القرآن وقل يا أيها الكافرون ربع القرآن»[٤] رواه الترمذي والبغوي وفي رواية عند الترمذي وابن أبي شيبة عن أنس «إذا زلزلت الأرض ربع القرآن» قال الجزري: كونها ربع القرآن لأنها مشتملة على الحسنات وهو بالنسبة إلى الحياة والموت والبعث والحساب ربع وكونها نصف القرآن لأنها مشتملة على أحوال الآخرة وأحوال الآخرة بالنسبة إلى أحوال الدنيا والآخرة نصف فهي ربع من وجه ونصف من وجه، وروي من حديث علي بسند ضعيف جداً قوله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله» والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب (٤٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما يتقى من محقرات الذنوب (٦٤٩٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: تحزيب القرآن (١٣٩٨).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في إذا زلزلت (٢٨٩٣).

سورة العاديات

مكية هي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ① فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ② فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ③ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ④
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ⑤ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑥ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦ وَإِنَّهُ لِحُبِّ
الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ⑨ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ⑩ إِنَّ
رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ⑪﴾

أخرج البزار والدارقطني والحاكم وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً فلبث شهراً إلا يأتيه فيها خيراً فنزلت ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ قرأ أبو عمرو بالإدغام الكبير بين التاء والضاد أقسم بخيل الغزاة التي تعدو في سبيل الله كذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن والكلبي وقتادة ومقاتل وأبو العالية وغيره ولهذا التأويل وبما ذكرنا من سبب النزول يظهر أن السورة مدينة لأنه لم يكن قبل الهجرة جهاد، وجاز أن يكون القسم بها بمنزلة الإخبار لوجودها في الاستقبال على تقدير كونها مكية ﴿ضَبْحًا﴾ أي تضبح ضبحاً مصدر موقع الجملة التي وقعت حالاً من فاعل العاديات وهي صوت أنفاس الخيل إذا عدون، قال ابن عباس لا يضبح من الحيوانات غير الفرس والكلب والثعلب وما يضبحن إلا إذا تغير حالهم من التعب، وقال علي العاديات هي الإبل في الحج تعو من عرفة إلى مزدلفة ومن مزدلفة إلى منى وقال كانت أول غزوة في الإسلام بدر أو ما كان معنا إلا فرسان الزبير وفرس المقداد بن الأسود فكيف تكون العاديات وإليه ذهب ابن مسعود ومحمد بن كعب والسدي وعلى هذا معنى قوله ضبحاً يعني تمد أعناقها في السير مداً ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ الخيل التي توري النار إذا سارت ليلاً في أرض ذات حجارة ﴿قَدْحًا﴾ يعني تقدح أي تفك الحجارة بحوافرها قدحاً ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ قرأ أبو عمرو وخلاد بالإدغام بين التاء والصاد أي الخيل التي تغير بفرسانها على عدو والإغارة سرعة سير ﴿صُبْحًا﴾ ظرف للمغيرات أي التي تغير في وقت الصبح هذا قول أكثر المفسرين، وقال

القرظي هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع بمنى وقت الصبح وهو السنة بل الواجب أن لا يدفع حتى يصبح وقد رخص رسول الله ﷺ للنساء والضعفاء بالدفع بعد طلوع الفجر من ليلة النحر ﴿فَأَثَرْنَ﴾ عطف على مضمون صلة اللام الموصول يعني اللاتي عدون قادرين فأغرن فأثرن أي هيجن ﴿بِهِۦ﴾ الباء بمعنى في والضمير عائد إلى الزمان المفهوم تضمناً من مضمون الصلة أي أثرن في ذلك الوقت أي وقت الإغارة على العدو أو إلى المكان المفهوم منه اقتضاء أي أثرن في مكان العدو ﴿نَقْعًا﴾ غباراً مفعول لأثرن ﴿فَوَسَطْنَ﴾ أي فوسطن تلك الخيل ﴿بِهِۦ﴾ الضمير عائد إلى النقع أي متلبساً بالنقع أو إلى الوقت أو المكان كمامر في ذلك الوقت أو المكان ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء وجواب القسم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أريد به الجنس نظراً إلى أكثر أفراده حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[1] ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ متعلق بما يبعده قدم لرعاية الفواصل ﴿لَكَنُودٌ﴾ أي لكنود لنعمة ربه بلسان مضر كذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة أو العاصي بلغة كنده أو البخيل بلغة بني مالك، قال أبو عبيدة هو قليل الخير والأرض الكنود ما لا ينبت شيئاً ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ قال ابن كيسان الضمير للإنسان أي وإن الإنسان ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي على كونه كفوراً عاصياً بخيلاً ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهد به على نفسه عند أدنى تأمل بظهور أثره أو يشهد على نفسه ويترف بذنبه في الآخرة يقول لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين، وقال أكثر المفسرين ضمير إنه راجع إلى ربه يعني وإن ربه على كونه كنود الشهيد لا يعزب عنه شيء فيؤاخذ به فهو وعيد ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي المال كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[2] ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لقوي مبالغ فيه فلا ينفقه في سبيل المنعم شكراً للنعمة أو المعنى البخيل شديد وعلى هذا فاللام في لحب الخير للتعليل أي لأجل حب المال لبخيل وعلى الأول لام الصلاة ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ همزة الاستفهام للتعجب والفاء للعطف على محذوف تقديره ألا ينظر الإنسان فلا يعلم ومعناه لينظر وليعلم الآن ما سيعلم غداً أن ربهم خبير لهم يجازيهم على ما يفعلون يوم نبعث من في القبور ويبرز ما في الصدور ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي بعث وأثير ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من الموتى أو رد لفظ ما بمعنى من لمشاكلة ما في الصدور أو لأنه في هذه الحالة مما لا يعقل لكونه موتى ملحقاً بالجمادات ﴿وَحُصِّلَ﴾ أي جمع محصلاً في الصحف أوميز وأبرز في ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي ما في صدورهم يعني صدور جنس الإنسان من الخير والشر وتخصيص ما في الصدور بالذكر دون أعمال الجوارح لأنه

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

الأصل إذا بعثر شرط حذف جزاءه لتوسط في جملة تدل على جزائه تقديره إذا بعثر ما في القبور يعلم والجملة الشرطية معترضة للتهديد والفظاعة ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ هذه الجملة قائم مقام المفعولين ليعلم لدخول اللام على الخبر أو يقال مفعولاه محذوفان يدل عليهما هذه الجملة يعني أنا نجازيه وقت ما ذكروا بهم، ويومئذ متعلق بمضمون خبير خص ذلك اليوم بالذكر وهو عالم بهم في جميع الأزمان لأن الجزاء يقع يومئذ فيظهر كونه خبيراً يومئذ، أو يقال الخبير مجاز عن المجازي والمعنى أن ربهم يجازي بهم يومئذ كذا قال الزجاج والله تعالى أعلم.

سورة القارعة

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ سبق بيانه في الحاقة والتاء إما لتأنيث الساعة أو للمبالغة في القرع ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ الظرف إما متصف بفعل مضمر دلت عليه القارعة أي تقرع الناس يوم يكون الناس أو مبني على الفتح لإضافته إلى الجملة في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي يوم يكون بيان للقارعة ﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾ الطير التي يتهافت في النار ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ المفرق وجه الشبه كثرتهم وهو أنهم وتموج بعضهم في بعض وركوب بعهضم على بعض بشدة الهول ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ﴾ عطف على يكون ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ الصوف ذي الألوان لأجل اختلاف ألوان الجبال ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ المندوف لتفرق أجزائها وتطائرها في الجو ﴿فَأَمَّا﴾ تفصيل لما أجمل حاله من الناس عطف على يكون ذكر الناس فريقين﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع موزون يعني أعماله التي توزن معه والمراد بها الأعمال الصالحة فإنها المقصر بوجودها أو هو جمع ميزان وعلى هذا أيضاً المراد به كفة الحسنات من ميزانه وقد صح أن الميزان له لسان وكفتان أخرجه ابن المبارك في الزهد والآجري وأبو الشيخ في تفسير عن ابن عباس، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله عز وجل كفتي الميزان مثل السماء والأرض» وأورد الموازين بلفظ الجمع لأن من ثقلت جمع معنى وإفراد الضمير الراجع إليه نظراً إلى إفراد لفظه فمقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد على الآحاد لكن على هذا التأويل تدل الآية على كون الميزان كل رجل على حدة وجاز أن يعتبر تعدد

الموازين من حيث تعدد من يوزن أعمالهم ﴿فَهُوَ﴾ هذا أيضاً باعتبار لفظة من ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أسند الرضى إلى العيشة مجازاً وهي صفة لصاحبها كما في ناصية كاذبة، وقيل: الفاعل ها هنا بمعنى المفعول أي عيشة مرضية كعكسه في وعداً مأتياً أو بمعنى ذات رضى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾ أي أعماله الحسنة أو كفة حسناته وهذا يعم الكافر الذي لا حسنة له لفقد الإيمان الذي هو شرط إتيان الحسنات والمؤمن الفاسق الذي ترجحت سيئاته على حسناته بخلاف الأول يعني من ثقلت موازينه فإنه لا يكون إلا مؤمناً معصوماً أو مغفوراً أو ترجحت حسناته على سيئاته، قال القرطبي قال علماؤنا الناس في الآخرة على ثلاث طبقات فرقة متقون لا كبائر لهم توضع حسناته في الكلفة النيرة فلا ترتفع وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي وفرقة كفار توضع كفرهم وأوزارهم في الكفة المظلمة وإن كان له عمل بر كصلة الرحم ونحوها وضعت في الكفة الأخرى فلا يقاومها ويرتفع كفة الحسنات ارتفاع الفارغ الخالي، قال رسول الله ﷺ: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا تزن عند الله جناح بعوضة ثم قرأ ﴿لا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾»[1] متفق عليه من حديث أبي هريرة وفرقة فساق المؤمنين يوضع حسناتهم في كفة النيرة وسيئاتهم في كفة المظلمة إن كانت كفة الحسنات أثقل دخل الجنة أو السيئات أثقل ففي مشيئة الله يعني إن شاء أدخل النار وإن شاء غفر وأدخل الجنة وإن كان مساوياً كان من أصحاب الأعراف هذا إذا كانت الكبائر بينه وبين الله وإن كان عليه تبعات اقتص من ثواب حسناته بقدرها فإن لم يوف زيد عليه من أوزار من ظلمته ثم يعذب على الجميع قال أحمد بن حرث يبعث الناس يوم القيامة ثلاث فرق فرقة أغنياء بالأعمال الصالحة وفرقة الفقراء وفرقة أغنياء ثم يصيرون فقراء مفاليس بالتبعات، وقال سفيان الثوري إنك إن تلقى الله تبارك وتعالى بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته دخل النار قال وإن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط يعني حتى يوفوا جزاء بعض سيئاته ويرجح حسناته فيدخل الجنة، قال السيوطي وإنما يوزن أعمال المتقي من لا سيئة عليه إظهاراً لفضله وأعمال الكافر إظهار الذلة، قلت: والمذكور في القرآن غالباً جزاء الكفار في مقابلة جزاء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ (٤٧٢٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٥).

الصلحاء المؤمنين وأما حال الذين خلطوا صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين فمسكوت عنه غالباً في القرآن فالظاهر أن المراد ها هنا بمن خفت موازينه هم الكفار فهم المحكوم عليهم بقوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ يعني مسكنه النار يسمى المسكن أماً لأن الأصل سكون الأولاد إلى الأمهات والهاوية اسم من أسماء جهنم وهو المهواه لا يدرك إلا الله، وقال قتادة كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمر شديد يقال هو أمه، وقيل أراد رأسه يعني أنهم يهوون في النار على رؤسهم قال البغوي وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وأبو صالح، قلت: وكذا الكفار هم المرادون في مقابلة المتقين في حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «يوفي ابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان به ملك فإن ثقلت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعده أبداً وإن خفت ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعده أبداً»(١) وحال المخلط مسكوت في الحديث والظاهر أن الملك لا ينادي عليه شيء من الصوتين ولذلك لم يذكر.

فائدة: قال القرطبي الميزان لا يكون في حق كل أحد وإن الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا ينصب لهم ميزان وكذلك من يعجل به إلى النار بغيرحسابو هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾(٢) وقال السيوطي يحتمل تخصيص الكفار الذين يوزن أعمالهم ولا يجدون ثقلاً بالمنافقين فإنهم يبقون في المسملين بعد لحوق كل مسلم أمة بما يعيدوهم يصلون ويصومون مع المؤمنين في الدنيا رياء وسمعة ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾(٣) الميزان، وقال الغزالي السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يوضع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً إنما هي براءة مكتوبة هذه براءة فلان بن فلان، أخرج الأصبهاني عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تنصب الموازين ويؤتون بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتون بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتون بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب لهم أجرهم بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية إنهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل وذلك إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير

---

(١) رواه البزار وفيه صالح المري وهو مجمع على ضعفه. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: البعث، باب: ما جاء في الحساب (١٨٣٩٤).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.

حساب» وأخرج الطبراني وأبو يعلى بسند لا بأس به عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ثم يوفى بالمتصدق فينصب للحساب ثم يؤتي بأهل البلاء فلا ينصب لهم الميزان ولا ينشر لهم ديون فيصب عليهم الأجر صباً حتى أن أهل العافية ليتمنون بالموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حيث ثواب الله لهم» وقد ذكر فيما سبق أن الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم الصوفية العلية لعل المراد بأهل البلاء ها هنا أيضاً بلاء العشاق المحبين لله لرضائهم بالبلاء كرضائهم بالعطاء وكذا المراد بالبكاء في قوله ﷺ: «ما من شيء إلا وله مقدار وميزان إلا الدمعة فإنها يطفىء بها بحار من نار» رواه البيهقي من حديث معقل بن يسار، بكار أهل العشق وإلا فقد صح في الأحاديث وزن أعمال أهل البلاء كما في قوله ﷺ: «بخ بخ بخمس ما أثقلهن في الميزان لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه» رواه النسائي وابن حبان والحاكم والبزار وأحمد والطبراني من حديث ثوبان وأبو سلمى ولا شك أن وفاة الولد من البلاء والشهادة التي ذكرت في حديث ابن عباس أيضاً من البلاء والله تعالى أعلم، فإن قيل روى أحمد بسند صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصى عليه فتمايل به الميزان فيبعث به إلى النار فإذا أدبر إذ صائح يصيح من عند الرحمن لا تعجلوا فإنه قد بقي له فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فيوضع مع الرجل حتى يميل به الميزان» وروى الحاكم وصححه وابن حبان والترمذي عنه نحوه وعن أبي سعيد وابن عباس وغيرهما ما يؤيده في عمره فكيف يخف ميزان المؤمن فإنه لا يخلو مؤمن من قول لا إله إلا الله ولو مرة واحدة في عمره؟ قلنا أحكام الآخرة كلها يعني أكثرها من القضايا المهملة في قوة الجزئية قلما تكون منها كلية والأمر منوط بفضل الله ومدار الأعمال على الإخلاص ومقداره والله أعلم ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾﴾ قرأ حمزة ما هي بغير الهاء وصلا فقط والباقون بالهاء للسكت في الحالين والضمير راجع إلى الهاوية والاستفهام للتهويل وجملة ما أدراك معترضة لاستعظام أمرها وقوله تعالى نار بدل من هاوية أو بيان لها أو خبر مبتدأ المحذوف أي هي ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ ذات حمى بلغت النهاية في الحرارة.

سورة التكاثر

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي ألهكم في اللهو وهو الباطل من الأمور وما لا يعد فائدة معتبرة وشغلكم عن طاعة الله وما ينجيكم من سخطه ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التباهي والتفاخر بكثرة المال والجاه والعدد ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ يعني حتى متم ودفنتم بالمقابر، أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «ألهاكم التكاثر عن الطاعة حتى زرتم المقابر حتى يأتيكم الموت» قال قتادة كانت اليهود يتفاخرون بكثرتهم ويقولون نحن أكثر من بني فلان شغلهم ذلك حتى ماتوا فنزلن هذه الآية فيهم فعلى هذا حتى للغاية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نزلت الآية في قبيلتين من قبائل الأنصار بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما فيكم مثل فلان وفلان وقال آخرون مثل ذلك تفاخروا ثم قال: انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين يقول فيكم مثل فلان ومثل فلان ويشيرون إلى القبور، وقال الكلبي نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف وبني قصي وبني سهم قالت كل واحد نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأكثر عدداً فكثرهم بنو عبد مناف ثم قالوا: نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوهم فقالوا هذا القبر فلان وهذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عدداً فأنزل الله هذه الآية وعلى هاتين الروايتين معنى قوله: حتى زرتم المقابر حتى عددتم الأموات لأجل التكاثر بالأموات بعد ما استوعبتم عدد الأحياء فعبر عن انتقالهم إلى ذكر الأموات بزيارة القبور مجازاً أو يحمل على زيارة القبور حقيقة حيث انطلقوا إلى المقابر بعد القبور حتى هذا للسببية، عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية

ألهاكم التكاثر قال يقول ابن آدم ما لي ما لي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»[١] رواه البغوي وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه أهله وما له وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»[٢] رواه البخاري، وعن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفتخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»[٣] رواه مسلم وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لينتهين أقوام يفخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم محم من جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب»[٤] رواه الترمذي وأبو داود، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد كلكم بنو آدم طف الصاع بالصاع لم تملوه ليس لأحد على أحد فضل الأبدين وتقوى كفى بالرجل أن يكون بذياً فاحشاً بخيلاً» رواه أحمد والبيهقي، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون» رواه الطبراني في الأوسط ﴿كَلَّا﴾ ردع عن التكاثر ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حذف مفعوله لدلالة السياق أي سوف تعلمون سوأ عاقبة تفاخركم وتكاثركم حين تعذبون عليه ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ تكرير لتأكيد الوعيد أو تنصيص بوعيد آخر وفي ثم دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول قيل الأول عند الموت أو في القبر والثاني بعد البعث، أخرج ابن جرير عن علي قال كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ألهكم التكاثر إلى كلا سوف تعلمون في عذاب القبر ﴿كَلَّا﴾ تأكيد للردع بعد تأكيد ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ ما بين أيديكم ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي علماً كعلم الأمر المتقين الموجود عندكم وجواب لو محذوف لتفخيمه يعني لشغلكم ذلك عن غيره أو لما تكاثر تم قال قتادة كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: سكرات الموت (٦٥١٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل الشام واليمن (٣٩٦٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (٥١٠٧).

أن الله باعث بعد الموت، قلت: يعني علماً بالغيب حاصلاً بالاستدلال ولا يجوز أن يكون ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ جواباً للشرط لأنه محقق الوقوع بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوعد ما أنذرهم به بعد إبهامه تفخيماً لشأنه، قلت: وجاز أن يكون لو مجازاً عن إذا تعلمون علم اليقين وذلك عند الموت لترون الجحيم ولا ينفعكم علمكم حينئذ لفوت وقت التدارك، قرأ ابن عامر والكسائي لترون بضم التاء على البناء للمجهول من أريت الشيء والباقون بفتح التاء والمراد بالرؤية ها هنا المعرفة والعلم وجاز أن يكون الرؤية بالأبصار في القبور فإن الكافرين يعرضون على النار في القبور غدواً وعشياً كما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾[1] ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ بفتح التاء بلا خلاف يعني ثم لترون الجحيم بعد النشور ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ منصوب على المصدرية عن غير لفظ الفعل فإن رأى وعاين بمعنى واحد وبه اندفع احتمال أن يكون الرؤية ها هنا بمعنى العلم والمعنى لترون رويته موجبة لليقين ومن ها هنا سمى عين اليقين علماً حاصلاً بالروية والمشاهدة ولا شك أن الرؤية أقوى من أسباب العلم، قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة» أخرجه الخطيب عن أبي هريرة والطبراني عن أنس بسند حسن وروى أحمد والطبراني بسند صحيح والحاكم عن ابن عباس هذا وصى زيادة أن الله تعالى أخبر موسى بماصنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت، وقيل: عين اليقين صفة لمصدر محذوف أي رؤية هي نفس اليقين مبالغة ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ يعني لم تركتم شكر النعم وكفرتم بها قال البغوي فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، قال مقاتل كان كفار مكة في الدنيا في الخير والنعمة ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره ثم يعذبون على ترك الشكر هذا قول الحسن، وعن ابن مسعود رفعه انتهى والخطاب في الآية مخصوص بالكفار الذين ألهاكم التكاثر وجاز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ إلى آخر السورة خطاباً عاماً للناس أجمعين كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[2] الآية وقد مر في الحديث أن المؤمن يرى في القبر أولاً مقعداً من النار الذي أبدل منها مقعداً في الحنة ليزداد شكراً.

فائدة: السؤال عن النعيم وإن كان بدلالة سياق الآية وأحد تأويلها مختصاً بأهل التكاثر لكن ثبت بما تواتر من الأحاديث أن السؤال عام يسأل الكفار والمؤمنون، أخرج ابن

---

(١) سورة الإنفطار، الآية: ١٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧١.

أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «الأمن والصحة» وكذا عن ابن عباس في الآية قال: صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العباد فيما استعملوها، وأخرج الفريابي وأبو نعيم عن مجاهد في هذه الآية قال كل شيء من لذة الدنيا وعبد الرزاق عن قتادة في هذه الآية أنه قال: إن الله سائل كل نعمة فيما أنعم عليه، وأخرج أحمد في الزهد عن أبي قلابة عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «ناس من أمتي يعقدون الثمن العسل بالنفي فيأكلونه» وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال لما نزلت هذه الآية قال الناس يا رسول الله عن أي النعيم نسأل وإنما هي الأسودن والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا قال: «أما إن ذلك سيكون»[(١)] وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله وأي نعيم نحن فيه وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير فأوحى إليهم أليس تتخذون النعال وتشربون الماء البارد، فهذا من النعيم وعن علي رضي الله عنه قال من أكل خبز البرو كان له ظل وشرب الماء الفرات فذلك من النعيم الذي يسأل عنه، وروى الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة في حديث مسيره ﷺ وأبي بكر وعمر إلى بيت أبي الهيثم وأكلهم الرطب واللحم وشربهم الماء قوله ﷺ: «إن هذا هو النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة» فلما كبر أصحابه قال: إذا أصبتم مثل هذا وخبزتم بأيديكم فقولوا بسم الله وعلى بركة الله وإذا شبعتم فقولوا: الحمد لله الذي هو أشبعنا وأروانا أنعم علينا وأفضل فإن هذا وعن ابن عباس هذه القصة ونحوه، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تناصحوا في العلم ولا يكتم بعضكم بعضاً فإنه خيانة الرجل، في علمه أشد من خيانة في ماله وإن الله يسألكم عنه» رواه الطبراني والأصبهاني، وعن أبي الدرداء أول ما يسأل عنه العبد ما علمت فيما علمت رواه أحمد وابن المبارك وعن ابن عمر مرفوعاً «يسأل العبد عن جاهه كما يسأل عن ماله» رواه الطبراني، وعن ابن عباس ما من عبد يخطو خطوة ألا يسأل الله عنها ما أراد بها رواه أبو نعيم وعن معاذ مرفوعاً «إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه» رواه أبو نعيم وابن أبي حاتم عن الحسن مرفوعاً ما «من عبد يخطب إلا الله سائله منها ماذا أراد بها» مرسل جيد الإيناد رواه البيهقي وكلمة ثم في الآية تدل على أن السؤال بعد رؤية الجحيم، قلت وذلك لأجل أن السؤال يكون على الصراط قال الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾[(٢)] وعن أبي هريرة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ألهاكم التكاثر (٣٣٥٦).

(٢) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

«لا تزول قدما عبد عن الصراط حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه فيما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه»[١] رواه مسلم وروى الترمذي وابن مردويه ابن مسعود مثله، قال القرطبي هذه العمومات مخصوصاً بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم ألهاكم التكاثر» رواه الحاكم والبيهقي والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع.

سورة العصر

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ قال ابن عباس والدهر قيل: أقسم به لأن فيه عبرة للناظرين، وقال ابن كيسان أراد بالعصر الليل والنهار وقال الحسن بعد زوال الشمس إلى غروبها، وقال قتادة آخر ساعة من نهار، وقال مقاتل صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى كما ذكرنا في سورة البقرة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي جنسه ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ التنكير للتعظيم أي في خسر عظيم، فإن الخسر ذهاب رأس المال والإنسان في هلاك نفسه وعمره وماله فيما لا يفيد له في حياة الأبدية.

ومن يبع آجلاً منه بعاجله بين له الغبن في بيع وفي سلم

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة القوية الباقية بالدنيا الفانية فربحت تجارتهم ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ بينهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالمعروف قال الحسن وقتادة بالقرآن وقال مقاتل بالإيمان والتوحيد ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ بينهم ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ وكف النفس عن المنكرات فالشهوات الغير المرضية لله تعالى أو بالصبر مطلقاً على الطاعات والمصائب وترك المنكرات فالمراد بالأعمال الصالحة إما مطلقاً فهو عطف الخاص على العام للمبالغة وإما مقصوراً على موجبات الكمال، فالمراد بالمواصاة موجبات التكميل وما عدا ذلك موجبات خسر، وروي عن إبراهيم أن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم فهو لفي نقص وتراجع إلا المؤمنين فإنهم يكتب لهم أجورهم ومحاسن أعمالهم التي كانوا يعملونها في شبابهم وصحتهم فهو نظير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1].

(١) سورة التين، الآية: ٤ ـ ٦.

مسألة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب من ترك كان من الخاسرين، عن أبي سعيد الخذري عن رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(١) رواه مسلم، وروى البغوي في شرح السنة عن النبي ﷺ قال: «لا يعذب الله العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلم ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة» وروى أبو داود وابن ماجه عن جرير بن عبد الله مرفوعاً نحوه وأبو داود عن أي بكر الصديق «ما من قوم يعمل فيهم المعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون إلا يوشك أن يعمهم بعقاب»(٢) وفي الباب أحاديث كثيرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي (٤٣٢٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥).

سورة الهُمَزَةِ

مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ قال ابن عباس هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء العيب ومعناهما واحد وهو عياب، وقال مقاتل الهمزة الذي يعيبك في الوجه واللمزة الذي يعيبك في الغيبة، وقال أبو العالية والحسن على ضده، وقال سعيد بن جبير وقتادة الهمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم واللمزة الطعام فيهم، وقال ابن زيد الهمزة من يهمز الناس بيده ويضربهم واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم، وقال سفيان الثوري يهمزه بلسانه ويلمز بعينه ومثله وقال ابن كيسان الهمزة الذي يؤذي جليسه باللفظ واللمزة الذي يومض بعينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه، قلت: الهمزة في الأصل الكسر والنخس في الحديث «اللهم إني أعوذ بك من همزات الشياطين»[(١)] واللمز الطعن ثم شاعا فيما ذكره هو الكسر في أعراض الناس والطعن فيهم وبناء فعله للاعتياد فلا يقال ضحكة وشجرة ولعهة وهمزة ولمزة إلا للمكثر المتعود، وأخرج ابن أبي حاتم عن عثمان بن عمر قال: ما زلنا نسمع أن ويل لكل همزة نزلت في أبي بن خلف وأخرج عن السدي قال: نزلت في أخنس بن شريق بن وهب الثقفي، وأخرج ابن جرير عن رجل من أهل الرقة قال: نزلت في جميل بن عامر وأخرج ابن المنذر عن ابن إسحاق كان أمية بن خلف الجمحي إذا رأى رسول الله ﷺ همزة ولمزة فأنزل الله تعالى ويل لكل همزة السورة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات وأخرجه أبو داود في كتاب: الطب، باب: كيف الرقى (٣٨٨٨).

كلها، وقال مقاتل نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن عليه في وجهه والآية عامة بصيغتها لكل من هذه صفة وإن كانت نازلة في واحد منهم ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ﴾ قرأ جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بتشديد الميم على التكفير والباقون بالتخفيف والموصول إما مجرور بدل من كال أو منصوب على الذم أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي جمع ﴿مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي أحصاه وجعله عدة للنوازل وعدة مرة بعد أخرى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ أن مع الجملة قائم مقام المفعولين ليحسب أي يجعله خالداً في الدنيا لا يموت مع يساره كأنه يزعم أن من لا مال له يموت بالجوع ومن كان له مال لا يموت أبداً وهذا كناية عن طول أمله وغفلته عن الموت وحبه للمال وليس على الحقيقة فإن أحداً لا يزعم أنه لا يموت أبداً وفيه تعريض بأن المخلد هو الإيمان والأعمال الصالحة دون المال، عن عبد الله بن مسعود قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً وخط خطاً في الوسط خارجاً منه وخطه خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانب الذي في الوسط فقال: «هذا إنسان وهذا أجله محيط به وهذا الذي هو خارج أمله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطاه نهشه هذا»[(١)] وعن أنس قال خط النبي ﷺ خطوطاً فقال: «هذا الأمل وهذا أجله فبينما هو كذلك إذ جاءه الخطا لأقرب» روى من المحدثين البخاري ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الخصال المذكورة من الهمزة واللمزة، وحب المال وطوال الأمل ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ جواب قسم محذوف وجاز أن يكون كلاً بمعنى حقاً مفيد المعنى القسم فعلى هذا قوله لينبذن جواب قسم مذكور ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ وهي اسم من أسماء جهنم وإنما سميم به لأنها تحطم وتكسر كل ما يطرح فيها ثم بين شدة أمرها بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾ استفهام للتفخيم والتهويل والجملة معترضة لاستعظام شأنها يعني أنت لا تدري شدة أمرها فإنها أعظم من أن يدرك أو يخيل ثم فسرها بعد الإبهام بقوله ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي نار الله أضاف إلى نفسه للتعظيم فـءنها مظهر قهر الله نعوذ بالله منها وصفات الله تعالى كلها جلالية كانت أو جمالية بالغة في الكمال إلى مرتبة لا يمكن فوقها ولا يدرك قدرها ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ صفة للنار على البناء للمجهول يعني أوقدها الله تعالى وما أوقده الله تعالى لا يقدر غيره أن يطفئه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»[(٢)] رواه الترمذي ﴿ٱلَّتِى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: في الأمل وطوله (٦٤١٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم (٢٥٩١).

تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ أي تبلغ إلى الأفئدة والاطلاع والبلوغ، بمعنى واحد يحكى عن العرب من اطلعت أرضنا أي بلغت، أخرج ابن المبارك عن خالد بن عمر أن بسنده إلى النبي ﷺ قال: إن النار تأكل أهلها حتى إذا طلعت إلى أفئدتهم انتهت ثم يعود كما كان ثم تستقبله فتطلع على فؤاده فهو كذلك فذلك قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ وكذا قال القرطبي والكلبي، قلت: فذكر الفؤاد ها هنا للدلالة على تأبيد العذاب فإن نار الدنيا إذا أحرقت أحداً تميته قبل أن تطلع على فؤاده بخلاف نار جهنم أو لأن الفؤاد ألطف ما في البدن وأشد تألماً أو لأنه محل العقائد الزائفة ومنشأ الأعمال القبيحة فكأنه هو منبع نار جهنم ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم﴾ جمع الضمير رعاية لمعنى كل والظرف متعلق بما بعده ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ جملة مستأنفة كأنها في جواب ما بالهم لا يخرجون ولا يفرون فقال إنها عليهم مؤصدة أي مطبقة، كذا أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يعني مغلقة من أوصدت الباب إذا أطبقه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال: إذا ابتلى في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحداً بعذاب غيره وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن سويد بن غفلة نحوه ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ الظرف متعلق بمحذوف في محل النصب على الحالية أي موثقين في عمد وجاز أن يكون متعلقاً بمؤصدة فيكون النار داخل العمد، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عمد بضم العين والميم والآخرون بفتحها وهما جمع عمود مثل أديم وآدم وآدم قاله الفراء، وقال أبو عبيد جمع عماد مثل أهاب وأهب، قال ابن عباس أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد وفي أعناقهم السلاسل وسدت عليهم بعماد لهماالأبواب، وقال قتادة بلغنا أنها عمد يعذبون بها في النار، وقيل هي أوتاد الأطباق الذي يطبق على أهل النار أي أنها مطبقة عليهم بأوتاد ممدودة وهي في قراءة عبد الله بعمد بالباء، وقال مقاتل أطبقت الأبواب عليهم ثم سدت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم باب ولا يدخل عليهم ممددة صفة لعمد أي مطولة فتكون أرسخ من القصيرة، والله تعالى أعلم.

سورة الفيل

مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للنبي ﷺ والاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والغرض منه التقرير يعني قد رأيت يا محمد وهو ﷺ وإن لم يشهد تلك الوقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها، وجاز أن يكون الرؤية بمعنى العلم والجملة الاستفهامية التي بعدها سدت مسدت مفعولي ترو، فيه إشارة إلى نظرة ﷺ وأن يفعل بأعدائه مثل ما فعل بأصحاب الفيل ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ استفهام للتعجب ولذا لم يقل ما فعل لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله وقدرته وعزة بيته وشرف نبيه ﷺ فإنها من الإرهاصات وكانت قصة الفيل توطئة للنبوته ومقدمة لظهوره وبعثته وإلا فأصحاب الفيل كما قال ابن نعيم كانوا نصارى أهل التكاب وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذلك لأنهم كانوا عبدة الأوثان، وكان قدوم الفيل يوم الأحد لثلاث عشر ليلة بقيت من المحرم وبه قال ابن عباس ومن العلماء من حكى الاتفاق عليه، وقال كل قوم يخالفه وهم وفي ذلك العام ولد النبي ﷺ بعد نحو من الشهرين في شهر ربيع الأول من تلك السنة كذا قال الأكثرون وهو الأصح وقيل: بعده بثلاثين عاماً، وقال مقاتل بأربعين عاماً وقيل: بسبعين عاماً وقال الكلبي بثلاث وعشرين سنة، والأول أصح كذا في خلاصة السير ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ وهم أبرهة ملك اليمن وأصحابه، قال الضحاك وكانت الفيلة ثمانية، وقيل: اثني عشر سوى الفيل الأعظم والذي يقال له المحمود وإنما وحد لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم وقيل: لو فاق رؤوس الآي، وقصة أصحاب الفيل على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وذكره الواقدي أن النجاشي

ملك الحبشة كان قد بعث أرياطاً إلى الأرض اليمن فغلب عليها فقام رجل يقال له أبرهة بن الصباح من رجال الحبشة فساخط أرياط في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين فكانت طائفة مع أرياط وطائفة مع أبرهة فتزاحفا فقتل أبرهة أرياطاً واجتمعت الحبشة لأبرهة وغلب على اليمن وأفرد النجاشي، ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله فبنى كنيسة بصنعاء وكتب لى النجاشي إني صنعت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلها بيت منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب فسمع به رجل من بني مالك بن كنانة فخرج إليها ليلاً فقعد فيها ليلاً ولطخ بالعذرة قبلتها فبلغ ذلك أبرهة فحلف أبرهة ليسيرن إلى كعبة حتى يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث ليه بفيلة يقال له محمود ولم ير مثله عظيماً وقوة فبعث إليه فخرج أبرهة سائر إلى مكة فسمعت العرب بذلك فعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر مقاتله فهزمه أبرهة وأخذ ذا نفر ولم يقتله وواثقه ثم سار حتاى إذا دنى من بلاد خثعم خرج نقيل بن حبيب الخثعمي في خثعم واجتمع إليه قبائل اليمن فقاتلوه وأخذ نفيلاً فقال نفيل أيها الملك إني دليل بأرض العرب فاستبقاه وخرج معه يدله على الطريق، حتى إذا مر بالطائف خرج مسعود بن مغيث الثقفي في رجال من ثقيف فقال: أيها الملك نحن عبيدك ليس لك عندنا خلاف إنما تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه فبعثوا أبا رغال مولى لهم فخرج حتى إذا ان بالمقمس يأت أبو رغال وهو الذي يرجم قبره فبعث أبرهة من المغمس رجلاً من الحبشة يقال له الأسود يسوق إليه أموال الحرم وأصاب لعبد المطلب مائتى بعير ثم إن أبرهة بعث بحناطة الحميري إلى أهل مكة فقال اسأل عن شريفها ثم أخبره أني لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت فانطلق، حتى دخل مكة فلقي عبد المطلب وقال له ما قال أبرهة فقال عبد المطلب ماله عندنا قتال فتخلى به وبين ما جاء به فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليل عليه السلام فإن يمنعه فهو بيته وحرمه وأن يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوة فقدم عبد المطلب العسكر لطلب إبله وكان ذو نفر صديقاً فأتاه فقال له ذو نفر إلى رجل أسير ولكن سأبعثك إلى أنيس سائس الفيل فإنه لي صديق قال ذو نفر لأنيس هذا سيد القريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل الوحوش في الجبال ليستأذن عليك، وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه وكره أن يجلس معه على سريره وأن يجلس تحته فهبط إلى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه وقال لترجمانه قل له ما حاجتك إلى الملك؟ فقال عبد المطلب: حاجتي مائتي بعير فقال أبرهة

لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ولقد زهدت فيك جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمه لم لا تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصابتها؟ فقال عبد المطلب أنا رب هذه الإبل وإن لهذا البيت رباً سيمنعه، قال: ما كان ليمنعه مني فأمر بإبله فردت عليه وجاء عبد المطلب وأخبر قريشاً الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرفة الحبش ففعلوا وأتى عبد المطلب الكعبة وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواك ... يا رب فامنع منهم حماك
إن عدو البيت من عداك ... امنعهم أن يخربوا قراك

وقال أيضاً:

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك ... وانصر على آل الصليب وعابد له اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم وعدو محالك ... جروا هموع بلادهم
والفيل كي يسبو عيالك ... جهلاً وما رقبوا جلالك
إن كنت تراكهم وكبتنا ... فأمر ما بدا لك

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وهيأ جيشه وهيأ فيلة وكان فيلاً لم ير مثله في العظمة والقوة، ويقال كانت معه إثني عشر فيلاً فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بإذنه وقال: ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام فبرك الفيل فبعثوه فأبى فضربوه بالمعول رأسه فأبى فأدخلوا محاجنهم تحت مواثقه ففزعوه ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ففعل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك فصرفوه إلى الحرام فأبى أن يقوم، وخرج نفيل يشتد حتى صعد إلى الجبل وأرسل الله عز وجل طيراً من البحر مثل الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره مثل الحمص والعدس فلما غشين القوم أرسلناها عليهم فلم يصب تلك الحجارة أحد إلا هلك وليس كل القوم أصاب وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذين جاؤوا يتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم إلى الطريق إلى اليمن ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال وصرخ القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون كل طريق ويهلكون على كل منهل ما كان على الطريق وبعث الله إلى أبرهة داء في جسده فجعل

يتساقط أنامله كلما سقطت أنملة اتبعتها مدة من قيح ودم فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطير فيمن بقي من أصحابه وما مات حتى انصدع صدره من قبله ثم هلك، قال الواقدي وأما محمود فيل النجاشي فركض ولم يشجع على الحرم فنجا والفيل الآخر شجع يضرب أي رمى بالحصاء، وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جرى أصحاب الفيل أن فئة من قريش خرجوا تجاراً إلى الأرض النجاشي فدنوا من ساحل البحر ثم بيعة النصارى تسمياً قريش الهيلك فنزلوا فأحجوا ناراً فاشتروا فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف فهبت الريح فاضطرم الهيكل ناراً فانطلق الصريح إلى النجاشي فأسف غضباً للبيعة فبعث أبرهة لهدم الكعبة وقال إنه كان بمكة يومئذ سعيد الثقفي وكان مكفوف البصر بصيف بالطائف ويشتوا بمكة وكان رجلاً نبيهاً ونبيلاً يستقيم الأمور برأيه وكان خليل عبد المطلب فقال له عبد المطلب ماذا عندك هذا يوم يستغني فيه من رأيك، فقال أبو مسعود اصعد بنا إلى حراء وصعد الجبل فقال أبو مسعود لعبد المطلب اعمد إلى مائة إبل فاجعلها لله وقلدها نعلاً ثم ابعثها في الحرم لعل بعض هذا السودان يعقر منها فيغضب رب هذا البيت فيأخذهم ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها وجعل عبد المطلب يدعو فقال أبو مسعود إن لهذا البيت رباً يمنعه وقد نزل تبع ملك من اليمن صحن هذا البيت وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام فلما رأى تبع ذلك كساه القباطي البيض وعظمه ونحر له الجزور فنظر أبو مسعود إلى البحر فرأى شيئاً، فقال لعبد المطلب فنظر نحو البحر فنظر عبد المطلب فقال: أرى طيراً بيضاً نشأت من شاطىء البحر فقال: ارفعها ببصرك أين قرارها فدارت على رؤسنا قال: هل تعرفها؟ قال: والله ما أعرفها ما هي نجدية ولا تهامية ولا عربية ولا شامية، قال: ما قدرها؟ قال: أشباه اليعاسيب في منقارها حصى كأنها حصى الخذف قد أقبلت كالليل يتبع أمام كل فرقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق فجاءت حتى حاذت بعسكر القوم ركدت فوق رؤوسهم فلما توافقت الرجال كلها أهالت الطير ما في مناقيرها على ما تحتها مكتوب في كل حجر اسم صاحبه ثم انها انضاغت راجعة من حيث جاءت فلما أصبحا تحطا من ذروة الجبل فمشيا ربوة فلم يؤنسا أحداً ثم أتوا ربوة فلم يسمع لاحساً فقال بات القوم خامدين فأسبحوا نياماً فلما دنوا عن عسكر القوم فإذا هم خامدون فكان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها حتى يقع في دماغه ويخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقة فعمد عبد المطلب فأخذ فأساً من قوسهم فنحفر حتى أعمق من الأرض فملأه من الذهب الأحمر والجوهر وحفر لصاحبه فملأه ثم قال

لأبي مسعود هات فاختر إن شئت حفرتي وإن شئت حفرتك وإن شئت فهما لك معاً، قال أبو مسعود اختر على نفسك قال عبد المطلب إني لم آل أن أجعل أجود المتاع في حفرتي فهو لك وجلس كل منها على حفرته ونادى عبد المطلب في الناس فراجعوا وأصابوا من فضلهما حتى ضاقوا به ذرعاً وساد عبد المطلب وأبو مسعود في أهلها في غناء من ذلك المال ودفع الله عن كعبة ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾ استفهام للإنكار مثل ألم تر ﴿كَيْدَهُمْ﴾ مكرهم وسعيهم في تخريب البيت ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ تضيع وإبطال ﴿وَأَرْسَلَ﴾ عطف على مضمون ألم يجعل أي جعل ﴿عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ صفة طيرأي كثيرة متغرفة تبع بعض جماعة جماعة أخرى يقال جاءت الخيل أبابيلاً من ها هنا ومن ها هنا جمع آبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت الجماعة من الطير في تضامها كذا قال أبو عبيد، وقال الفراء لا واحد لها من لفظها، وقال الكسائي جمع أبول مثل مجهول وعجاجيل وقيل: جمع إبل ﴿تَرْمِيهِم﴾ أي أصحاب الفيل صفة أخرى للطير ﴿بِحِجَارَةٍ﴾ كائنة ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر معرب وقيل مشتق من السجل وهو الدلو الكبير أو الأسجال وهو إرسال أو من السجل ومعناه من الجملة العذاب المكتوب لأجلهم، قال ابن عباس طيراً لها خراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب، قال عكرمة لها رؤوس كرؤس السباع، وقال الربيع لها أنياب كأنياب السبع، وقال سعيد بن جبير طير خضر لها مناقير صفر، وقال قتادة طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً، قال ابن مسعود صاحب الطير ورقهم بالحجارة وبعث الله له بها فضربت الحجارة فزادته شدة فما وقع منها حجر على رجل إلا خرج من الجانب الآخر وإن وقع في رأسه خرج من دبره ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ عطف على أرسل ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ مفعول ثان لجعل أي جعلهم كزرع وتبن أكلته الدواب فراثه وتفرقت أجزاؤه شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث وقال مجاهد العصف ورق الحنطة، وقال قتادة هو التبن، وقال ابن عباس هو القشر الخارج الذي يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف، ومعنى مأكول يعني أكلته الدواب، والله تعالى أعلم.

سورة القريش

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾ قرأ ابن عامر لالآف بغير ياء بعد الهمزة وأبو جعفر ليلاف بغير همزة والباقون بهمزة وياء بعدها واللام للتعجب عند الكسائي والأخفش متعلق بمحذوف أي اعجبوا لإيلاف قريش، وقال الزجاج هي مردودة إلى ما بعدها تقديره فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش، والفاء للجزاء لأن الكلام معنى الشرط إذ المعنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوا لسائر نعمته فليعبدوا لإيلاف قريش لكن يرد عليه أن ما في حيز الجزاء لا يعمل قبله فالأولى أن يقال حينئذ الفاء زائدة، وجاز أن يكون متعلقاً بما قبله في السورة السابقة كالنظمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت التالي بالذي قبله تعلقاً لا يصلح إلا به والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل وجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش رحلة التشاء والصيف أي ليتسامع الناس ذلك الإهلاك لأجلهم فيحرموهم فضل إحرام حتى ينتظم لهم إلا من في رحيلتهم فلا يجترىء عليهم أحد، ولأجل هذا التعلق المعنوي عد بعض الناس سورة الفيل وهذه السورة سورة واحدة منهم أبي بن كعب لافصل بينهما في مصحفه فاللام على هذا متعلق بجعل. وقريش هم ولد النضر بن كنانة فمن ولده النضر فهو قريش ومن لم يلده فليس بقريش سموا قريشاً من القوش والتقرش وهو الكتسب، والجمع يقال فلان يقرش لعياله ويتقرش أي يكتسب وهم كانوا تجاراً حراصاً على جمع المال والإفضال، وسأل معاوية عن عبد الله بن عباس لم سميت قريشاً قال: الدابة في البحر من أعظم الدواب يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته وهي تأكل ولا توكل تعلو ولا تعلى، وفي القاموس قرشه أي قطعه وجمعه من ها هنا وها هنا وضم بعضه إلى بعض ومنه قريش لتجمعهم إلى الحرم

ولأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها ولأن نضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا: اتقرش أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا: كأنه جمل قريش أي شديداً أو لأنهم كانوا يقرشون الحاج فيسدون خلتها أو سميت القرش وهي دابة بحرية يخافها دواب البحر كلها.

فائدة: عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»[١] رواه البغوي وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الناس تبع بقريش في هذا الشأن مسلمهم وكافرهم»[٢] متفق عليه وعن جابر مرفوعاً «الناس تبع لقريش في الخير والشر» رواه مسلم، قلت: لعل المراد من الحديث الأول قوة استعداد قريش ومن ثم ترى أفضل الصحابة وأكثر أولياء منهم وبالآخرين أنه تعالى لما بعث خاتم النبين منهم فكأنهم هم المخاطبون أولاً بالشرائع والإيمان وسائر الناس تبع لهم قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[٣] وقال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٤] فمن آمن منهم سن سنة حسنة باتباع الرسول فلهم أجرهم وأجر من تبعهم ولذا صاروا أفضل الناس بعد الأنبياء ومن كفر منهم وسلك طريق مخالفة النبي ﷺ في بدء الأمر ثم مات على ذلك فعليه إثم من كفر بعدهم كما أن قابيل أول من قتل يقسم أهل النار بضعف عذاب جهنم قسمه صحاباً أخرجه البيهقي عن ابن عمر وقد مر فيسورة والشمس في حديث أنه أشقى الناس، وعن ابن عمر مرفوعاً قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»[٥] متفق عليه، وعن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين» رواه البخاري، قلت: المراد بالأمر الخلافة والغرض من حديث ابن عمر وجواب استخلاف قريش وليس الغرض منه الإخبار والغرض من حديث معاوية الدعاء بالسوء على من بنى من خليفة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في فضل النبي ﷺ (٣٦١٤).

(٢) أخرجه البخاري في أول كتاب: المناقب (٣٤٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨١٨).

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: مناقب قريش (٣٥٠١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨٢٠).

قريش عادل وعن سعد عن النبي ﷺ قال: «من يرد هوان قريش أهانه الله»[(١)] رواه الترمذي، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم ولا يعطها أحداً بعدهم فضل الله قريشاً أني منهم وأن النبوة فيهم وأن الحجامة فيهم وأن السقاية فيهم ونصرهم على الفيل وعبدوا الله عشر سنين لم يعبدوه غيرهم وأنزل الله فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحداً غيرهم لئلاف قريش» رواه الحاكم والطبراني والبخاري في التاريخ، وعن زبير بن العوام مثله غير أنه لم يذكر أني منهم بل ذكر أن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية والثلاثة النصر على الفيل وعبدوا الله عشر سنين ونزلت فيهم لئلاف قريش رواه الطبراني في الأوسط ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ بدل من الإيلاف الأول اتفق غير أبي جعفر على أنها بياء بعد الهمزة في اللفظ دون الخط إلا عبد الوهاب بن فليح عن ابن كثير فإنه قرأ إلفهم ساكنة اللام وإطلاق الإيلاف أولاً ثم إبدال المقيد عنه بقوله ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ للتفخيم فإنه كان من أعظم نعم الله عليهم وذاك لأن الحرم كان وادياً جدياً لا زرع فيه ولا ضرع فلولا الرحلتان لهم بالتجارة لم يكن لهم مقام ولا معاش، ولولا أن جعل الله مكة حرماً محترماً بحيث يكون الناس ويتقرضون لهم بالسوء قائلين قريش سكان حرم الله ولاة بيته لم يقدروا على الرحلتين فكانوايرتحلون رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ وفي الصيف إلى الشام لأنها برد فيتمارون ويتجرون ويربحون، قال عطاء عن ابن عباس إنهم كانوا في ضر ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين وكانوا يقسمون ربحهم بين الفقير والغني حتى كان فقيرهم كغنيهم، قال الكلبي كان أول من حل السمراء من الشام ورحل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف، قال البغوي فشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام فأخصبت بتبالة وحرش من اليمن فحملوا الطعام إلى مكة أهل الساحل من البحر على السفن وأهل البر على الإبل والحمير فألقى أهل الساحل بجدة وأهل البر بالمحصب وأخصبت أهل الشام فحملا الطعام إلى مكة فألقوا بالأبطح فامتاروا من قريب وكفاهم الله مؤونة الرحلتين وأمرهم بعبادة رب هذا البيت فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾ إن كان لام لإيلاف متعلقاً بما قبله أو للتعجب فالفاء للعطف والسببية وإن كان متعلقاً بما بعده فهي زائدة أو في جواب شرط مقدر كما مر ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ أي الكعبة يعني الله سبحانه ذكر الله تعالى بصفة ربوبية البيت ولكون البيت باعثاً لأمنهم ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ خوف أصحاب الفيل أو التخطف ببلدهم أو في السفر بجعلهم من أصحاب الحرم، وقال الضحاك والربيع والسفيان أمنهم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل الأنصار وقريش (٣٩١٤).

من خوف انهدام فلا يصيب ببلدهم ذلك كله بدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[1] عن أبي الحسن القزويني موقوفاً إن خاف من عدو أو غيره فقراءة لإيلاف قريش أمان عن كل سوء ذكره الجزري في الحصن الحصين وقال مجرب، قلت وقد أمرني شيخي وإمامي قدس الله سره السامي بقراءته في المخاوف لدفع كل سوء وبلاء وقال مجرب، قلت: وقد جربته كثيراً والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

سورة الماعون

مكية وهي سبع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ الاستفهام للتعجب والرؤية بمعنى الإبصار والمعرفة فاقتصر على مفعول واحد وهو الموصول مع الصلة، وقال في البحر المواج الاستفهام للتقرير والرؤية بمعنى العلم والموصول خبر محذوف يعني ذلك تقديره أرأيت ذلك الذي يكذب بالدين، قال مقاتل نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقال السدي ومقاتل وابن كيسان هو الوليد بن مغيرة، وقال الضحاك نزلت في عمرو بن عائذ المخزومي فصدر السورة على هذا الأقوال مكية وآخر السورة مدنية كذا قيل، وقال عطاء عن ابن عباس أرأيت الذي يكذب بالدين نزلت في رجل من المنافقين فالموصول للعهد وقيل للجنس ﴿بِٱلدِّينِ﴾ أي بالإسلام وبالجزاء ﴿فَذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو ذلك والفاء للسببية والجملة في مقام التعليل للجملة السابقة، وقيل: الفاء جزائية والفرط محذوف تقديره أرأيت وعرفت الذي يكذب بالدين فإن لم تعرفه فهو ذلك ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي يقهره ويدفعه عن حقه الدع والدفع بالعنف ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ أي لا يأمر نفسه وأهله وغيره بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ الفاء جزائية يعن إذا كان عدم المبالاة باليتيم من ضعف الدين والموجب للذم والتوبيخ فالسهو عن الصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة الكفر ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام أولى بذلك ولذلك رتب عليه الويل أو للسببية على معنى فويل لهم، وإنما وضع المصلين موضع الضمير للدلالة على معاملتهم مع الخالق وساهون أي غافلون غير مبالين به، روى البغوي بسنده عن مصعب بن سعد بن

أبي وقاص عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ هم عن صلاتهم ساهون؟ قال: إضاعة الوقت وفي رواية ابن جرير وأبي يعلى قال: هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، قال أبو العالية يصلونها لمواقيتها ولا يتمون ركوعها وسجودها، وقال قتادة ساه عنها لا يبالي صلى أو لم يصل قيل لا يرجون ثواباً إن صلوا ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، وقال مجاهد غافلون فيها متهاونون بها وقال الحسن وهو الذي عليها إن صلاها رياء وإن فاتته لم يندم ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ مفاعلة من الرؤية أي يراؤون الناس أعمالهم ليردوا الثناء عليها قال ﷺ: «من صلى يرائي فقد أشرك ومن صام يرائي فقد أشرك ومن تصدق يرائي فقد أشرك» رواه أحمد عن شداد بن أوس ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ قال قطرب الماعون في الأصل الشيء القليل والمراد ها هنا الزكاة كذا روي عن علي وابن عمر والحسن وقتادة والضحاك وإنما سمى الزكاة ماعوناً لكونها قليلاً من الكثير، وقال ابن مسعود الماعون الفاس والدلو والقدر وأشباه ذلك وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس وقال مجاهد الماعون العارية، وقال عكرمة أعلاها الزكاة المفروضة وأدناها عارية المتاع، وقال محمد بن كعب والكلبي الماعون المعروف الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم، وقيل: الماعون ما لا يحل منعه مثل الماء والملح والنار، قال قلت يا رسول الله هذا الماء فما بال الملح والنار؟ قال: «يا حميراء من أعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما أنضجت تلك النار من أعطى ملحاً فكأنم تصدقت بجميع ما طيب فلك الملح ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أحياها»(١) رواه ابن ماجه، وأخرج ابن المنذر من طريق أبي طلحة عن ابن عباس قال قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ الخ نزلت في المنافقين كانوا يراؤون المؤمنين بصلواتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ويمنعون العارية، قال في المدارك روي عن أنس والحصن قالا الحمد لله الذي قا عن صلاتهم ساهون ولم يقل في صلاتهم لأن معنى عن سهو ترك وإعراض عنها وقلة التفات إليها وذلك فعل المنافقين ومعنى فيما يقع في الصلاة من حديث النفس ووسوسة الشيطان والحكم في ذلك التعوذ ودفع الوسوسة ما استطاع والعفو فيما لم يستطع عن عثمان بن أبي العاص قال: قلت: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بين صلاتي وبين قراءتي يلبسها

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الرهون، باب: المسلمون شركاء في ثلاث (٢٤٧٤)، وهو ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان.

علي؟ فقال رسول الله ﷺ ذاك شيطان يقال لها خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً ففعلت ذلك فأذهبه الله عني»[١] رواه مسلم، وعن القاسم بن محمد أن رجلاً سأله فقال: إني آهِمُ في صلاتي فيكثر ذلك علي فقال: «امض في صلاتك فإنه لم يذهب ذلك عنك حتى تنصرف وتقول ما أتممت صلاتي» والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة (٢٢٠٣).

سورة الكوثر

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾

روى مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بينأظهرنا إذا أغفا إغفاءه ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال: أنزلت علي آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير هو حوض يرد عليه أمتي يوم القيامة أنيته عدو النجوم فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه أمتي فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك»[1] وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن أبي أيوب قال لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا إن هذا الصابىء قد بتر الليلة فأنزل الله تعالى إنا أعطيناك الكوثر وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج، وأخرج ابن جرير عن شهر بن عطية قال: كان عقبة بن أبي معيط يقول لا يبقى لمحمد ولد وهو أبتر فأنزل الله فيه إن شانئك هو الأبتر وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله فصل لربك وانحر قال أنزلت يوم الحديبية أتاه جبرئيل فقال انحر وارجع فقام فخطب خطبة القصر والنحر ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البدن فنحرها وفيه غرابة شديدة، وأخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش أنت سيد أهل المدينة ألا ترى إلى هذا المتصبر المنتبز من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة قال: أنتم خير منه فنزلت إن شانئك هو الأبتر، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال البسملة آية من كل سورة سوى براءة (٤٠٠).

أوحي إلى النبي ﷺ قالت قريش بتر محمد منا فنزلت إن شانئك هو الأبتر، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل بتر فلان فلما مات ولد النبي ﷺ قال العاص بن وائل: بتر محمد فنزلت، وأخرج البيهقي في الدلائل مثله عن محمد بن علي بن الحسين وسمى الولد القاسم، وأخرج البيهقي في الدلائل عن مجاهد قال فنزلت في العاص ابن وائل قال أنا شأني محمد، وذكر البغوي أن العاص بن وائل السهيمي رأى النبي ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا: من الذي تحدث معه قال ذلك الأبتر يعني النبي ﷺ وكان قد توفي ابن رسول الله ﷺ من خديجة، وذكر محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ قال دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله هذه السورة، قلت: والصحيح عندي أن نزول إنا أعطيناك الكوثر لم ين عند وفاة ابن النبي ﷺ فإن القاسم مات بمكة، قبل الهجرة وفي رواية قبل البعثة وما روى عن محمد بن علي فهو من رواية جابر الجعفي وهو كذاب وإبراهيم مات سنة عشر جزم به الواقدي وقال يوم الثلاثاء بعشر خلون من ربيع الأول كذا في سبيل الرشاد والصحيح في نزول هذه السورة رواية مسلم عن أنس ورواية البزار عن ابن عباس حين قدم كعب بن الأشرف مكة والله أعلم قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ قال أهل اللغة الكوثر فوعل من الكثرة كنوفل من النفل والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير في القدر والخطر كوثر ومن ها هنا ما روى البخاري ومن طريق أبي بشر وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ قال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه إياه فعلى هذا حمل ابن عباس اللام في الكوثر للجنس وزعم أن الحوض فرد من أفراده وكذا من قال هو النبوة والقرآن والأولى حمل اللام على العهد تفسيره بما فسر به النبي ﷺ كما ذكرنا حديث مسلم عن أنس وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ فضربت يدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أزفر قلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله»(١) وعند أحمد والترمذي عنه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: في الحوض (٦٥٧٨).

مرفوعاً قال: «هو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وفيه طيور أعناقها كأعناق الجزر قال عمر ﷺ يا رسول الله إنها لناعمة قال: آكلها أنعم منها يا عمر[١] وأخرج الطبراني عن أسامة بن زيد أن امرأة حمزة بن عبد المطلب قالت يا رسول الله إنك أعطيت نهراً في الجنة تدعى الكوثر قال: «أجل وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ هو ما بين أيلة وصنعاء فيه أباريق مثل عدد النجوم» وأخرج الطبراني عن حذيفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ①﴾ قال: نهر في الجنة أجوف فيه آنية من الذهب والفضة لا يعلمها إلا الله تعالى، وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب والماء يجري على اللؤلؤ» الحديث[٢] وأخرج البخاري عن عائشة أنها سألت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ①﴾ قالت: نهر أعطاه الله تعالى نبيكم ﷺ ذكر الحوض في رواية بضع وخمسين صحابياً الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس والحسن بن علي وحمزة بن عبد المطلب وعائشة وأم سلمة وأبو هريرة وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن عوف وجابر بن عبد الله وغيرهم، وسرد السيوطي في البدور السافرة الأحاديث الواردة فيه نحواً من سبعين ﴿فَصَلِّ﴾ الفاء للسببية يعني فصل شكر الله تعالى على أما أعطاك فإن الصلاة جامعة لأقسام الشكر باللسان والقلب والجوارح، وقيل معناه دم على الصلاة ﴿لِرَبِّكَ﴾ خالصاً بوجهه خلافاً لمن يصلون وينحرون بغيرالله وخلافاً لمن يراؤون فيها ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ البدن التي هي خيار أموال العرب وتصدق على اليتامى والمساكين خلافاً لمن يدعوني اليتامى والمساكين ويمنعون الماعون فهذه السورة كالمقابلة لسورة المقدمة، قال عكرمة وعطاء وقتادة فصل لربك صلاة العيد يوم النحر ونحر نسكك فعلى هذا يثبت به وجوب صلاة العيد والأضحية، وقال سعيد بن جبير فصل الصلاة المفروضة بجمع وانحر البدن بمنى، وروي عن ابن الجوزاء عن ابن عباس قال فصل لربك وانحر وضع اليمين على الشمال في الصلاة عند النحر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ عدوك ومبغضك ﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أي لا عقب له بمعنى أنه لا يعقبه ذكر حسن ويعقبه اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين فلا يرد ما قيل أن العاص بن وائل كان له عقب وهو عمرو وهشام فكيف يثبت له البتر وانقطاع الولد وأن عمرو وهشام أسلما فقد انقطعت بينه وبينهما حتى لا يرثان فهم من أبناء رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة طير الجنة (٢٥٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكوثر (٣٣٦١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب: صفة الجنة (٤٣٣٤).

وأزواجه أمهاتهم، وذكر خبر أن معرفاً باللام وإيراد ضمير الفصل للدلالة على الحصر يعني لست بأبتر فإنه يبقى ذكرك مع ذكر الله تعالى أبداً ويدوم حسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة والآخرة خير لك من الأولى ويبقى ذكر المؤمنين من أمتك على ألسنة الملائكة والمؤمنين في قولهم اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والله تعالى أعلم.

سورة الكافرون

مكية وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء فقالوا: هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهك سنة قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي، وأخرج عبد الرزاق عن وهب بلفظ قالت قريش: إن سرك أن يعقبك عاماً وترجع في ديننا عاماً وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن ميناء لقي الوليد بن مغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ خطاب لجماعة مخصوصة سالوا المسالمة قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ أبداً ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ غير الله تعالى من الأوثان نفي لموافقتهم في العبادة في المستقبل من الزمان حتى يطابق السؤال لأن سؤالهم كان من المسالمة والمصالحة في الاستقبال مع ظهور مباينة النبي ﷺ الكفار في الحال وكما قال البيضاوي أن لا لا يدخل على المضارع بمعنى الاستقبال كما أن ما لا يدخل إلا على المضارع بمعنى الحال ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ فيما يستقبل لأنه في مقابلة لا أعبد ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ أورد ما موضع من للمطابقة أو لأن المراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا أنتم عابدون الحق، وقيل ما مصدرية ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤﴾ قرأ هشام عابدون في الموضعين وعابد بالإمالة والباقون بالفتح قال أكثر أهل المعاني إن القرآن نزلت بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم وعلى هذا مذاهبهم التكرار لإرادة

التوكيد والإفهام كما أن من مذاهب الاختصار لإرادة التخفيف والإيجاز فهذا تكرير للتأكيد، وقال القيبي تكرار الكلام لتكرار الوقت وذلك أنهم قالوا إن سرك أن تدخل دينك عاماً فادخل في ديننا عاماً فنزلت السورة كأنه نفي المشاركة في الوقتين، وقيل: كلمتان الأوليان بمعنى الذي والآخريان مصدريتان فالمقصود نفي المشاركة من حيث المعبودون حيث كيفية العبادة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركونه أبداً فهو أخبار كقوله تعالى ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ أي ديني الذي أنا عليه لا أرفضه أبداً إن شاء الله تعالى فليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد بل تذييل وتأكيد لما سبق وتقديم الخبر للحصر فلا يحكم بكون الآية منسوخة بآية القتال ولا يجوز تفسيره بالمشاركة وتقرير كل من الفريقين الآخر على دينه لأن النبي ﷺ لم يزل يدعوهم إلى الإسلام ما زال الكفار على إيذائه وإيذاء أصحابه وجاز أن يكون المعنى لكم جزاء أعمالكم ولي جزاء أعمالي، قرأ نافع وحفص وهشام لي دين والباقون بإسكانها وهي رواية مشهورة عن البزي، وقال الدالاني وبه أخذ وقد مر في حديث أنس وابن عباس في تفسير إذا زلزلت قوله عليه السلام قال: «يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن» وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «نعم لسورتان هما تقرآن في الركعتين، قبل الفجر الكافرون والأخلاص» رواه ابن هشام، وعن فروة بن نوفل بن معاوية عن أبيه أنه قال يا رسول الله علمي شيئاً أقوله إذا أويت إلى فراشي قال: اقرأ قل يا أيها الكافرون فإنها براءة من الشرك»(١) رواه الترمذي وأبو داود والدارمي وعن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «أتحب يا جبير إذا خرجت في سفر تكون أمثل أصحابك هيئة وأكثر زاداً؟ فقلت: نعم بأبي أنت وأمي قال: فاقرأ هذه السورة الخمس قل يا أيها الكافرون وإذا جاء نصرالله وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وافتح كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم واختم قراءتك بها» قال جبير: وكنت غنياً وكثيرا لمال فكنت أخرج في سفر فأكون أبذلهم هيئة وأقلهم زاداً فما نزلت منذ علمتهن من رسول الله ﷺ وقرأت بهن أكون أحسنهم هيئة وأكثرهم زاداً حتى أرجع من سفري» رواه أبو يعلى، وعن علي قال: لدغت النبي ﷺ عقرب فدعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ قل يا أيها الكافرون وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول عند النوم (٥٠٤٧).

سورة النصر

مدنية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح بعث خالد بن وليد فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة حتى هزمهم الله ثم أمر بالسلاح فرفع عنهم فدخلوا في الدين فأنزل الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي إظهاره إياك على أعدائك وعلى تقدير نزولهذا السورة بعد فتح مكة يعني يوم الفتح فإذا ها هنا بمعنى إذ كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾(٢) ﴿وَالْفَتْحُ﴾ يعني فتح مكة، روى الطبراني، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح هذا ما وعدني ربي ثم قرأ إذا جاء نصر الله والفتح. وكانت قصة الفتح على ما ذكر أصحاب الأخبار أن رسول الله ﷺ لما صالح قريشاً عام الحديبية على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيه الناس وأنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيه فدخلت بنو بكر في عقد قريش وخزاعة في عقد رسول الله ﷺ وكان بينهما شر قديم، ثم إن بني نفاثة من بني بكر عدت على خزاعة فخرج نوفل بن معاوية الديلمي منهم حتى بيت خزاعة موضع أسفل مكة وقاتلوهم حتى دخلوا الحرم وما تركوا القتال وأمدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل بعضهم معهم ليلاً مستخفياً منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وشيبة بن عثمان وخويطب بن عبد العزى مع عبيدهم ثم ندمت قريش

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٦.

على نقض العهد ولام بعضهم بعضهم بعضاً وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً بعد القتال إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه أخبر رسول الله ﷺ يوقفه بني نفاثة وخزاعة قبل بلوغ الخبر، وقال ينقضون العهد لأمر يريد الله قالت عائشة خير قال: خير روى محمد بن عمرو عنها والطبراني عن ميمونة نحوها ولما قدم عمرو بن سالم قام رسول الله ﷺ يجر رداءه ويقول: «لا نصرت إن لم أنصرك يا عمرو وبما أنصر به نفسي» وذلك في شعبان على رأس اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبية فأرسل رسول الله ﷺ حمزة إلى قريش يخبرهم بين أمور ثلاثة أن أدوا دية قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً أو من خلف من نقض الصلح وهم بنو نفاثة أو ينبذ إليكم على سواء فاختلف قول قريش ثم آل أمرهم إن نبذ الصلح ورجع حمزة بالنبذ، وشاور النبي ﷺ أبا بكر وعمرو فأشار أبو بكر بالصلح واللين وقال هم قومك حتى رأى أنه سيتبعني وأشار عمر بالحرب وقال هم رأس الكفر زعموا أنك ساحر كاهن كذاب ولم يدع شيئاً مما كان يقولونه وقال لا تذل العرب حتى يذل أهل مكة فاختار النبي ﷺ رأي عمر فخير رسول الله ﷺ مخفياً أمره وحرض العرب فجاء أسلم وغفار ومزنية وحرفية وأشجع وسليم فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه في الطريق والمسلمون عشرة آلاف، وقيل: اثنا عشر ألفاً ويجمع بأن العشرة حين الخروج من المدينة وتلاحق به ألفان ثم ندم قريش على نبذ الصلح فبعث أبا سفيان ودخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه وقالت: هو فراش رسول الله ﷺ لقد أصابك يا بنية بعدي شر قالت: هداني الله للإسلام وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام وتعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟ فقام من عندها، فدخل على رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه وأن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر فكلمه فقال: والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به فدخل على عليّ وعنده فاطمة والحسن فقال: يا علي إنك أمس القوم مني رحيماً أشفع لنا إلى رسول الله ﷺ فقال: ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله ﷺ ما يستطيع أحد أن يكلمه، فالتفت إلى فاطمة فقال هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فأبت فقال: يا أبا الحسن اشتد الأمر علي فانصحني فقال: والله لا أعلم شيئاً يغنيك لكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال وترى ذلك مغنياً عني شيئاً قال لا ولكن لا أجد غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ثم ركب بيره فانطلق وقدم على قريش وقضى القصة قالوا والله إن أراد على إلا أن

لعب لك فاستخلف النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وقيل أبا ذر الغفاري وهو الصحيح رواه الطبراني. خرج رسول الله ﷺ الأربعاء لعشر خلون من رمضان سنة ثمان من الهجرة وقيل غير ذلك وقال رسول الله ﷺ: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش» روى البخاري عن علي يقول بعثني رسول الله ﷺ أنا وزبير والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوا منها قال فانطلقنا بنا خيلنا حتى أتينا روضة فإذا نحن بالظعينة قلنا أخرجي الكتاب قالت ما معي كتاب فقلنا لتخرجي الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن بلتعة إلى الناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعضٍ أمر رسول الله ﷺ فقال: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ إني كنت امرأ ملصقاً في قريش وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذا فاتني ذلك من أنسب فيهم أن اتخذوا عندهم هذا يحمون قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» فقال عمر يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال إنه قد شهد بدراً وما يدريك يا عمر أن الله تعالى عز وجل اطلع على من شهد بدراً فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فرقت عينا عمر فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ إلى قوله ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1] وصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه فلما بلغ الكديد أفطر وأفطروا فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر، وخرج العباس بن عبد المطلب مهاجراً فلقيه بالجحفة وكان قبل مقيماً بمكة على سقاية برضاه ولقيه بالأبواء أبو سفيان بن الحارث ابن عمه وابنه جعفر بن أبي سفيان وأسلما قبل دخول مكة، قيل: بل لقيه هو وعبد الله بن أمية بن عمته عاتكة فأعرض رسول الله ﷺ عنهما وقال: لا حاجة لي بهما فقد هتكا عرضي وقالا لي ما قالا فألجؤوا وكلمت أم سلمة فيهما فأذن لهما فلما كان بالقدير عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل وراية النبي ﷺ مع الزبير، ثم نزل بمر الظهران عشاء وقد عميت الأخبار عن قريش فخرج تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقة يتجسسون الأخبار وأمر النبي ﷺ أصحابه فأوقدوا عشر آلاف ناراً وقال العباس بن عبد المطلب ليلتئذ واصباح قريش والله لئن دخل النبي ﷺ مكة عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر فخرج عباس على بغلة رسول الله ﷺ ليرى حطاباً أو صاحب لبن أو ذا حاجة يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيستأمنونه قبل أن يدخلها عليهم عنوة فسمع عباس صوت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح (٤٢٧٤).

أبي سفيان يقول والله ما رأيت كالليل نيراناً، فقال عباس ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ قد جاء بما لا قبل لكم به فقال: ما الحيلة؟ فقال عباس يا أبا سفيان لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى أتى بك رسول الله ﷺ فتستأمنه فرجع فكلما مرا بنا نظروا إليه وقالوا هذا عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ حتى مرا بنار عمر فلما رأى عمر أبا سفيان قام عمر فقال: هذا أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منه بغير عهد ولا عقد فاشتد نحر رسول الله ﷺ فدخل عباس مع أبي سفيان على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف ولو كان من بني كعب ما قلت هذا قال: مهلاً يا عباس لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك فلما أصبح عذابه عباس إلى رسول الله ﷺ قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئاً بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن أن تعلم أني رسول اللهد قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه ففي نفسي منها شيء، قال عباس ويلك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله قبل أن يضرب عنقك فشهد شهادة الحق وأسلم وأسلم حكيم وبديل قبل أبي سفيان هذا رواية إسحاق بن راهويه بسند صحيح. وعند الطبراني أن رسول الله ﷺ قال يعني يا عباد الله إن أبا سفيان بالأراك فخذوه وعند ابن أبي شيبة إن أبا سفيان وأصحابه أخذهم حرس رسول الله ﷺ من الأنصار وكان الحرس تلك الليلة عمر فقال احبسوه فحبسوه حتى أصبح وعند ابن أبي شيبة قال أبو سفيان دلوني على العباس وفي رواية فيهم عباس فذهب به إلى رسول الله ﷺ إلى آخر القصة وقال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن» فصرخ أبو سفيان في المسجد بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به وأخبر بما أتى به من الأمان فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ولما أسلم حكيم بن حزام وبديل بن ورقا وبايعاه بعثهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى قريش يدعوهم إلى الإسلام وبعث رسول الله ﷺ الزبير وأعطاه الراية وأمره على خيل المهاجرين والأنصار وأمره أن يركز راية بأعلى مكة بالحجون، وقال لا تبرح حتى أمرتك ومن ثم دخل رسول الله ﷺ وضربت هناك قبة وأمر خالد بن وليد فيمن أسلم من قضاعته وبني سليم أن يدخل من أسفل مكة وبها بنو بكر قد استغفرتهم قريش وبنو الحارث بن عبد مناف ومن كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة وقال النبي ﷺ لخالد

والزبير حين بعثهما لا تقاتلا إلا من قالتكم وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء وأعطاه رسول الله ﷺ راية فقال سعد حين توجه داخلاً اليوم يوم الملحمة اليوم يستحل الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله أسمع ما قال سعد بن عبادة من أين يكون له في قريش صولة؟ فقال رسول الله ﷺ لعلي أدركه فخذ الراية فكن أنت تدخل بها فذهب علي بالراية حتى غرزها عند الركن، وروى أبو يعلى عن الزبير أن النبي ﷺ دفع الراية إليه فدخل مكة بلوائين فلم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير فقال: وأما خالد بن الوليد فلما دخل من أسفل مة منعه من كان هناك من المشركين قريش وغيرهم أن تستهروا له السلاح ورموه بالنبل وقالوا لا تدخلها ما عنوة فصاح خالد في أصحابه فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرون رجلاً من قريش وأربعة من هذيل. وقال ابن إسحاق أصيب من المشركين اثني أو ثلاثة عشر وانهزموا أقبح الانهزام حتى قتلوا بالحروة وهم مولون من كل وجه وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون ولم يقتل من المسلمين إلا رجل من جهينة يقال له سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد ورجلان يقال لهما كرز بن جابر الفهري وجيش بن خالد بن ربيعة كانا في خيل خالد بن الوليد فشذا عنه وسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا بمكة أن لا تقتلوا أحد إلا من قاتلهم إلا نفر أسمائهم فأمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة عبد الله بن أبي سرح كان أسلم ثم ارتد فشفع فيه عثمان يوم الفتح فحقن دمه وأسلم بعد ذلك وعكرمة بن أبي جهل فقيل إسلامه وحويرث بن كان يؤذي رسول الله ﷺ ونحن نرهب حين هاجرت إلى المدينة فقتله علي ومقيس بن صبابة كان أسلم، ثم أتى على رجل من الأنصار فقتله وكان الأنصاري قتل أخاه هشاماً خطاء في غزوة ذي قردة ظنه من العدو فجاء مقيس فأخذ الدية ثم ارتد فقتله غيلة بن عبد الله رجل من قومه وهبار بن الأسود كان شديد الأذى للمسلمين وعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ فنحس بها فاسقطت ولم يزل ذلك المرض بها حتى ماتت أسلم يوم الفتح فعفا عنه رسول الله ﷺ والحارث بن الطلاطل الخزاعي قتله على ذكره... أو معشر وكعب بن الزبير الشاعر كان يهجو فأسلم ومدح رسول الله ﷺ ذكره الحاكم ووحش ابن حرب قاتل بن حمزة فهرب إلى الطائف ثم جاء فأسلم وعبد الله بن حنظل كان اسمه عبد الحرث كان قد أسلم وسماه رسول الله ﷺ عبد الله وبعثه ساعياً وبعث معه رجلاً من خزاعة وكان يصنع له طعاماً ويخدمه فنزلا منزلاً وأمره أن يذبح له ويصنع طعاماً وقام نصف النهار فاستيقظ ولم يضع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد وهرب إلى مكة وكانت له

فتيتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه فقتلت يوم الفتح إحداهما وهربت الأخرى فقتله سعيد بن حري المخزومي وأبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه وأسلمت التي هربت وسارة مولاة عمر بن هاشم كانت مغنية نواحة بمكة وهي التي وجد معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة أسلمت وهند بنت ابن عتبة امرأة أبي سفيان عن كبد حمزة عم رسول الله ﷺ أسلمت فعفى عنها وهرب صفوان بن أمية إلى جدة ليركب منها إلى اليمن فاستأمن له عمير بن وهب فأتى رسول الله ﷺ اجعلني في أمري بالخيار إل شهرين فخيره رسول الله ﷺ إلى أربعة أشهر ثم أسلم بعد ذلك ودخل رسول الله ﷺ مكة وعلى رأسه سواء، رواه أحمد ومسلم وأربعة في الصحيحين على رأسه المغفر وجمع بأنه كان على رأسه المغفر ثم نزع المغفر ولبس العمامة وكان يقرأ سورة الفتح يرجع صوته بالقراءة كذا في الصحيحين فنزل رسول الله ﷺ ومعه أم سلمة وميمونة زوجتيه في قبة من آدم بالحجون لخيف بني كنانة حيث تقاسم قريش وكنانة على بني هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ فقيل: ألا تنزل منزلك من الشعب؟ فقال: هل ترك لنا عقيل منزلاً؟ وقد باع عقيل منزل رسول الله ﷺ ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة فقيل فأنزل في بعض بيوت مكة غير مازلك فأبى وقال: لا أدخل البيوت وكان يأتي في المسجد لكل صلاة من الحجون فمكث في منزله ساعة من النهار فاغتسل وسترته فاطمة وصلى ثمان ركعات سبحة الضحى[1]، رواه مسلم. وعند البخاري عن أم هانىء أنه ﷺ اغتسل في بيتها وصلى ثم ركب راحلة وأتى الكعبة واستلم الركن بمحجنه وكبر وكبر المسلمون حتى ارتجت مكة تكبيراً وجعل رسول الله ﷺ يسير إليهم أن أسكنوا والمشركون فوق الجبال ينظرون ثم طاف بالبيت على راحلته سبعاً يستلم الركن بمحجنه وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصعة بالرصاص وكان هبل أعظمها وهو وجاه الكعبة على بابها وأساف ونائله حيث ينحرون ويذبحون فجعل رسول الله ﷺ كلما مر بصنم منها يشير إليه ويطعن في عينه ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) فما يشير بصنم إلا سقط بوجهه أو بقضاه من غير أن يمسه، وأراد فضالة بن عمر الليثي قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف فلما دنى منه قال يا فضالة قال نعم قال ماذا كنت تحدث به نفسك قال لا شيء كنت أذكر الله فضحك رسول الله ﷺ وقال استغفر الله ثم وضع يده على صدره فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صري حتى لم يكن شيء أحب إلي منه فلما فرغ من طوافه نزل عن راحلته على أيدي الرجال لم يجد مناخاً في

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: تستر المغتسل بثوب ونحوه (٢٧٨٣).

المسجد وأناخ البعير خارج المسجد ثم انتهى إلى مقام وهو لاحق بالكعبة والدرع عليه والمغفر وعمامة بين كتفيه فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها، وقال لولا أن يغلب بنو عبد المطلب فنزعت منها دلواً فنزعه عباس ويقال الحارث بن عبد المطلب دلواً فشرب منه وتوضأ المسلمون يبتدرون بوضوئه يصبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويتعجبون ويقولون ما رأينا ملكاً قط أبلغ منه فلا سمعنا به أمر بهبل فسر وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ اجلس فجلست إلى جنب الكعبة فصعد رسول الله ﷺ ثم قال يا علي اصعد على منكبي ففعلت فلما نهض بي خيل إلي لو شئت نلت أفق السماء فصعدت فوق الكعبة فقال أنقض صنمهم الأكبر وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد إلى الأرض فقال عالجه ويقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً فرميت به، فأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتي بمفتاح الكعبة فقال عثمان هو عند أمي فأرسل إليها فقالت لا واللات والعزى لا أدفعه إليك أبداً فقال لها عثمان لا لات ولا عزى إن لم تفعلي قتلت أنا وأخي فأبطأ وعثمان ورسول الله ﷺ ينتظره فبعث أبا بكر وعمر فلما سمعت صوت أبي بكر وعمر قالت يا بني خذ المفتاح فإن تأخذ أنت أحب إلي من أن يأخذونه هم عدوي، فأخذه عثمان فجاء به رسول الله ﷺ فتناول رسول الله ﷺ منه المفتاح، ففتح الكعبة بيده وكان هو طلحة يقولون لا يفتح الكعبة إلا هم فأمر رسول الله ﷺ عمر بإزالة الصور عن البيت قبل دخوله فتجرد المسلمون في الأزر وأخذ الولاء وارتجزوا على زمزم ويغسلون الكعبة ظهرها وبطنها فلم يدعوا أثراً من المشركين إلا محوه وغسلوه فدخل رسول الله ﷺ الكعبة هو وأسامة بن زيد وطلحة وأغلقوا عليهم الباب فجعل رسول الله ﷺ عموداً عن يميه وعمودين عن يساره وثلاثة أعمدة نحو باب البيت ورائه بينه وبين الجدار ثلاثة أزرع وذراعين فصلى ركعتين، ثم خرج وصلى ركعتين قبل القبلة وقال: «هذه القبلة» ثم قام على باب البيت قال: «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا إن كل مأثرة ودم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين وأول دم أضعه دم ربيعة بن الرحاث إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا في قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية المغلظة مائة ناقة منها أربعون في بطونها أولادها ولا وصية لوارث وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر ولا يحل لامرأة أن تعطي من مال زوجها إلا بإذنه والمسلمون يد واحد على من سواهم ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملتين ولا جلب ولا جنب ولا يؤخذ صدقات المسلمين إلا في بيوتهم وأفنيتهم ولا تنكح امرأة على عمتها ولا على خالتها والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ولا تسافر امرأة

إلا مع ذي محرم ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح وأنهاكم عن صوم يومين يوم الفطر ويوم الأضحى وعن اللبستين لا يحتبى في ثوب واحد ولا يشتمل الصماء، يا معشر قريش إن الله قد ذهب عنكم الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس ابن آدم وآدم خلق من تراب، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ الآية يا أهل مكة ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خير أخ كريم وابن أخر كريم قال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء» فأعتقهم رسول الله ﷺ فخرجوا كما نشروا من القبور، وروى البخاري عن أبي هريرة إن عام الفتح قتلت خزاعة رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية فقام رسول الله ﷺ فقال: إن الله قد حبس عن مكة الفيل وسلط عليهم رسوله والمؤمنين إلا وأنها لم تحل لأحد قبلي ولا يحل لأحد بعدي وإنما حلت لي ساعة من نهار ألا وإنها ساعتي هذه حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرتها ولا يلتقط ساقطها إلا من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما يؤدي وإما يقاد فقال له رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاة اكتب لي يا رسول الله فقال: اكتبوا له، وقام رجل من قريش فقال يا رسول الله الآذخر قال ألا إلا ذخر وفي رواية قام رجل فقال: يا رسول الله إني قد عاهرت في الجاهلية، فقال ﷺ من عاهر بامرأة لا يملكها أو أمة قوم آخرين ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له ولا يرث ولا يورث ولاء خالكم إلا قد عرفتموها أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم» ونادى منادي رسول الله ﷺ بمكة من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يدع ما في بيته صنماً إلا كسره فلما حانت الظهر أمر بلالاً أن يؤذن بالظهر يومئذ فوق الكعبة يغبط بذلك المشركون وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فسر وجوههم وتعيبوا وأبو سفيان وخالد بن أسيد وحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة فقال خالد بن أسيد لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون يسمع هذا وقال الحارث أما والله لو أعلم، أنه محق لأتبعه وقال بعض بني سعيد بن العاص لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة وقال أبو سفيان لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا، فأتى جبرائيل بما قالوا فأخبرهم رسول الله ﷺ بما قالوا فقالوا: نشهد أنك رسول الله ﷺ فأسلم أهل مكة ورمى بعض امسلمين أبا قحافة فشجه فأخذت قلادة أسماء بنت أبي بكر فأدركه أبو بكر وهو يستدمي فمسح الدم على وجهه وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال هلا تركت الشيخ حتى آتيه فمسح صدره فأسلم وكان رأس أبي قحافة ولحيته كالثقامة فقال ﷺ: «غيروا هذا الشيء وجنبوه السواد» فجلس رسول الله ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه يأخذ عن الناس البيعة على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وحده وأن محمداً عبده

ورسوله فجاء الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم ولما فرغ عن بيعة الرجال بايع النساء قالت عائشة والله ما مست يد رسول الله ﷺ امرأة قط ما كان يبايعهن إلا كلاماً[١].

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا منه حتى يرى البيت فرفع يديه وجعل يحمد الله تعالى ويذكره ويدعو بما شاء الله أن يدعوه والأنصار تحته فقال بعهضم لبعض أما الرجل فأدكرته رغبة في قربته ورأفة في عشيرته فجاء الوحي فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله قال: قلتم كذا قالوا: نعم، قال: «فحاشا وكلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم المحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا للضنين بالله وبرسوله فقال رسول الله ﷺ: «فإن الله ورسوله بعد ردتكم بصدقاتكم» واستقرض رسول الله من ثلاثة نفر من قريش خمسين ألف درهم من صفوان بن أمية وأربعين ألف درهم من عبد الله بن ربيعة وأربعين ألف من حويطب بن عبد العزى فقسمها بين أهل الضعف من أصحابه فلما فتح الله هوازن ردها، وقال إنما جزاء السلف الحمد والأداء وقال رسول الله ﷺ: «لا تغزى مكة بعد اليوم»[٢] وقال: «لا هجرة بعد الفتح»[٣] وروى أبو يعلى وأبو نعيم عن ابن عباس قال: لما فتح مكة إن إبليس أن أنة فاجتمعت ذريته فقال أيئسوا أن ترد أمة محمد إلى الشرك وروى بن أبي شيبة عن مكحول لما دخل رسول الله ﷺ مكة تلقته الجن يرمونه بالشرر فقال جبرائيل عليه السلام: «تعوذ يا محمد بهؤلاء الكلمات أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما نزلا من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما بث في الأرض وما يخرج منها ومن شر الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارق يطرق بخير يا رحمن»، وروى البيهقي عن ابن أبي بزي قال: لما فتح مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهاً وتدعو بالويل فقيل يا رسول الله: «رأينا عجوزاً شمطاء حبشية تخمش وجهها وتدعو بالويل فقال تلك قائلة أيئست أن تعبد ببلدكم هذا أبداً ونزلت يوم الفتح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ الآية فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح وقال خذها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف،

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: كيفية بيته النساء (٤٣٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء قال النبي ﷺ يوم فتح مكة «إن هذه لا تغزى بعد اليوم» (١٦١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير (٦٣٠٧).

وروي أنه جاء جبرائيل فقال: ما دام هذا البيت أوليته من لبناته قائمة فإن المفتاح والسدانة في آل عثمان فكان المفتاح معه فلما مات دفعه إلى أخيه شيبة فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسع عشرة ليلة يقصر الصلاة»، رواه البخاري وفي رواية أبي داود سبع عشرة وعند الترمذي والبخاري ثمان عشر، وجه الجمع أنه تسع عشر مع يوم الدخول والخروج وسبع عشر بإسقاطهما وثمان عشر من حيث الساعات وما روي خمس عشرة فضعفها النووي في الخلاصة ولما فتح الله مكة قالت العرب بعضهم لبعض إذا ظفر محمد يا أهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين وهو قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ جملة يدخلون حال من مفعول رأيت أن كان بمعنى روية البصر وإلا فمفعوله الثاني ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال من فاعل يدخلون قال مقاتل وعكرمة أراد بالناس أهل اليمن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أمتكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً للإيمان والحكمة يمانية والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم»(١) متفق عليه وجواب إذا جاء قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي ملتبساً بحمد ربك يعني قل سبحان الله وبحمده، متعجباً حامداً لما تيسر الله لك ما لم يخطر ببال أحد أن يفتح عنوة وقد منعها الله من أصحاب الفيل عن أنس قال: «لما دخل رسول الله ﷺ مكة استشرفه الناس فوضع رأسه ﷺ على رحله متخشعاً» رواه الحاكم بسند جيد، وعن أبي هريرة نحوه بلفظ ليمس وسط رحلة ويقرب منها تواضعاً حتى رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، ثم قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة» رواه أبو يعلى ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تواضعاً وهضماً لنفسك واستغفاراً لعملك واستدراكاً لما فات منك الأفضل باختيار الفاضل شفقة على الأمة أو المعنى استغفر لأمتك قال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» وفي رواية «أكثر من سبعين مرة» وفي رواية «مائة مرة»(٢) رواه البخاري والنسائي وابن ماجه والطبراني وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وأنس وشداد بن أوس وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق وهذا من سنة الدعاء ولا بد لغير النبي ﷺ تقديم الصلاة على النبي ﷺ أيضاً على استغفار ﴿إِنَّهُۥ﴾ لم يزل ﴿كَانَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قدوم الأشعريين وأهل اليمن (٢٨٩٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه (٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٦٣٠٧).

﴿تَوَّابًا﴾ للمستغفرين منذ خلق المكلفين، روى الثعلبي أن رسول الله ﷺ لما قرأها بكى عباس فقال عليه السلام ما يبكيك؟ فقال نعيت نفسك إليك، فقال إنه لكما تقول. قال البيضاوي وجه الاستدلال بالسورة على نعي رسول الله ﷺ دلالتها على تمام الدعوة وكمال أمر الدين كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] الآية أو لأن الأمر بالاستغفار تنبيه له على دنو الأجل، وروى البخاري عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم لم يدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني فقال: ما تقول إذا جاء نصر الله والفتح حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وقال بعضهم لا ندري ولم يقل بعضهم شيئاً قال لي ابن عباس كذلك تقول قلت لا قال فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة فذاك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً قال عمر ما أعلم إلا مات[2]. أخرج أحمد عن ابن عباس قال لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال: رسول الله ﷺ نعت إلي نفسي أخرج الترمذي من حديث أنس «إذا جاء نصر الله والفتح ربع القرآن»[3] وروى البخاري عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر بتأول[4]، وروى مسلم عنها قالت: كان يكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه قال أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه رأيتها إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا[5]. قال الحسن أعلمه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة ليختم له بالزيادة في العمل الصالح، قال قتادة ومقاتل عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين، والله أعلم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٢٨٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في إذا زلزلت (٢٨٩٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود (٨١٧).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

سورة اللهب

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾

روى الشيخان في الصحيحين أنه لما نزلت قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ جمع رسول الله ﷺ أقاربه فأنذرهم وفي رواية عند البخاري وغيره صعد على الصفا فنادى فاجتمعت إليه قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو ومصبحكم أو ممسيكم أما كنتم مصدقي؟ قالوا: بلى قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تباً لك ألهذا جمعتنا وأخذ حجراً ليرميه فنزلت: ﴿تَبَّتْ﴾[1] التبا بخسران يؤدي إلى الهلاك أي هلكت ﴿يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أي نفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[2] وقيل إنما خصتا بالذكر لما أخذ حجر الرمي وقيل أراد بها دنياه وآخرته، وقيل: أراد ماله وملكه يقال فلان قليل ذات يد. قرأ ابن كثير أبي لهب بإسكان الهاء والباقون بفتحها واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، قال مقاتل كنى باللهب لحسنه وإشراق وجهه وإنما ذكر ها هنا بالكنية لاستكراه ذكر اسمه ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله ومجانسة قوله ذات لهب ﴿وَتَبَّ﴾ إخبار بعد إخبار للتأكيد أو الأولى دعائية والثاني إخبارية والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه، قال ابن مسعود لما دعا رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله عز وجل قال أبو لهب إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإنني أفتدي نفسي بمالي وولدي فأنزل الله تعالى ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ ما نافية أو استفهامية للإنكار يعني ما يدفع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المسد (٤٩٧٢).

وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ (٢٠٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

عنه عذاب ما جمع من المال أو أي شيء يغني عنه ماله وكان صاحب ما ومواش ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ من المال والولد عن عائشة مرفوعاً «أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم كسبكم»[١] رواه البخاري في التاريخ والترمذي، وقد افترس ولده عتبة أسد في طريق الشام كما ذكرنا في سورة عبس ومات أبو لهب بالعدس بعد وقعة بدر بأيام معدودة وترك ثلاثاً حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودا حتى دفنوه أوعده الله تعالى بالنار فقال ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③﴾ أي تلتهب جملة مستأنفة أو في مقام التعليل لقوله ما أغنى اتفق القراءة على فتحة هاء لهب ها هنا لرعاية القوافي ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ عطف على المستكن في سيصلي سوغه الفصل أو مبتدأه بعده خبره وهي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ قرأ عاصم بالنصب على الذم والشتم والباقون بالرفع على أنه خير مبتدأ، أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق عن رجل من همدان يقال له يزيد أن امرأة أبي لهب كانت تلقى في طريق النبي ﷺ الشوك والعضاة لتعقرهم فنزلت وكذا روي عن الضحاك، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثله وهي رواية عطية عن ابن عباس وقال قتادة ومجاهد والسدي كانت تمشي بالنميمة وتنقل الحديث فتلقي العداوة بين الناس وتوقد ناراً كما توقد الحطب ناراً وقال سعيد بن جبير حماله الخطايا قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾[٢] ﴿فِي جِيدِهَا﴾ عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ خبر لامرأته بعد خبر على تقدير كونه مبتدأ أو حال منه على تقدير كونه فاعلاً سيصلى، قال ابن عباس وعروة بن الزبير المراد به سلسلة قتلت من حديد قتلاً محكماً ذرعها سبعون ذراعاً يدخل في فمها ويخرج من دبرها ويكون سائرها في عنقها والمسد ما قتل وأحكم من أي شيء كان وروى الأعمش عن مجاهد من مسد أي من حديد، وقال الشعبي ومقاتل من ليف مقتول وذلك الليف هو الحبل الذي كانت تحتطب به فبينما هي ذات يوم حاملة حزمة فأعيت فقعدت على حجر تستريح فأتاها ملك فجذبها من خلفها فأهلكها، وقال ابن زيد حبل من شجر ينبت باليمن يقال له مسد وقال قتادة هي قلادة قال الحسن كانت خوزات في عنقها، وقال سعيد بن المسيب كانت لها قلادة في عنقها فاخرة فقالت لا نفقها في عداوة محمد ﷺ، قلت: فإن كان المراد بثبوت حبل كائناً من مسد أي حديد في جيدها في الآخرة فهي إما خبر لامرأته بعد خبر إن كان مبتدأ أو حال منه إن كان فاعلاً سيصلي وحمالة الحطب على تقدير النصب يكون معترضة للذم ولا يجوز أن يكون في جيدها حبل من مسد حالاً من

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأحكام، باب: ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده (١٣٥٦).
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

الضمير المستكن في حمالة الحطب لعدم اتحاد زمان الحال حينئذ لأن حمل الحطب كان في الدنيا إلا أن يقال معنى حمالة الحطب أنها تحمل حطب جهنم كالزقوم والضريع أو ما يوقد به جهنم جزاء لما كانت تحمل الحطب في الدنيا بعداوة النبي ﷺ وأصحابه كذا ذكر البيضاوي، لكن لم ينقل هذا التأويل من السلف وأن المراد به ثبوت حبل في عنقها في الدنيا فحينئذ إما خبر مبتدأ محذوف أي هي أو خبر بعد خبر لا مرأته أو حال من الضمير المستكن في حمالة الحطب بلا إشكال والظاهر على هذا التأويل أن يكون في الكلام على الحقيقة وما قال الشعبي فهو مستبعد جداً لكونها وزوجها في بيت عز وثروة وجدة، والله تعالى أعلم. . .

سورة الإخلاص

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

أخرج الترمذي والحاكم وابن خزيمة من طريق أبي العالية، عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى آخر السورة[1]، وأخرج الطبراني وابن جير مثله من حديث جابر بن عبد الله فبناء على هذين الروايتين قيل السورة مكية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف وحييء بن أخطب فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى آخرها، وأخرج ابن جرير عن قتادة وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله، وذكر البغوي قول الضحاك وقتادة ومقاتل جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فإن الله أنزل نعتهفي التوراة فأخبرنا من أي شيء هو وهل يأكل ويشرب ممن ورث ومن يرثه فأنزل الله هذه السورة، وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة من طريق أبان عن أنس قال أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون وإبليس من لهب النار والسماء من دخان والأرض من زبد الماء فأخبرنا عن ربك فلم يجبهم، فأتاه جبرائيل بهذه السورة وبناء على هذا الروايات قيل السورة مدنية، وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال قادة الأحزاب أنسب لنا ربك فأتاه جبرائيل بهذه السورة وعلى هذا الرواية يرتفع التعارض ويظهر أن السورة مدنية والماد بالمشركين من حديث أبي بن كعب هم قادة الأحزاب ولعل اليهود وقادة الأحزاب من المشركين كلا الفريقين

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الإخلاص (٣٣٦٤).

سألوا عن الله تعالى حين نزلت السورة، وذكر البغوي عن أبي الظبيان وأبي صالح عن ابن عباس أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر إلى ما تدعونا يا محمد قال إلى الله قال صفه لنا أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة فأهلك الله إربد بالصاعقة وعامراً بالطاعون قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ الضمير إما للشأن والجملة الواقعة بعدها خبر له ولا حاجة إلى العائد لأنه هي هو وأما عائد إلى ما سأل عنه يعني الذي سألتموني هو ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر لهو ﴿أَحَدٌ﴾ بدل من الله أو خبر ثان لهو أصله وحد بمعنى واحد أبدلت الواو همزة وفي قراءة ابن مسعود قل هو الله لواحد وكذا قرأ عمرو بن الخطاب وعلى تقدير كون الضمير للشأن، وكون الله أحد مبتدأ وخبر فالكلام ليس على ظاهره لأن الله علم للجزء الحقيق لا يكون إلا واحداً يمتنع فرض صدقه على كثيرين كزيد فيلزم الاستدراك ولا يفيد الكلام فالواجب أن يراد بلفظ الله معنى كلياً يعني مستحقاً للعبادة لكل من سواه وذلك الاستحقاق لا يتصور إلا بإفاضة الوجود وتوابعه على ما عداه وذلك الإفاضة لا يتصور إلا من الذات الواجب وجوده وصفات كما له الممتنع عليه صفات النقص والزوال المباين للمكنات في حقيقة ذاته وصفاته لأن اقتضاء وجود غيره فرع اقتضاء وجوده في نفسه وما لا يقتضي وجوده في نفسه كيف يقتضي وجود غيره سواء كان ذلك الغير جوهراً أو عرضاً أو فعلاً من أفعال العباد وذلك معنى الوجوب والنقص والزوال ومشابهة الممكنات ينافي الوجود واستحقاق العابدة، فمعنى الجملة المستحق للعبادة على الإطلاق الواجب لذاته وجوده وصفاته الكاملة الممتنع عليه صفات النقص والزوال واحد لا شريك له وحينئذ أفاد الكلام فائدة تامة غير أنه على هذا التأويل لا يطابق الجواب السؤال لأنهم لم يسألوا النبي ﷺ عن كونه تعالى واحداً أو متكثراً فإن النبي ﷺ كان يدعوهم بأعلى صوته إلى التوحيد وقول لا إله إلا الله بل سألوه، عن حقيقة الذاتية وقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك أمن الذهب هو أم من فضة أو نحو ذلك، وكذا إن كان الضمير عائداً إلى المسؤول عنه لا جائز أن يقال معنى الجملة أنه واحد غير متكثر فإنه لا يطابق السؤال فالواجب على كلا التأويلين أن يكون المراد بأحد ما يكون منزهاً عن أنحاء التركيب والتعد وما يستلزم أحدهما من الجسمية والتمحيز والمشاركة لشيء من الأشياء في الحقيقة والمشابهة لشيء من الأشياء في صفة من صفات الكمال وإذا لم يشابهه أحد في الذات ولا في صفة من الصفات لا يكون له ند ولا ضد ولا مثل ومن ها هنا قالت الصوفية العلية أحديته تعالى وعدم مشابهة أحد له تعالى في صفة من الصفات يقتضي أن لا يشاركه أحد في الوجود فإنه أصل

الصفات والحياة التي هي أم الصفات وأمامها من العلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والتكوين فرع للوجود بالمعنى المصدري فهو أمر انتزاعي مترتب عليه، ومن ثم قالوا: يعني لا إله إلا الله موجود إلا الله فالموجود الحقيق في الخارج لي إلا الله تعالى وما عداه من الممكنات الموجودة متصفة بوجوده كالظل لوجوده في الخارج أو هو كالظل للخارج الحقيقي وكذا الحال في العلم والقدرة وسائر الصفات، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾[1] يعني الثابت المتحقق المتأصل في وجوده وصفاته وأن ما يدعون من دونه هو الباطل يعني اللا شيء في نفسه وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[2] فصفات الممكنات إنما يشارك صفات الواجب تعالى اشتراكاً اسمياً لا اشتراكاً حقيقياً ومن لا يفهم كلام الصوفية فعليه التشبث بأذيالهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[3] ففي جملة واحدة تم الإشارة إلى مباحث الذات والصفات كلها في كلمة قل إشارة إلى النبوة والتبليغ وإعجاز الآية شاهد على النبوة فكفى بقل هو الله أحد عن المجلدات وإن بقي الكلام في مثل أن صفاته تعالى عين ذاته أو زائدة عليها فلا محذور فيه ولا يتعلق به غرض بل البحث عن مثل هذه الأبحاث الفلسفة يقضي إلى المهلكة، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[4] فإذا لم يؤت البشر العلم بحقيقة الروح وهو من الخلائق فأني له العلم بذات الخالق وصفاته إلا أعجز عن درك إدراكه... والبحث عنه إشراك والسبيل إليه المعية الحبيبة لا غير، عن أبي هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن متنازع في القدر فغضب حتى أحمر وجهه حتى كأنما فقيء في وجنتيه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم أبهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبلم حين تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[5] رواه الترمذي وروى ابن ماجه نحوه، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ قال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير الصمد الذي لا خوف له كذا أخرج ابن جرير عن بريدة ألا أعلمه إلا قد رفعه، قلت لعله مجاز مما لا ينفذ إليه العقول والأوهام ولا يدركه الإفهام

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣ ـ ٥٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء في التشديد في الخوض في القدر (٢١٣٣).

وقال الشعبي الذي لا يأكل ولا يشرب وقيل تفسيره وما بعده ولذا روى أبو العالية عن أبي بن كعب وقال أبو الوائل شقيق بن سلمة هو السيد الذي قد انتهى سؤدده وهي رواية عن أبي طلحة عن ابن عباس يعني الذي قد كمل في جميع أنواع السؤدد وعن سعيد بن جبير هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وقيل هو السيد المقصود في الحوائج، قال السدي هو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب يقال صمدته إذا قصدته، قال قتادة الصمد الباقي بعد فناء خلقه وقال عكرمة الصمد الذي ليس فوقه أحد وهو قول علي رضي الله عنه وقال الربيع الصمد الذي لا يعتريه الآفات، قال مقاتل بن حبان الذي لا عيب فيه، قلت: وعندي معناه الحقيقي المقصود قال في القاموس الصمد القصد بالتحريك السيد لأنه يقصد وإدخال اللام عليه لإفادة كونه في أجل درجات الصمدية وأعلاها وأكملها فإن الناس قد يقصدون غير اللهسبحانه من الدنيا ومافيها لفساد رأيهم وعدم اهتدائهم إلى مرتبة حق اليقين فكل ما ذكر في أقوال السلف من المعاني فهي تعبيرات عن لوازمه لأن المقصود على الإطلاق من يحتاج كل ما عداه إليه ولا يحتاج هو إلى غيره في شيء من الأشياء فيكون البتة جامعاً لجميع الكمالات وأنواع السؤدد ومنزهاً عن العيوب وأن تعتريه الآفات غير محتاج إلى الأكل والشرب قديماً بما لم يولد غير مجانس لأحد حتى يلد مثله لا يكون فوقه بل ليس مثله أحد فيكون البتة بحيث لا ينفذ إليه فهم وإدراك ولما كانت الجملة السابقة تغنيه عن هذه الجملة وعن الجمل الثلاث اللاحقة، وهذه الجملة وما بعدها كالتأكيد للأولى أوردت لزيادة الاهتمام من قبيل إيراد الخاص بعد العام للمبالغة في التنزيه والتصريح بالرد على المخاطبين المنكرين المشركين في القصد والعبادة غيره تعالى القائلين باتخاذ الله تعالى البنات والبنين بغيرهم لم يذكر العاطفعلى هذه الجملة ولا على ما بعدها وكرر اسم الله تعالى للإشعار بأن لم يتصف به لم يستحق الألوهية وأن المقصديجب كأن لا يكون غيره تعالى، ومن ثم قالت الصوفية معنى لا إله إلا الله لا مقصود إلا الله وقالوا ما هو مقصد لك فهو معبود لك فإن المرء لا يزال يلقي نفسه في كمال التذلل التحصيل مقصوده والعبادة عبارة عن كمال التذلل فالصوفية العلية يذكرون النفي والإثبات مع ملاحظة نفي مقصودية ما عدا الله ويجتهدون فيه غاية الاجتهاد حتى يزول عن صدورهم كون غيره تعالى مقصود بوجه من الوجوه والله المسير لكل عسير ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما زعمت المشركون أن الملائكة بنات الله واليهود بأن عزير ابن الله والنصارى بأن المسيح ابن الله لاستحالة المجانسة وعدم الاقتضاء إلى من يعينه أو يخلف عنه لاستحالة الاحتياج والفناء عليه تعالى، أورد بلفظ الماضي وإن كان عدم توالده أبداً رداً

على ما قالوا ولمطابقة قوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن الحديث ينافي الألوهية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ أي مكافياً ومماثلاً، قرأ حفص كفوا بضم الفاء وفتح الواو وحمزة بإسكان الفاء مع الهمزة في الوصل فإذا وقف إبدال الهمزة واواً مفتوحة اتباعاً للخط والقياس أن يلقى حركتها على الفاء والباقون بضم الفاء مع الهمزة أحد اسم يكن وكفوا خبره والظرف متعلق بكفوا قدم الخبرعلى الاسم والظرف التعلق بالخبر عليه للاهتمام لأن المقصد تنزيه الله تعالى ونفي المكافاة عنه تعالى الدعاية الفواصل ويجوز أن يكون الظرف حالاً من المستكن في كفوا وأن يكون خبراً أو كفواً حال من أحد أورد الجمل الثلاث منتسقات بالعطف لأن المقصد منها نفي أقسام الأمثال وتنزيهه عن كل ما يتصف به فهي كجملة واحدة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي يقول لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»[١].

فصل: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»[٢] رواه مسلم، ورواه البخاري عن أبي سعيد ومثله في حديث ابن عباس وأنس وذكرناه في تفسير سورة الزلزال، وعن عائشة أن النبي ﷺ: «بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلواتهم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال سلوه لأي شيء تصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأها فقال النبي ﷺ أخبروه أن الله يحبه»[٣] متفق عليه، وعن أنس قال رجل يا رسول الله إني أحب هذه السورة قل هو الله أحد قال: «إن حبك إياها أدخلك الجنة»[٤] رواه الترمذي وروى البخاري معناه، وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ (٤٩٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة قل هو الله أحد (٨١١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة قل هو الله أحد (٨١٣).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (٢٨٩٦).

وجبت قلت: ما وجبت؟ قال: «الجنة»[١] رواه مالك والترمذي والنسائي، وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ مائة مرة قل هو الله أحد إذا كان يوم القيامة يقول له الرب يا عبدي ادخل على يمينك الجنة»، رواه الترمذي، وقال: حسن غريب، وعنه عن النبي ﷺ قال: «من قرأ كل يوم مائة مرة قل هو الله أحد محي عنه ذنوب خمسين إلا أن يكون عليه دين» رواه الترمذي والدارمي، وفي رواية خمسين مرة ولم يذكر إلا أن يكون عليه دين وعن سعيد بن المسيب مرسلاً عن النبي ﷺ قال: «من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بني له قصر في الجنة ومن قرأ عشرين مرة بني له قصران في الجنة ومن قرأها ثلاثين مرة بني له بها ثلاثة قصور في الجنة» فقال عمر بن الخطاب والله يا رسول الله إذا لتكثرن قصورنا فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك» والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (٢٨٩٧)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: الفضل في قراءة قل هو الله أحد (٩٨٨).

سورة الفلق

مدنية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

أخرج البيهقي في دلائل النبوة من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: مرض رسول الله ﷺ مرضاً شديداً فأتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه ما ترى؟ قال: طب قال: ما طبه؟ قال: سحر قال: من سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي قال: أين هو؟ قال: في شراك فلان تحت صخرة في ركية فأتوا الركية فانزحوا وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكدية وأحرقها، فلما أصبح رسول الله ﷺ بعث عمار بن ياسر في نفر فأتوا الركية فإذا ماءها مثل ماء الحناء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الكدية وأحرقوها فإذا فيها وتد فيه أحد عشرة عقدة وأنزلت عليه هاتان السورتان فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة قل أعوذ برب الفلق قل أعوذ برب الناس. وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق أبي جعفر الرازي عن أنس قال صنعت اليهود لرسول الله ﷺ شيئاً فأصابه من ذلك وجع شديد فدخل عليه أصحابه فظنوا أنه ألما به فأتاه جبرائيل بالمعوذتين فعوذ بهما فخرج إلى الصحابة صحيحاً وله شاهد في الصحيحين بدون نزول السورة، وذكر البغوي قول ابن عباس وعائشة كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذوا مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان مشطة فأعطاها اليهود فسحروا فيها وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت السورتان، وروى البغوي بسنده عن عائشة أن النبي ﷺ طب حتى أنه ليخيل أنه قد صنع شيئاً وما صنعه وأنه دعا ربه، ثم قال: إن الله أفتاني فيما استفتيته فيه فقالت عائشة وما ذاك يا رسول الله قال جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وقع؟ فقال أحدهمالصاحبه ما وجع الرجل؟ قال الآخر

مطبوب قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم قال: فيما ذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر قال فأين هو؟ قال: في ذروان بير بني زريق قالت عائشة فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة فقال واا لكان ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين فقلت: يا رسول الله فلا أخرجته قال: أما أنا قد شفاني الله كرهت أن أثير على الناس شراً قال البغوي وروي أنه كان تحت صخرة في البير فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان مشطة، وروى البغوي بسنده عن يزيد بن أرقم قال سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك إياها قال فأتاه جبرائيل فقال: «إن رجلاً من اليهود سحرك فعقد لك عقداً فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها كلما حل عقد وجد لذلك خفة فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط عن عقال فما ذكر ذلك اليهودي ولأراه في وجهه، وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عائشة أن يهودياً سحر النبي ﷺ في أحد عشر عقدة في وتر دسه في بير فمرض النبي ﷺ ونزلت معوذتان وأخبره جبرائيل بموضع السحر فأسل علياً فجاء به فقرأهما عليه فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد بعض الخفة وروي أنه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاث ليال ونزلت المعوذتين، وروى مسلم عن أبي سعيد أن جبرائيل أتى النبي ﷺ فقال يا محمد اشتكيت فقال نعم قال بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أرقيك[1] قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ أي فلق الصبح وهو قول جابر الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة من قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾[2] وقيل: فالق الحب والنوى بالشطا والسحاب بالماء والأرض بالعيون والأرحام بالأولاد، وقال الضحاك يعني الفلق وهي رواية الوالبي عن ابن عباس والمشهور هو الأول وقال أكثر المفسرين وهي رواية عن ابن عباس أنه سجن في جهنم رواه ابن جرير وقال الكلبي واد في جهنم وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفلق جب في جهنم مغطى» وأخرج ابن جرير والبيهقي عند عبد الجبار الخولاني قال قدم علينا رجل من أصحاب رسول الله ﷺ في دمشق فرأى ما فيه الناس من الدنيا قال وما يغنى عنهم أليس ورائهم الفلق قالوا: وما الفلق؟ قال: جب في النار إذا فتح هرب منه أهل النار، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا وأيضاً عن عمرو بن عتبة قال: الفلق بير في جهنم إذا سعرت جهنم فمنه تسعر جهنم لتتأذى منه كما يتأذى بنو آدم من جهنم عليها الغطاء فإذا اكشفت عنه خرجت منه نار

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرقى (٢١٨٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

تصيح منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه، وأخرج ابن أبي حاتم وابن جير عن كعب قال الفلق بيت في جهنم إذا فتح صاح أهل النار من شدة حره، وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن علي عن آبائه الكرام الفلق جب في قعر جهنم، وإنما خص ذكر الله سبحانه في الاستعاذة بهذه الصفة لأن جهنم والفلق الذي هو أشد من أجزائه لما كان أدهى الأداهي وأعظم الأشياء شر مخالقة وربه أقدر على دفع كل شر وإن كان المراد بالفلق الصبح فالصبح واقع ومظهر الشرور غسق الليل فربه قادر على دفع كل شر فذكره تعالى بهذه الصفة داع إلى دفع الشرور والله أعلم ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي من شرك كل مخلوق فإن الممكن لا يخلو من شر لأن العدم داخل في ماهيته غير أنه كلما استضاء بالتجليات الذاتية والصفاتية زال شره وتبدل بالخير أولئك يبدل الله سيآتهم حسنات، وقال ﷺ: «أسلم شيطاني فلا يأمرني إلا بخير»[(١)] قال البيضاوي خص عالم الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشر فيه فإن عالم الأمر خير كله وشر عالم الخلق إما اختياري لازم كالكفر متعد كالظلم وإما طبيعي كإحراق النار وإهلاك السموم ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ الغسق معناه الامتلاء قال الله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾[(٢)] أي امتلاؤها ظلمة ويقال غسق العين إذا متلئت دمعاً وغسق القمر إذا امتلأ نوراً، وفي القاموس الغاسق القمر والليل إذا غاب الشفق والفسوق والإغساق الإظلام، وقيل: معناه السيلان غسق الليل الضباب ظلامه وغسق العين سيلان دمعه وغسق القمر سرعة سيره وقيل الغسق البرد سمي الليل غاسقاً لأنها أبرد من النهار والقمر غاسقاً لكونه أبرد من الشمس ولهذا يقال للقمر الزمهير، والمراد بالغاسق ها هنا القمر لحديث عائشة قالت أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر غاسق إذا وقب[(٣)]، رواه البغوي بسنده فعلى هذا التقدير معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ إذا دخل في الخسوف وأخذ في الغيبوبة فإن القمر لا يتخسف إلا عند امتلاء نور الليلة البدر، قال ابن عباس والحسن ومجاهد المراد به الليل إذا أقبل ودخل سواده في ضوء النهار، وقال ابن زيد المراد به الثريا إذا أسقطت يقال الانتظام تكثر عند وقوعها وترفع عند طلوعها ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤﴾ يعني النفوس السواحر والنساء الساحرات اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين ويسحرن

---

(١) روى بمعناه البزار وفيه من ضعف.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: عصمته ﷺ من القرين (١٣٨٥٨).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المعوذتين (٣٣٦٦).

النبي ﷺ، قال أبو عبيد بناته بأمره ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ أي إذا أظهر حسده وعمل في الإضرار بمقتضى حسده وإنما قيد به لأن ضرر الحسد قبل ذلك يعود إلى نفس الحاسد لاغتمامه لسرور غيره ولا يتجاوز إلى المحسود إنما خص هذه الأشياء بالذكر بعد التعميم بقوله من شر ما خلق لكون دخل هذه الأشياء الثلاثة في هذا الشر المخصوص أعين سحر النبي ﷺ ووسوسة شيطان الجن أعني إبليس وشيطان الإنس أعني إبليس وشيطان الإنس أعني لبيد بن الأعصم، أورد النفاثات بصيغة الجمع ولام العهد بخلاف غاسق وحاسد حيث أوردهما منكراً إذا الغرض في الاستعاذة ملاحظة بنات لبيد بالتخصيص والتعين بخلاف غاسق وحاسد فإن الغرض هناك استعاذة من شر أي غاسق وحاسد كان لأن حساد النبي ﷺ كانوا أكثر من أن يحصى وكانوا دائمين في السحد فاستعاذ منهم على وجه يامن من شرهم في المستقبل أيضاً، عن عقبة بن عامر قال قلت يا رسول الله اقرأ سورة هود وسورة يوسف قال: «لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من قل أعوذ برب الفلق» رواه أحمد والنسائي والدارمي والله تعالى أعلم.

سورة الناس

مدنية وهي ست آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ خالقهم ومربيهم ومصلح أمورهم ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ مالكهم ومدبر أمورهم ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ معبودهم هما عطف بيان لرب الناس فإن المربي قد يطلق على الوالد ورب الدار ويطلق على المالك وهو لا يكون ملكاً ولا معبوداً والملك قد يطلق على السلطان وهو لا يكون معبوداً مستحقاً للعبادة، واللام في الناس للعهد والمراد به النبي ﷺ وأتباعه وتخصيصهم بالذكر مع كونه تعالى رباً وملكاً وإلهاً بكل شيء لإظهار شرفهم ولأن المقصود بإنزال السورتين دفع شر السحر وغيره، عن النبي ﷺ وعن اتباعه لأن من حق الرب والملك والإله حفظ المربوب والمملوك والعائد عن الشر قال غوث الثقلين:

أيـدركـنـي ضـيـم وأنـت ظـهـري ... أأظـلـم فـي الـدنـيـا وأنـت نـصـري

فـعـار عـلـى حـامـي الـحـمـى وهـو قـادر ... إذا ضـاع فـي الـبـيـداء عـقـال بـعـيـري

والكفار وإن كانوا مربوبين مملوكين لكن لعدم اعترافهم به غير مستحقين للحماية ولذا قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب الله مولانا ولا مولى لكم وتكرير الناس بالإظهار من غير إضمار لأن عطف البيان موضوع للبيان وفي الإظهار زيادة البيان وللإشعار بشرف النبي ﷺ وأتباعه، وقال البيضاوي ولما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضار البدنية هي تعم الإنسان وغيره والاستعاذة في هذه السورة من الإضرار التي تعرض النفوس البشرية وتخصها عمم الإضافة ثمة وخصصها بالناس ها هنا فكأنه قال أعوذ من شر

الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك أمورهم ويستحق عبادتهم، وقيل وجه التكرير لفظ الناس أن المراد بالناس الأول الأطفال ومعنى الربوبية يدل عليه وبالثاني الشاب المجاهدين في سبيل الله ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدل عليه وبالثالث الشيوخ المنقطعين إلى الله تعالى ولفظ الإله المنبىء عن العبادة يدل عليه وبالرابع الصالحون إذ الشيطان حريص على عداوتهم وبالخامس المفسدون لعطفه على معوذ منه وفي ذكر أطفال المؤمنين والرجال الصالحين استجلاب للرحمة واستدفاع للعذاب، قال رسول الله ﷺ: «لولا رجال ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لَصُبّ عليكم العذاب صَبّا» رواه أبو يعطى والبزار والبيهقي من حديث أبي هريرة وله شاهد مرسل أخرجه أبو نعيم عن الزهري، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾[1] الآية، قال البيضاوي في هذا النظم دلالة على أنه تعالى حقيق بالإعادة قادر عليها غيرممنوع عنها وإشعار على مراتب الناظر في العارف فإنه يعلم أو لاً بما يرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أن له رباً ثم بعد النظر يتحقق أنه غني عن الكل ذوات كل شيء ملكه ومصارف أمورهم منه فهو الملك الحق ثم يستدل على أنه هو المستحق للعبادة ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الوسواس اسم بمعنى الوسوسة وهو الصوت الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع كالزلزال والمراد ها هنا الموسوس يعني الشيطان على طريقة المبالغة أو بتقدير المضاف أي ذي الوسواس كذا قال الزجاج ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ صفة للوسواس يعني الشيطان لأن عادته أن يخنس أي تأخر عند ذكر الله تعالى، عن عبد الله بن شقيق قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من آدمي إلا بقلبه بيتان في أحدهما الملك وفي الآخر الشيطان فإذا ذكر الله خنس وإذا لم يذكر الله وضع الشيطان منقاره في قلبه ووسوس له» رواه أبو يعلى وروى أبو يعلى عن أنس عنه ﷺ نحوه ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ إذا لم يذكر الله والموصول في محل الجر عل أنه صفة بعد صفة للوسواس وجاز أن يكون منصوباً على الذم أو مرفوعاً على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ بيان للوسواس أو الذي فالوسوسة فعل من الجنة والناس جميعاً قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[2] الآية أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يستعيذ من شر الجن والإنس جميعاً. فإن قيل: الناس لا يوسوسون في صدور الناس إنما هي فعل الجن؟ قلنا: الناس أيضاً يوسوسون بمعنى يليق بهم يقولون أقوالاً يرتكز في صدور الناس منها الوسوسة أو

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

هو متعلق بيوسوس أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة والناس، قال الكلبي هو بيان للناس من قوله في صدور الناس وأراد بالناس هناك ما يعم القبيلتين الجن ناساً كما سموا رجالاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾(١) قال البغوي فقد ذكر من بعض العرب أنه قال وهو يحدث جاء قوم من الجن فوقفوا فقيل من أنتم قالوا أناس من الجن وهذا معنى قول الفراء، وجاز أن يكون من الجنة بياناً للوسواس ويكون الناس ها هنا معطوفاً على الوسواس والمعنى أعوذ برب الناس من شر الشيطان الموسوس من الجنة ومن شر الناس، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس»(٢) رواه مسلم ورواه أحمد بلفظ قال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك سوراً ما أنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في القرآن بمثلها؟ قلت: بلى قال: قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس» وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات(٣) متفق عليه، وعن عقبة بن عامر بينا أنا أسير مع رسول الله ﷺ بين الجحفة والأبواء إذا غشينا ريح وظلمة شديدة فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ بأعوذ برب الفلق وأعوذ برب الناس ويقول يا عقبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما»(٤) رواه أبو داود، وعن عبد الله بن حبيب قال: خرجنا في ليلة مطيرة وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ ما دركناه فقال: قل قلت ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين حين تصبح وحين تمسي ثلاث مرات يكفيك من كل شيء»(٥) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي، وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وامسح عنه بيده رجاء بركتها رواه البغوي.

---

(١) سورة الجن، الآية: ٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة المعوذتين (٨١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل المعوذات (٥٠١٦).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: في المعوذتين (١٤٦٢).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: أحاديث شتى من أبواب الدعوات، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٤).

فصل في فضائل القرآن العظيم

عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[١] رواه البخاري ومسلم وزاد البيهقي في الأسماء «وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله القرآن يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»[٢] متفق عليه، وعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ثلاث تحت العرش يوم القيامة القرآن يحاج العباد له ظهر وبطن والأمانة والرحم ينادي إلا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله» رواه البغوي في شرح السنة، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر الآية تقرأها»[٣] رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يقول الرب تبارك وتعالى: «من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه»[٤] رواه الترمذي والدارمي والبيهقي، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[٥] رواه الترمذي والدارمي وقال الترمذي حسن صحيح غريب إسناد، وعن الحارث الأعور قال: مررت بالمسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي ﷺ فأخبرته قال أو قد فعلوها قلت نعم قال وإما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول ألا إنها ستكون فتنة قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيب في القراءة (١٤٦٣).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٣٠٠٣).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في من قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر (٢٩١٠).

غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا يزيغ الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا ينقضي عجائبه هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم» رواه الترمذي والدارمي، وعن معاذ الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن وعمل به بما فيه ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنكم بالذي عمل بهذا»[١] رواه أحمد وأبو داود، وعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو جعل القرآن في أهاب ثم ألقي في النار ما احترق» رواه الدارمي وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره وأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشعفه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار»[٢] رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والدارمي، وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من التسبيح والتكبير والتسبيح أفضل من الصدقة والصدقة أفضل من الصوم والصوم جنة من النار» وعن أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «قراءة الرجل القرآن في غير المصحف ألف درجة وقراءته في المصحف المضعف ذلك ألفي درجة» وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء قيل: يا رسول الله ما جلاء ذلك؟ قال كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن» روى الأحاديث الثلاثة البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»[٣] متفق عليه، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء يعني الصوت بالقرآن، يجهر به» متفق عليه، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٤] رواه البخاري، وعن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والعجمي فقال: «اقرؤا فكل حسن

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (١٤٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل قارئ القرآن (٢٩٠٤)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل من تعلم القرآن وعلمه (٢١٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن (٥٠٢٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ (٧٥٢٧).

وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه رواه أبو داود والبيهقي يعني يتعجلون» ثوابه في الدنيا، وعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابيين وسيجيء بعدي قوم يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح لا يتجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» رواه البيهقي وابن رزين وعن عبيدة المليكي ﷺ وكانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن لا تتوسدوا القرآن واتلوه حق تلاوته من آناء الليل والنهار وأفشوه وتغنوه وتدبروا ما فيه لعلكم تفلحون ولا تعجلوا ثوابه فإن له ثواباً» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «خير الدواء القرآن»(١) رواه ابن ماجه وفي اللفظ «القرآن هو الدواء» وروي عن ابن مسعود «عليكم بالشفائين العسل والقرآن» وعن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رجلاً شكى النبي ﷺ وجع حلقه قال عليك بقراءة القرآن» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال إني أشتكي صدري قال: اقرأ القرآن بقول الله تعالى (شفاء لما في الصدور)، وعن طلحة بن مطرف ﷺ قال كان يقال: إذ اقرأ القرآن عند المريض وجد لذلك خفة رواه أبو عبيدة والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: الاستشفاء بالقرآن (٣٥٠١)، وإسناده ضعيف لأن في إسناده الحارث الأعور.

المحتويات

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي